تيسير التفسير

لقطب الأئمّة

الشيخ الحاج محمد بن يوسف اطفيّش

(ت: ١٣٣٢هـ/١٩١٤م)

(الجزء الأول)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م

وضع التراجم وتخريج الأحاديث

الأستاذان: كروم أحمد وبازين عمر

الفهرسة ومتابعة الطبع

الأستاذان: مصطفى الشريفي ومحمد بباعمي



﴿ قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ ليثبت الذين ءامنوا وهدًى وبشرى للمسلمين ﴾ .

(سورة النحل ءاية 102)

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله حقّ حمده، الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده.

اللهمَّ ألهمنا الرشد، وثبِّت قلوبنا على الإيمان بك والتصديق بكتابك، واجعلنا اللهمَّ من الموفين بعهدك المراعين لحقِّك، الشاكرين لنعمك، العاملين في سبيل مرضاتك، المتَّبعين لهدى سيِّدنا محمَّد النبيء الأمِّي، الفاتح لـمَا أُغلق، الخاتم لـمَا سبق، الذي لا نبيء من بعده.

اللهمَّ صلِّ عليه وعلى آله وصحابته الأبرار، وعلى التابعين لهم بالإحسان **﴿فالذين آمنوا به، وعزَّروه ونصروه، واتَّبعوا النور الذي أُنزل معه، أولئك هم المفلحون﴾** (سورة الأعراف:١٥٧).

وبعد، فإنّه لم يحظ كتاب من الكتب السماويَّة أو غيرها بمثل ما حظي به القرآن الكريم، ولم تهتم أمَّة من الأمم بدستورها وما يجسِّم معتقداتها من المبادئ والـمُثل التي تعلقت بها مثل ما اهتمَّ المسلمون بكتاب الله العزيز الذي نزل على سيِّدنا محمَّد ﷺ، مُكمِل نعمة الله

عليهم، منجي أوَّلهم وهادي آخرهم.

ولقد أولى المسلمون وجوههم نحو هـذا الكتـاب، وتلقَّـوه منـذ أن كان ينزل علـى صـاحب الوحـي عليه السلام غضًّـا طريـًّا، حفظًـا وعمـلاً، وكتابةً وجمعًا، وتبليغًا وتفهُّمًا.

ومـا لبـث المسـلمون أن أمكـن الله لهـم في الأرض، وفتحـت لهـم الأمصار، ودانت لهم الأمم، فانتشروا في الأرض عاملين، دعاة إلى نـور الله المبين، وهديـه المسـتقيم، فكـانوا بنـاة الحضـارة الإسـلاميَّة، وروَّاد أمجادها؛ **وقد لازموا في مسيرتهم تلك كتاب الله**، واسـتلهموا وحيـه المبين، تفسيراً وشرحًا، واستنباطًا وتعمُّقًا، في كشف أسراره واسخراج أحكامه.

وبعملهم هـذا، وفي أثنـاء مسـيرتهم مـع كتـاب الله، نشـأ حـول القرآن الكريم وما كتب عليـه في الشـأن مـا يعجِـزُ القلـمُ عـن وصفـه ويفوتُ العادِّين حصرُه.

وهذا السفر الجليل في تفسير القرآن الكريم - الذي أقدِّمه للقـرَّاء الكرام - ينهل من ذلكم البحر العباب، ألَّـفه الشيخ امحمَّد بن يوسـف اطفـيَّش - رحمه الله - بعد أن تجاوز الستِّين بنيف، وجلس أكـثر مـن أربعين سنَة للتدريس والتحقيق والتأليف.

فهو حصيلة عمـل طويـل وشـاقّ لحيـاة وهبهـا لله خدمـة لكتابـه وللعلوم التي تخدم كتاب الله تعالى، وقد كان - رحمه الله - يعتزُّ بهذا

نصف قرن تقريبا، وكنّا نرجع في دروس التفسير إلى ذلك الكتاب، ولكن كنّا نهابه ونضيق به أحيانا لـمَا عليه النسخة المطبوعة طبعا حجريا من هنات، وكنَّا نتمنّى لو يتاح للكتاب أن يطبع على الخطة الفنية التي توصَّلت إليها الطباعة في زماننا.

وبعد أن اشتغلت مع ثلَّة من تلاميذي بحاشية ترتيب «الجامع الصحيح» للربيع بن حبيب في الحديث، خدمة وتحقيقا وإخراجا، وأتممت ذلك بحول الله وفضله سنَة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م[1]، طلب منّي بعض الإخوان من أهل الفضل وطلاَّب المعرفة ـ وألحُّوا في ذلك ـ أن أوجِّه عنايتي إلى خدمة هذا التفسير الهامِّ، وتحقيقه وإخراجه إلى التداول، على وجه يقرِّب القارئ إلى الفهم ولا يُبعد به، ويُعين على المتابعة والاستفادة ولا يُغرب.

وبعد امتناع وتهيُّب بسبب ضعفي وقلّة إمكانياتي، وطول الكتاب وتعدُّد أسفاره، فكنت أخاف أن يحول ذلك بيني وبين القيام بالواجب على أحسن وجه، وعن الوفاءِ بالعمل على أكمل صورة، ثمَّ استخرتُ الله تعالى في ذلك، واعتمدت عليه وتوكّلت وهو حسبي ونعم

=

هـ/١٩٥٤م). وقد أسهم في إنشاء المعهد الجابري ودرَّس فيه من سنة ١٣٦١هـ/١٩٤٣م إلى أن وافته المنية، وله عدَّة مؤلَّفات. وقد تخرَّج على يده كثير من الذين حملوا مشعل الثقافة في هذه الأيَّام.

١- طبع الكتاب في خمسة أجزاء بمطبعة البعث بقسنطينة.

التفسير كثيرا، ويحثّ طلاّبه على الإقبال عليه والرجوع إليه.

وسمّاه المؤلّف «**تيسير التفسير**» فهو حقّا تيسير لفهم الأوجه المختلفة للنصّ القرآني التي تتقبّلها الصناعةُ وأساليب اللُّغة العربيَّة، وطرق البيان فيها، فهو - رحمه الله - في هذا الصنيع يقوم بعمل المدرِّس الماهر الذي يدفع طلاّبه ويحدو بهم إلى فهم المعاني المحتملة من النصّ، دون أن يطغى عليهم بفرض رأيه وما ذهب إليه، ولا يغفل مع ذلك عن بيان الوجه الراجح من المرجوح في الغالب.

الكتاب من ناحية ثالثة يغنيك عن مراجعة كثير من التفاسير، تلك التي تعتمد النقل والرواية، أو تعتمد الرأي والدلالة اللُّغوية، فهو يجمع بين ذا وذاك في أسلوب مختصر مفيد.

وفي أثناء ذلك لا يترك وجها من وجوه الإعراب أو البيان دون أن يدفع بك إلى قواعد النحو والبيان وضوابطه، والتنبيه إلى ما تُجيزه الصناعةُ وما لا تجيزه، فهو باز من بزاة النحو وما إليه، كما يقول هو ذلك عن ابن عصفور الأندلسي.

كما لا يترك مسألة فقهية أو أصولية إلاّ ويتعرّض لها ويبيِّن وجه الصواب وما اختاره هو أو جمهور علماء الأمَّة.

وقد كانت صلتي بهذا الكتاب القيِّم منذ أن كنت تلميذا في حلقات شيخي الفاضل: إبراهيم بن أبي بكر[1] في المعهد الجابري قبيل

1- هو الشيخ **إبراهيم بن أبي بكر حفّار** (و: ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م - ت: ١٣٧٣

الوكيل.

فشرح الله صدري لهذا العمل، ويسَّر لي من الأساتذة وذوي الفضل من أعانني ووقف بجانبي في هذا الدرب الطويل الشاقّ، جزاهم الله خيرا، وكفاني وإيَّاهم حوادث الأيَّام ومصائب الزمان، وأعاننا بحوله وقوَّته على إتمامه والوفاء بما التزمنا به.

اللهمَّ اجعل لنا نصيبا مع الذين أنعمتَ اللهمَّ عليهم **﴿من النبيئين والصدِّيقين والشهدآء والصَّالحين﴾** (سورة النساء: ٦٩)، وانفعنا به **﴿يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاَّ مَن اَتى ا للهَ بقلبٍ سليم﴾** آمين

إبراهيم محمَّد طلاي

بني يزقن غرداية - الجمهورية الجزائرية

١٥ ربيع الأوّل ١٤١٧هـ/ ٣١ جويلية ١٩٩٦م

عملنا في الكتاب

لقد تتبّعنا في تحقيق الكتاب وإخراجه للطبع في ثوبه الجديد الخطوات التالية:

١. تصحيح الكتاب وتحقيق النصّ فيه بالمقابلة بين النسخ المعتمدة، وإذا أشكلت علينا جملة أو كلمة ولم يتّضح لنا وجه الصواب فيها ننبّه إلى ذلك بكلمة (هكذا في النسخ)، أو بإدراج الكلمة التي ظهرت لنا أنّها تصوّب العبارة، ووضعها بين معقوفين لأنّها منّا هكذا: [..].

٢. تخريج الأحاديث المذكورة في الكتاب وبيان موضعها في مشاهير كتب الحديث والتفسير.

٣. تخريج الآيات التي يوردها المصنّف أثناء البحث، والإشارة إلى رقمها في السورة حتّى يمكن للقارئ الرجوع إليها إن شاء.

٤. التعريف ببعض الأعلام الذين ذكرهم المصنّف، ويظهر لنا أنّها مجهولة لا يعرفها القارئ، ولانتعرّض لمشاهير الأعلام.

٥. وضع عناوين جانبيّة لبعض البحوث التي يتعرّض لها المؤلّف بشيء من التفصيل أخذا بيد القارئ، وخدمة له. وهي هكذا: (أسباب النزول)، (أصول الدين)، (فقه)، (نحو)، (لغة)، (بلاغة)، (قصص)...

٦. وضع فهرس في آخر كلِّ جزء للمسائل الفقهية التي تعرَّض لها المصنِّف، وفهرس آخر للمسائل الأصولية، دون بقية البحوث.

٧. تقسيم الآيات إلى مقاطع، ووضع عنوان مناسب لكلِّ مقطع، وإدخال ذلك ضمن عمل المؤلِّف، وقد اخترنا في ذلك صنيع الدكتور محمَّد وهبه الزحيلي في كتابه «التفسير المنير»، واتَّبعنا خطواته في الغالب.

٨. وضع فهرس عام لمواضيع تلك المقاطع والعناوين التي اخترناها لها حسب ورودها في النص القرآني.

٩. **اعتذار**: قد توجد أحيانا بعض كلمات لم ترسم على خطِّ المصحف العثماني، وقد أجاز المحقّقون ذلك في غير المصاحف القرآنية.

وصف النسخ المعتمدة

النسخة الأولى (أ):

وهي نسخة من الطبعة الحجرية في مكتبة المرحوم الشيخ حَمُّو بابا وموسى الداوي[1].

وقد عُرضت النسخة على المؤلِّف من تلميذه صاحب المكتبة،

١- هو الشيخ **حمُّو بن باحمد باباوموسى الداوي** (ت: ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م)، وهو من أبرز تلاميذ القطب، وقد كوَّن مكتبة ثرية بنفائس المخطوطات، منها بعض مؤلَّفات الشيخ اطفيش. وتولَّى مشيخة المسجد الكبير بغرداية، والإفتاء والتدريس فيه لمدَّة طويلة، رحمه الله.

ووضع فيها تعاليقَ استفدنا من بعضهـا، وتصحيحات القطب للطبعة الحجرية بخطّ يد صاحب المكتبة وذلك سنة ١٣٢٧.

والطبعة الحجرية كانت في حياة المؤلف قبيل وفاته وذلك سنَة ١٣٢٦هـ، من عمل الحاج عمر بن حاج ابراهيم العطفاوي، والحاج محمَّد بن الحاج صالح اليزقني.

النسخة الثانية (ب):

وهي مخطوطة تحمل المواصفات التالية:

الخطُّ: مغربيٌ مقروء؛ لون الحبر: بنيٌّ، وأحمر أحيانا؛ الحجم: أربعة مجلَّدات؛ معلومات النسخ: دون اسم الناسخ، ودون تاريخ النسخ؛ المقاس: ٢٤ سم في ١٧ سم؛ والملاحظ أنَّ في الهامش حواشٍ وزيادات بخطّ يد المؤلّف.

تحصلنا على هذه المخطوطة من مكتبة الشيخ حمو باباوموسى أيضًا.

كتب على الورقة الأولى: «دخل ملك الفاضل أخانا سليمان بن سعد الله بالشراء من مؤلّفه، وحبسه لوجه الله تعالى لا يباع ولا يشترى».

وقد ذكر أيضًا أنَّ مجموعة من تلامذة المؤلّف استعاروا بعض كراريس ردَّت إليه وهم: إبراهيم بن بكير، وأخوه محمَّد، والحاج عمر بن حمو، وسليمان بن عبد الله.

النسخة الثالثة (ج):

تحصلنا عليها من مكتبة الشيخ الحاج عمر بن الحاج مسعود بالقرارة، وتحمل المواصفات التالية: الخطّ: مغربيٌّ واضح؛ لون الحبر: بنيّ، وأحمر أحيانا؛ معلومات النسخ: دون اسم الناسخ، ودون تاريخ النسخ؛ المقاس: ٢٤ في ١٧ سم. بدون حواش أو زيادات، يبدو أنّهما حديثة النسخ.

كتب عليها اسم المالك وهو: الشيخ عمر بن الحاج مسعود بن يحي بن عمر[1].

النسخة الرابعة (د):

تحصلنا عليها من مكتبة القطب ببني يزقن، وهو المؤلّف نفسه، وهي مكتوبة بخطّ يده، ولعلّها تكون بكتابة النسخة الأمّ للنسخ الأخرى.

وتحمل المواصفات التالية: الخطّ: مغربي واضح؛ لون الحبر: بني وأحمر أحياناً؛ ليس فيها تاريخ النسخ ولا اسم الناسخ؛ المقاس: ٣٢×٢٢سم، فهي من الحجم الكبير في مجلّد واحد يشمل ٩٣٨ صفحة؛ عليها حواش وزيادات بنفس الخطّ؛ إلاّ أنّها أقلّ من الزيادات والحواشي التي في نسخة (ب).

وللمشرفين على هذه المكتبات آيات الشكر والثناء على ما أمدّونا به، جزاهم الله خيراً

١- وهو صاحب معهد قرآني توفى رحمه الله بالقرارة سنة ١٩٣٨.

ترجمة المؤلف

قطب الأئمة الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش، اليسجني

(١٢٣٧- ١٣٣٢هـ/ ١٨١٨- ١٩١٤م)

في مدينة غرداية العريقة[١] بشمال صحراء الجزائر، ولد الشيخ امحمَّد بن يوسف بن عيسى بن صالح، اطفيَّش لقباً[٢]، وهو من عشيرة آل باامْحَمَّد ببني يزقن، وينتهي نسبه إلى الحفصيين بتونس[٣].

والده من أعيان زمانه، مارس التجارة في شمال الجزائر ثمَّ في ميزاب.

وأمُّه هي السيدة: مامه ستِّي بنت الحاج سعيد بن عدُّون، من عشيرة آل يدَّر ببني يزقن، وكانت من خيرة نساء زمانها.

توفي الوالد قبل أن يرى ابنه يدرج إلى حلقات العلم، وهو يتمنى أن يكون أحد علماء زمانه، إذ كثيراً ما ذكر ذلك لأصدقائه، فشمَّرت الأمُّ عن ساعد الجد لتربية ابنها وتحقيق الآمال المرجوَّة فيه.

---

١ - **نهضة الجزائر** لمحمَّد علي دبوز، ج١/ص ٢٩٠.

٢ - هذه الكلمة بربريَّة مركبة تركيبا مزجيا معناها: (خذ - تعالى - كل). **الأعلام** للزركلي، ج٨/ص٣٢.

٣ - وينهي القطب نسبه إلى عمر بن الخطاب العدوي رضي الله عنه في قصيدة له. انظر أبو إسحاق ابراهيم في تقديمه **للذهب الخالص**؛ ومحمَّد علي دبوز في **النهضة**.

أسرته:

للقطب اطفيَّش ثلاثة إخوة ذكور: موسى وعيسى تاجران، وإبراهيم عالم وهو شيخه، وقد توفيت له شقيقتان في صغره، وذلك حين نشأته الأولى بغرداية[1].

وما لبث أن عادت به الأمُّ بعد وفاة الأب إلى موطنه الأصلي بني يزقن، وقد حظي بالرعاية الكافية والحنان طوال حياته مع أمِّه.

تعلُّمه:

في سنَة ١٢٢٤هـ/ ١٨٢٣م ألحقته أمُّه بإحدى الكتاتيب القرآنية، فتخرَّج فيها حافظا لكتاب الله ولـمَّا يبلغ التاسعة من عمره، فتكوَّنت لديه شهية عجيبة للقراءة والكتابة، ورغبة ملحَّة في حضور مجالس العلماء، وغشيان حلقاتهم في دور العلم وفي المساجد، وقد أتاح الله له الفرصة في أن يحضر كثيرا من حلقات العلم لمشايخ عصره في واد مزاب منهم:

١. أخوه الأكبر إبراهيم بن يوسف[2]، وذلك أوان رجوعه من رحلته المباركة في طلب العلم بعمان ومصر والمغرب، وقد أخذ عنه

---

١ -**السلاسل الذهبية** لإبراهيم بن أبي بكر، ص١٨ - ١٩.

٢- هو الشيخ **إبراهيم بن يوسف بن عيسى بن صالح اطفيَّش** (ت: ١٣٠٣هـ / ١٨٨٦م): عالم ومدرّس بمسجد بلده، ترك مؤلفا عنوانه: مختصر المناسك للحيطالي.

أكثر مبادئ العلوم التي نبغ فيها.

٢. الشيخ الحاج محمَّد بن عيسى ازْبَار[1]، بعدما رجع من عمان، وقد حضر دروسه بمسجد بني يزقن.

٣. الشيخ الحاج سعيد يوسف ونتن[2]، ببني يزقن.

٤. الشيخ سليمان بن عيسى عدون[3]، حضر دروسه في مسجد بني يزقن

٥. الشيخ بابا بن يونس[4]، في المسجد العتيق بغرداية، ويذاكر معه في غار بجبل مورْكي.

٦. الشيخ الحاج أحمد بن داود أمعيز[5].

وفي أوقات الفراغ كان يغشى المكتبات ويلتهمها التهاما، حتَّى

١- هو الشيخ **محمَّد بن عيسى ازبار** (ت: ١٢٩٦ هـ / ١٨٧٢ م): عالم وموجِّه، وقد خلَّف مكتبة ثرية بنفيس المخطوطات.

٢- هو الشيخ **سعيد بن يوسف بن عدّون وينتن اليسجني**، المعروف بـ: الحاج سعيد انْ بافو (حي في ١٢٩٦ هـ / ١٨٧٩ م).

٣- هو الشيخ **سليمان بن عيسى اليسجني** (١٢٣٠ - ١٢٦٥ هـ / ١٨١٤-١٨٤٨ م)، شيخ عالم، تولّى إمامة الدفاع، ومشيخة بلدته وميزاب عامَّة.

٤- هو الشيخ **بابا بن يونس الداوي** (النصف الثاني ق ١٣هـ/١٩م): شيخ لغرداية، وأحد أساطين الإصلاح في زمانه.

٥- هو الشيخ الحاج **أحمد بن داود امعيز** (حي في: ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٧ م): من علماء مليكة، له باع في علم الفلك، وقد أخذ عنه القطب أسس هذا الفنّ.

إنَّه كان إذا بدأ في دراسة فن من العلم عند أحد المشايخ، أتمَّه وحده، وطلب الانتقال إلى كتاب أوسع في ذلك الفن.

زواجه:

تزوَّج القطب[1] ثلاث نسوة وجمع بينهنَّ، وهو أب لتسعة أولاد، ويعتبر زواجه مدرسة من المدارس التي ساهمت في تكوينه، فثلاثتهن من بنات العلماء ذوات الصلة بالعلم والكتب، وما أعزَّها في ذلك الزمان.

كفاحه في سبيل العلم وخدمة الشريعة:

لم يلبث القطب أن فتح خلال تكوينه العصاميِّ المتواصل جبهات متعدِّدة لإعلاء كلمة الله: من نشر العلم وتعليمه، وخدمة الشريعة ونصرتها، ومحاربة البدع والرذائل، وذلك بكلِّ إخلاص وتفانٍ وثبات.

فنخص بالذكر من بين آثاره العلميَّة والعمليَّة:

١. **التدريس ونشر العلم:** فتح القطب داره للتعليم ولـمَّا يبلغ العشرين من عمره، واستمرَّ على ذلك إلى أن وافته المنية، فتوالت على حلقاته العامرة طيلة حياته التعليميَّة حشودٌ من الطلبة من جميع قرى

---

١ - أختارُ لقب القطب للشيخ مثلما اختاره الأستاذ الباحث يحي بوتردين، وأول من لقبه بهذا اللقب صديقه العالم الشيخ عبد الله بن حميد السالمي العماني (ت: ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤)

وادي مزاب، وورجلان، وجربه، وجبل نفوسه.

فكانت دروسه تستمرُّ طيلة أيَّام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة.

وطريقته في ذلك هو أن يكلف لكلِّ فن من فنون العلم طالبا يختصُّ به ليقرأ النصَّ - نصَّ الكتاب المدرَّس - أمامه في حصَّة الدرس، فيشرحه للحاضرين، يتولَّى الشيخ التعليق والشرح، وهو لا يملُّ من التكرار والتوضيح، حتَّى يفهم الطلاَّب. ويقول تلميذه الشيخ إبراهيم بن بكير: «إنَّه كان يجمع في النصف الأوَّل من النهار في المسجد والمدرسة بين عديد من الفنون في حصص»، وغالبا ما يعتمد في التدريس الكتب التي ألَّفها، فإن لم تكن فإنَّه يقرِّر إحدى الكتب في ذلك الفن أو يؤلف لهم».

فقد كان رحمه الله رجل علم وبحث وتحقيق وكتابة.

٢. **الفتوى:** يخصِّص الشيخ الفترة المسائيَّة من كلّ يوم للإجابة عن الأسئلة الفقهيَّة، والنوازل التي توجَّه إليه من داخل مزاب وخارجه، ومن داخل الجزائر وخارجها: كعمان، وليبيا، وتونس، وزنجبار، وحتىَّ من اسطنبول ومصر.

وعندما تقدم به السن اتَّخذ كتَّابا لتحرير الأجوبة، ومن هؤلاء نذكر: الشيخ الحاج سليمان مطهري[1]، والشيخ حمو بابه وموسى

١- هو الشيخ **سليمان بن أبي بكر بن الحاج أيُّوب المطهري المليكي (١٨٦٢-١٩٤٨م)**: عالم من مليكة، وأحد شيوخها، ترك مكتبة ثرية بنفيس المخطوطات،

المتقدِّم ذكره رحمهم الله.

٣. **الوعظ والإرشاد:** لقد انضمَّ القطب إلى حلقة العزابة بمسجد بني يزقن في زمن الشيخ الحاج سليمان بن عيسى عدون، فارتقى في مهام الحلقة إلى أن تولىَّ مشيختها خلفا لشيخه الحاج محمَّد أزبار المتوفَّى ١٨٧٢م ١٢٩٦هـ،[١] فأصبح يلقي دروسا في المسجد بعد صلاة الصبح إلى شروق الشمس حسب العادة المتَّبعة، يتعرَّض فيها لاستنهاض الهمم ونشر التعاليم الإسلاميَّة ومحاربة البدع والآفات الاجتماعية، فتمكَّن بذلك من تقويم المجتمع ودفعه إلى جادَّة القرآن الكريم، والسنَّة النبويَّة، وسيرة السلف الصالح.

٤. **التأليف:**

أثناء هذا العمل الدؤوب كان القطب - رحمه الله - يخصص الحظَّ الأوفر من وقته للتأليف والكتابة، فهو فارس قلم وكتابة كما كان رائد علم وتربية، لا يستريح من النظر إلاَّ إلى التحقيق، ولا من البحث إلاَّ إلى التأليف والتعليق، فهو يعي الوعي كلَّه بأنَّه: «يذهب العقل ويبقى أثره، ويفنى العلم وتبقى كتبه» ـ كما قال الجاحظ ـ.

=

خاصَّة كتب شيخه قطب الأيمة. وقد لازمه مدَّة اثنين وعشرين سنة.

١ - يرى الإستاذ الحاج سعيد أنَّه خلف الشيخ الحاج محمَّد بن يحي باحيو في المشيخة في نفس التاريخ ـ **تاريخ بني مزاب**، ص ١٣٤.

وقد كان يستغلُّ الفترة اللّيلية لمهامِّ التأليف، عندما تهدأ الأصوات وتسكن الحركات.

ويقول أحد تلامذته، وهو الشيخ أبو اليقظان: «إنّه لم يكن يؤلّف كتابا بعد كتاب، بل كان يؤلّف عدَّة كتب في فنون مختلفة في وقت واحد، حتى إذا ملَّ من فنٍّ روَّح عن نفسه في مؤلّف آخر، وهكذا دواليك إلى أن ينتهي»[1].

وقد كان يؤلّف في الحضَر والسفَر، في وقت الشدَّة والرخاء، حفاظا على وقته الثمين[2]، ولا يفوته مع هذا حضور الصلوات الخمس في المسجد مع الجماعة، وحثّ تلاميذه على ذلك.

أمّا اليوم الأخير من الأسبوع – يوم الجمعة – فقد اتّخذه راحة يقضي نهاره في بستانه أحيانا؛ وفي العشرية الأخيرة من عمره ألحق به يوم الخميس ليوفّر للتأليف أوقاتا أكثر وجهدا أوفر[3].

٥. مكانته العلميّة:

تمكن القطب بفضل عصاميته المتمكّنة، وعزيمته الصادقة، وإخلاصه الشديد، وطموحه الواسع، من الوصول إلى درجة الاجتهاد ولم يتجاوز الستين من عمره.

---

١ – **ملحق السير** لأبي اليقظان، ص ١٥٧.

٢ – **نهضة الجزائر** لمحمّد علي دبوز، ج١/ص ٣٠٨.

٣ – **السلاسل الذهبية** لإبراهيم بن أبي بكر، ص ٤٦.

وقد أشار في إحدى تآليفه إلى هذا المعنى، فقال: «وقد كنت أجتهد بالقياس على أصل أمامي، ولا أكاد أصيب إلاَّ قولا يوافق ماقلت والحمد لله، ثمَّ انتقلت عن هذه الدرجة إلى ما فوقها والحمد لله»(١)

ويقول الشيخ أبو اليقظان: «ناقش علماء الحرم وتباحث معهم فشهدوا له بالتفوُّق العلمي»(٢)

يعني بذلك: الشيخ زيني دحلان، والشيخ حسبي ا لله الشافعي، والشيخ ابراهيم حقي الحنفي، والشيخ عليش المالكي(٣).

وقد عرف الشيخ محمَّد عبده المصري قدر القطب فعظَّمه واحترمه، وقد جاء ذلك في بعض مراسلات كانت بينهما(٤).

٦. مراسلاته ورحلاته:

لم يخرج القطب من بلده ميزاب إلاَّ عندما سافر إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، وقد كان ذلك مرَّتين الأخيرة منهما في أوائل القرن، وقد زار في طريقه بعض الحواضر العلميَّة مثل: جامع الزيتونة

١ - **شامل الأصل والفرع** ،ج١/ص ١٣.

٢ - **ملحق السير**، ص ١٥٩.

٣ - **رسالة الرد على العقبي** للقطب، ص ٩و١٠.

٤ - **السلاسل الذهبية** لإبراهيم بن أبي بكر، ص ١٠.

بتونس، والجامع الأزهر بمصر؛ وألقى دروسا في الحرم المدني[1].

وكانت له زيارات محلية يقوم بها في فصل الخريف والربيع إلى القرارة وبريان وورجلان لنشر العلم وترسيخ العقيدة في أوساط العموم لبعدهم عن الاتِّصال به، وعن مقرِّ عمله، مع نقص وسائل الاتِّصال وندرتها آنذاك[2].

وقد ولع بالمراسلات العلميَّة مع علماء وملوك عصره، ومع أنصاره في الجزائر، وفرنسا، ولندن، ومصر، والحجاز، وزنجبار، وعمان، والبحرين، وتركيا، وجبل نفوسة، وليبيا، وتونس، والمغرب الأقصى.

كما زاره بعض من أعيان زمانه مثل سليمان ابن الناصر اللمكي أمير دار السلام بزنجبار سنة ١٩٠٠م، والزعيم سليمان الباروني باشا، وكان قد تتلمذ على الشيخ في فتوَّته.

٧. وفاته:

بعد هذا العمل الجبَّار في الحقل العلمي، والصراع المرير محاربة للجهل والرذيلة اختاره الله إلى جواره الكريم في فجر يوم السبت ٢٣ ربيع الثاني ١٣٣٢هـ / ٢١ مارس ١٩١٤م عن عمر يناهز ٩٦ عاما،

---

١ - **نهضة الجزائر** لدبوز، ج١/ص ٣٥٢.

٢ - **تاريخ بني مزاب** للحاج سعيد، ص ١٣٦.

بعد مرض خفيف وحمى ألـمَّت به لبعض الأيـَّام، فبكاه القريب والبعيد، والعدوُّ والصديق، واهتزَّ عرش العلم والدين لفقده وغيابه، وتنافس الخطباء والشعراء في ذكر مناقبه الجليلة، ومآثره العظيمة ولا يزالون.

وضريحه معروف في مقبرة بامحمد ببني يزقن.

تغمَّده الله برحمته الواسعة، وأسكنه فسيح جنانه مع الذين ﴿**أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا**﴾. آمين.

٨. آثاره من بعده:[١]

من آثار القطب في مسيرته العلميَّة والعملية المباركة نذكر:

أ) **في التدريس:** تخرج في حلقاته العامرة مشايخ وأئمَّة، ودعاة وأساتذة، وقضاة ومجاهدون، فهؤلاء إمـَّا تلقّوا عنه العلم مباشرة أو بواسطة تلامذته.

١- للتوسُّع في آثار القطب العلميَّة، وفي شخصيته البارزة انظر الدراسات الأكاديمية التي ألّفت حوله، ومنها: **الفكر السياسي عند الإباضيَّة من خلال آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيَّش** لجهلان عدون رحمه الله؛ **الشيخ امحمد بن يوسف اطفيَّش ومذهبه في تفسير القرآن الكريم (التيسير) مقارنة إلى تفسير أهل السنَّة**؛ **الشيخ اطفيَّش ومنهجه في تفسير القرآن الكريم (هميان الزاد)** لعكّي علواني؛ **آراء الشيخ امحمَّد بن يوسف اطفيَّش العقدية** لمصطفى وينتن. وكلُّها رسائل ماجستير.

من الجزائر وتونس وليبيا وعمان وزنجبار، وقلَّ أن نجد من المشايخ من تهيء له من الطلاب والعلماء الذين بلغوا الأمانة وواصلوا المسيرة العلميَّة بعدهم مثلما تهيَّأ للقطب رحمه الله[1].

ب) - في التأليف:

ألَّف القطب في كثير من علوم الشريعة، وفي اللُّغة والتاريخ، والطب والمنطق، والحساب والفلسفة والفلك، والأخلاق، بل وحتىً في الفلاحة والشعر.

وقد عدَّ بعضهم مؤلفاته فوجدها تتجاوز ثلاثمائة مؤلَّف ما بين صغير وكبير ومتوسط[2] وهي في غالبها إمَّا شرح لمختصر، أو اختصار لموسَّع، أو حاشية على شرح سابق.

وأمَّا الرسائل والردود والأجوبة والفتاوى فهي تعدُّ بالمئات لو جمعت لتكوّنت منها موسوعة علميَّة مفيدة، وقد وصل بها إلى جميع أصقاع العالم آنذاك.

وناهيك عن موسوعته الفقهيَّة الرائدة في الفقه المقارن: **شرح النيل وشفاء العليل**، التي تعتبر العمدة في الفقه الإباضي، في جميع أنحاء العالم اليوم.

---

١ - عن أسماء هؤلاء العلماء راجع المصادر المعتمدة في هذه الترجمة.

٢ - **ملحق السير** لأبي اليقظان. غير أنَّ الباحث وينتن مصطفى حقَّق أنَّ عدد مؤلَّفات القطب هو: ١٠٦ مؤلفا. إلى جانب المراسلات الكثيرة.

وأمّا عناوين كتبه فمنها المعروف، ومنها المفقود، ومنها المطبوع ومنها المخطوط[1] .

فتجمّع لدى القطب خلال هذه المدّة الطويلة من مسيرته العلميّة مما ألّفه وممّا وصل إليه من مختلف المصادر مكتبة زاخرة بالمراجع والمصادر المعتمدة في علوم الشريعة واللغة العربية تشهد له بتمكنه العلمي وتفتح ذهنه وسعة أُفقه. [2]

٩. شخصيته

لقد تظافرت صفات مختلفة في تمييز شخصية القطب اطفيَّش نذكر منها على سبيل العدّ فقط:

الذكاء الوقّاد، وقوّة الحافظة، والاستمرارية في العمل، والشجاعة، والإخلاص للعلم وخدمته طاعة لله، والغيرة الشديدة على الإسلام، والكرم والسخاء.

ولا يسمح لنا المقام للتوسّع في بيان هذه الخلال الحميدة، والاستدلال على تمكنها منه رحمه الله.

---

١ - عن عناوينها راجع **دليل مخطوطات وادي ميزاب** لجمعية التراث، جزء مكتبة القطب والأجزاء الأخرى، و**معجم أعلام الإباضيّة** لجمعية التراث .

٢ -عن بعض محتوى هذه المكتبة راجع **فهرس موضوعي لمخطوطات مكتبة القطب ببني يزقن** تأليف الأستاذ يحيى عاشور، بحث مقدّم لنيل شهادة الليسانس في علم المكتبات ١٩٨٧.

بطاقة تعريف عن تفاسير القطب[1]

إضافة إلى كون التفسير مادَّة رئيسية في حلقاته العلميَّة كما هي الطريقة المتّبعة لدى كثير من علماء السلف، ***فقد ألّف القطب اطفيّش*** ثلاثة تفاسير للقرآن الكريم في مراحل مختلفة من عمره الطويل، وإليك بيانها بالترتيب:

الأول: هميان الزاد إلى دار المعاد

أتمّ تأليفه سنة ١٢٧١هـ / ١٨٥٢م، أي عندما بلغ السنّ الرابعة والثلاثين من عمره وقد طبع مرّتين.

إحداهما في زنجبار على نفقة السلطان برغش في ١٤ جزءا من ١٣٠٥هـ إلى ١٣١٤هـ.

١- أختصرت هذه البطاقات من رسالة ماجستير **حول منهجية القطب في تفسير التيسير** للأستاذ يحي صالح بوتردين ص ١٨٦ وما بعدها.

ومن محاضرة للشيخ ابراهيم محمَّد طلاي: **جهود القطب في تفسير القرآن**، ألقاها في المهرجان الأوَّل للشيخ اطفيَّش ١٩٨١م.

وثانيهما في سلطنة عمان على نفقة وزارة التراث القومي والثقافة في ١٥ مجلدا من سنة ١٩٩١م.

الثاني: داعي العمل ليوم الأمل

ما يزال مخطوطا ولا توجد منه نسخة كاملة حسب علمنا إن كان قد أكمله الشيخ، وتوجد نسخة من أجزائه الأخيرة في مكتبة المؤلف تنقصها كراريس.

ويقال إنَّ القطب أتمَّ فيه تفسير القرآن الكريم كاملا خلافا لما هو مشهور من أنَّه أطنب فيه كثيرا، وبدأ من سورة الرحمان. و لم يذكر أيَّ تاريخ فيها ليعرف متى شرع فيه القطب.[1]

الثالث: تيسير التفسير:

أتمَّ فيه تفسير القرآن كاملا بعد أن تجاوز السنَّ الثمانين من

١- هذا التفسير حقَّقه كلٌّ من الأساتذة: باجو مصطفى، وباباعمي محمَّد، وشريفي مصطفى. وقد بدأه من سورة الرحمن، وما بقي منه إلى غاية آخر سورة المزمل. غير أنَّ القرائن – من داخل النص نفسه – تدلّ أنَّ الشيخ لم يفسّر فيه القرآن كاملا. والملاحظ أنَّ الناسخ كتب فوق جزء سورة الرحمن: الجزء التاسع والعشرون، وفوق جزء سورة الممتحنة: الجزء الثلاثون، وفوق جزء سورة القلم: الجزء الواحد والثلاثون، فيكون جزء عم بالتالي هو الجزء الثاني والثلاثون.

فنقول والله أعلم: إن الشيخ – رحمه الله – قد قسَّم القرآن حسب الخروبات، وكلَّ خروبة إلى جزأين، فيكون بالتالي عدد الأجزاء: ٣٢ جزءا.

عمره.[1]

نسخة المخطوطة موجودة في مكتبة المؤلّف، وبعض مكتبات تلاميذه.

وقد طبع الكتاب مرّتين:

الأولى: طبعة حجريّة بالجزائر في سبعة مجلّدات من سنة ١٣٢٥هـ إلى سنة ١٣٢٦.

الثانية: طبعة جديدة بدون تحقيق في خمسة عشر مجلّدا على نفقة وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان ١٩٨٨م.

لقد تعرّض بعض العلماء للحديث عن هذا التفسير بعبارات تبرز المكانة العلميّة التي حظي بها ***هذا التفيسر الذي نحن بصدد التقديم له وتحقيقه***، منهم المؤلّف نفسه يقول عنه: «وذكرت ذلك في تفسيري المسمى بالتيسير وهو تفسير دقيق لا تطويل فيه»[2].

ويقول تلميذه الشيخ أبو إسحاق ابراهيم اطفيّش: «ومن وقف على تفسيره تيسير التفسير شاهد تبحّره في علوم القرآن وغزارة مادّته ومقدرته على إظهار حقائق التفسير»[3].

١- أخذنا هذا التاريخ من **رسالة جواب عن أسئلة** وجّهها إلى الشيخ عبد الله بن حميد السالمي، والشيخ عيسى بن صالح الحارثي تحدّث فيها عن هذا التفسير وقال: «قرب كماله» وهي مؤرّخة بـ ٧ رجب ١٣٣٢. أنظر **كشف الكرب**، ج١ /ص٩٦.

٢- **مجموعة رسائل وأجوبة**، ص ١٥١

٣- مقدّمة كتاب **الذهب الخالص**.

وعندما تحدَّث الشيخ إبراهيم بيوض - رحمه الله - عن مراجعه في التفسير قال: «إذا أردت أن أعرف أحيانا قول الإباضيَّة في بعض الأحكام الشرعيَّة الواردة في الآية فإنني أرجع إلى كتاب التيسير للشيخ الحاج أمحمد اطفيَّش»[1].

ويقول الباحث عكي علواني: «إنَّ تفسيره (التيسير) يعتبر دائرة معارف لآراء أشهر المفسرين السابقين، الذي جمع فيه وجهات نظر معظم المدارس الإسلاميَّة، وكذا بعض الفرق، مع إبراز وجهة نظر الإباضيَّة، من هذا تظهر أهميَّته بين كتب التفاسير في العالم الإسلامي»[2].

وفي رسالة وجَّهها المؤلف إلى الشيخ عبد الله بن حميد السالمي والشيخ عيسى بن صالح الحارثي قال: «ولكما الآن ـ والحمد لله الرحمان الرحيم ـ من تفسير المذهب ما يغنيكم إن شاء الله عن تفسير غيره، فإن ذكرت مذهبهم فإمَّا لأردَّه، وإمَّا لأنَّه حقٌّ، وقد اعتقدناه قبل أن نراه لهم، ولست مقلّدا لأحد، ولاسيما التيسير الذي قرب إن شاء الله الرحمان الرحيم كماله، وما ذكرته إلاَّ لترغبوا فيه لأنَّه غير

١- **أعلام الإصلاح** لمحمد على دبوز : ج ٣/ ص ١٢٦.

٢- **محمّد بن يوسف اطفيَّش ومذهبه في تفسير القرآن**، رسالة الماجستير في العلوم الإسلاميَّة ١٩٩١ص ٢٨٢ مرقونة.

طويل بل متوسط مع جمعه ما ليس في المطوّلات، والحمد لله»[1].

١- **كشف الكرب** للقطب، ج ١/ص ٩٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم

مقدمة المؤلّف

الحمد لله حمداً يجدِّد دقائق الجديدَيْن، وتستمليه استملاء مقبولا لحظات الملوين، على تيسير القرآن بياناً؛ يخرُّ به على أهل الكفر كلُّ إيوان، ويردُّ الله به عنّا شرَّ الخلق وأهل العدوان؛ والصلاة والسلام على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه، وكلّ عبد مجلٍّ لله عابد لربِّه، صلاة وسلاما أنجو بهما من حرّ النيران، ويكونان لي قلائد عقيان، وأسكن بهما تحت عرش الرحمن، دائمين ما دامت الأزمان

أمَّا بعد، فإنَّه لـمَّا تقاصرت الهمم عن أنْ تهيم بـ«هميان الزاد إلى دار المعاد» الذي ألّفته في صغر السنِّ، وتكاسلوا عن تفسيري «داعي العمل ليوم الأمل»، أنشطت همَّتي إلى تفسير يُغتبط ولا يُملّ.

فإنْ شاء الله قبِله بفضله وأتمّه قبل الأجل، **وأنا مقتصر على حرف نافع**، ولمصحف عثمان تابع، وأسأل ذا الجلال أنْ ينعم عليَّ بالقبول والإكمال. آمين

تفسير سورة الفاتحة وآياتها ٧

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦﴾

﴿بسْمِ ا للهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾: أتبرَّكُ في كلِّ مباحٍ وعبادَة، ولا تُكتَبُ البسملة في أوَّل ديوان الشعر، إلاَّ إن كان كتابتها عِلماً، أو وعظاً، أو نفعاً لا محذور فيه شرعاً؛ وأجاز سعيد بن جبير كتابتها في أوَّل ديوان الشعر، ووجدتها مكتوبة في نسخة قديمة بأكثر من خمسمائة عام، من ديوان الشعراء الستَّة، معروضة على أبي عليّ السَّلوثين(١)، وأعطى الإجازة فيها لبعض تلامذته.

---

١ - أبو علي السلوثين عمر بن محمَّد بن عمر الأزدي الإشبيلي الأندلسي (٥٦٢-٦٤٥هـ): إمام في النحو، الملقب بالسلوثين - أي الأبيض الأشقر -، كان إماما لا يشقُّ له غبار في النحو، وله تصانيف مفيدة. **تهذيب سير أعلام النبلاء، ج٣/ص٢٧٩**

وعنه ﷺ: **«لو أنَّ أحدَكم قبْل أن يأتيَ أهلـه قـال: بسـم ا لله، اللهـمَّ جنّبنا الشيطانَ، وجنّب الشيطانَ ما رَزَقْـتَـنا، فإنَّـه إن يُقَـدَّرْ بينهما ولـد لم يَضُـرّه الشيطانُ أبداً»**(١). وقال ﷺ: **«سترُ مـا بـين الجنّ وعـورات بـني آدم، إذا دخلوا الكنيف، أن يقولوا: بسم ا لله»**(٢) أو إذا أرادوا الدخول.

وا لله مختصٌّ به تعالى ، والإله أعمُّ سواء أقلنا: أصل لفظ "ا لله" إلـه أم لا، فلا تَهِمْ. وقرئ بنصب الرحمـن وجرّ الرحيـم، والنصب على تقدير أحمـد، وسمّاه أبو حيّـان(٣) عطف توهُّـم، أي على طريـق التوهُّـم وأصـاب، ووجـه توهُّمه أنَّ الاتباع بعد القطع ضعيف فلتسميته وجه، ونصَّ هـو على ضعـف ذلك لاختصاص التوهُّم بالعطف.

---

١ - رواه البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم ١١٩.

ومسلم في النكاح، باب ١٨، رقم ١١٦ (١٤٣٤)، من حديث ابن عبَّاس.

٢ - رواه ابن ماجه في الطهارات، باب ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء، رقم ٢٩٧.

والترمذي، في الصلاة، من حديث عليّ بن أبي طالب.

٣ - محمَّد بن يوسف الغرناطي، أبـو حيـان (٦٥٤-٧٤٥): عـالم نحـوي لغـوي، ومفسـر محمدّث مقرئ، ومؤرّخ وأديب، درس بالأندلس وغيرها من بلاد الإسـلام، ظـاهريّ المذهب، ثمَّ شافعي، ولد بمصر وتوفي بها، ومـن تصانيفـه "البحـر المحيـط" في تفسـير القرآن. **معجم المفسّرين، ج٢/ص٦٥٤**

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: إخبار بأنَّ الله تعالى مالك لجميع الحمد من الخلق ومستحقٌّ لأن يحمدوه، ومن ذكر جملة وأراد بها الثناء على الفعل الجميل الاختياريِّ تعظيمًا كان محصِّلا للحمد ولو لم يقصد الإنشاء، ولا يجوز قصد الإنشاء، على أنَّ الآية نزلت إخبارًا إلاَّ لمن أراد غير الآية، وإلاَّ أن يقال: المعنى قولوا: هذه السورة، فحينئذٍ يجوز لقارئها التصرُّف في الحمد بالإخبار أو الإنشاء، لكنَّ الإنشاء بالجملة الاسميَّة قليل، ومختلف فيه.

(أصول الدين)ولا يحمد الله على صفاته بل على أفعاله، وقيل بالجواز على إسقاط لفظ الاختياريِّ من الحدِّ، أو على أنَّ المراد نفي الضرورة، وصفاته ليست ضروريَّة كما أنَّها ليست اختياريَّة، لا إله إلاَّ الله، سبحان الله.

ولفظ الجلالة لا يدلُّ على فعل ولا صفة بل على الذات، فهو جامد، وقيل: أصله الاشتقاق من لفظ يدلُّ على معنى العبادة أو العلوِّ أو الطرب أو الفزع أو التحيُّر أو الاحتجاب أو نحو ذلك، بمعنى أنَّ خلقه أحتجبوا عن رؤيته بأن حجبهم عنها ومنعهم، وليس هو بمحتجب؛ وفزعوا إليه واضطربوا وتحيَّروا.

﴿رَبِّ﴾ سيِّد ﴿العَالَمِينَ﴾، أو مالِكِهم؛ الناسُ عالَم، والملائكة عالَم، والجنُّ عالَم، والحيوان عالم، والجبال عالم، والنبات عالم، والفعل عالم، والاعتقاد عالم، وهكذا... كلُّ صنف عالم، والجمع: عالَمون، جُمِع تغليبًا للعاقل جمع قلَّة إيذانًا بقلَّتهم بالنسبة إلى قدرته تعالى على خلقه أصنافًا غير الموجودة، وسمِّيت لأنَّ فيها علامة الحدوث كالتركيب والحلول، وعلامة

وجود الله.

﴿الرَّحْمَنِ﴾: المنعِم بالنعم العظيمة، أو مريد الإنعام به، وليس معرَّبًا من رخمن بالخاء المعجمة كما قيل.

﴿الرَّحِيمِ﴾: المنعم بالنعم التي دون تلك، أو مريدها، وليس بينهما عموم وخصوص على هذا، فضلاً عن أن يقال: قدّمت الخاصَّة على العامَّة، وإنَّما ذلك لو فسِّر الرحيم بالمنعم بمطلق النعم، أو هما سواء كنديم وندمان جمعًا تأكيدًا، كما روي: «**رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما**»، وعلى الأخصِّيَّة فقد قيل: بجواز تقديم الصفة الخاصَّة على العامَّة للفاصلة كما في قوله تعالى: ﴿رؤوف رحيم﴾ وقوله تعالى: ﴿رسولاً نَّبيئًا﴾. وقيل: يارحمن الدنيا لأنَّه يعمُّ المؤمن والكافر، ورحيم الآخرة لأنَّه يخصُّ المؤمن، وقيل: يارحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا لأنَّ نعم الآخرة كلَّها عظام، وأمَّا نعم الدنيا فجليلة وحقيرة، وهي هنا مبنية على الميم نظير النون في ﴿العالَمين﴾ و﴿الدين﴾.

﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء بالجنَّة والنار، وخصَّه لأنَّه لم يَجعل فيه مِلكًا، بخلاف الدنيا ففيها ملوك، والملك السلطان القاهر، هو ملك يوم الجزاء إذا حضر يوم الجزاء، أو صفة مبالغة، أي أنَّه مالك ليوم الدين ملكًا قويًّا إذا شاء أحضره. ولك تقدير: ملك الأمور يوم الدين، كما كان ملكها في الدنيا، أو ملكها فيه وحده.

﴿إِيَّاكَ﴾: قدِّم للحصر، والثاني للحصر والمفاضلة.

ومقتضى الظاهر: إيَّاه نعبد وإيَّاه نستعين ليهدينا، بلام الدعاء، أنعم

عليهم بصيغ الغيبة مثل ما قبله، إلاَّ أنَّه لـمَّا أتى بالأوصاف الكاملة من كمال الرحمة المشاهدة، وصفات الجلال المحمود عليها، وقدرته الكاملة بتدريج الأفهام في ذلك على وجه الغيبة، وقوي برهان ذلك صار الغائب شاهدًا، يتكلَّم معه بصيغ الخطاب، وفي صيغة تلذُّذ.

﴿نَعْبُدُ﴾: نخدم بكلِّ ما نقدر عليه، وهذا العموم أفاده الإطلاق القابل، لكن ممكن على سبيل البدليَّة فيحمل على العموم الشموليِّ الشامل لكلِّ أفراد البدلي، وكذا في قوله:

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: على تحصيل العبادة والمباح، وعلى دفع المعاصي عنَّا والمضار.

(فقه) وخدمته - تعالى - إمَّا للثواب والهروب من العقاب، وذلك زهد، وهي عبادة؛ وإمَّا للشرف بها والنسبة إليه تعالى وهي عبوديَّة؛ وإمَّا لإجلاله وهي عبوديَّة وهي أعلى. وقدَّم العبادة لنتوسَّل بها إلى دفع المكروه وجلب المحبوب، أو قدَّمها لأنَّ المراد بها التوحيد، فذكر بعدها الاستعانة على مُطلق العبادة، وأيًّا كان الأمر فالواو لا ترتِّب؛ وفي الوجه الأخير حصول التخلِّي قبل التحلِّي.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: ما لم يكن عندنا من الدين حتَّى يتمَّ عندنا، ﴿والذين اهتَدَوْا زادَهُمْ هُدًى وءاتاهُمْ تَقواهُمْ﴾ (سورة محمد: ١٧)، ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الذِين اهْتَدَوْا هُدًى﴾ (سورة مريم: ٧٦)؛ أو أدِمْنا عليه. والأصل: اِهدنا للصراط، أو إلى الصراط؛ والمراد هدى البيان، أو هدى الإيصال بأن

نقيم عليه ولا نموت على خلافه، أو التوفيق للعمل والتقوى.

﴿صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بعلم الدين والعمل به من النبيئين والصدِّيقين والشهداء والصالحين من كلِّ أمَّة.

(نحو) ﴿غَيْرِ﴾ قال سيبويه: نعت الذين، لأنَّ «الذين» كالنكرة، لأنَّه جنس ولفظ غير نكرة ولو أضيف لمعرفة، ولاسيما أنَّه أضيف لمعرفة هي للجنس فهي كالنكرة، وعندي جواز إبدال المشتقِّ الوصف وما أُوِّل به.

﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ اليهود المخالِفين لموسى وعيسى. ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ النصارى المخالفين لهما. قال ﷺ: «**المغضوب عليهم اليهود، والضالُّون النصارى**»، رواه أحمد وحسَّنه ابن حبَّان[1]. وقدَّم المغضوب عليهم لتقدُّمهم زمانًا، ولأنَّ الإنعام يقابَل بالانتقام، ولأنَّهم أشدُّ في الكفر والعناد والفساد، وأشدُّ عدواة للذين آمنوا، ولأنَّهم كفروا بنبيئَيْن عيسى ومحمَّد صلَّى الله عليهما وسلَّم، والنصارى بواحد وهو سيِّدنا محمَّد ﷺ. وروى ابن عديٍّ والديلميُّ والسلفيُّ عنه ﷺ: «**من لم يجد صدقة فليلعن اليهود**».

---

١ - ورواه الترمذي في كتاب التفسير، باب ٢، ومن سورة فاتحة الكتاب، رقم ٢٩٥٤.

ورواه أحمد في مسنده، من حديث عدي بن حاتم.

تفسير سورة البقرة وآياتها ٢٨٦

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ① ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُولَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑤ ﴾

صفات المؤمنين وجزاء المتّقين

﴿ الٓمٓ ﴾: الله هو العالم بمعناه، وبمعنى الٓمٓصٓ، والٓمٓرٓ، والٓرٓ، وكٓهٰيٰعٓصٓ، وطٰهٰ، وطٰسٓمٓ، وطٰسٓ، ويٰسٓ، وصٓ، وحٰمٓ، وحٰمٓ عٓسٓقٓ، وقٓ، ونٓ.

وأذكُرُ بعض ما قيل: الهمزة: الله، واللام لطيف، قال الخليل: نحو بِهْ وكِهْ بالحركة وهاء السكت مسمَّيات، ونحو الباء والكاف اسم، قلت فمسمَّى الهمزة اهـ بالحركة بعدها هاء السكت، والاسم ءَاءْ بهمزتين بينهما ألف، ولم ينطق غيري بهذا.

﴿ذلك الكِتابُ﴾: القرآن الشبيه في علوِّ شأنه بالعالي حِسًّا كالعرشِ،

وأصل الإشارة أن تكونَ إلى محسوسٍ، فإذا أشير إلى غير محسوس لاستحالة إحساسه، مثل: ﴿ذَلِكُمُ ا للهُ ربُّكمْ﴾، أو لعدم حضوره نحو ﴿تِلْكَ الجنَّةُ﴾، فلِتحَقُّقِهِ كالمشاهَد، وعبارة البعد للتعظيم، ولأنَّ كلَّ ما انقضى أو ليس في يدك فهو بعيد.

﴿لاَ رَيْبَ فيهِ﴾: ليس أهلا لأن يشكَّ فيه عاقل لظهور براهينه، ومن شكَّ فيه أهو من ا لله فلِقصور نظره، أو عدم استعمال عقله؛ قيل: أو لا ريب فيه عند ا لله والمؤمنين والنبيء، ويضعف أن يكون المعنى لا تشُكُّوا فيه، لما علمت من ضعف مجيء الجملة الاسمية للإنشاء.

﴿هُدًى﴾: من الشرك والمعاصي. ﴿للمُتَّقين﴾: الذين قضى ا لله أن يرجعوا إلى التوحيد، والعبادة، وترك المعاصي، والحذر منها ومن العقاب عليها؛ أو ذلك ثابت لهم، أو زيادة، أو أراد للمتَّقين وغيرهم فَحُذِفَ، وهذا ضعيف؛ أو خصَّهم لأنَّهم الفائزون كقوله تعالى: ﴿إنَّما أنتَ منذرٌ مَنْ يَّخشاهَا﴾ (سورة النازعات:٤٥)، وكذا على الحذف.

والتقوى: تقوى الشرك وهي تقوى العوام، ولا تنفع في الآخرة بلا أداء فرض واجتناب فسق؛ وتقوى الخواص وهي تقوى الشرك والمعاصي مع أداء الواجب والسنن المؤكَّدة؛ وتقوى خَواصِّ الخواصِّ هي تقوى ما يُشغِل عن ا لله عزَّ وجلَّ، ويسمِّيه بعض العلماء ورع الصدِّيقين.

وهدى: خبر ثان لذلك، أو لا ريب محذوف الخبر، وفيه: خبر لهدى.

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾: في قلوبهم وألسنتهم لا فيها فقط. ﴿بِالْغَيْبِ﴾: بذي الغيب أو الغائب وهو الله جلَّ جلاله، وما أخبر عنه ممَّا سيكون في الدنيا أو الآخرة، أو كان ولم يشاهدوه، أو آمنوا بذلك وهم في غيب عنه.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾: يأتون بها في وقتها المختار لا الضروري -إلاَّ لعذر- بطهارة، وخشوع، وإخلاص، وترك ما يكره حتَّى كأنَّها كجسم مستقيم لا عِوَج فيه، أو كسُوقٍ أقيمت ورُغِب فيها، وذلك مستتبع لإقامة صلاة النفل، إلاَّ أنَّه لا عقاب عليها.

وقال الجمهور: المراد صلاة الفرض، وعليه ابن عبَّاس، ومثل هذا اللفظ حقيقة شرعية عن معنى لغوي مجاز لغوي كما هو المشهور، وقال الباقلاني[1]: مجاز، وقال المعتزلة: حقيقة شرعية مخترعة وليست منقولة عن معان لغوية.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾:طعاما، أو دراهم، أو ثيابا، أو دواب، أو عقارا، أو غير ذلك من الحلال، إذ لا مدح بإنفاق الحرام؛ لأنَّ التصرُّف فيه وإمساكه

---

١ - محمَّد بن الطيب بن محمَّد، أبو بكر الباقلاني (٣٣٨-٤٠٣هـ): فقيه، قاضٍ، من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرئاسة في مذهب الأشاعرة، ولد ونشأ بالبصرة وتعلَّم بها، واستدعاه عضد الدولة إلى بغداد، فولي القضاء فترة، وكانت وفاته ببغداد.

معجم المفسرين، ص٥٤٢

كفر نعمةٍ.

﴿يُنفِقُونَ﴾: في طاعة الله، كإنفاق مَن تجب نفقته مِن أهل ورحم، وتنجية مضطر وضيف، وإنفاق الزكاة، وكإنفاق تطوّعٍ، وكإنفاق نفسه بنية أن يتقوَّى على العبادة وأن ينفر عن مال الناس.

قيل: إن أُريدَ بالتقوى في قوله ﴿المتَّقينَ﴾ اتّقاء الشرك فالذين إلخ صفة مخصِّصة، أو تركَ المعاصي فكاشفة، أو تركَ ما لا بأس به مخافة أن يقع في البأس فمادحة؛ كما في حديث الترمذي عنه ﷺ: «**لا يبلغُ العبدُ أن يكونَ مِن المتقين حتّى يَدَع ما لا بأسَ به حذراً ممَّا فيه بأس**»(١).

﴿وَالذِينَ يُومِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: القرآن وسائر الوحي. ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: على الأنبياء من كتب وغيرها. ﴿وَبِالاَخِرَةِ﴾: البعث والموقف، والجنَّة والنار. قدِّم للاهتمام والفاصلة على قوله: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾. وذِكرُ الذين يومنون بما أنزل إليك تخصيص بعد تعميم، وهو شامل لمن لم يكفر - من أهل الكتاب - بسيدنا موسى أو سيدنا عيسى عليهما السلام، ولـمَّا

---

١ - رواه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب ١٩، رقم ٢٤٥١.

ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب البيوع، ج٥، ص٥٤٦، رقم ١٠٨٢٠، من حديث عطية السعدي.

بُعث سيدنا محمد ﷺ لم يَكفُرْ به ولكنَّه طَلبَ الدليلَ، فآمن به ﷺ كعبد الله بن سلاَّم، وكعب الأحبار، ﴿أولئك يوتون أجرهم مرَّتين﴾ (سورة القصص: ٥٤)، وقيل هم المراد.

وفي الآية ترغيب لأهل الكتاب في الإيمان، وعطف الذين عطف صفة في وجه العموم، وإن أُريدَ مؤمنوا أهل الكتاب فمجرَّد عطف، أو مبتدأ خبره أولئك إلخ.

﴿أُوْلَئِكَ﴾: الموصوفون بتلك الصفات، العالون شأنا ومرتبة، [قلت:] **وقس على ذلك سائر إشارات البعد في سائر القرآن، وما كان في السوء فإشارة البعد فيه للبعد عن مقام الخير.** ﴿عَلَى هُدًى﴾: متمكِّنون من الهدى تمكُّن الراكب من مركوبه القويِّ، المطاوع، الملجم في يد المستولي. ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾: آت من ربِّهم، أو ثابت منه دلالة وتوفيقا. ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾: كرَّر الإشارة إذ لم يقل: وهم المفلحون، تنبيها على مزيد الاعتناء بشأنهم، وعلى أنَّ اتِّصافهم بتلك الصفات يقتضي أن يحصل لهم الكون على الهدى من ربِّهم، وكونهم مفلحين كما قال:

﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: الفائزون بالحظِّ الأكمل: النجاة من النار، ودخول الجنَّة؛ وهذا حصر، فمن ترك الصلاة أو الزكاة فليس مفلحا، فهو في النار مخلَّد، لأنَّ مقابل الإفلاح الخسارُ والهلاك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾

صفات الكافرين

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ**﴾: من سبقت له الشقاوة كأبي جهل وأبي لهب، ممَّن نزل فيه الوحي أو لم ينزل. ﴿**سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ**﴾: أعلَمْتَهُم بما أنزل إليك من تخويف في وقت إمكان أن يتحرَّزوا بالإيمان عن الوعيد. ﴿**أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ**﴾ لسبق القضاء بأنَّهم ﴿**لاَ يُومِنُونَ**﴾، أخبره الله بذلك، لئلاَّ يتأسَّف على من أعلمه الله بشقاوته، وليقلَّ تأسُّفه على من أبى من الإيمان ولم يعلم أهو شقي، إذ يقول: لعلّه شقي فكيف أكثر التأسُّف عليه، وعلى كلٍّ حال لا يترك الإنذار والتبليغ إليه.

﴿**خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**﴾: لم يوفّقهم، سُمِّيَ القلب قلباً لتقلُّبه، روى البيهقي عن أبي عبيدة بن الجرَّاح عن رسول الله ﷺ: «**قلبُ ابن آدم مثلُ العصفور، يتقلَّب في اليوم سبع مرَّاتٍ**». وليس المعنى في الآية الإخبار - جلَّ الله -.

شبَّه الخِذلان بالربط أو الإغلاق على شيء حتَّى لا يدخله غيره،

فقلوبهم - من حيث عدم نفوذ الحقِّ إليها واستقراره فيها - كالخابية والخريطة[1] المختوم عليهما؛ وهذا تصوير للمعقول بصورة المحسوس للإيضاح، وكذا الختم في قوله: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾: أي آلات سمعهم فلذلك لا ينتفعون بما سمعوا من الحقِّ، قال ﷺ: «**إذا أذنب العبدُ ضُمَّ من قلبه هكذا - فضمَّ خنصره -؛ وإذا أَذْنب ضُمَّ من قلبه هكذا، فضَمَّ التي تليها، وهكذا إلى الإبهام**»[2].

والمراد بالقلوب هنا الجسم اللطيف القائم بالقلب الكثيف الصنوبري الشكل، قيام العرض بالجسم، وقيام الحرارة في الوقود، والبرودة بالماء، وبهذا اللطيف يحصل الإدراك، وترتسم المعرفة، وكذا الإسماع يقوم بصماخها جسم لطيف يدرك الأصوات.

﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾: غطاء عظيم كأنَّهم لا يرون بها، فيستدلُّون بما يرَونَ على قدرة الله؛ لـمَّا لَمْ ينتفعوا في الدين بالنظر بها كانوا كمن جعل على بصره غشاوة.

(بلاغة) وفي "خَتَم" استعارة تصريحية تبعية، وفي

---

١ - الخريطة: هنة مثل كيس من خرق أو أدر، تشرج على ما فيها، ومنه خرائط كتب السلطان **لسان العرب**

٢ - رواه البيهقي في شعب الإيمان، والهندي في كنز العمال:ج١/ص٢٤٢، رقم ١٢١٣ من حديث أبي عبيدة بن الجرَّاح.

"غشاوة" تصريحية أصلية، أو الاستعارة تمثيلية، شبَّه قلوبَهم، وأسماعَهم، وأبصارَهم، وأحوالَهم المانعة من الانتفاع بأشياء معدَّة للانتفاع منع مانع من الانتفاع بها.

﴿وَلَهُمْ﴾: على كفرهم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عِظمَ شِدَّة وأنواع ودوام؛ و لم يعطف ﴿إنَّ الذين كفروا﴾ لأنَّ المراد - وا لله أعلم - استئناف بيان أنَّ عدم اهتداء الأشقياء لسبق شِقوتهم، وبيان مقابلتهم بإصرارهم لمن اتَّصف بالكمال ومضادتهم، لا لقصور في القرآن عن البيان فإنَّه غاية في البيان.

وإنَّما ضلُّوا باختيارهم للسوء، كما قال قائل:

والنجمُ تستصغِرُ الأبصارُ رؤيتَه والذَّنب للطَّرف لا للنَّجمِ في الصِّغَرِ

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾

صفات المنافقين (١)

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾: أصله النَّوس، بفتح الواو، قلبت ألفًا لتحرُّكها بعد فتح؛ من ناس ينوس بمعنى: تحرَّك.

(لغة) ولا يخلو بنو آدم من تحرُّك، ووجه التسمية لا يوجبها، فلا يلزم أن يسمِّي ناسًا كلَّ ما يتحرَّك. أو أصله أناس، حذفت الهمزة وعوضت بأل ، وهو من الأُنس ضدُّ الوحشة، فالألف زائدة، والناس يستأنس بهم. قال بعض:

وما سمِّي الإنسان إلاَّ لأنسه ولا القلب إلاَّ أنَّه يتقلَّب

أو الأصل: نَيِسَ بكسر الياء، قلبت ألفًا لتحرُّكها بعد فتح، ووزنه على هذا: فلَع من النسيان، إذ لا يخلو من نسيان، قال الله عزَّ وجلَّ في آدم: ﴿فنسي ولم نجد له عزمًا﴾ (سورة طه: ١١٥) ويطلق على الجنِّ مجازًا، وقيل: حقيقةً.

﴿**مَنْ يَّقُولُ ءَامَنَّا**﴾ في قلوبنا وألسنتنا إيماناً مستمرًّا ﴿**با للهِ**﴾ وجودًا وألوهيَّة، ومخالفة لصفات الخلق ﴿**وبِاليَوْمِ الاَخِرِ**﴾ الوقت الآخر، وهو وقت البعث إلى ما لا نهاية له، والوقت الأوَّل وقت الدنيا؛ ولا يقال: الوقت الآخر وقت دخول الجنَّة والنار وقبله وقت، وهو البعث، وما بعده إلى الدخول، لأنَّ الإيمان بالبعث والموقف والحساب أيضًا واجب. ﴿**وَمَا هُمْ بِمُومِنِينَ**﴾ ذلك الإيمان الذي ادَّعوه، بل الإيمان في ألسنتهم، والكفر في قلوبهم، والخروج عن مقتضاه في جوارحهم.

﴿**يُخَادِعُونَ**﴾ أي يخْدَعون بفتح الياء وإسكان الخاء، فالمفاعلة ليست على بابها، بل بمعنى الفعل، وهو إظهار ما يوهم السلامة، وإبطان ما يقتضي

الإضرار بالغير، أو التخلُّص منه، أو هو أن توهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه وتصبيه به، ودخل في المكروه جلب نفع منه لا يسمح به لك أو لغيرك. ﴿ا للهَ والذِينَ ءَامَنُوا﴾ يظهرون خلاف ما أبطنوا، ويظنُّون أنَّ ا لله لا يعلم ذلك منهم، فأخبرنا ا لله عزَّ وجلَّ أنَّهم عامَلوا ا لله والمومنين بالمكر، وا لله لا يخفى عليه شيء؛ أو يخادعون ا لله مخادعة مجاز، على أنَّهم معتقدون لكون ا لله عالـمًا بما في قلوبهم، وذلك أنَّ تلفُّظَهم بالإيمان وإظهار مقتضياته، مع مخالفته في الأعمال والقلوب، شبيه بالخداع؛ ويقدَّر محذوف، أي ويخادعون المؤمنين خداعًا حقيقيًّا، إذ يدفعون ـ بإظهار الإيمان وشأنه ـ القتلَ والسبي وما يصنع بالمشركين، ويجلبون الإكرام والمعاملة بمعاملة المؤمنين، وإنَّما قدرت محذوفًا لئلاَّ يكون لفظ «يخادع» في مجازه وحقيقته معًا.

أو أراد: يخادعون الذين آمنوا، وذُكِر ا لله معهم إكرامًا وتعيظمًا لهم بأنَّه من خانهم فقد خان ا لله، أو يخادعون نبيء ا لله، قال ا لله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ يُبَايِعونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ا للهَ﴾ (سورة الفتح: ١٠)، ﴿مَن يُّطِعِ الرَّسُولَ فقدَ اَطَاعَ ا للهَ﴾ (سورة النساء: ٨٠). والحاصل أنَّ لفظ المفاعلة مبالغة، ويجوز إبقاؤُها على معناها مجازًا، وذلك أنَّهم أظهَروا الإيمان وهم كافرون، وا لله عزَّ وجلَّ أجرى عليهم أحكام المؤمنين، وهم عنده غير مؤمنين، ولهم عنده الدرك الأسفل من النار.

(بلاغة) وإجراء المؤمنين تلك الأحكام تشبه صورة

المكر بهم، إذ ليس لهم ما لمن تحقّق إيمانُه في الآخرة، وذلك استعارة تمثيليَّة في الكلام، أو مفردة تبعيَّة في «يخادعون» والله عزَّ وجلَّ لا يكون خادعًا إذ لا يخاف أحدًا، ولا يُنقِص فعلَه أحدٌ إذا أجهره، ولا مخدوعًا لأنَّه لا يخفى عليه شيء، ولا يناله مكروه، ولا ينتفع بشيء. وإذا قدَّرنا: «يخادعون نبيء الله» تقدير معنًى ففيه إيقاع الفعل على غير ما يوقع عليه للملابسة بينهما وهي الخلافة، وذلك مجاز عقليٌّ في النسبة الإيقاعيَّة لا الوقوعيَّة.

﴿وَمَا يُخَادِعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ ما يُعاملون بمضرَّة الخداع إلاّ أنفسهم وهي الافتضاح بإخبار الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بما أخفوه والعقابُ في الآخرة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون أنَّ وبال العقاب راجع إليهم. وإنَّما فسَّرتُ يخادع بيخدع لأنَّ الله والمؤمنين لا يخدعونهم.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر بالقرآن والنبيء ﷺ، وعداوته وعداوة المؤمنين وسوء الاعتقاد والجهل، وذلك شبيه بمرض الجسم في الإيصال إلى مطلق الضرِّ، فإنَّ المرض موجع وقاتل ومانع من التصرُّف في المصالح، وما في قلوبهم مؤدٍّ إلى النار مانع من التصرُّف بأعمال الإسلام.

(بلاغة) أو يُشَبَّه تألُّم قلوبهم بقوَّة الإسلام وانتظام أمره بتألُّمهم بمرض البدن، فسمَّى التألُّم مرضًا، وحقيقة المرض حالة خارجة عن الطبع ضارَّة بالفعل لا بالقوَّة خاصَّة، والقرينة المشروطة في

المجاز تمنع الحقيقة، ولا يلزم أن تمنع احتمال مجاز آخر فلـك حمـل الآيـة على هذا التألُّم وعلى ما ذكرت قبل.

﴿فَزَادَهُمُ﴾ بسبب ذلك المرض ﴿ا للهُ مَرَضًا﴾ بما أنزل من القرآن بعدما كفروا بما أنزل منه قبلُ، وا لله يجازي المذنب بالإيقاع في ذنب آخر، كما يجازي المطيع بالتوفيق إلى طاعة أخرى، وكلَّما نزلت آية أو وحي كفروا به لأنَّه طبع على قلوبهم، وذلك زيادة مرض. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجَع بفتح الجيم.

(بلاغة) والموجع بفتحها حقيقة هم لا العذاب، لكن أكَّد شدَّة العذاب حتَّى كأنَّه معذَّب بفتح الذال، وهذا بليغ، ولا بلاغة في قولك: «عذاب موجِع» بكسر الجيم، فأليم، فعيل، بمعنى مُفعَل، بضمِّ الميم وفتح العين، ولك إبقاؤه على ظاهره، أي متوجِّع بكسر الجيم، ففيه البلاغة.

﴿بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ﴾ أي بتكذيبهم النبيء ﷺ. و«ما» مصدريَّة، وجرت عادتهم بالاكتفاء بالمصدر من خبر كان الذي بعدها، والأصل أن يقال: بكونهم يكذبون، ولا حاجة إلى قولك: بالتكذيب الذي كانوا يكذبونه النبيء ﷺ، أو بتكذيب يكذبونه النبيء ﷺ، على أنَّ «ما» اسم موصول أو نكرة موصوفة، والهاء مفعول مطلق.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

صفات المنافقين (٢)

﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**﴾ المعنى: من الناس من يقول: آمنَّا با لله وبـاليوم الآخر وهو كاذب، ويقول: إنَّما نحن مصلِحون إذا قيل لهم لا تفسدوا، ويقـول: أنومن كما آمن السفهاء إذا قيل لهم: آمنـوا، ويقـول للمؤمنـين آمنـَّا، ويقـول لأصحابه: إنـَّا كـافرون. ﴿**لاَ تـُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ**﴾ بـالكفر وأعمالـه، والمعاصي، وبمنع الناس عن التوحيد وأعماله، **فـإنَّ الإسـلام صـلاح لـلأرض والكفر فساد**، وليس من صفات ا لله ولا أفعاله، فإذا أزال ا لله الثمار أو نـورَ البصر أو نحو ذلـك فـلا تقـل: أفسـدها، والأرض أرض المدينـة، أو جنـس الأرض، وليست للاستغراق. ﴿**قَالُوا: إِنـَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ لـلأرض من مكارم الأخلاق، كالصدقة وقريِ الضيف.

وهذا جواب بالإعراض عمَّا نُهُوا عنه مـن الكفـر والمعـاصي، والأَوْلى أن يكـون الجـواب لـه فيكـون المعنـى: مصلحـون الأرض بمـا نفعـلُ مـن الكفـر وأعماله، والمنع عـن التوحيـد، والإفسـاد هـو مـا عليـه المؤمنـون مـن التوحيـد

والدعاء إليه، والعمل بمقتضاه؛ وعطف الجملة على ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أو على ﴿كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ فينسحب عليها معنى الباء، والأصل في التعليل أو السببيَّة في غير مقامِ مجرَّدِ الإخبارِ أن يكون بوصف معلوم عند المخاطب ولو بالالتزام، وهذه الشرطيَّة غير معلومة الانتساب، لكن لا مانع من التعليل أو التسبُّب بما ليس عنده إخبارا بالواقع، وأنَّه أحقُّ، ولو لم يعرف، وأنَّه كيف لايعرف!.

﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْـمُفْسِدُونَ﴾: انتبهوا أيُّها الناس، قد تأكَّد أنَّ هؤلاء مفسدون دون المؤمنين، فالحصر إضافيٌّ، وإن فسَّرنا الفساد بالنفاق كان حقيقيًّا، لأنَّه لا نفاق إلاَّ فيهم، بخلاف مطلق الفساد ففي غيرهم من المشركين أيضًا، والوجهان في أنَّهم هم السفهاء. ﴿وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ بأنَّهم المفسدون، أو بوبال كفرهم، أو لا شعور لهم البتَّة هكذا، ولو استعملوا عقولهم لشعروا.

ذكر هنا الشعور لأنَّ الفساد يعرف بلا تأمُّل، والسفه يعرف بالتأمُّل، فذكر معه العلم، كما قيل:

يُقضَى على المرءِ في أيَّامِ مِحْنَتِهِ حتَّى يرَى حسنًا ما ليس بالحَسَنِ

ولم يذكر لكن في المخادعة لأنَّه لم يتقدَّم عليها ما يتوهَّم منه الشعور.

﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ أي قال النبيء ﷺ أو بعضُ أصحابه ﴿لَهُمْ, ءَامِنُوا﴾ بما

يقول النبيء ﷺ ﴿كَمَآ ءَامَنَ النَّاسُ﴾ المعهودون الكاملون، أصحاب النبيء ﷺ ومن آمن به و لم يحضره بعد إيمانه وهو من التابعين لا من الصحابة ولو كان في عصره. ﴿قَالُوٓاْ﴾ فيما بينهم، أو بحضرة من أمرهم بالإيمان بحيث يجدون السبيل إلى إنكار القول، أو عند المؤمنين بحيث لا يسمعون قبلُ، أو عند من لم يفش سرَّهم من المؤمنين لقرابة أو مصلحة وهو قول ضعيف، والأصل أنَّ المؤمن لا يستر عليهم، وعلى كلٍّ كشفهم الله عزَّ وجلَّ ولو جهروا مطلقًا لم يسمُّوا منافقين.

﴿أَنُومِنُ﴾ توبيخ لمن أمرهم بالإيمان ولو غاب، أو إنكار لأن يكون الإيمان حقًّا يؤمر به. ﴿كَمَآ ءَامَنَ السُّفَهَآءُ﴾ الصحابة ومن آمن ولو لم يكن صحابيًّا، نسبوا من آمن إلى السفه، وهو الجهلُ ووضعُ الشيء في غير وجهه، ويطلق على نقصان العقل والرأي؛ أو أرادوا من يُحتَقَر من المسلمين لفقره أو ضعفه أو عبوديته كصهيب وبلال، وأكثر المسلمين فقراء؛ أو أرادوا بالسفه مطلق الخسَّة بالجهل أو الفقر أو غيره. **والحاصل** أنَّهم قالوا: لا نفعل فعل السفهاء وهو الإيمان وذِكرُ اللهِ عزَّ وجلَّ، نهي الناهي لهم عن الفساد ثمَّ أمر الآمر لهم بالإيمان لأنَّ التخلّي قبل التحلّي. ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ﴾ الجهلاء المحتَقَرون لكفرهم، ردٌّ عليهم بأنَّ السفه بالكفر ومساوئ الأخلاق لا بالفقر، فلا يلزم أن يكون هذا معينًا للتفسير الأوَّل في السفهاء. ﴿وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ مَنِ السفيه وما السفه.

ذكر هنا العلم وهناك الشعور لأنَّ الإفساد يدرك بأدنى تأمُّل، بخلاف السفه والأمر بالإيمان، وأيضًا السفه خفَّة العقل والجهلُ بالأمور، فناسب نفيَ العلم أتمَّ مناسبة.

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَٰلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

صفات المنافقين (٣)

﴿وَإِذَا لَقُوا الذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ أي ذَكروا ما يفيد أنَّهم آمنوا من سائر الأقوال والأفعال، وذلك أنَّ الإيمان قد علم منهم في الظاهر قبل ذلك، وذلك دفعٌ للمؤمنين عن أنفسهم واستهزاء.

ولا يتكرَّر مع ما مرَّ لأنَّه إبداء لخبثهم وخوفهم، وادِّعاء أنَّهم أخلصوا الإيمان، ولأنَّه بيان لكونهم يقولون ذلك خداعًا واستهزاءً وأنَّهم يقولون ذلك عند الحاجة إليه فقط، وذلك عند لقاء المؤمنين. ﴿وَإِذَا خَلَوا﴾ عن المؤمنين راجعين ﴿إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ أو خلوا مع شياطينهم، يقال خلوت إليه أي معه، وشياطينهم رؤساؤهم: كعب بن الأشرف من اليهود في «المدينة»، وأبو بردة في «أسلم»، وعبد الدار في «جهينة»، وعوف بن عامر في «أسد»، وعبد الله بن الأسود في «الشام»، وغيرهم مِمَّن يخافونه من كبار المشركين والمنافقين، سمَّاهم شياطين تشبيهًا لمزيد فسادهم وإغوائهم.

وذكر بعضٌ أنَّ هؤلاء المذكورين كهنة، وقيل الشيطان حقيقة في كلِّ متمرِّد من الجنِّ أو من الإنس، وليس المراد الكهنة خلافًا للضحَّاك، ولو كان مع كلِّ كاهن شيطان لأنَّهم أهون من أن يتملَّقوا إليهم بقولهم «إنَّا معكم» كما قال الله عنهم: ﴿قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ في الدين اليهوديِّ إن أُريدَ بشياطينهم اليهود، وإن أريد به مشركوا العرب فالمراد: معكم في الإشراك. ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ بالمؤمنين في قولنا: آمنَّا لا مؤمنون حقيقة، بل قلنا ذلك لنكفَّ عنَّا القتل والشرَّ والسبي، ونجلب الخير كالأخذ من الصدقة والغنيمة مع الاحتقار والتهكُّم بهم، ولا تظنُّوا أنَّنا تبعناهم.

(لغة) والاستهزاء بمعنى الهزء كالاستعجاب بمعنى العُجب، وهو الاستخفاف والسخرية، وأصله الخفَّة، يقال: هزأت به الناقة أسرعت به.

روي أنَّ ابن أُبيّ عبد الله وأصحابه جاءهم نفر من الصحابة لينصحوهم فقال لقومه: انظروا كيف أردُّ هؤلاء السفهاء عنكم، فأخذ بيد أبي بكر الصدِّيق فقال: مرحبًا بالصدِّيق وشيخ الإسلام، ثمَّ أخذ بيد عمر وقال: مرحبًا بالفاروق القويِّ في دينه، ثمَّ أخذ بيد عليٍّ وقال: مرحبًا بابن عمِّ رسول الله وسيِّد بني هاشم، فقال له: يا عبد الله اتَّق الله ولا تنافق، فقال له: مهلاً يا أبا الحسن، إنِّي لا أقول هذا والله، إلاَّ أنَّ إيماننا كإيمانكم، ثمَّ افترقوا، وقال لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فإذا رأيتموهم فافعلوا مثل ما فعلت، فأثنوا عليه وقالوا: لا نزال بخير ما عشت فينا، وأخبر المسلمون النبيء بذلك ونزلت الآية، **وليس ذلك عين سبب النزول بل مناسبة**، لأنَّ أُبيًّا قال

لأصحابه: انظروا كيف أفعل.

(بلاغة) والجملة مستأنفة في كلامهم بلا تقدير سؤال هكذا: ما لكم توافقون المؤمنين؟ لقول عبد القاهر: موضوع "إنَّما" أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحَّته، إلاَّ أنَّه قد يصوِّر السؤال في صورة لا تحتاج إليه فيجوز التقدير المذكور؛ وقد لا نسلِّم قول عبد القاهر إلاَّ إن ادَّعى أنَّ ذلك أصل "إنَّما" و"أنَّ" مدخولها معلوم، وجيء بها لإفادة الحصر، وليس كذلك أيضًا، فإنَّك تقول: إنَّما قام زيد، لمن لا شعور له بقيامه وحده لا مع غيره ولا بقيام غيره دونه.

﴿ا للهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يجازيهم على استهزائهم مرَّة بعد أخرى، فإنَّ نكاية ا لله فيهم متعدِّدة في الدنيا ولا تنقطع في الآخرة، فذلك استعارة تبعيَّة أو مجاز مرسل، لأنَّ بين الفعل وجزائه مشابهة في القدر ونوع تسبُّب مع وجود المشاكلة، أو يراد إنزال الحقارة من إطلاق السبب على المسبَّب.

ومن الاستهزاء بهم في الآخرة أنَّه يفتح باب إلى الجنَّة فيجيء في كربه حتَّى إذا وصله أغلق، أو يكرَّر له ذلك حتَّى يفتح له ولا يجيئه، كما ورد في الحديث. ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ يطيل أعمارهم، أو يزيدهم طغيانًا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ مجاوزتهم الحدَّ بالكفر ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتردَّدون هل يبقون عليه أو يتركونه، أو هل يعكفون فيه ويلازمونه.

﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى﴾ تركوا الهدى الذي في وسعهم وطاقتهم، جعل الهدى الذي لم يوجد لهم كالموجود، لأنَّه في طاقتهم ويولدون عليه، ولظهور حججه حتّى كأنَّهم قبلوه، وجعل الإعراض عنه والتلبُّس بضدِّه الذي لا يجتمع معه كالشراء فسمَّاه شراء.

الإشارة إلى المنافقين المذكورين في تلك الآيات بتلك الأوصاف لا إلى أهل الكتاب كما قيل، ولا إلى الكفّار مطلقًا كما قيل، لأنَّ النزول في غيرهم لا فيهم، ولو وجد المعنى فيهم فضلاً عن أن تفسَّر بهم. ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ انتفى عنهم الربح في تجارتهم المعهودة التي هي شراء الضلالة بالهدى، بل خسروا أبدانهم وأوقاتهم وأموالهم إذ لم ينالوا بها الجنَّة، وأضاعوا منازلهم وأزواجهم في الجنَّة، وصاروا للنار بتلك الضلالة.

والهدى هنا هو اسم مصدر بمعنى الاهتداء، أو اسم للمعنى الحاصل من الهداية، كأنَّه قيل: اشتروا الضلالة بالاستقامة، وإسناد الربح إلى التجارة إسناد إلى السبب أو الملزوم أو المحلِّ.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ إلى طريق التجر والربح إذ أضاعوا رأس المال والربح، والآية كناية عن انتفاء مقصد التجر وهو الربح مع حصول ضدِّه وهو الخسارة، وذلك شأن الدِّين إمَّا الربح أو الخسارة، بخلاف تجارة المال، فقد لا تربح ولا تخسر، أو كناية عن إضاعة رأس المال، فإنَّ من لم يهتد بطرق التجر تكثر الآفات على ماله، أو المراد أنَّهم لم يتَّجروا فلا ربح، كقوله:

على لاَحِبٍ لا يَهْتدي بمنارةِ أي لا منار فيه.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

إيراد الأمثال للمنافقين

﴿**مَثَلُهُمْ**﴾ صفتهم الشبيهة في الغرابة عقلاً وشرعًا بما يضرب مثلاً لغرابته ﴿**كَمَثَلِ**﴾ كصفة ﴿**الَّذِي**﴾ الرجل الذي، ولا بأس بتشبيه الجماعة بالمفرد، والمراد الجنس فضمير المفرد بعده للفظه، وضمير الجمع لمعنى الجنس، ويجوز أن يقدَّر: الفريق الذي؛ والكلام في الضمائر كذلك. ﴿**اسْتَوْقَدَ**﴾ ليلاً ﴿**نَارًا**﴾ بالغ في إيقادها، وعالجه في ظلمته، وهذا لبقائه على الأصل أولى من تفسيره بأوقد.

ويجوز أن تكون النار تمثيلا بنار لا يرضى الله إيقادها كنار الفتنة للإسلام، أو حقيقة أوقدها الغواة للشرِّ فيليق بالحكيم إطفاؤها. ﴿**فَلَمَّا أَضَاءَتْ**﴾ أنارت إنارة عظيمة ﴿**مَا حَوْلَهُ**﴾ في جهاته من الأرض، وتمكّن

مِمَّا أوقدها لأجله من الإبصار والاستدفاء، والأمن مِمَّا يخاف والطبخ للأكل ونحو ذلك من المنافع ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ أذهب الله نورهم بإطفائه فلا نور فضلاً عن الإضاءة.

والنور منشأ الضياء، ووردا جميعًا في شأن سيِّدنا محمَّد وسيِّدنا موسى صلَّى الله وسلَّم عليهما؛ وقيل: الضياء أقوى من النور لقوله تعالى: ﴿هو الذي جَعَلَ الشمسَ ضِيآءً والقمرَ نورًا﴾ (سورة يونس: ٥)؛ وقيل: مترادفان، وقيل: الضياء ما للشيء مِن ذاته، والنور من غيره؛ ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ صيَّرهم ﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾ ظلمة واحدة كأنَّها ظلمات لشدَّتها، أو ظلمات متراكبة من الليل، أو ظلمة الليل وظلمة الغمام وظلمة انطفاء النار، وذلك من حال المستوقدين يُشبهُه من حال هؤلاء المنافقين مضرَّة الكفر ومضرَّة النفاق وظلمة يوم القيامة ﴿يومَ ترَى المومِنِينَ والمومناتِ يسعَى نورُهمْ بين أيديهم وبأيمانهم﴾ (سورة الحديد: ١٢) ومضرَّة العقاب. ﴿لاَ يُبْصِرُونَ﴾ ما حولهم من الطريق فضلا عن أن يستدفئوا، أو يطبخوا، أو يحصل لهم الأمن من مضارِّ الحفير والسبع والحيَّة ونحو ذلك، وهذا منهم يشبه حال المنافقين إذا ماتوا جاءهم الخوف والعذاب بعد أمنهم في الدنيا على أنفسهم وأموالهم وأولادهم بكلمة الشهادة في ألسنتهم.

﴿صُمٌّ﴾ أولئك الـمُشتَرَوا الضلالةِ صمٌّ، أوْ هُم صمٌّ ﴿بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ شُبِّهوا في عدم قبول الحقِّ بمن لا يسمع ولا يتكلَّم ولا يبصر، فهم لا يعرفون الحقَّ كأنَّهم لم يسمعوه، ولا يتكلَّمون به ولا يبصرون طريق الهدى ﴿فَهُمْ

﴿لاَ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الحقِّ كما أنَّ الأصمَّ لا يسمع، والأخرس لا يتكلَّم، والأعمى لا يبصر، ﴿كَمَثَلِ الذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا...﴾ إلخ.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ وكمثل أهل صيِّب، أو: بل كمثل أهل صيِّب.

أو يتنوَّع من ينظر إليهم في شأنهم بعقله إلى من يشبههم بالمستوقد المذكور، وإلى من يشبههم بأهل الصيِّب، أو يشكُّ الناظر في شأنهم أنَّهم كالمستوقد أو كالصيِّب، أو يباح للعاقل أن يشبِّههم بمن شاء منهما، أو يخيَّر أن يقصر التشبيه على أحدهما.

(لغة) والصيِّب المطر المنحدر من السماء، والصوب الانحدار، والأصل: صَيْوِبٌ على الخلاف في باب سيِّد قلبت الواو ياءً وأدغمت فيها االياء، وهو وزن في مُعلِّ العين، وشذَّ في الصحيح كصيقل، وقيل: هو بوزن طويل فقلب، وشهر أنَّ لفظ صيِّب اسم، وقيل: وصف بمعنى نازل، وزعم بعض أنَّه بمعنى مُنْزَل، وبعض أنَّه اسم بمعنى السحاب.

﴿مِنَ السَّمَآءِ﴾ السحاب، أو من جهة السماء وجهتها السحاب، وذكر ذلك مع أنَّه لا يكون الصيِّب إلاَّ من السحاب وجهةِ السماء تلويحًا إلى أنَّه من جميع آفاقها. ﴿فِيهِ﴾ في الصيِّب كما يتبادر، أو في السماء أي السحاب وهو أولى، لأنَّ الرعد ملكًا كان أو

صوته أو صوت ماء هو في السحاب لا في المطر، ولو كان البرق يصل الأرض لأنَّه أوَّلاً يجيء من السحاب. ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ متراكماتٌ، ظلمة السحاب ففيه ظلمة ولو في أجزائه، وظلمة المطر وظلمة الليل المدلول عليه بقوله: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾.

يجوز كون «فيه» نعتًا لـ«صيِّبٍ»، أو حالاً وظلمات فاعله. ﴿وَرَعْدٌ﴾ الرعد: ملَك سمِّيَ صوته باسمه، أو يقدَّر مضاف أي صوت رعد أو اسم موضوع لصوت ملك السحاب، أو هو صوت تضارب الماء، وذلك الصوت مطلقًا صاعقة كما يأتي قريبًا، والمراد أصوات بدليل جمع الصواعق. ﴿وَبَرْقٌ﴾ قيل: ملك على هيئة النور، أو نور سوطه الذي يزجر به السحاب، لا كما قيل: إنَّه سوط من نار يزجر به السحاب، وأُفرِدا لأنَّهما مصدران الآنَ، أو في الأصل؛ وزعم بعضٌ أنَّهما أفرِدا لأنَّ الرعد يسوق السحاب فلو كثر لتفرَّق السحابُ ولم يكن مطبقًا فتزول شدَّة الظلمة، ولو كثر البرق لم تطبق الظلمة، وبعض أنَّه لم يجمع النور في القرآن فلم يجمع البرق. ﴿يَجْعَلُونَ﴾ يجعل الناس الذين حضرهم الصيِّب، دلَّ عليهم أنَّ المقام لذكر ظلمات الصيِّب، والجعل لكونه أدلَّ على الإحاطة أبلغ من الإدخال، ﴿أَصَابِعَهُمْ﴾ أطراف أصابِعِهم على المجاز بالحذف، أو سمَّاها باسم الأصابع لأنَّها بعضها، والمجاز لغويٌّ، ونكتته التهويل بصورة جعل الأصابع إلى أصولها؛ أو لا مجاز، لأنَّ واضع طرف إصبعه على شيء يصدق عليه أنَّه وضع إصبعه عليه بلا قرينة ولا علاقة، كما أنَّ قولك: مسسته بيدي حقيقة، ولو كان اللمس ببعضها، وكما في قوله: ﴿فِي ءَاذَانِهِمْ﴾ فإنَّه حقيقة مع أنَّ

الجعل ليس في كلِّ الأذن، وأطلق الأصابع مع أنَّ المعهود السبَّابة لدهشهم، حتَّى إنَّهم يدخلون أيَّ إصبع اتَّفقت؛ ويجوز أن يكون المجاز عقليًّا بإسناد الجعل للأصابع مع أنَّه للأنامل. ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ المعهودة بالمعنى في قوله: ﴿وَرَعدٌ﴾ لا باللفظ كقوله تعالى: ﴿وليسَ الذَّكَرُ كالأُنثَى﴾ فإنَّ قولها: ﴿ما في بطني﴾ أرادت به الذَّكر، والمراد بها شدَّة الصوت.

والأكثر في الصاعقة صوت مع نار، أو نار بلا صوت، لا تمرُّ على شيء إلاَّ أحرقته وذلك من الجوِّ، وقد يكون معها حجر أو حديد. ويجوز حمل الآية على الصوت مع النار على أنَّهم توهَّموا أنَّ عدم سماع ذلك الصوت منجٍ لهم من أن تصيبهم نار، فيكون الكلام تمثيلاً بقوم شأنهم ذلك التوهُّمُ، فجعلوا أصابعهم في آذانهم لئلاَّ يسمعوا، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ المشهور أنَّ الصاعقة الرعد الشديد معه قطعة نار، بل هي قطعة النار سواء مع صوت أو دونه.

(لغة) وهو في الأصل صفة من الصعق بمعنى الصراخ، وتاؤه للتأنيث صفة لمؤنَّث، أو للمبالغة كراوية لكثير رواية الشعر، وليس قولهم للنقل من الوصفيَّة إلى الاسميَّة خارجًا عن ذلك لأنَّ حاصله أنَّه كان وصفًا مؤنَّثًا بالتاء ثمَّ صار اسمًا؛ وقيل: مصدر كالعافية والعاقبة.

﴿حَذَرَ الْـمَوْتِ﴾ لأجل حذر الموت بالسمع، وهو تعليل للعلَّة الأولى

التي هي قوله: ﴿مِنَ الصَّواعِقِ﴾ مع معلّله، وإنَّما الممنوع ترادف علل على معلول مجرَّد بلا تبعيَّة، أو يقدَّر: حاذرين من الموت، أو: ذي حذر من الموت، أو: يحذرونها حذر الموت.

(بلاغة) وحاصل الشبه بالصيِّب المذكور أنَّ القرآن شبيه بالمطر إذ هو سبب لحياة الدنيا، والقرآن سبب لحياة القلوب، وأنَّ الكفر شبيه بالظلمات في مطلق الإهلاك وعدم الاهتداء، وفي مطلق الحيرة، والوعيدُ عليه شبيه بالرعد في الإرهاب، والحججُ شبيهة بالبرق في الظهور والحسن، وسدُّ آذانهم عن سماع القرآن شبيه بسدِّها عن الصواعق، وتركُ دينهم شبيه بالموت عندهم، وذلك تشبيه مفردات بمفردات، وإن شئت فتشبيه مجموع بمجموع تمثيليٌّ.

﴿وا لله مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ بأجسامهم واعتقادهم وأقوالهم وأفعالهم، ولا يخفى عنه ما يعاقبهم عليه، أو قلْ: وعقاب ا لله محيط بالكافرين؛ شبَّه قدرته بإحاطة المحيط بالشيء تشبيهَ الكامل بالناقص على الاستعارة الأصليَّة، واشتقَّ منه محيط على التبعيَّة، أو الاستعارة تمثيليَّة، أو الإحاطة الإهلاك، ومن معناه: ﴿بلى مَن كسبَ سيِّئة وأحاطتْ به خطيئاته فألئكَ أصحابُ النَّار﴾ (سورة البقرة: ٨١)؛ أو عالم علم مجازاة، ومن معناه: ﴿ليعلَم أنَّ قد ابلغوا رِسالاتِ ربِّهم وأحاط بما لدَيْهِمْ﴾ (سورة الجن: ٢٨).

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ المعهود في الآية قبلُ ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ أبصار أهل الصيِّب، يقرب أن يأخذها بسرعة، وإسناد الخطف إلى البرق مجاز للسببيَّة.

(لغة) ونفي كاد نفيٌ، وإثباتها إثباتٌ كسائر الأفعال، وغير هذا تخليط، وإذا قلت: كاد يقوم، فمعناه: قرب، وإذا قلت: لم يكد يقوم مع أنَّه قام فمعناه: لم يقرب للقيام ثمَّ قرب وقام.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ﴾ ظهر البرق، أو أظهر البرق الطريق ﴿لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ يمشون في ضوئه كلَّ إضاءة، أي كلَّ وقت إضاءة، أو في الطريق المدلول عليه بالمشي، كما قدَّر بعض: كلَّما أضاء لهم مَمْشًى مشوا فيه، وذلك أنَّ المشي في مطرح البرق لا في البرق، والهاء للبرق، وكلٌّ ظرفٌ لإضافته إلى المصدر المنسبك بما المصدريَّة المستعمل ظرفًا كجئت طلوعَ الشمس؛ ويجوز أن يكون لازمًا بمعنى: وقعوا كما فسَّرتُه أوَّلاً: كلَّما لمع مشوا في مطرح ضوئه. ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ﴾ الطريق المدلول عليه، أو أظلم البرق أي زال، أو الجوُّ ﴿عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أمسكوا عن المشي ﴿وَلَوْ شَآءَ اللهُ﴾ أي لو شاء إذهاب سمعهم وأبصارهم ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ أي سمع المنافقين، الإضافة للحقيقة أو الاستغراق، وكأنَّه قيل: بأسماعهم كما قال: ﴿وَأَبْصَارِهِمْ﴾ عيون المنافقين الظاهرة كما ذهب ببصائر قلوبهم الباطنة فلا تقبل الحقَّ، ويجوز عود الهاءين لأصحاب الصيِّب، لأنَّ بصائرهم ولو كانت لا تعمى بالظلمات لكن المراد التقوية للصيِّب وشأنه، المشبَّه بهما حال المنافقين فإنَّ تقويتهما تقوية لحالهم في الهول فيكون شبَّههم بالمستوقد ثمَّ الصيِّب الموصوف بما ذكر، وبأنَّه لولا أنَّ الله حفظ سمع أهله وأبصارهم لذهبت بالبرق والرعد.

ومشيهم في البرق تشبيه لميلهم إلى بلاغة القرآن وصدقه ووعده بالخير، وإمساكهم عن المشي عند ذهاب البرق تشبيه لوقوفهم عمَّا يكرهون من تسفيه دينهم ورفض آلهتهم. والمشيئة والإرادة بمعنًى، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّ أصل المشيئة الإيجاد واستعمل بمعنى الإرادة، والباء للتعدية، أي أذهب أسماعهم، وقيل: ذهبت بكذا، وذهبت معه، وإذا لم يذهب فللتعدية، أو مجاز في المعيَّة. ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ أي على كلِّ شيء ممكن.

(أصول الدين) وأمَّا المستحيل في حقِّه كاتِّخاذ الصاحبة والولد، فلا تقل: هو قادر عليه لأنَّ الاتِّصاف بالقدرة عليه اتِّصاف بجوازه، ولا غير قادر عليه لأنَّ هذه صيغة عجزٍ تعالى عنها، ولأنَّه فرع عن تقرُّره هكذا في الجملة وهو غير متقرِّر تعالى عنه.

أو المعنى: كلُّ شيء شاءه، أي لا يردُّه رادٌّ عمَّا أراد وقوعه، مع ذلك هو قادر على إيقاع ما لم يسبق قضاؤه بوقوعه من الممكنات إجماعًا، وما لم يكن ولا يكون لا يسمَّى شيئًا، ونسبه بعضٌ لأصحابنا، وقيل: شيءٌ، وهو الصحيح عندي، وأمَّا المستحيل فلا يسمَّى شيئًا. والآية ونحوها من الآي والحديث تدلُّ على جوازه في كلِّ معدوم ممكن، ويطلق على المحال بمعنى ملاحظته؛ ولا يقال: قادر عليه ولا غير قادر، ومعنى ﴿هوَ عليَّ هيِّنٌ وقدْ خلقْتُكَ من قبلُ و لَمْ تكُ شيئًا﴾ (سورة مريم: ٩) لم تكن شيئًا موجودًا بل شيئًا معدومًا.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

الأمر بعبادة الله وحده والأسباب الموجبة لها

﴿يـآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ لم يقع النداء في القرآن بغير "يا"، وهي الأصل، فما حذف منه حرف النداء مثل: ﴿ربَّنا لا تواخِذْنا﴾ وآية المومنون قُدِّر فيه يا لِذكرها في غيره ولأصالتها. و«يا أيـُّها الناس» مكّيٌّ، وقَلَّ مدنيـًّا كما في هذه السورة و«النساء» و«الحجرات» فإنَّهنَّ مدنيَّات.

(بلاغة) والنداء هنا وفي ﴿يـآ أيـُّها الإنسانُ﴾ ونحوها للتنبيه على ما يصلح، ويأتي للمدح نحو ﴿يـآأيـُّها الرسول﴾ ﴿يـآأيُّها النبيء﴾ ﴿يـآأيـُّها الذين ءامنوا﴾، وللذمِّ نحو: ﴿قل يـآأيـُّها الكافرون﴾ وليس منه: ﴿يـآأيـُّها الذين هادوا﴾ إلاَّ المعنى الذي ادَّعوا أنـَّهم تابوا إلى الله، إلاَّ أن يُدَّعى خروجه عن معناه الأصلي إلى معنى الذين بقوا على اليهوديَّة مع بعثة محمَّد ﷺ؛ ويكون للعتاب كقوله تعالى: ﴿يـآأيـُّها المدَّثـِّر﴾ و﴿يـآأيـُّها المزَّمـِّل﴾ والآيتان للإنشاط والإراحة من ضيق كالمفاكِهِ لغيره، ويكون لغير ذلك.

والخطاب في مثل هذه الآية للموجودين المكلَّفين والآتين بعدُ إلى قيام الساعة، ولو مجانين أو صبيانًا بقيد الإفاقة والبلوغ، وذلك تغليب؛ وقيل: للمكلَّفين الموجودين في مهبط الوحي، وأمَّا غيرهم فبالنصِّ أو القياس، أو الإجماع، لا بصيغة النداء ونحوها، وعلى الأوَّل خوطبوا إذا بلغوا أو أفاقوا من زمان الوحي.

قال بعضهم: الأصحُّ أنَّ نحو ﴿يآأيُّها الناس﴾ يشمل الرسول ﷺ ولو قرن بقُلْ، أو اكتبْ إليهم، أو بلِّغهم، أو نحو ذلك، وقيل: لا يشمله لأنَّه ورد على لسانه للتبليغ لغيره، لأنَّه إن كان آمرًا أو مبلِّغًا فلا يكون مأمورًا، لأنَّ الواحد بالخطاب الواحد لا يكون آمراً ومأموراً أومبلِّغًا ومُبلَّغًا إليه للضرورة، ولأنَّ الآمر أو المبلِّغ طالب والمأمور أو المبلَّغ إليه مطلوب، وإن قيل: قد يكون آمرًا مأمورًا مبلِّغًا مبلَّغًا إليه من جهتين قلت: الآمر أعلى رتبة من المأمور، ولا بدَّ من المغايرة، إلاَّ أنَّه لا يشترط أن يكون المبلِّغ أعلى رتبة من المبلَّغ إليه، لكنَّ الخطاب يصل المبلِّغ قبلُ؛ وقيل: إن قرن بنحو «قلْ» لم يشمله ﷺ لظهوره في التبليغ، وإلاَّ شمله.

والأصحُّ أنَّ نحو ﴿يآ أيُّها الناس﴾ يشمل العبد المكلَّف شرعًا كما يشمله لغة وعليه الأكثر؛ وقيل: لا يشمله لصرف من معه إلى سيِّده في غير أوقات ضيق العبادات، وشمل الكافر أيضًا لأنَّه مخاطب بفروع الشريعة على الصحيح، وشمل الموجودين وقت النزول؛ وقيل: يتناول من سيوجد أيضًا،

وفيه أنَّه لا يظهر أن يقال للمعدوم: يا فلان، أو نحو ذلك.

﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ وحِّدوه، لا تجعلوا له شريكًا، أو اعملوا الصالحات واجتنبوا المحرَّمات له، ومن ذلك ترك الأصنام والهوى ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وتعليق الحكم بالمشتقّ أو بما بمعناه يؤذن بكونه علَّة، أي اعبدوا الذي هو سيِّدكم أو مربِّيكم، وخلقكم وخَلَق الذين من قبلكم، أي اعبدوه لسيادته وملكه وخلقه لكم، فما ليس سيِّدًا لكم ولا مالكًا ولا خالقًا لا يستحقُّ أن يُعبد.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال سيبويه: عسى في كلامه تعالى للتحقيق، ولا يشكل عليه قوله تعالى: ﴿عَسَى ربُّه، إن طلَّقكنَّ أن يُّبدِّله أزواجاً خيراً منكنَّ﴾ (سورة التحريم: ٥) لأنَّ تحقيقه تبديل أزواج خير معلَّق بالتطليق، والتطليقُ غير واقع، و«لعلَّ» مثل «عسى» فمعنى الآية: تحقُّق حصول الوقاية عن عقاب الله بالعبادة أو اعبدوه راجين حصول الوقاية، فقد لا تكون العبادة وقاية لخللها أو إبطالها برياء أو ردَّة أو نحوهما؛ أو اعبدوا لتحصِّلوا الوقاية.

(بلاغة) أو شبَّه طلب التقوى منهم بعد اجتماع أسبابها ودواعيها بالترجِّي في أنَّ متعلّق كلٌّ منهما مخيَّر بين أن يفعل وأن لا يفعل مع رجحان ما بجانب الفعل فينتقل ذلك إلى كلمة لعلَّ، فتكون استعارة تبعيَّة، أو تشبه ذواتهم بمن يرجى منه التقوى فيثبت له بعض لوازمه وهو الرجاء فتكون الاستعارة بالكناية.

﴿الـذِي جَعَـلَ لَكُـمُ﴾في جملـة مَـن سوَّاكم ﴿الاَرْضَ فِراشًـا﴾ بسـاطًا خارجًا عن الماء مع ثقلها ينتفع به لا صلبًـا ضـارًّا، ولا رخـوًا مغرقًـا، وسمَّاهـا بساطًا ولو قيل: إنَّـها كريَّة الشكل لأنَّ الكـرة إذا عظمـت كـان كـلٌّ قطعـة سطحًا، وكانت قبـل خلق السـماء كريَّـة وبعـد خلـق السـماء دُحِيَـت أي بسطت ﴿والسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ من فوقكم كالسقف، كما جـاء في آيـة أخـرى أنَّـها كسقف للأرض، أو كقبَّـة مضروبة على الأرض، والمراد مبنيَّة، وأفردها لإفراد الأرض ولو أريد بها الجنس، وقدَّم الأرض لتقدُّم خلقها، ولأنَّـهم فيها، ولأنَّ انتفاعهم بها أكثر، ولأنَّـها ما يحتاج إليه بعد الوجود إذ لا بدَّ من مكـان يستقرُّ فيه، أو لأنَّـها أفضل من السماء لأنَّ الأنبياء منها وفيها، وهذا قول.

﴿وَأَنـزَلَ مِنَ السَّمَـآءِ﴾ أي مـن جهتـه، أو مـن السـحاب سمَّـاه سمـاء ﴿مَآءً﴾ وا لله قادر على أن يـنزِّل مـن السـماء إحـدى السبع مـاء في سـرعة ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الـثَّـمَرَاتِ﴾ أخـرج بـه ﴿رِزْقًا﴾ مـن الثمـرات ﴿لَّكُـمْ﴾ تأكلونه وتعلفون دوابَّكم، وتلبسونه كـالقطن والكتَّـان؛ ومـا لـدواب النـاس هو لهم.

(نحو) «من الثمرات» حال من «رزقًا». و«مِـن» للتبعيض أو للبيان، و«رزقًا» مفعول بـه؛ أو «مِـن» اسـمٌ بمعنـى بعـض مفعول به، و«رزقًا» حال من «مِن». والثمرات جميع ما تخرج الأرض حتَّى الحشيش أو الثمار، ونواها داخل فيها علف، وذلك أسبَابَ أن لا تجعلوا له أندادًا كما قال: ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَندَادًا﴾ شركاء في العبـادة

مقاومين لله تعالى عن ذلك، فإنَّ كلَّ ما سواه عاجز ذليل خلقه الله وملكه، وذلك أنَّ ما يصنعونه بأصنامهم وما يعبدونه في صورة المقاومة، قالوا بها أو لم يقولوا.

(لغة) والنِّدُّ المقاوم مثَلاً أو خلافًا أو ضدًّا، وهم لا يقولون بالمنادَّة أو النِّدِّ الكفؤ أو المثل، وإذا جمع مع غيره كالكفؤ والضدِّ والمثل والشبيه كان كلٌّ بمعناه على حدة، والندُّ مثل الشيء الذي يضادُّه ويخالفه في أموره وينافره، من ندا البعيرُ إذا نفر؛ وقيل: الندُّ المشارك في الجوهريَّة، والشكل المشارك في القدر والمساحة، والشبه المشارك في الكيفيَّة والمُساوي في الكمِّيَّة، والمثل عامٌّ. وفي تسمية الأصنام أندادًا استعارة تهكُّميَّة، لأنَّهم علموا أنَّها عاجزة لا فعل لها، ولا تشارك الله تعالى في شيء، كما يستعار أسد للجبان، والتبشير للوعيد، وحكمة ذلك الإشارة إلى أنَّ عليهم ذنب من اعتقدها مشاركة له في صفاته وأفعاله.

﴿وَأَنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أنَّه ليس في كتاب من كتب الله تعالى ثبوت الندِّ له تعالى، وتعلمون أنَّه الخالق وغيره ليس خالقًا فكيف يصحُّ لكم جعل ما لا يخلق شيئًا إلهًا مع ما تشاهدون من حدوث غيره وعجز غيره، ﴿هل من شركائكم مَن يَّفعلُ من ذلِكم مِّن شَيءٍ﴾ (سورة الروم: ٤٠) ؟ أو تعلمون عن أهل التوراة والإنجيل أنَّه ليس فيهما جواز اتّخاذ الأنداد، بل النهي.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

تحدّي الجاحدين بالإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن

﴿**وإن كُنتُمْ**﴾ عبَّر بإنْ مع تحقُّق ارتيابهم إشارةً إلى أنَّه بعيد جدًّا، حتَّى أنَّه يشكُّ في وقوعه وذلك توبيخ؛ أو لأنَّ فيهم من لم يتحقَّق ارتيابُه فغُلِّب على غيره مِمَّن تحقَّق ارتيابه، أو لـمَّا اختلفوا جُعلوا كأنَّه لا قطع بارتيابهم. ﴿**فِي رَيْبٍ**﴾ شكٌّ ﴿**مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا**﴾ محمَّد ﷺ من القرآن أهو من الله أو من عنده أو غيره من الناس، ومقتضى الظاهر الغيبة في ريب مِمَّا نزَّل على عبده، ولكن عدل إلى التكلُّم تفخيمًا للقرآن ورسول الله ﷺ؛ قالوا: ما يقول محمَّد لا يشبه الوحي وإنَّا لفي شكٍّ منه، فنزلت الآية: ﴿**فَأتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ**﴾ أي بسورة هي مثل ما أنزلنا في البلاغة وحسن التأليف، والإخبار بالغيب مع الصدق، أو فاتوا بسورة صدرت أو كانت من مثل عبدنا من فصحاء العرب وبلغائها، ولو كان يقرأ الكتب والأخبار ويسمعها، وكيف تأتون بها من أمِّيٍّ مثله لا يقرأ ولا يكتب ولا يسمع الأخبار! ويدلُّ للأوَّل قوله: ﴿وادْعُوا...﴾ إلخ وقوله تعالى في سورة أخرى: ﴿أم يقولونَ افتراه قل فاتواْ بِسورةٍ مِّثله﴾ (سورة يونس:٣٨) وقوله

تعالى: ﴿أم يقولونَ افتراه قل فاتواْ بعشْرِ سورٍ مِّثلِه مفتريات﴾ (سورة هود: ١٣) فإنَّه لا يصحُّ فيهما عود الضمير إليه ﷺ.

وأقلُّ السور ما فيه ثلاث آيات كسورة الكوثر، وسورة والعصر، وسورة قريش إلاَّ أن يعدَّ ﴿لإيلافِ قريشٍ﴾ آية، وكسورة الفتح إن عدَّ ﴿إذا جآءَ نصرُ اللهِ والفتحُ﴾ آية وهو المكتوب، والواضح أنَّها آيتان آخِر الأولى: ﴿أفواجًا﴾، وآخر الثانية: ﴿توَّابًا﴾، فأقلُّ السور آيتان، إلاَّ إن جاء حديث في أنَّ آخر الأولى: ﴿والفتحُ﴾.

﴿وَادْعُواْ﴾ نادوا واطلبوا ﴿شُهَدَآءَكُم﴾ جمع شهيد أو شاهد لتعينكم آلهتكم التي تشهد لكم على زعمكم أنَّكم عبدتموها وتقرِّبكم إلى الله زلفى، أو تنصركم أو تحضركم للنفع، أو تكون إمامًا لكم، فإنَّ الشهادة تكون من تلك المعاني. ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ غير الله.

(لغة) أصل «دون» التفاوت والانحطاط في الحسِّ كقرب مكان، وكقولك: عمْرو دون زيد في القامة، وتستعمل في غير الحسِّ نحو: عمرو دون زيد شرفًا، ثمَّ شاع استعماله في كلِّ تفاوت، وكأنَّها أداة استثناء.

﴿إن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أنَّ القرآن من غير الله.

﴿فَإِن لَّمْ﴾ مجزوم إن لم ومجزومُها، أو لم والجملة بعدها، فهي من الجمل التي لها محلٌّ كما قيل بأنَّ محلَّ جملة الشرط إذا سبقت بمبتدإ في محلِّ رفع خبر

له نحو: ﴿من يَّعملْ سوءًا يُجزَ به﴾ (سورة النساء: ١٢٣) وهو قول بعض. ﴿تفعَلُوا﴾ إتيانًا بالمثل لعجزكم ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ إتيانًا بالمثل لظهور إعجازه وعجزكم، والحال أنَّكم مقدرون أن لا تفعلوا أبدًا، ولا يضرُّ تصدير جملة الحال بأداة الاستقبال إذا كانت الحال مقدَّرة، ولا يصحُّ العطف لأنَّ أداة الشرط لا تليها لن، ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ بالإيمان بالقرآن من الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ إنكاره موجب لها، أو فاتَّقوها مع بقائكم على الكفر إن وجدتم وقاية،ولكن لا تجدونها، وعرَّف النار عهدًا من تنكيرها[1] في آية التحريم النازلة في مكَّة، وأوَّل التحريم إليها مدنيٌّ ﴿التِي وَقُودُهَا﴾ أي الجسم الذي توقد به ﴿النَّاسُ﴾ الكفرة، قدَّم الناس لأنَّهم المعذَّبون، ولأنَّ لحومهم وشحومهم أليق بالنار تزداد بها وقودًا، والمراد ما يشمل الجنَّ أو لم يرادوا في الآية، لأنَّ السياق لكفَّار قريش، وذكروا في غير هذه الآية ﴿وَالحِجَارَةُ﴾ المعبودة، ﴿إنَّكم وما تَعبُدون من دونِ اللهِ حصبُ جَهنَّم أنتم لها وارِدونَ﴾(سورة الأنبياء: ٩٨) وما شاء الله من الحجارة لتعذيب الكفرة مطلقًا، ولمزيد التحسُّر إذا رأوا أنَّهم عذِّبوا بما عَبَدوا و لم يَدفع عذابَهم فضلا عن أن ينفعهم، وهي نار تتَّقد بالحجارة لشدَّة حرارتها، لا كنار الدنيا تتَّقد بالحيل أو بالحطب، ويوقى عنها الناس، وقيل: حجارة الكبريت لشدَّة حرِّها وكثرة الالتهاب

---

١ - المقصود أنَّه تعالى عرَّف النار هنا بأل العهدية، ونكَّرها في آية التحريم في قوله: ﴿قوا أنفُسَكم وأهليكم ناراً...﴾ (الآية ٦).

وسرعة الإيقاد، ومزيد الالتصاق بالأبدان ونتن الريح وكثرة الدخان، وقيل: الذهب والفضَّة لأنَّهما يسمَّيان حجرًا ولا يتبادر، ولا مانع من أن يراد ذلك كلُّه. ﴿أُعِدَّتْ﴾ هيَّأها الله وأوجدها ووكَّل عليها ملائكة قبل يوم القيامة، ولا تفنى، وإن فنيت أعادها.

وحكمة إيجادها قبله الإخبار بأحوالها الواقعة للزجر، وهو أقوى من الإخبار أنَّها لم تكن وأنَّها ستكون بوصف كذا، وإن لم تكن الآن فكأنَّها كانت لتحقُّق الوقوع، فعبَّر بأُعِدَّت والمراد: ستُعدُّ ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ يعذَّبون بها، أو الكافرون كفَّار قريش ونحوهم، عدل عن الإضمار مع تقدُّم ذكرهم إلى ذكرهم باسم الكفر الموجب للنار المذكور، أو جنس الكفَّار فيدخل هؤلاء أوَّلاً وبالذات.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

جزاء المؤمنين العاملين

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله وأنَّ القرآن منه عزَّ وجلَّ، أخبرهم إخبارًا يظهر الفرح بها على أبشارهم أي جلودهم، والتبشير أخصُّ من الإخبار لأنَّه

أوّلاً بالخير، والإخبار أوَّلا وغير أوَّل وبالخير وغيره ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الفرائض ولا بدَّ، أو مع النفل إن كان، ومن العمل الصالح ترك المعاصي لأنّ تركها جَبْذٌ للنفس عنها، وهو عمل، ولا سيما إن قارن جبدها عمل الجارحة، وذلك الترك تقوًى، ومن التقوى أداء الفرض.

و"ال" في الصالحات للجنس فتصدق بعملين وبعمل واحد في شأن من لم يدرك من حين كلّف إلاّ ذلك، كمن بلغ ومات عن قريب أو أسلم كذلك، أو مات قبل نزول سائر الفرائض، ومن عمل قليلاً فجنَّ، ولا يخفى أنّه من مات قبل أن يعمل شيئًا ما من الأعمال لسرعة موته أو نحوه يدخل الجنَّة.

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي بأنَّ لهم، أو ضمّنَ بشّرْ معنى الإعلام ﴿جَنَّاتٍ﴾ حدائق فيها كلُّ صنف من الثمار حتّى ما لا يؤكل كالحنظل يحلو فيها، وفيها مساكن وقصور ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ تحت أشجارها ومساكنها، والجنَّة الأرض كما رأيت بتقدير مضاف، وإن شئت فلا تقدِّر بل اردد الضمير إلى الأرض، والمراد به الأشجار استخدامًا، وإن أريد الأرض والشجر فالضمير عائد إليها باعتبار جزئها، أو تحتَها جانبها ﴿الأَنْهَارُ﴾ تنبع من تحتها و لم تجئ من محلّ آخر أو جاءت من بحر غائرة في الأرض حتّى إذا وصلت الجنّات نبعت ظاهرة، وجرت على وجه الأرض في غير أخدود، وحصباؤها دُرٌّ وياقوت، أو بعض تجري من بعيد تحتها، وبعض تنبع تحتها

(لغة) والنهر والبحر أرض، ذلك لأنَّ الماء ينهره أي يوسِّعه، والجري للماء، وأسنده لمحلّه، والنهر مجمع الماء الذي يجري

الماء منه إلى غيره، وإن قلنا: النهر الماء الجاري في متّسع فلا مجاز؛ و"الـ" للحقيقة او للعهد في قوله: ﴿فيها أنهار﴾ أو نابت عن الضمير.

﴿**كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا**﴾ من الجنّات ﴿**مِن ثَمَرَةٍ**﴾ حال من قوله: ﴿**رِّزْقًا**﴾ أي شيئًا مرزوقًا.

(**نحو**) و«رزقًا» مفعول ثان، و«من» للبيان أي رزقًا هو ثمرة لا بدل بعض لأدائه إلى حذف الرابط، ولأفرادها، ولا يرزق من الثمرة ولأدائه إلى استعمال النكرة في الإثبات للعموم الشمولي مع وجود التخلُّص من ذلك، و "لا" بدل اشتمال لأنَّ الثمرة بعض الجنَّة لا شيء غيرها ملابس لها، ولأدائه إلى استعمال النكرة في الإثبات للشمول، ولو قيل به في ﴿عَلِمَتْ نفسٌ ما أحضرت﴾ (سورة التكوير: ١٤) والثمرة الأفراد أو الأنواع، وما مصدريَّة وكلٌّ ظرفٌ لإضافته للمصدر النائب عن الزمان أي كلّ رَزق منها ـ بفتح الراء ـ على المعنى المصدريِّ متعلّق بقوله: ﴿**قَالُوا**﴾ أي يقولون كلَّ وقت رزق منها:

﴿**هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ**﴾ في الدنيا أو في الآخرة، ولا يزالون يقولون: هذا الذي... إلخ، أي مثل الذي رزقناه من قبله في ظنِّهم بحسب اللون والصورة، وإذا أكلوه وجدوا طعمه غير طعم الأوَّل وأحلى، وكلُّ طعام أفضل مِمَّا قبله أبدًا، فإذا رزقوا الرزق الأوَّل في الجنَّة قالوا: هذا الذي

رزقنا في الدنيا، وإذا رزقوا ثانيًا قالوا: هذا الذي رزقنا في الجنَّة قبلُ، وهكذا إلى ما لا نهاية له، وقيل: كلٌّ ذلك في الآخرة لم يدخل فيه ما في الدنيا، ولا دليل على أنَّ المراد: ما ﴿رزقنا من قبلُ﴾ هو الأعمال الصالحة في الدنيا تسمية للمسبَّب باسم السبب.

﴿**وَأُتُوا بِهِ**﴾ أي أتاهم الملائكة به أو الوِلْدان، كقوله تعالى: ﴿ويطوفُ عليهمْ وِلْدانٌ مُّخلَّدونَ﴾... إلخ (سورة الإنسان: ١٩) أو تارة الملائكة وتارة الولدان ﴿**مُتَشَابِهًا**﴾ يشبه بعضه بعضًا لونًا ويختلف طعمًا، أخبرنا الله بتشابه اللون تلذيذًا لنا بغرابة تشابه اللون واختلاف الطعم، وذلك مدح للجنَّة أو متشابهًا لونًا وطعمًا إلاَّ أنَّ الطعم متفاوت فضلاً.

قال الحسن: إنَّ أحدهم يؤتى بالصحفة فيأكل منها ثمَّ يؤتى بأخرى فيراها مثل الأولى فيقول: هذا الذي رزقنا من قبل، فتقول الملائكة: اللون واحد والطعم مختلف، وعنه ﷺ: «**والذي نفس محمَّد بيده إنَّ الرجل من أهل الجنَّة ليتناول الثمرة ليأكلها فما هي واصلة إلى فيه حتَّى يبدل الله مكانها مثلها**»[1] فيجوز أن يحمل للتشابه وهذا الذي رزقنا من قبل على هذا.

---

١ - أورده الألوسي البغدادي في تفسيره لهذه الآية دون ذكر السند.

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ﴾ حور عين وآدميات أفضل منهنَّ، وللجنّ جنّيَّات وحور.

(لغة) وجمع الأزواج للقلّة والمراد الكثرة، والمفرد زوج بلا تاء، وأمَّا زوجة بالتاء في المؤنّث فشاذٌّ أو خطأ، وقيل: لغة تميم وكثير من قيس، قال الفرزدق:

إنَّ الذي يسعى لِيُفسِد زوجَتي كَسَاعٍ إلى أُسْدِ الشَّرى يَسْتَمِيلُها

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ منزَّهة عن أن يكون فيهنَّ الحيض أو شعر الإبط أو شعر العانة أو نتن أو بلل مستقذر أو بول أو غائط أو سوء خلق، كما هم طُهِّروا كذلك، والمطهِّر لهنَّ الله تعالى، وليس ذلك جمعًا بين الحقيقة والمجاز إذ كان التطهير في الآدميَّات والجنِّيَّات إذهاب نحو الحيض عنهنَّ بعد إذ كان أو تأهَّلن له ولم يكن، وفي الحور من أوَّل الأمر لأنّ المراد تحصيلهنَّ وهنَّ طواهر هكذا، وليس في ذكر الزوجات ما يدلُّ على الولادة في الجنَّة فقيل: لا ولادة فيها وهو المشهور، وقيل: بها. ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون ولا يموتون ولا تزول بعض حواسِّهم وأجسادهم، ولا بعض قواهم، ولا تصيبهم آفة.

(أصول الدين) ولا تفنى الجنَّة والنار وأهلهما كما زعمت الجهميَّة قبَّحهم الله عزَّ وجلَّ لأنَّه ليس في دوامهما اشتراك مع الله فيه، لأنَّ دوامه غير دوامهم، فإنَّه بالذات ودوامهم بإدامته، وأنفاس أهلهما مع دوامهم فيها معلومة له، بل قيل: يقال إنَّ معلوماته

محصورة عنده مع أنَّها لا تنقضي، وذلك من كمال قدرته ومخالفته للخلق، فلا يلزم الجهل له تعالى بدوام أنفاس أهلها، والنصوص دلَّت على ذلك، ولو كان لأهل الجنَّة فناء لاغتمُّوا و لم تتخلَّص لذَّاتهم ولَفرِح أهل النار وليس لهم فرح.

(سبب النزول)روي عن ابن عبَّاس وابن مسعود أنَّ رجلين من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله ﷺ إلى المشركين فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله فيه رعد وبرق وصواعق، فجعلا كلَّما أصابهما الصواعق جعلا أصابعهما في آذانهما من الفرق أن تدخل الصواعق في مسامعهما فتقتلهما، وإذا لمع البرق مشيا إلى ضوئه، وإذا لم يلمع لم يصرا لزما مكانهما فجعلا يقولان: ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمَّدًا فنضع أيدينا في يده، فأتياه فأسلما ووضعا أيديهما في يده وحسن إسلامهما، فضرب الله شأن الرجلين مثلاً للمنافقين الذين بالمدينة.

وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبيء ﷺ جعلوا أصابعهم في آذانهم فرقًا من كلام النبيء ﷺ أن ينزل فيهم شيء أو يذكروا بشيء فيقتلوا، كما يجعل الرجلان أيديهما في آذانهما، وإذا أضاء لهم مشوا فيه، أي إذا كثرت أموالهم وأصابوا غنيمة وفتحًا مشوا فيه، وقالوا: إنَّ دين محمَّد صدق واستقاموا كما يمشي الرجلان في البرق، ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي إذا هلكت أموالهم وأولادهم وأصابهم البلاء قالوا: هذا لِدين محمَّد، وكفروا كما يمسك الرجلان عن المشي إذا زال البرق.

قيل: لـمَّا مثَّل الله حال المنافقين بالذي استوقد نارًا أو بالصـيِّب من السماء قال المنافقون: الله أجلُّ وأعلى من أن يضرب هذه الأمثال، فـأنزل الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فائدة ضرب الأمثال للناس في القرآن الكريم

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَّضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً﴾

(نحو) «ما» نعت لمثلا ولو كان جامدًا، لأنّ معناه حقيرًا وكائن ما كان، وهو مشهور بذلك مستعمل فيه كثيرًا، بخلاف بعوضة فلا يكون نعتًا لأنـّه جامد ولو قصد به الوصف لأنـّه لم يشهر أو لم يَرِدْ، لا يقال: جاء رجل بعوضة؛ بل بعوضة مفعول أوّل لِضَرَبَ، ومثلاً مفعول ثانٍ له، لأنـّه بمعنى صيَّر؛ وإن عُدِّي لواحد فمثلاً مفعولٌ، وبعوضةً بدلٌ، أو مفعول، ومثلاً حال.

﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ للدنيا وأهلها، فإنَّ البعوضة تحيى ما جاعت، وإذا امتلأت ماتت، ومن امتلأ من الدنيا هلك، أو لأعمال العباد، يجازى عن القليل منها.

(سبب النزول) والصحيح ما ذكر عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه ذكر الله سبحانه أصنام المشركين فقال: ﴿وإن يَّسلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيئًا لا يستنقِذُوهُ منهُ﴾ (سورة الحج: ٧٣) وذكر كيدها وجعله كَبَيْت العنكبُوتِ ﴿وإنَّ أوهنَ البوتِ لبيتُ العنكبوتِ﴾ (سورة العنكبوت: ٤١) ، فقالوا: كيف ينزل الله ذكر الذباب والعنكبوت؟! فنزلت الآية: ﴿إنَّ الله لاَ يَسْتَحْيِي...﴾. وعن الحسن لمَّا نزل: ﴿يَآ أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ قال المشركون: ما هذا من الأمثال! فنزل: ﴿إنَّ الله لاَ يَسْتَحْيِي...﴾ وفيه أنَّ ذكر المشركين لا يلائم كون الآية مدنيَّة، ويجاب بأنَّهم منافقون في المدينة يقولون ذلك فيما بينهم وهم مشركون في قلوبهم، وعن ابن عبَّاس لمَّا ضرب المثل بالذباب والعنكبوت ـ قيل: ومستوقد النار ـ قال اليهود: ما أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة! فنزل: ﴿إنَّ الله لاَ يَسْتَحْيِي...﴾ إلخ، أي لا يترك لقول اليهود والمشركين تصيير البعوضة فما فوقها في الصغر كجناحها مثلاً أو في الكِبَر كائنًا ما كان، أو يصير المثل شيئًا ما بعوضة فما فوقها؛ وإذا ضرب ما زاد على البعوضة في الصغر فأولى أن

يضربه لما فوقها في الكبر كالذباب والعنكبوت.

(أصول الدين) والحياء انكسار وانقباض عن عيب، وا لله منزَّه عن ذلك فيحمل في حقِّه على لازم ذلك وهو الترك، فالاستحياء من ا لله الترك، تعبيرًا باللازم، لأنَّ حقيقته يُنزَّه ا لله عنها، وهي انكسار يعتري الإنسان لخوفه من أن يعاب بما فعل، أو أراد فعله، وهو مشتقٌّ من معنى الحياة، لأنَّه يؤثِّر في القوَّة، ولا يحسن أن يبقى على ظاهره، ويوكل أمره إلى ا لله عزَّ وجلَّ - ألهمنا تأويلاً صحيحًا بلا تكلُّف - ولا أن يقال: هو بظاهره بلا كيف لأنَّه كفر، والخجل حيرة النفس لشدَّة الحياء، وقيل: قبلَ الفعلِ والخجل بعده.

﴿فَأَمَّا الذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي المثل هذا أولى لأنَّه أقرب، أو الضرب لأنَّه مصدر لفعل مقرون بأن، وليس من باب: ﴿اعدِلُوا هو أقرب...﴾ ويبعد عوده لترك الاستحياء، وأبعد منه عوده للقرآن؛ ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت، أو خلاف الباطل حال كونه ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾، أو الحقُّ الصادر من ربِّهم، ﴿وَأَمَّا الذِينَ كَفَرُوا﴾ يهود وغيرهم، ﴿فَيَقُولُونَ: مَاذَآ أَرَادَ ا للهُ بِهَـٰذَا مَثَلاً﴾ من حيث التمثيل، إنكارًا وتعجُّبًا من صحَّته مثلاً، وهذا برهان على أنَّهم لا يعلمون إذ لا يقوله من يعلم، فهو أبلغ من قولك: وأمَّا الذين كفروا فلا يعلمونه حقًّا، وأجابهم ا لله عزَّ وجلَّ، ونصب «مثلاً» على التمييز كما رأيت من اسم

الإشارة لجواز تمييزه وتمييز الضمير إذا كانا مبهمين أو حال منه، ﴿يُضِلُّ بِهِ﴾ بالمَثَل ﴿كَثِيرًا﴾ من الناس، يصيِّرهم ضالِّين لكفرهم به ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ لتصديقهم، فإنَّ التصديق هداية من الله عزَّ وجلَّ ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ من سبق القضاء عليه بأن يموت على فسقه الذي هو شرك، ومن لم يؤمن به وسيؤمن فإنكاره فسق يتوب منه.

(أصول الدين) والسعيد في حال فسقه فاسق عند الله عزَّ وجلَّ بما فعل لكنَّه في ولاية الله عزَّ وجلَّ بما علم أنَّه يتوب فهو فاسق في الحال بفعله، ومسلم في الأزل وما بعده لسعادته، وليس المراد أنَّه مسلم كافر عند الله باعتبار واحد، لأنَّه اجتمع فيه إيمان وكفر في حال واحد، ولا تقدر أن تقول: هو في حال فعله للكبيرة أنَّ فعله هذا مباح، ولا أنَّه طاعة ولا غير ذنب ولا غير فسق ولا غير كفر، وكلُّ خروج عن الشيء فهو فسق إلاَّ أنَّه لا يطلق حيث يوهم، والهداية والإضلال يتجدَّدان ويزدادان، فإن شئت فقل: يزيد به هدًى وإضلالاً، وقدَّمه لأنَّ الكلام في الردِّ على الضالِّين، وقولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ اللهُ﴾ ناشئ عن الضلال، وما في القرآن سبب له، ولذلك أكَّده بقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ فيكون بدأ به وختم به.

﴿الذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ﴾ يُبطِلون إبطالاً شبيهًا بفكِّ طاقات

الحبل، العهدَ الشبيه بالحبل في التوصُّل به إلى المراد من نجاة من مكروه وفوز بما يحبّ، وهو ما أنزل الله عزَّ وجلَّ في كتبه القرآن وما قبله من الإيمان به ﷺ فإنَّ ذلك كالمعلوم، ولو لم يُعلم لقوَّة حُجَجه كأنَّه معلوم ولو لمن لم يعلمه، وزاد أهل الكتاب بما في كتبهم من أخذ الميثاق عليهم وعلى أنبيائهم وأمَمهم أن يؤمنوا بمحمَّد ﷺ.

وقد أخذ الله العهد بالإيمان على بني آدم يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟﴾ وأخذ الله العهد على الأنبياء أن يقيموا الدين، ويؤمنوا بمحمَّد ﷺ، وأخذوا العهد على أنفسهم أن يؤمنوا به، وأخذ العهد على العلماء وعلى من علم أن يبيِّنوا الحقَّ، والآية في الكفَّار عمومًا.

(بلاغة) شبَّه العهد ـ وهو ما عهد الله عزَّ وجلَّ إلى الخلق من الدين ـ بالحبل لجامع التوصُّل إلى المقصود والارتباط، ولم يذكره، ودلَّ له بذكر مناسبه وهو النقض، فالحبل استعارة بالكناية، وقرينتها تصريحيَّة تبعيَّة وهي ينقض، فهنا استعارة مكنيَّة قرينتها استعارة تحقيقيَّة لا تخييليَّة، شبَّه إبطال العهد بقطع الحبل أو فكِّ طاقاته فسمِّي الإبطال نقضًا، واشتقَّ منه ينقض.

﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ تأكيد الله وإبرامه للعهد بالأدلَّة العقليَّة والنقليَّة كالكتب من الله، فالهاء للمضاف إليه وهو "الله"، ولا إشكال فيه إذا

كانت الإضافة لفظيَّة كالإضافة إلى الفاعل كما رأيت، أو المفعول كما ستراه إن شاء الله، فإنَّها في منزلة عدم الإضافة؛ أو من بعد ميثاق العهد أي إبرامه كذلك أو تأكُّده وتقوِّيه من الله، أو منهم بالقبول والالتزام، فالهاء للعهد.

والميثاق: التوثُّق أو التوثيق، أو آلة؛ أي ما وثَّق الله تعالى به عهده من الآيات. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ أي بأن يوصل أي بوصله وهو الإيمان بالنبيء ﷺ والأنبياء، وعدم التفرقة بين رسول وآخر، وكتاب وآخر، والرحمِ والمؤمنين والجهاد وسائر الدين.

وما ذكر من العموم أولى من تفسير ما أمر الله به بمحمَّد ﷺ وإطلاق ما عليه، ومن تفسيره بالقرآن أو بالرحم، ومن تفسيره بوصل القول بالعمل ومن تفسيره بالأنبياء. و﴿أَنْ يُوصَلَ﴾ بدل اشتمال من الهاء كما رأيت. والأمر طلب الفعل جزمًا ولو ندبًا أو بشرط العلوِّ ولو ادِّعاءً، أو بشرط تحقُّق العلوِّ.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الاَرْضِ﴾ بالمعاصي مطلقًا أو بالمنع عن الإسلام وقطع الطريق عمَّن يهاجر وهو أولى، ﴿أُوْلَـٰئِكَ﴾ البعداء عن مقام الخير بصفاتهم الخبيثة ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المبطلون لمصالح أنفسهم، إذ صاروا للنار إذ لم ينتفعوا للآخرة بعقولهم وأموالهم وأبدانهم وأولادهم وجاههم، وأبطلوا نساءهم في الجنَّة ومنازلهم فيها فلا رأس مال ولا ربح.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

مظاهر قدرة الله بخلق الإنسان وإماتته وخلق الأرض والسماء

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ وبَّخهم الله على ما مضى من كفر واستمراره، وأنكر عليهم لياقته بحال صحَّة ومرض، ويسر وعسر، وعزّ وذلّ، وغير ذلك من الأحوال، أو ذلك تعجيب، وذلك لقيام البرهان.

والخطاب لأهل مكَّة، ونزلت الآيتان فيها، وجعلتا هنا على ترتيب اللوح، أو خطاب لهم من المدينة بعد غيبة تأكيدًا عليهم، كما يغتاب ثمَّ يخاطب مخافة ألاَّ يصل الكلام، حاشا لله عزَّ وجلَّ، أو خطاب لكلِّ من كفر، كيف يكفر كافر والحال أنَّه غير موجود ثمَّ وجد كما قال: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ المراد بالموت نفي الحياة، بقطع النظر عن أن تكون قد تقدَّمت، لا نفيها بعد أن كانت لأنَّ الإنسان لم يكن حيًّا ثمَّ مات، أو أراد أنَّهم كانوا نطفًا والنطفة كانت حيَّة في الإنسان وماتت بالانفصال وحييت في الرحم، أو كنتم كأموات، وعلى كلِّ حال لا يشكل أنَّهم في الجماد لا يوصفون بموت ولا حياة ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ في الأرحام ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ لآجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ في قبوركم ويخرجكم ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء.

﴿هُوَ الذِي خَلَقَ لَكُم﴾ أي لأجْلِكم أو ملَّك لكم **﴿مَّا فِي الاَرْضِ جَمِيعًا﴾** حتَّى العقارب والحيَّات والسباع، فإنَّكم تنتفعون بها اعتبارًا أو انزجارًا عن عقاب الله، كما تنتفعون بالثمار والمعادن والماء والحيوان، وما في السمِّ نفع لقتل المؤذيات.

(فقه) ولا ينتفع بسمِّ الميتة ولا يباع ولا يشترى بل بسمِّ غيرها وسمِّ المعدن، أو أراد بالأرض ما في جهة السفل فيشمل الأرض نفسها وما فيها. استدلَّ المعتزلة والفخر بالآية على أنَّ الأشياء قبل ورود الشرع على الحلِّ إن كانت نافعة وعليه كثير من الشافعيَّة والحنفيَّة، ولا تحتمل الآية أنَّ اللام للضرر مثل: ﴿وإنَ اَسأْتُمْ فَلَهَا﴾ ولا دليل على أنَّ المراد بالآية الإباحة على شرط نزول الوحي بها، وقيل إنَّها قبل الشرع على الحظر، وقيل بالوقف، والأوَّل أولى.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ بعد خلق الأرض المدلول عليه بخلق ما في الأرض.

(أصول الدين) واستواؤه هنا توجُّه إرادته واختار الجهل على العلم من وكِل أمره إلى الله وقد وجد له تأويلاً[1]؛ وهلك من

---

[1] - أي أمر الاستواء مِمَّن يقولون: الاستواء معروف والكيف مجهول...

قال: إنَّه على ظاهره ولكن بلا كيف، ولا يتمُّ هنا تفسير استوى بِمَلَكَ لقوله: ﴿إلى..﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ..﴾ إلاَّ بتكلُّف أنَّ إلى بمعنى على، وقد ملكها قبل، ولا باستولى لتكلُّف توجيه الغلبة على الجماد، وثمَّ لتراخي الوقت، وإن قلنا للرتبة فلا نقض بها.

والصحيح أنَّ السماء أفضل من الأرض من حيث أنَّها محلُّ الطاعة التي لا معصية معها، والأرض أفضل من حيث أنَّها للأنبياء والرسل، والمؤمن أفضل من الملائكة، والأرض أسبق خلقًا على الصحيح. ﴿إِلَى السَّمَآءِ﴾ أي إلى إيجادها كما أوجد الأرض، وخلقُ ما في الأرض متأخِّر عن خلق السماء تشخيصًا لكنَّه متقدِّم ضمنًا، بخلق ما يخلق منه الحيوانات مثلاً خَلْقٌ لها، فإنَّ الله جلَّ وعلا خلق الأرض بلا بسط في يومين وخلق السموات وبسطها في يومين، وبسط الأرض وخلق ما فيها في يومين، ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ أي صيَّر السماء، أتى بضمير الجماعة لإرادة الجنس ولتعدُّد ما بعده في قوله: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿وإن كنَّ نسآءً﴾ فمقتضى الظاهر: «وإن كانت» أي الأولاد، ولكن قال: ﴿كنَّ﴾ لقوله: ﴿نسآءً﴾ وقدَّم هنا؛ وفي "حم السجدة" ما أخَّر في "النازعات" لأنَّ المقام فيهما للامتنان على المخاطبين، وفي النازعات للقدرة[1].

[1] – يعني ما في آية ٣ من سورة السجدة، وما في آية ٢٧ إلى ٣٠ في سورة النازعات.

ومعنى تسويتهنَّ سبعًا: خلقهنَّ من أوَّل مستويات كقولك: وسِّع الدار، أي ابنِها واسعة، وسبع بدل من الهاء عائدة إلى السماء أو إلى مبهم مفسَّر به، أو مفعول ثان لتضمُّن معنى صيَّر وهو ضعيف، أو حال مقدَّرة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إجمالاً وتفصيلاً وذواتًا وأحوالاً، فمَن قدرتِه وعلمه ذلك كيف يُجحَدُ أو كيف يُنسب إليه العجز عن أعادة الخلق مع أنَّه خلق السموات الأرض وخلق الدخان من الماء قبل الأرض، ولمَّا خلق الأرض استوى إلى السماء وهي دخان وسوَّاها سبعًا، ثمَّ بسط الأرض وفتقها سبعا، وكان بسطها وفتقها في الأحد والإثنين، وهنَّ بعض فوق بعض كالسموات، وقيل: بعض بجنب بعض يفصل بينهنَّ البحار وتظِل السماء عليهنَّ.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْاَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْاَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ اِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمُوٓ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْاَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

استخلاف الإنسان في الأرض وتعليمه اللغات

﴿وَإِذْ قَالَ﴾: واذكر إذ قال، وقيل ظرف لقالوا. ﴿رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ﴾: كلّهم، وقيل لطائفة هم خزّان الجنان يسمُّون الجان، أرسلهم إلى الأرض ليطردوا الجنَّ منها، إلى البحار والجزائر والجبال، ولا يصحُّ هذا، ولا يصحُّ أنَّ إبليس ملك منهم، وأقرب من هذا أنَّه ولد من الجنِّ قبله، وليسوا ملائكة، قاتلهم الملائكة وأسروه، فتعبَّد مع الملائكة، والمشهور أنَّه أوَّل الجنِّ، وقيل ملائكة الأرض، لأنَّ الكلام في خلافة الأرض، والمفرد مَلْئَكٌ - بهمزة مفتوحة بعد اللاّم - وهو مقلوب مألك - بهمزة ساكنة قبل اللام - من الألوكة وهي الرسالة، وهم رسل الله إلى الأنبياء وإلى ما شاء الله؛ وأخطأ من قال إنَّ ملائكة الأرض يعصون كبني آدم. **والملائكة أجسام نورانية قادرة على التشكُّل بأشكال مختلفة،** وعلى الظهور.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الاَرْضِ خَلِيفَةً﴾: ينفِّذ الأحكام عنِّي وهو آدم، إذ لا يقدر أهل الأرض على تلقِّي الأحكام عن الله ولا عن الملائكة.

﴿قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُّفْسِدُ فِيهَا﴾: بالذنوب الكبار والصغار، والمكروهات، كالعجب، والكبر، والبغي، والحسد ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ﴾: يريقها، كناية عن القتل ولو بلا إراقة دم، فلعلّ علموا ذلك من الجنِّ الذين سكنوا الأرض قبل آدم في القول به، وقاسوا عليه آدم وأولادَه، أو علموا

ذلك من اللوح، أو بإخبار الله لهم، كما روي أنَّهم قالوا: «يا ربنَّا، ما تفعل ذرِّية هذا الخليفة؟» فقال: «يفسدون فيها ويسفكون الدماء»، أو بإلهام، أو لفهمهم أنَّ من خالف الخلفة الملكية لا يخلو عن ذلك، وقولهم ذلك تعجُّب وطلب للمعلم، بحكمة اقتضت جعل الخليفة، مع أنَّه يحصل الفساد والسفك، ولعلَّهم بالغوا في التعجُّب والطلب، فعاقبهم بقطع الوحي عنهم، إلى أن أوحى إليهم ﴿إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. وقيل: استفهام حقيقيٌّ، أي أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ أم من يصلح؟

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ نسبِّحك مصاحبين بحمدك، نقول: سبحان الله والحمد لله، أو سبحان الله وبحمده، أي وبحمده نسبِّح.

سئل رسول الله ﷺ: أيُّ الكلام أفضل؟ قال: «**ما اصطفى الله تعالى لملائكته، سبحان الله وبحمده**»[1] ويقال: تسبيح الملائكة «**سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العظمة والجبروت، سبحان الحيِّ الذي لا يموت**»؛ أو: «**نسبِّحك مثنين عليك وشاكرين لك على توفيقك لنا للحمد**»؛ أو كقولك: كان كذا بحمد الله، أي بفضله وإذنه.

---

[1] - رواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل سبحان الله وبحمده رقم ٢٧٣١

ورواه **أحمد** في مسند الأنصار رقم ٢٠٨١٣. من حديث أبي ذر

﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نطهِّرك عن صفات النقص، أي نعتقد خلوَّك عنها، وجاز هذا لأنَّ التسبيح المذكور مراد به لفظ سبحان، وإذا كان ذلك حالنا فنحن أحقُّ بالاستخلاف لأنَّا أحفظ لعهدك، ولا ندري ما الحكمة في العدول عنَّا إلى من ذلك صفته، وذلك عجيب عندنا متعجِّبون نحن منه، فأخبرنا بها.

(لغة) يقال: قدَّس الله وقدَّس للهِ، وشكر الله وشكر للهِ، وسبَّح الله وسبَّح للهِ، ونصح الله ونصح للهِ، أو نذكر ألفاظ التقديس لأجلك؛ أو التسبيح التنزيه عمَّا لا يليق به، فالتقديس تنزيه ذاته عمَّا لا يراه لائقا به؛ أو نقدِّس لك نطهِّر أنفسنا عمَّا لا يجوز من الأدناس والمعاصي فلا نماثلهم.

﴿قَالَ: إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا﴾ تبدون وما تكتمون وأعلم ما ﴿لاَ تَعْلَمُونَ﴾ من غيوب السموات والأرض، ومن إرادتي إظهار حكمتي وقدرتي، وأنَّ المطيع الواحد منهم أفضل من الملائكة، وأنَّهم أشدُّ عبادة وأشقُّ لأنِّي أخلق لهم موانع كالنفوس والهوى والشياطين منهم ومن الجنِّ، والشهوات، ولهم جهاد وقراءة لَيْسَا لكم، وصلاتهم تشمل عبادتَكم، وعباداتٍ لهم ليست لكم، كالصوم والصدقة، وأُظهِر العدلَ فيهم ولا أبالي، وأدخل العاصي منهم النار عدلاً ولا أبالي، ويُحيون من الدين ما لا تُحيون بالتعلُّم والتعليم، والأمر والنهي؛ علم الله ذلك، ولم يعلمه الملائكة، وقالوا: سرًّا فيما بينهم لن يخلق الله خلقًا أكرم عليه منَّا، ولا

أعلمَ لتقدُّمنا ورؤيتنا بعض ما في اللوح، وأنَّ آدم يطيع وإبليس يعصي وأنَّ منهم أنبياء ورسلاً. و«أَعْلَمُ» مضارع لا اسم تفضيل لأنَّه لا يضاف للمفعول.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الاَسْمَآءَ﴾ ألقاها في قلبه مرَّة لا بتعليم ملَك كما قيل ﴿كُلَّهَا﴾ من جميع اللغات وهي الحروف والأفعال والأسماء، وواضع اللغة الله، فالمراد بالأسماء الألفاظ الدوال على المعاني فشملت الحرف والفعل إفرادًا وتركيبًا حقيقة ومجازًا، ودخلت أسماء الله كلُّها، بل قيل: أراد أيضًا ما يدلُّ بلا لفظ كالنُّصُب والعُقَد والإشارة بالجارحة وحال الشيء.

والمراد الأنواع كالإنسان والفرس والجبل والنخلة، لا الأفراد كزيد وشدقم وهيلة، وكلُّ أهل لغة من أولاده وأولاد أولاده حفظ لغة ونسي غيرها، وكلُّها موجودة في أهل سفينة نوح، أو أوقد عليها في ألواح ودفنت وأخرجت بعد الطوفان، أو أوحي ما اندرس منها إلى نوح أو هود.

(لغة) وآدم بوزن أحمر من الأُدْمة بمعنى السمرة، ولا بأس بها في الجنَّة لأنَّه لم يدخلها جزاءً، أو سَمُر بعد الخروج، وفسَّر بعضهم الأدمة بالبياض، أو من الأَدَمة بفتح الهمزة والدال، وهو القدوة، أو من أديم الأرض أي من جلدها أي ظاهرها، ومن الأدم أو الأدمة بمعنى الألفة، وألفه عن همزة، وقيل: عجميٌّ بوزن شالخ وآزر فألفه أصل، وذلك في الجنَّة أو خلق في الدنيا ورفعته الملائكة إلى الجنَّة وعاش بعد خروجه منها ألف عام أو تسعمائة.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي الأسماء بمعنى المسمَّيات، ذكر الأسماء مرادًا بها الدوال، وردَّ الضمير إليها مرادًا به المدلول على الاستخدام، وضمير الذكور العقلاء تغليب على الإناث وغير العقلاء ﴿عَلَى الْمَلآئِكَةِ﴾ القائلين: ﴿أتجعل فيها...﴾ ؟ ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَآءِ﴾ بألفاظ ﴿هَؤُلآءِ﴾ الأنواع المعروضة، أحضَر كلَّ نوع فقال: ما اسم هذا جسمًا أو عرضًا مثل أن يلهمهم في قلوبهم الفرح ما اسمه والنفل ما اسمه، كما يقول: لهم: ما اسم هذا مشيرًا للحجر؟.

وقد عرفوا بعض الأسماء والأفعال والحروف بلغة من اللغات كما هو نصُّ الآية، وإنَّما خصَّ آدم بجمعه ما لم يعلموا إلى ما علموا، وذلك تعجيز لهم لا تكليف بما لا يطاق. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن كنتم صادقين في دعوى أنَّكم أحقُّ بالخلافة والاقتصار عليكم عمَّا يفسد ويسفك، وأنّكم أعلم، وقد قالوا: لن يخلق الله تعالى خلقًا أعلم منَّا ولا أكرم، وكأنَّه قيل: فما قالوا؟ فقال: ﴿قَالُوا: سُبْحَانَكَ﴾ عن أن نكون في قولنا: ﴿أتجعلُ...﴾ الآية معترضين، ﴿لاَ عِلْمَ لَنَآ﴾ بتلك المسمَّيات وغيرها، ﴿إِلاَّ مَا﴾ أي إلاَّ علم ما ﴿عَلَّمْتَنَآ﴾ إيَّاه، ولا معلوم لنا إلاَّ ما علّمتناه، هذا اعتراف بالعجز، وشكر على إظهار الحكمة في الخليفة لهم، ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ﴾ بكلِّ شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ في جميع ما فعل، وما قال، وما يقول، وما يفعل. لا يكون منه سفه أو لا يخرج الأمر عمَّا أراد، يقال: أراد فلان إحكام شيء ـ أي إتقانه ـ

فأتقنه أي لم يخرج عمَّا أراد.

وقدَّم العلم على الحكمة لأنَّ المقام له، ولقوله: ﴿وَعَلَّمَ﴾ وقوله: ﴿لاَعِلْمَ﴾؛ ولأنَّ الحكمة تنشأ عن علم، وأثرٌ له، ولا حكمة بلا علم، ولأنَّ العلم لا يكون إلاَّ صفة ذات، والحكمة تكون صفة ذات بمعنى أنَّه أهل لأن لا يكون منه إلاَّ الصواب وإلاَّ الإتقان؛ وتكون فعلاً بمعنى إتقان الإمر والإتيان به صوابًا.

﴿قَالَ يَـآ ءَادَمُ﴾ شرَّفه بالنداء كما قال: ﴿يـاأيُّها الرسولُ﴾ ﴿يـا موسى﴾، وبأنَّه حقيق أن يعلِّم غيره، وبمنَّة التعليم والإفادة على الملائكة. وفي ندائه نفي استيلاء الهيبة عليه ﴿أَنبِئْهُمْ﴾ أي الملائكة ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ بأسماء المسمّين، وقد علمت أنَّ المراد العقلاء وغيرهم، وغلَّب العقلاء، أي أذكر لهم الألفاظ الدالَّة عليهم، وفي ضمن ذلك ذكر حكمة المسمَّى.

وللملائكة بعض لغة يفهمون بها ما يخاطبهم آدم به، أو يفهمون بإشارته، أو بإلهام الله سبحانه لهم إلى الفهم عند خطابه، مثل أن يقول: لعلَّ للترجِّي، والإنسان أنا وولدي، والجبل ذلك الجسم الصلب، والأرض لهذه السطيحة، والقصعة وعاء لوضع الطعام، وقام بمعنى تمدَّد جسده من هذه البسيطة.

(لغة) وآدم اسم عجميٌّ لا دلالة له على معنى سوى ذاته، كما هو الأصحُّ، أو أصله من الأدمة، وهو لون إلى سواد،

أي سيكون كذلك إذا خرج إلى الدنيا، أو هو كذلك، حتَّى إذا أُدخِلها جزاء كان أبيض، أو أفعل من أديم الأرض وهو عربيٌّ على الوجهين، ومرَّ ذلك.

﴿**فَلَمَّآ أَنبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ**﴾ العطف على محذوف، أي فأنبأهم. فلمَّا أنبأهم ﴿**قَالَ أَلَمَ اَقُلْ لَّكُمُ, إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السموات وَالاَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾ أي قولوا: قد قلت لكم إنِّي أعلم.

لـمَّا عجزوا بادر لهم بالأمر وبالإقرار بالعجز، أو وبَّخهم على عجلتهم إلى الاستفهام، وكان الأولى لهم أن يترقَّبوا ظهور الحكمة بلا سؤال، ولا سيما أنَّ سؤالهم على صورة الاعتراض لفعل الله، والقدح في بني آدم، بل في آدم أيضًا وذرِّيتَّه بصورة العموم، ولو لم يقصدوا الاعتراض والقدح إجمالاً.

والآية موجبة لمجانبة لفظ ما يوهم ما لا يجوز، ولو لم يقصد ما لا يجوز، وغيب السموات والأرض ما غاب فيهما؛ ولم يضمر للأسماء تعظيمًا لها، والأصل غيب السموات والأرض وشهادتهما، لأنَّه يلزم من العلم بغيبهما العلم بشهادتهما، وذلك على العموم.

وقيل: المراد بغيب السموات أكل آدم وحوَّاء من الشجرة، وبغيب الأرض قتل قابيل هابيل، وقيل: غيب السموات ما قضاه، وغيب الأرض

ما يفعلونه، وقيل: الأوَّل أسرار الملكوت والثاني ما أغابه عن أصفيائه، ﴿وَمَا تُبْدُونَ﴾: ما تظهرون من قولكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا...﴾ إلخ ﴿وَمَا كُنتُم تَكْتُمُونَ﴾: من قولكم: لن يخلق الله أكرم منَّا ولا أعلم؛ والإبداء والكتم باعتبار ما بين الخلق، ولا يخفى على الله شيء.

وأدخل "كان" للإعلام بأنَّه عالم بما استمرُّوا على كتمانه في الماضي، ولا تقل: إنَّها زائدة، ولا إنَّها للاستمرار، **لأنَّ الأصل عدم الزيادة**، ولأنَّ "تكتمون" أدلُّ على الاستمرار وحده منها.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

التكريم السامي لآدم بسجود الملائكة له

﴿**وَإِذْ قُلْنَا**﴾ اذكر وقت قولنا لنفس القول لا لنفس الوقت، **وهكذا في القرآن كلِّه اللفظ ذكر الوقت والمراد ذكر ما فيه**، أو اذكر الحادث (إذ قلنا كذا...) أو اذكر وقت قلنا، أو أطاعوا إذ قلنا ﴿**لِلْمَلَآئِكَةِ**﴾ كلِّهم كما قال: ﴿فسَجَدَ الملآئِكةُ كلُّهم أجمعُونَ﴾

وتخصيص الآية بالمأمورين بالنزول إلى قتال الجنِّ في الأرض خروج

عن الظاهر بلا دليل، وكذا في الأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه و"ص" وذلك سبع سور ذكر فيها، ﴿وإذْ قُلنَا للملآئكةِ﴾ تسلية للنبيء ﷺ آخر الآنبياء عن إيذاء قومه له، كما أنَّ أوَّلهم آدم في محنة عظيمة للخلق، أي لا تطمع يا محمَّد أن يتّفق الناس على الإيمان بك إذ لم يتّفق من آمن وعبد الله آلاف السنين، وشاهد ما لم يشاهد الناس إذ خرج عنهم إبليس وكفر، فكيف قومك وسائر الناس! ﴿اسْجُدُوا﴾ لي ﴿ءَلادَمَ﴾ قبل رفعه من الأرض للسماء، أي إلى جهة آدم إعظامًا له كالكعبة، وسببًا لوجود السجود، وذلك سجود على السماء والأرض وما شاء الله كسجود الصلاة، وهو لله عزَّ وجلَّ، أو المراد بالسجود مطلق الخضوع، أو مع انحناء دون سجود الصلاة، وهو لآدم ونسخ، وإبليس يحسده على الانقياد له وعلى جعله قبلة وعلى كلِّ خير حتَّى الجعل له سببًا.

ونافق من جعل السجود كسجود الصلاة، وأنَّه لآدم تحقيقًا، ولو كان عبادة لله، لأنَّ **السجود كذلك عبادة يختصُّ به الله في كلِّ زمان،** وفي جعله قبلةَ تعظيمِ حقّ المعلّم على من يتعلّم، ﴿فَسَجَدُوا﴾ كلُّهم أجمعون: أهل السماء وأهل الأرض منهم، كلٌّ سجد حيث هو، شرعَ في السجود أوَّلاً جبريل، فميكائيل، فإسرافيل، فعزرائيل، فالملائكة المقرَّبون، يوم الجمعة من وقت الزوال إلى العصر، ويقال بقوا في السجود مائة سنة، ويقال خمسمائة، وهذه الأقوال في قول تفسير السجود بسجود كسجود

الصلاة؛ وفي قول تفسيره بالانحناء.

﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾: بمنع الصرف للعلَميَّة والعجمة.

(لغة) وعلى أنَّ إبليس عربيٌّ من معنى الإيَّاس من الخير أو الإبعاد عنه فللعلميَّة، وكونه لا نظير له في الأسماء، ويردُّه وجود إحليل وإكليل ونحوهما ولو غير أعلام وهو ردٌّ صحيح لا نظر فيه، لأنَّ وجود وزن العلم في اسم الجنس كاف في انتفاء المنع لوزنه.

أبا الجنِّ على الصحيح أو مولود منهم، الاستثناء منقطع، وفيه مناسبة للاتِّصال إذ عبدَ الله مع الملائكة وكان فيهم كواحد منهم.

حتَّى أنَّه قيل: كان خازن الجنَّة أربعين ألف سنة يعبد الله، ومع الملائكة ثمانين ألف سنة، ووعظ الملائكة عشرين ألف سنة، وساد الكروبيِّين ثلاثين ألف سنة والروحانيِّين ألف سنة، وطاف حول العرش أربعة عشر ألف سنة وجاهد في الأرض أربعين ألف سنة، ولم يترك موضعًا في الجنَّة إلاَّ سجد فيه، وأحبط الله عمله كلَّه بتركه السجود لآدم، وكُفرُه شركٌ لأنَّه أُمِر مُعيَّنًا فخالف مواجهة، فلا يختصُّ كفره بمذهب الخوارج، وعصيانه دليل على أنَّه ليس ملَكًا، وكذا كونه من نار، وقوله: ﴿كَانَ مِنَ الجنِّ ففسق عن اَمر ربِّه﴾. ودعوى أنَّ من الملائكة من ليس معصومًا تكلُّف لا دليل له، وكون نوع من الملائكة غير معصوم لا يوجب أنَّه من

ذلك الجنّ، فلعلّه من جنِّ الشياطين المشهورين بهذا، وقد جعل ا لله كونه من الجنِّ سببًا لفسقه، وكونه ملَكا انسلخ عن الملكيَّة فعصى دعوى، وهو مغمور في الملائكة بإيهام أنَّه منهم لا باحتقار فلا ينافي رئاسته.

﴿أَبَى﴾ امتنع من السجود ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ الاستفعال هنا للمبالغة، أي تقرَّر فيه كِبْر عظيم، وهو أصل الإباء، أو مع الأَنفة، إلاَّ أنَّه قدَّم الإباء لأنَّه مِمَّا يظهر، والاستكبار قلبيٌّ إنَّما يظهر بأثره، وذُكرا جميعًا لبيان أنَّ إباءه لا يزول لأنَّه لِكبْرٍ راسخ فيه، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ في علم ا لله تعالى وقضائه الأزليِّ، أو من الكافرين الذين في الأرض من الجنِّ قبل خلق آدم وفي اللوح المحفوظ، أو كان كافرًا لترك السجود طبق شقوته الأزليَّة.

(فقه) والآية دليل على أنَّ الأمر للوجوب، إذ قطع عذره بمخالفة قوله: ﴿اسْجُدُوا﴾ دون أن يقول: أوجبتُ عليكم أو نحو ذلك، وأمر ا لله رسولَه ﷺ بذكر وقت قوله لآدم: ﴿اسْكُن...﴾ إلخ إذ قال:

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

آدم وحوّاء في الجنَّة وموقف الشيطان منهما

﴿وَقُلْنَا: يَآ ءَادَمُ اسْكُنْ اَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ لم يقل: اسكنا لأنَّه المقصود بالذات وهي تبع له في جميع الأحكام والأمور، والأمر لهما أمر وجوب كما هوالظاهر وكما هو الأصل لا أمر إباحة، وهي جنَّة بين فارس وكرمان، أو في عدن، أو فلسطين، **والصحيح أنَّها دار السعداء،** وقيل: جنَّة في السماء غيرها، ولا دليل عليها، ولا نعرف في السماء جنَّة؛ ولا يلزم من كونها دار السعداء أن يذكر ا لله عزَّ وجلَّ الرفع إليها وأنَّ ذكره أولى. وأيضًا قال: ﴿اهبطوا﴾ والأصل في الهبوط النزول من عال، ولو يطلق على الخروج من موضع ودخوله.

حملته الملائكة من الدنيا أو من باب الجنَّة على القول بأنَّه خلق عند بابها من تراب الأرض وأدخلوه الجنَّة؛ وقال له ا لله جلَّ وعلا: اسكنها أنت وزوجك حوَّاء.

ولا يمنع مانع من دخول إبليس مسارقة أو في فم الحيَّة كما كان يدخل السموات، وليس تكليف آدم بالترك للأكل من الشجرة مناقضًا

لما ثبت من أنَّه لا تكليف في الجنَّة لأنَّه لا تكليف فيها على من يدخلها ثوابًا لعمله. ولَغْوُ إبليسَ وكذبه عصيان فيها كعصيانه أوَّلاً، وكأكل آدم من الشجرة فلا يُنافي ذلك قوله تعالى: ﴿لاَيَسْمَعُونَ فيها لَغْوًا ولا تَاثِيمًا﴾ (سورة الواقعة: ٢٥)؛ وأيضًا هذه الآية لأهلها الداخلين فيها للجزاء الذي لا يشوبه شيء، وقد قيل: وسوس إليهما من باب الجنَّة، وبعد أن استقرَّ فيها خلق الله زوجه حوَّاء من ضلعه القصرى اليسرى وهو نائم ولم يحسَّ ألـمًا، فيقال: «لو أحسَّ الألـم كان الرجل لا يعطف على المرأة»، وخلق الله في موضع الضلع لحمًا، وذلك النوم ألقاه الله عليه إذ لا تعب فيها، أو من تعبِ فكرٍ أو بدنٍ في أمر قضاه الله عزَّ وجلَّ، لأنَّه دخلها غير جزاء له، ومن دخلها غير جزاء له جاز له عليه فيها ما يجوز عليه في غيرها مِمَّا شاء الله من نوم وتعب وحزن وخروج، وإذا دخلها بعد ذلك جزاء لم يَجُز عليه ذلك. وبسطتُ عدد الأضلاع فيها واختلاف القول فيها في **وفاء الضمانة بأداء الأمانة**[1]، ومنها ما قيل: أضلاع اليسرى سبعة عشر واليمنى ثمانية عشر.

﴿وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا﴾ أَكْلَ رغدٍ، أو آكلاً راغِدًا، أو ذا رغدٍ، أو نفس

---

[1] – وفاء الضمانة وأداء الأمانة: كتاب في فنّ الحديث، ط. مطابع سجل العرب، نشر وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٢م.

وانظر: وينتن مصطفى: آراء امحمد بن يوسف اطفيَّش العقدية، ص٣٩٢، ٤١٤.

الرغدِ مبالغة وهو الوسع ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ من حيث شئتما من أشجارها، وفي أيِّ موضع من مواضعها مع سعتها، فلا داعي لكما إلى تناول شجرة واحدة غير متعدِّدة أنهاكم عنها، ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ الواحدة شجرة الحنطة أو العنب أو النخلة أو الحمص أو الأترجَّة، أو التين أو الحنظل حلوةً فيها أو الكافور. وتطلق الشجرة ولو على ما ليس له ساق، كقوله تعالى: ﴿وأنبتْنا عليهِ شَجرَةً مِّن يَّقْطِينٍ﴾ (سورة الصافات: ١٤٦) أو غير ذلك.

والأصل: ولا تأكلا من هذه الشجرة، إلاَّ أنَّه نُهيَ عن القرب مبالغة، وأيضًا الأكل منها مسبِّب، أو أراد حقيقة القرب لأنَّ القرب إليها يؤمِّلهما فيها لإطلاعهما على شأنها مع وسوسة الشيطان ﴿فتكونا﴾ يقول: لا تقربا فلا تكونا، فهو مجزوم على العطف، أو لا يكن منكما قرب هذه الشجرة فكونكما، فهو منصوب في جواب النفي. ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ المضرِّين لأنفسهم، أو الواضعين الشيء في غير موضعه، أو الناقصين لحظِّهم ولحظِّ الحقِّ. ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ أخرجهما إخراجًا شبيهًا بالإزلال أي بالإزلاق، فذلك استعارة أصليَّة اشتقَّ منها تبعيَّة في أزلَّ، أو حملهما على الزلَّة وهي الذنب، وهو راجع إلى ذلك، لأنَّه شبَّه الذنب بالزلق، ﴿الشَّيْطَانُ﴾ إبليس بقوله: ﴿هلَ اَدُلُّكَ على شجرةِ الخُلْدِ ومُلك لاَّ يَبلَى﴾ (سورة طه: ١٢٠) ...إلخ، وقوله: ﴿ما نهاكُما ربُّكُما عن

هـذه الشـجرةِ إلاّ أنْ تكونـا ملَكـين أو تكونـا مـن الخـالدين﴾ (سـورة الأعراف: ٢٠) ...إلخ، أو مقاسمته لهما بعد إخراجه من الجنَّة لإبائـه وتكبُّره اتَّصلت إليهما وسوسته من حيث هو من الدنيا أو من سماء لخلق ا لله عـزَّ وجلَّ له قوَّة على ذلك، أو ذهبا في الجنَّة تمتُّعًا حتّى وصلا بابها فأسمعهما من خارج الباب، أو دخل الجنَّة متصوِّرًا في صورة دابَّة من دوابِّ الجنَّة ولم تعرفه الملائكة، أو دخل في فم الحيَّة فمنه سمُّها، وكانت بقوائـم على طولها من أحسن الدوابِّ فعوقبـت بسـلب القوائـم، وقيـل: تسوَّرت عـن الحائط، وقيل: وقف طاوس على الجدار فذهب إليه آدم وحـوَّاء فوسـوس منهما إليه، وقد جاء إلى قـرب الحـائط، وقيـل: وسـوس إليهمـا مـن وراء الجدار.

﴿عَنْهَا﴾ أي عن الجنَّة، أو أزلّهما عـن الجنَّـة عنهـا أي بالشـجرة إذ أمرهما بالأكل منها ﴿فَأَخْرَجَـهُمَا﴾ أي الشـيطان بسـبب الأكـل الـذي وسوس به، أسند الإخراج إلى السبب ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعم واللباس والجنَّة وهذا في ضمن الإخراج المذكور بقوله: أَزَلَّـهُمَا، كرَّره تفصيلاً أو زيادة زجر لغيرهما، وطاوعه آدم وحـوَّاء نسيانًا لنهـي ا لله عـزَّ وجـلَّ أو توهُّمًا من أوَّل الأمر أنَّ النهي للتنزيه عن أمر سهل يتحمَّلانـه مـن الأكـل ولا يضرُّهما، أو توهَّما التـنزيه أو النسخ من قوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا﴾ وقولـه: ﴿هلَ اَدلُّكَ﴾ ودعواه النصح مع القَسَم احترامًا لحـقِّ ا لله أن يُكـذب عنـه ويخالَف، وعدَّ ذلك ذنباً في حقِّهما لعلوِّ مرتبتهما وعظـم النعمـة عليهمـا،

فلا يَرِدُ أنَّ الأنبياء لا يعصون قبل النبوءة ولو صغيرة؛ ولا يستحضر في قصَّة آدم ما يقال: «**حسنات الأبرار سيِّئات المقرَّبين**» إذ لم يفعل آدم شيئًا مِمَّا عوتب عليه يدَّعيه حسنة بل يستحضر أنَّه يعدُّ في حقٍّ عالي الرتبة ذنبًا ما ليس ذنبًا في حقٍّ غيره.

﴿**وَقُلْنَا اهْبِطُوا**﴾ أنت وحوَّاء، عبَّر عنهما بصيغة الجمع كما قال: ﴿اهبِطُوا منها جَميعًا﴾ إلى الأرض، أنتما ومن فيكما من الذرِّيَّة، وفيه خطاب المعدوم.

أو أنتما وإبليس والحيَّة، قيل: والطاوس. قيل: فنزل آدم بسرنديب من الهند على جبل يسمَّى «نودَا» وحوَّاء بجُدَّة بضمِّ الجيم في مدَّة أربعين عامًا فيما قيل، والله قادر على أقلَّ كما ينزل جبريل وغيره في لحظة، وإبليس بالأبلة من أعمال البصرة، وزوجه بأصبهان أو سجستان، أو نصيبين، والحيَّة بأصبهان، والطاوس بالشام. أنتما لأَكْلِكما من الشجرة، وإبليس لإبائه، والحيَّة لحملها إبليس، والطاوس لإبلاغ أمر إبليس إليها، وليس قولا بمرَّة، بل أهبط إبليس ثمَّ الحيَّة فالطاوس ثمَّ آدم وحوَّاء، وللحيَّة والطاوس في الجنَّة عقل فعوقبا بالإخراج، أو ليس عقابًا[1].

---

[1] – هذه تفاصيل لا فائدة منها، والأولى الاستغناء عنها وعن أمثالها ممَّا سيرد بعد، وهي من

=

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يطلق على الواحد فصاعدًا لأنَّه بوزن المصدر كالقبول، كما أنَّه يطلق فعيلُ الوصفِ كذلك لشبهه بالمصدر كالدبيب والصرير، وذلك مجموع لا جميع، فإنَّ العداوة بين آدم وحوَّاء فريقًا، وبين إبليس والحيَّة فريقًا، لا بين آدم وحوَّاء، ولا بين إبليس والحيَّة ولا بينهم وبين الطاوس؛ وقيل: **الخطاب للذرِّيَّة في ضمن أبويهما آدم وحوَّاء وذلك ظلم بعض لبعض** ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ متعلّق بـ«لَكُمْ» لنيابته عن ثبت أو ثابت ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرارٌ، أو موضعه، والأوَّل أولى، وليس المراد الموضع الذي نزلوا فيه ﴿وَمَتَاعٌ﴾ تمتُّعٌ، أو ما يُتمتَّع به ﴿إِلَى حِينٍ﴾ إلى آخر أعماركم، وقيل: قيام الساعة، لأنَّ المراد هم وذرِّيَّاتهم، تَنَازَعَهُ مستقرٌّ ومتاع ﴿فَتَلَقَّى ءَادَمُ﴾ وحوَّاء لقوله تعالى: ﴿قالاَ ربَّنا...﴾ إلخ ﴿مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ دعوا بهنَّ

= رسوبات الأقدمين من الأمم السابقة، والشيخ رحمه الله إنَّما يوردها حبًّا منه للمعرفة والرواية فقط. وقد ذكر القطب رحمه الله في كتابه **الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى** (ص٣٩-٤٠)، ما يفيد هذا المعنى، فقال: «وقد كنتُ ممارسا لعلم التصوّف، ولا يخفى عليَّ مقاصدهم، والحمد لله تعالى، وأجيب عمَّا أشكل، وكرهته لأنَّه يوهم تفسير القرآن بما هو خطأ، وكذا تفسير الحديث، والحقُّ علم الظاهر مع مراعاة العمل...ومع ذلك أذكر أقوالا لأهل التصوف في تفسير الأسماء الحسنى إيناسا للطلبة ولنفسي، وفي ذلك وجهان:...»

﴿ربَّنا ظَلَمْنَآ أنفُسَنا وإن لَّمْ تَغفِرْ لنا وترْحمْنا لَنكونَنَّ منَ الخاسِرينَ﴾ (سورة الأعراف: ٢٣) على الأصحِّ، وقيل: «**سبحانك اللهمَّ وبحمدكَ تبارك اسمك وتعالى جدُّك ولا إله إلاَّ أنت، ظلمت نفسي فاغفر لي إنَّه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت**».

وأخرج الحاكم في المستدرك عنه ﷺ من طريق ابن عبَّاس أنَّه قال: «يا ربِّ ألم تخلقني بيدك؟» قال: «بلى»، قال: «ياربِّ ألم تنفخ فيَ الروح من روحك؟» قال: «بلى»، قال: «ياربِّ ألم تسبق رحمتك غضبَك؟» قال: «بلى»، قال: «يا ربِّ ألم تسكنِّي جنَّتك؟» قال: «بلى»، قال: «ياربِّ إن تبتُ وأصلحتُ أراجعي أنت إلى الجنَّة؟» قال: «نعم».

وتلقِّي الكلمات التوجُّهُ إليهنَّ بقبولهنَّ والدعاء بهنَّ إذ ألهمه الرحمن الرحيم إياهنَّ؛ وقيل: هنَّ توسُّله بمحمَّد ﷺ حين رآه مكتوبًا على ساق العرش، وقد علَّمه الله الكتابة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ رجع إليه بعد الإعراض عنه.

(أصول الدين) وولايته وعدواته لا تتقلَّبان لكنَّه شبَّه كراهته أكلهما بالإعراض، ورضاه بندمهما بالرجوع، والله منزَّه عن الجهات والأمكنة والتنقُّل، أو قَبِل توبته أو وفَّقه للتوبة، **وهكذا توبة الله حيث ذكرت**، وبعد ما تاب الله عليه بقي ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء حياء من الله عزَّ وجلَّ،

﴿إِنَّهُۥ هُوَ التَّوَّابُ﴾ كثير الرجوع وعظيمه على عباده بالإنعام وقبول التوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾ للعاصي والمطيع، إلاَّ من أصرَّ من العصاة فله في الدنيا فقط.

(أصول الدين) ولا يقال: الله تائب لعدم وروده في القرآن بالإجماع، وأسماء الله توقيفيَّة، وقيل: تقاس فيما ورد فيه لفظ الفعل أو غيره مسندًا فتقول: الله تائب على عباده، لورود: ﴿تابَ عليه﴾ و﴿تاب عليهم﴾ وباني السماء وداحي الأرض.

(فقه) واعلم أنَّ [النطق] لفظ الشرك حرام باتِّفاق الأمَّة ولو لم ينوِ به الشرك إلاَّ حكاية أو اضطرارًا لأنَّه موهم، وذلك من الإلحاد في أسمائه كما قال بعض العلماء: إنَّ الله حكم بشرك من قال: ﴿عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ﴾ أو قال: ﴿المسيحُ ابن اللهِ﴾ ولو لم ينو حقيقة البنوَّة، وذلك بناء منهم على أنَّ لفظ الإشراك شرك ولو لم ينوِ، كما أنَّ نيته شرك بلا لفظ أوْ مع لفظ، حتَّى إنَّ من العلماء من لا يجيز للمضطرِّ أن يلقظ بشرك ولو اطمأنَّ قلبه بالإيمان إلاَّ بتأويل لفظه، أو بمعرضة، إو إسرار شيء يخالفه وينقضه، أو عناية ما مِمَّا ينقض اللفظ زيادة على اطمئنان قلبه، وإنَّما منعوا ما يوهم الشرك ولو لم يقصده حسمًا لمادَّة الشرك، كما نصَّ عليه بعض محشِّي البيضاوي.

وقد اختلفوا في أسماء الله أتوقيفيَّة أم قياسيَّة فيما ورد فيه معنى المادَّة

بشرط الإضافة على الكيفية الواردة مثل أن يقال: فارش الأرض، وداحي الأرض، لقوله تعالى: ﴿والأرضَ فرَشْناها فنعمَ الماهِدونَ﴾ (سورة الذاريات: ٤٨)﴿والأرضَ بعدَ ذلِكَ دَحَاها﴾ (سورة النازعات: ٣٠).
واتَّفقوا أنَّه لا يجوز تسميته بما يوهم شركًا أو نُقصًا ولو مجازًا بقرينة واضحة وعلاقة، مثل أن يقال: لله باب، فإنَّه لا يجوز إجماعًا من الأمَّة مع أنَّ قائله لم يقصد حقيقة البنوَّة والأبوَّة، وإنَّما اختلفوا: هل يشرك من لم يقصد حقيقة البنوَّة والأبوَّة، فقيل: يشرك، وقيل: لا، وأمَّا أن يقول قائل بجواز أن يقال: لله باب فلا، بل اتَّفقوا أنَّه لا يجوز أن يقال ذلك ولو بلا قصد لحقيقة البنوَّة والأبوَّة.

واتَّفقوا أنَّه لا يجوز أن يترك إنسان يقوله، وقد قال بعض في برابرة المغرب:

إذا كُنتَ في الفردَوسِ جارًا لبربر فيلزمكَ الرحيلُ منها إلى سقر
يقولون: للرحمن بَابَ، بجهلهم ومن قال: للرحمن باب، فقد كفر

وقد أصاب في قوله: «كفر» إن أراد أنَّه تلفَّظ بلفظ الشرك، وإن أُراد أنَّه أشرك، ولو لم يقصد الشرك فهو قول للعلماء كما رأيت، وهو ضعيف؛ وأخطأ في قوله: «إذا كنت في الفردوس....» البيت، وأجابه بعض المغاربة بقوله:

كفى بك جهلاً أن تحنَّ إلى سقر بديلاً من الفردوس في خير مسقر
فإنَّ أبا الإنسان يدْعون أنَّه كفيل وقيِّم رحيم به وَبَر
ومن قال للرحمن بَابَ وقد عنى به ذلك المعنى مجازًا فما كفر

وهذا المجيب أصاب، وجرى على الواضح إلاَّ أنَّه إن أراد أنَّه يجوز إبقاء البربريِّ أو غيره على ذلك القول لعنايته الرحمة فقد أخطأ، فينبغي أن يفصح بأنَّه لم يشرك، وأنَّه لا يجوز له قول ذلك ولا يجوز إبقاؤه بلا نهي عن ذلك.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أي من الجنَّة وهذا يقوِّي رجوع الضمير في ﴿عنها﴾ إلى الجنَّة، وكرَّر قول ﴿اهْبِطُوا﴾ لأنَّ الأوَّل مذكور برسم العقاب بالهبوط وفَوْتِ نعيم الجنَّة التي لا أجل لها، ومضارِّ الهبوط من العداوة إلى دار مؤجَّلة، وبرسم التوبة، والثاني مذكور على رسم التكليف كما قال: ﴿فَإِمَّا...﴾ إلخ. أي إنْ ما، وما تأكيد لعموم الإتيان، وهذا يقوِّي أنَّ الخطاب للذرِّيَّة في الأوَّل أيضًا، لأنَّ الحيَّة والطاوس لا تكليف عليهما، وقد يقال: الأوَّل لهما ولآدم وحوَّاء وإبليس، والثاني للذرِّيَّة، أو ذكره أوَّلا بليَّة وثانيًا نعمة، إذ رتَّب عليه التكليف المؤدِّي إلى الرجوع إلى الجنَّة مع ما لا يحصى من ولده؛ كما روي أنَّه رقَّ قلب جبريل على آدم وحوَّاء، فأوحى الله إليه: دعهما فإنَّهما سيعودان إليها مع ما لا يحصى من ذرِّيَّتهما ويخلدون أبدًا.

وقد يقال: كلا الخطابين كلٌّ لا كلِّيَّة، وقد يقال: هبوطان، الأوَّل إلى السماء الدنيا، وخصَّ السماء الدنيا لقربها من الأرض، ولا ضعف في قولنا: اهبطوا إلى السماء الدنيا مقدِّرين الاستقرار والتمتُّع في الأرض، والثاني إلى الأرض.

﴿فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُمْ﴾ في الأرض ﴿مِّنِّي هُدًى﴾ وحي أو رسول،

ومقتضى الظاهر: فإذا أتاكم منّي هدًى لتحقُّق الإتيان، لكن لـمَّا كان بعث الأنبياء والوحي إليهم من الجائز لا الواجب **ـ ولا واجب على الله عزَّ وجلَّ ـ** ذكر بصيغة الشكِّ المعتبرة بالمخاطبة لأنَّ العقل لا يوجبه، ولو كانت الحكمة أن لا يهمل العاقل؛ وفي صيغة الشكِّ أيضًا تدريج، وفيه تخفيف، أو لتنزيل العالِم منزلة الجاهل الشاكِّ إذا لم يجر على مقتضى علمه ﴿**فَمَن تَبِعَ هُدَايَ**﴾ مقتضى الظاهر: فمن تبعه، لكن أظهر وأضاف للياء تعظيمًا، وقيل: لأنَّه لعموم ما يعقل بالاستدلال.

(فقه) واتِّباع الهدى: الإيمان والعمل والتقوى، ومن آمن ومات أو تاب ومات قبل وجوب الواجبات فهو من هذا القسم، ومن أصرَّ ففي النار، ولم يذكر في هذه الآية إلاَّ بمفهوم الشرط إذ شرط باتِّباع الهدى فلا خوف عليهم، والجملة جواب، وقيل: محذوف، أي اتَّبِعوه ﴿**فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ في آخر موتهم ولا في القبر ولا عند البعث، ويصيبهم الخوف في االدنيا من مضارِّها، ولا من سوء الخاتمة، ولا من العقاب، ولا في بعض مواطن الموقف ﴿**وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ في الآخرة من ترك الإيمان والتقوى، إذ لم يتركوها فاستحقُّوا الجنَّة.

والخوف غمٌّ لتوقُّع مكروه، والحزن غمٌّ لفوت مهمٍّ، ويجب التحفُّظ عن المعاصي، قال بعض:

يا ناظِرًا يرنو بِعَيْنَيْ راقد ومشاهِدٍ للأمرِ غيرَ مشاهِدِ

منَّيتَ نفسَك ضِلَّةً وأبحتَها ... طرُقَ الرجاء وهنَّ غيرُ قواصد
تصلُ الذنوبَ إلى الذنوب وترتجي ... دُرَج الجنانِ بها وفوزَ العابد
ونسيت أنَّ الله أخرج آدمًا ... منها إلى الدنيا بذنب واحد

﴿وَالذِينَ كَفَرُوا﴾ في قلوبهم، أي بها، أي بآياتنا ﴿وَكَذَّبُوا بِـَٔايَاتِنَآ﴾ في ألسنتهم وهي القرآن وسائر كتب الله العظيم، وهي آيات، أي علامات على وجود الله وكمال قدرته وصدق الأنبياء، ويدخل بالأولى من أنكر الله.

(لغة) وسمِّيت الآية لأنَّها علامة على معناها، أو لأنَّها جماعة حروف وكلمات، يقال: خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم، أو لأنَّها علامة على الانقطاع عمَّا قبلها وعمَّا بعدها باعتبار التمام لا باعتبار المعنى، لأنَّ المعنى كثيرًا ما يتمُّ بآيتين أو آيات، او لأنَّها يُتعجَّب من إعجازها، يقال: فلان آية من الآيات.

﴿أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ملابسوها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا تفنى ولا يفنون ولا يخرجون. خاطب الله مشركي العرب ومنافقيهم وقد يكون الخطاب على عموم الناس.

ثمَّ خاطب اليهود خصوصًا فقال:

﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ

بِالْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

ما طُلب من بني إسرائيل

﴿يَابَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ عبد الله يعقوب، واللفظان عبريانن أو أسر: القوة، أي قوّة الله، أو أسرى ليلاً مهاجرًا إلى الله، أو أسِرَ جنّيًّا لوجه الله كان يطفئ سراج بيت المقدس، وعلى الثلاثة «إيل» لفظ عبريٌّ معناه الله، وما قبله عربيٌّ.

كما قيل في «تلمسان» تلمُّ بمعنى تجمع عربيٌّ، وسان اثنان بلغة البربر أي جمعت حسن البرِّ والبحر، أو اتّفقت اللغتان العربيَّة والعبريَّة، وقيل: «أسر» صفوة أو إنسان، أو مهاجر، والمراد بنو إسرائيل الموجودون حال نزول الآية ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ اذكروها في قلوبكم لتشكروها بتعظيم القلب، ومدح اللسان، وعمل الجوارح، ولا تكتفوا بمجرَّد حضورها في القلب واللسان ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أنعمتها أي أنعمت بها، أو ضمن معنى أثبت، وقد أجيز حذف الرابط بلا شرط إذا علم، وهي التنجيةُ من فرعون، وفرق البحر، والإحياء بعد موت، وتظليل الغمام، والمنُّ والسلوى، والعفو، وغفران الخطايا، والتوراة، والماء من الحجر، والصحف... مجموعهنَّ نعمة تتضمَّن نعمًا، أو الإضافة للحقيقة، أو النعمة

اسم مصدر، أي اذكروا إنعامي بذلك، وذلك لآبائهم، وما كان فخرًا لآبائهم فهو فخر لهم، كما أنَّه نسب إليهم ما فعل آباؤهم من السوء لرضاهم عنهم مع السوء من قولهم: ﴿سمِعْنا وعَصَيْنا﴾ (سورة البقرة: ٩٣) و﴿أرِنَا الله جَهْرَةً﴾ (سورة النساء: ١٥٣) و﴿لنْ نّصبرَ على طَعامٍ واحِدٍ﴾ (سورة البقرة: ٦١) واتّخاذ العجل، وتبديل الذين ظلموا، وتحريف الكلم، والتولّي بعد ذلك، وقسوة القلب، والكفر بالآيات وقتل الأنبياء.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ بما عهدت إليكم من الإيمان بمحمَّد ﷺ أخذه من موسى وأخذه موسى عليكم، قال الله جلَّ و علا: ﴿وَلَقَدَ اَخَذَ الله ميثاقَ بني إسرآئيل﴾ (سورة المائدة: ١٢) إلخ...، والعهد: إنزال نبوءته ورسالته ﷺ في التوراة.

﴿أوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بما عهدته لكم من الجنَّة على الوفاء بعهدي ﴿وَإِيَّايَ﴾ ارهبوا، يقدَّر العامل هكذا مؤخّرا للحصر، أي خافوني وحدي على ترك الإيفاء بعهدي، والشاغل الياء المحذوفة في قوله: ﴿فَارْهَبُونِ﴾ في جميع أحوالكم، وفي نقض العهد، وفي أن تنزل نقمة عليكم كآبائكم، وكأنَّها مذكورة إذ وجدت نون الوقاية المكسورة لها، والفاء صلة للتأكيد، أو يقدَّر: إيَّاي فارهبوا، تنبّهوا فارهبون، وعليه فحذف ارهبوا للدلالة عليه لا على رسم الاشتغال، والرهبة الخوف، أو مع التحرُّز ﴿وَءَامِنُوا﴾ يا بني إسرائيل، وقيل: المراد العلماء والرؤساء منهم ككعب بن الأشرف، ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ على محمَّد ﷺ من القرآن

وسائر الوحي ﴿مُصَدِّقًا﴾ أنا، فهو حال من التاء، والأَولى أنَّه حال من الهاء المحذوفة أي أنزلته أو من ما، ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة والإنجيل، أي صدَّقته بما أنزلتُه، أو مصدِّقًا ما أنزلت، لأنَّ القرآن جاء مطابقًا لما في التوراة والإنجيل فيما ذكر الله فيهما من نبوءة سيِّدنا محمَّد ﷺ ورسالته وسيرته، ومن وصف القرآن والقصص والمواعيد والتوحيد والدعاء إليه، والعبادة والنهي عن المنكر، حتَّى إنَّ اتِّباعهما موجب للإيمان به وبما جاء به.

﴿وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ﴾ أي مثل أوَّل ﴿كَافِرٍ بِهِ﴾ أوَّل فريق كافر، أو لا يكن واحد منكم أوَّل إنسان كافر به من أهل الكتاب فيتبعكم مَن بعدَكم ومن معكم، فيكون عليكم إثم كُفرِكم، ومثل إثم مَن تبعكم، وقد سبقكم في الكفر به قريش وسائر العرب، ولا تكونوا مثلهم فإنَّكم أحقُّ وأوَّل من يؤمن لِما تتلون في التوراة والإنجيل من الإخبار به.

والهاء لِما معكم، فكفركم بالقرآن كفر بما معكم من التوراة والإنجيل، والعرب لم تسبقكم بالكفر بهما، بل بالكفر بالقرآن.

(لغة) والواو الثانية من أوَّل عن همزة من «وَأَلَ» إذا نَجَا، وفيه معنى السبق والتبادر، وقيل: من آل بمعنى رجع، وقيل: أصل شاذٌّ لا فعل له، إذ لا توجد كلمة فاؤها وعينها واو، وما قيل من أنَّ فعله «وَوَلَ» بيانٌ لا سماع، وقيل: وزنه فوعل، ويردُّه منع صرفه.

﴿وَلاَ تَشْتَرُوا﴾ ضدُّ البيع استعارة عن تستبدلوا ﴿بِئَايَاتِي﴾ الآيات

التي في التوراة والإنجيل الدالاّت على ما أنزلتُ على محمَّد، بأن تخفوها أو تمحوها أو تبدلوها، أو تفسِّروها بغير تأويلها ﴿ثَمَنًا﴾ مثمنًا ﴿قَلِيلاً﴾ هو ما تعطيكم سفَلَتُكُمْ مَبنيًّا على ذلك التغيير وعلى رئاستكم به، وفي الموسم وأزمان الثمار، فترْكُ الآيات بتلك الأوجه ثمن اشتروا به مثمنًا هو ما يعطون، أو ثمنًا بمعنى عوضًا، وكلٌّ من الثمن والمثمن ثمن ومثمن من حيث أنَّ كلاًّ عوض.

أو تشتروا تستبدلوا، من حيث أنَّ الاستبدال أعمُّ من الشراء فذلك مجاز مرسل للإطلاق والتقييد، وما يأخذونه كثير لكنّه بالنسبة لما تركوا من الدنيا قليل.

وبّخ الله اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ بالكتم وبيع الدين والتحريف، وقولهم: ﴿هذا من عندِ اللهِ﴾ و﴿نحنُ أبنآءُ اللهِ﴾ و﴿يدُ اللهِ مغلولةٌ﴾ وقتل أنفسهم، وإخراج فريق منهم من ديارهم، والحرص على الحياة، وعداوة جبريل، واتِّباع السحر. ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ مثل ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾.

﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ﴾ لا تخلطوه وهو ما في التوراة والإنجيل ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ هو خلاف الحقِّ من أنفسهم خلطوه بالحقِّ تفسيرًا وكتابة، فهو بعد كلام حقٌّ؛ وقيل: كلام آخر حقٌّ، سواء زادوه بينهما فقط أو أسقطوا كلامًا بينهما وجعلوا مكانه باطلاً ﴿وَتَكْتُمُوا﴾ أي ولا تكتموا، أو مع أن تكتموا جزمًا بالعطف أو نصبًا في جواب النهي ﴿الْحَقَّ﴾

كصفة محمَّد ﷺ، ورجم المحصن إذا سئلوا أنكروا وجود ذلك في التوراة. وكرَّر الحقَّ للتأكيد إذ لم يضمر له، أو لأنَّ المراد بالأوَّل غير صفته ﷺ ورجم المحصن.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّه حقٌّ، أو تعلمون أنَّه موجود في التوراة، أو البعثُ، أو الجزاءُ، أو أنَّكم لا بسون كاتمون وتقولون: لا يوجد، وذلك قبيح ولو لم تعلموا، فكيف وقد علمتم، أو أنتم من ذوي العلم؟ هكذا فلا يقدَّر له عملٌ في محذوف.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ المنزَّلتين في القرآن لوجوب الإيمان به واتِّباعه عليكم ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ محمَّد وأصحابه جماعة، أو الجنس.

(فقه) فالكفَّار مخاطبون بفروع الشريعة كما خوطبوا بالتوحيد، وتأويل الآية ونحوها بآمنوا بوجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ليكون من الأصول دعوى بلا دليل وتكلُّف، والحقُّ جواز الأمر بالشيء قبل بيانه، فليس ذلك من تأخير البيان عن وقت الحاجة، كما تقول لعبدك: «خِطْ هذا الثوب» فيقول: لا أعرف، فتقول: سأعلِّمك وأنت حين أمرتَه عارف بأنَّه لا يعرف.

وقدَّم الصلاة تدريجًا لأنَّها أسهل على النفس من المال ولأنَّها أفضل العبادات بعد التوحيد، وقرنها بالزكاة لأنَّها تطهِّر النفس من البخل وتُورثها فضيلة الكرم، كما أنَّها تنمِّي المال وتطهِّره من البخل، فإنَّ

الزكاة لغةً النموُّ والطهارة.

وفيه تلويح بزجرهم عمَّا هم عليه قبل من الصلاة فرادى بلا ركوع، أو المراد بالركوع الانقيادُ لأمر الشرع وترك التكبُّر، كانت اليهود تأمر سرًّا من أحبُّوه من أقربائهم ومن حلفائهم من الأوس والخزرج وأصهارهم ومراضعيهم ومن سألهم من قريش وغيرهم من العرب باتِّباع محمَّد ﷺ، ويقولون لهم: إنَّه رسول الله وهم لا يؤمنون فنزل:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

نماذج من سوء أخلاق اليهود

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أنواع الخير والطاعات وترك المحرَّمات والمكاره، والمراد الإيمان بمحمَّد ﷺ لأنَّه جامع لذلك، وللتوسُّع في الخير مع الله والأقارب والأجانب، كما هو أصل البِرِّ المأخوذ من البَرِّ بالفتح للفضاء الواسع ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ تتركونها عمدًا من البرِّ فلا تأمرونها به، والاستفهام توبيخ لهم أو إنكار لأن يصحَّ ذلك عقلاً أو

شرعًا، ومحطُّه قوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾.

﴿**وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ**﴾ التوراةَ، وفيها النهي عن مخالفة القول العمل، فإنَّها صورة الجاهل بالشرع والخالي عن العقل إذ كان يعظ ولا يتّعظ، وليس عدم العمل مسقطًا لفرض الأمر والنهي، فإن لم يعمل ولم يأمر ولم ينه فقد ترك فروضًا، وإن عمل ولم يأمر ولم ينه، أو أمر ونهى وترك العمل فقد ترك بعضها.

والنسيان مشترك بين الزوال عن الحافظة والترك عمدًا، وقيل: مجاز في الترك لأنَّه لازم ومسبَّب عن الزوال عنها، ونكتة التعبيرِ به التلويحُ إلى أنَّه لا يليق أن يصدر ذلك إلاَّ لزوال عن الحافظة.

يطّلع ناس من أهل الجنَّة على ناس في النار فيقولون لهم: «كنتم تأمروننا بأعمال دخلنا بها الجنَّة» فيقولون: «كنَّا نخالف إلى غيرها».

﴿**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟!**﴾ أي فألا تعقلون قُبْحَ ذلك؟ قدِّمت الهمزة على العاطف لتمام صدارتها، أو دخلت على معطوف عليه محذوف، **وهكذا في جميع القرآن**، أي أتغفلون فلا تعقلون؟! ﴿**وَاسْتَعِينُوا**﴾ خطاب للمؤمنين لا لليهود، لأنَّه يليق بمن أذعن فيستكمل به، لا للشارد، ولا ينتفع الباقي على كفره بالصبر والصلاة، إلاَّ أنَّه لا مانع من الخطاب لهم مراعاةً لقوله: ﴿أَوْفُوا﴾ و﴿ءَامِنُوا﴾ و﴿اتَّقُونِ﴾ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا﴾ ولا سيما أنَّ ما قبل وما بعدُ فيهم، والمراد: اطلبوا

المعونة على عبادتكم ومباحكم ﴿بِالصَّبْرِ﴾ حبس النفس على الاجتهاد في العبادة، وعمَّا تشتهي من توسيع اللذَّات، وعلى المعاصي والمكاره، وعلى المصيبة.

ويقال: من صبر على الطاعة فله ثلاثمائة درجة، أو عن المعصية فستُّمائة درجة، أو على المصيبة فتسعمائة، بين الدرجتين ما بين الأرض والسماء. ويقال: الصبر على الطاعة أعظم ثوابًا من الصبر على المصيبة، وعلى المعصية أعظم منهما.

ولفظ ابن أبي الدنيا وأبي الشيخ عن عليٍّ: «الصبر ثلاثة: فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية؛ فمن صبر على المصيبة حتَّى يردَّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض؛ ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستَّمائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرض العليا إلى منتهى الأرضين؛ ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرضين إلى منتهى العرش مرَّتين» .

﴿وَالصَّلاَةِ﴾ قدَّم الصبر عليها لأنَّها لا تكون إلاَّ بالصبر عن الكسل والملاذ الصارفة عنها وعلى وظائفها من الطهارة من الأنجاس، ورفع الأحداث والخشوع وإحضار القلب وسائر شروطها وشطورها؛ وأفردها بالذكر لأنَّها تنهى عن الفحشاء والمنكر إذا أُتي بها كما أمر به.

وكان ﷺ إذا اشتدَّ عليه أمر بادر إليها، والآية أنسب باليهود فهم داخلون بالمعنى ولو على القول بأنَّ الخطاب لغيرهم، لأنَّهم منعهم عن الإيمان حبُّ الرئاسة والشهوات فأُمروا بالصبر، ومنه الصوم، أو المراد به الصوم وهو ضعيف، وبالصلاة لأنَّها تنهى عن الفحشاء والمنكر وتورث الخشوع ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي الصلاة، لأنَّها أقرب مذكور، إنّ الاستعانة بالصبر والصلاة كقوله: ﴿اعِدلُوا هو أقربُ للتقوى﴾ (سورة المائدة: ٨)، وقوله تعالى: ﴿وإن تشكروا يرضَهُ لكم﴾ (سورة الزمر: ٧) أي يرضى الشكر، أوْ إنَّ الأمور من قوله ﴿اذكروا﴾ أو قوله ﴿واستعينوا﴾ - والراجح الأوَّل -. ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ شاقة، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ على المشركين ما تدعوهمُ إليهِ﴾ (سورة الشورى: ١٣) أي شقَّ عليهم.

﴿إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾: الساكِني الجوارح، الحاضِري القلوب، ميلاً إلى الطاعة، فلا تثقل عليهم، وإن ثقُلت فأقلّ من ثقلها على غيرهم، لاعتيادهم أمثال ذلك، ورجائهم من الثواب ما يستحقر له مشاقهم، حتى أنَّه ﷺ قال: «**جُعِلتْ قرَّةُ عيني في الصلاةِ**»[1]، ويقول: «**أرِحنَا يا**

---

[1] - أوَّل الحديث قوله عليه السلام: «حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاثٌ: النساء، والطِّيب، وجُعلت قرَّة عيني في الصلاة».

راوه النسائي في كتاب عِشرة النساء، باب حبّ النساء، رقم ٣٩٤٩.

ورواه البهقي، في السنن الكبرى، باب الرغبة في النكاح، ج٧، ص١٢٥، رقم ١٣٤٥٤، من

=

بلالُ بالصلاة»[1].

وصحَّ التفريغ لأنَّ كبيرة بمعنى لا تسهل، كما جاء بعد أبَـي بمعنـى لم يُرد؛ أو هو منقطع أي: لكن الخاشعون لا تكبر عليهم.

﴿الذِينَ يَظُنُّونَ﴾: يعلمون، كما استعمل العلم بمعنى الظنِّ في قولـه تعـالى: ﴿فـإن علمتمُوهـنَّ مومنـاتٍ فـلا تَرجِعوهـنَّ إلى الكفّـار﴾ (سـورة الممتحنة: ١٠)، ﴿أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ﴾: ملاقوا حسابه بعد البعث أو ثوابـه وذلك حذف، أو ملاقوه بالحساب أو الثواب، فشبَّه المعاملة بالحسـاب أو الثواب بالحضور، وتعالى الله عن الحلول والجهات.

﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: للجـزاء، أو هـذا مطلـق رجـوع لمطلـق الحساب، وملاقاتهم هي على ثواب الصبر والصـلاة فـلا تكريـر، فـالظنُّ على ظاهره إذ لا يجزمون بالسعادة.

﴿يَابَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَتِي أَنْعَمْتُ علَيكُمْ﴾: كـرَّره للتأكيد والإيذان بكمال غفلتهم، وليبني عليه قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾

حديث أنس بن مالك.

ورواه أحمد كذلك.

[1] - رواه أحمد في مسنده، ج٩، ص٣٩، رقم ٢٣١٤٩، وأوّل الحديث: «يا بلال أقم الصلاة، أرِحنا يا بلال».

أي بنعمتي، وتفضيلكم هذا عطف خاص على عامٌ. ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: عالمي زمانكم من الناس، إذ جعلتُ فيكم النبوءة والرسالة، والمعجزات والكرامات وخرق العادات، كما فسّر في قوله تعالى: ﴿ياقومِ اذكُروا نِعمة اللهِ عليكمُ، إذْ جعلَ فيكُمُ أنبياآءَ وجعلَكم مُّلوكاً وءاتاكُم مَّا لم يوتِ أحداً مِّنَ العالَمين﴾ (سورة المائدة: ٢٠) كالمنِّ والسلوى، وفلق البحر؛ أمَّا غير الناس من الجمادات والحيوان فلا اعتداد به، وأمَّا الجنُّ فتبع للناس، أو يرادوا في العالَمين؛ وأمَّا الملائكة فليسوا في الآية، لأنـَّها فيمن تمكُن فيهم النبوءة وما يتبعها، ولو قلنا إنَّ الإنسان المؤمن أفضل من الملائكة.

وخرج بعالمي زمانهم نبيئنا محمد ﷺ وأمَّته، فإنـَّهم أفضل الخلق على الإطلاق، والدليل قوله تعالى: ﴿كنتم خيرَ أمَّةٍ...﴾ الآية (آل عمران: ١١٠)، وحديث: «**أنا سيِّد ولدِ آدم**»[1]؛ بل لا ينافي ذلك أنَّهم فضُلوا علينا أي زادوا علينا بكثرة الأنبياء وما ذُكر، لأنـَّا أفضل منهم فرداً فرداً بالذات، بحيث أنّ ثوابنا أكبر من ثوابهم، وسومح لنا ما لم يسامح لهم.

[1] - رواه أحمد في مسنده، ج٤، ص٦، رقم ١٠٩٨٧، عن أبي سعيد.
والترمذي في المناقب (١)، باب في فضل النبيء، ص٣٦١٥، من حديث ابن عبَّاس.
ومسلم في كتاب الفضائل (٢)، باب تفضيل نبيئنا ﷺ على الخلائق (٣)، رقم ٢٢٧٨ من حديث ابن عبَّاس كذلك.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾: يوم القيامة، احذروا هوله وعذابه بالإيمان وأداء الفرائض واجتناب الحرام، ويوما مفعول به كما رأيت على حذف مضاف، ويجوز أنَّه ظرف لمفعول به محذوفٍ، أي العذاب في يومٍ.

﴿لاَّ تَجْزِي﴾ فيه ﴿نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ لا تغني عنها في شيء إغناء ما، أو لا تدفع عنها شيئا بقوَّتها، أو بأعوان لها لو كانوا ﴿وَلاَ يُقْبَلُ﴾ فيه ﴿مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ أي لا شفاعة للنفس الأولى في الثانية، فضلا عن أن تُقبل منها. والجملة السالبة تصدق بنفي الموضوع، قال جلَّ وعلا: ﴿فما لنا مِن شافِعين﴾ (سورة الشعراء: ١٠٠).

﴿وَلاَ يُوخَذُ مِنْهَا﴾: من النفس الثانية ﴿عَدْلٌ﴾ فداء، أو لا تقبل من الأولى الجازية شفاعة لعدم الشفاعة، ولا يؤخذ منها عدل؛ أو لا يقبل من الثانية شفاعة ولا يؤخذ منها عدل؛ لا تشفع مؤمنة في كافرة، ولا يقبل منها عدل فيها ولا في غيرها، وكذا كافرة لقرابة أو محبَّةٍ.

﴿وَلاَ هُمْ﴾ أي النفس لتنكيرها بعد السلب ﴿يُنصَرُونَ﴾ يدفع عنهم العذاب بالمقاومة والغلبة.

(أصول الدين) والآية دليل لنا وللمعتزلة على أن لا شفاعة لأهل الكبائر، لأنَّ الآية ولو كانت في المشركين، لكنَّها في وصف يوم من شأنه أنَّه لا شفاعة فيه بدفع العذاب عن مستحقّه، ولا مقام أو زمان من مقامات الموقف وأزمنته نصٌّ على ثبوتها للفسَّاق ولا لشخص مصرٍّ.

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾

نِعم الله تعالى العشر على اليهود

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾: واذكُروا إذ نجّيناكم بإنجاء آبائكم، واذكُروا نعمتي وتفضيلي، ووقتَ إنجاء آبائكم ﴿مِّنَ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أتباع فرعون في دينه.

وهو الوليد بن مصعب بن ريان، عمّر أكثر من أربعمائة، ولقبه فرعون.

(لغة) والفَرْعَنَةُ الدهاء والمكر كذا قيل، ولعلّه تصرّف بالعربية من لفظ عجمي لا عربي، بدليل منعه من الصرف،

فإنَّه لا علّة فيه مع العلمية سوى العجمة التي ندّعيها.

وهو من ذرية عمليق بن لاود بن إرم بن سام بن نوح.

(لغة) وألف ءال عن هاء أهل، والمعنى واحد، فيصغر على أهيل، وقيل عن همزة مبدلة عن هاء، والمعنى واحد أيضا، وقيل عن واوٍ من آلَ يؤول بمعنى رجع إليك في قرابة أو رأيٍ أو نحوهما، فيصغر على أُوَيْلٍ، ونقله الكسائي نصًّا عن العرب، وعن أبي عمرو غلام ثعلب: الأهل القرابة ولو بلا تابع، والآل بتابع.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: يولونكم على الاستمرار ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ضرّ العذاب ومرارته، أو العذاب السوء: الأشدّ.

صنف يقطع الحجارة من الجبل وهم أقواهم، وصنف ينقلها والطينَ للبناء، وصنف يضرب اللبِن ويطبخ الأجُر، وصنف للنجارة بالنون، وصنف للحدادة، وصنف لضرب الجزية وهم الضعفاء، كلّ يوم مَن غربت عليه الشمس و لم يؤدّها غُلَّت يده لعنقه شهرا؛ وصنف لغزل الكتّان ونسجه وهم النساء.

ومن سوء العذاب تذبيح الأبناء، كما قال تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وقد ذكر أنواع السوء إجمالا مع الذبح في قوله تعالى: ﴿وَيَذَبِّحون﴾ (سورة إبراهيم: ٦) بالواو، وأمَّا هنا فالمراد ذلك، والمراد بسوء العذاب خصوص التذبيح ولا منافاة، لأنَّه لم يحصره في الذبح، بل ذكر في

موضع الامتنان ما هو أشدّ، مع أنَّه لا مانع من إرادة العموم هنا أيضا بسوء العذاب، إلاّ أنَّه ميَّز بعضا فقط؛ كأنَّه قيل: منه تذبيح الأبناء. ذبح اثني عشر ألف ابن أوسبعين ألفا، غير ما يسبّب لإسقاط أمّه، فإن أسقطت ذكرا ذبحه.

والتحقيق أنّ سوء العذاب أعمُّ، فذكر التذبيح تخصيص بعد تعميم، أو المراد ما عدا التذبيح، وجملة يذبحون حال، وعلى أنّ المراد بسوء العذاب التذبيح تكون مفسّرة.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يُبْقونهنّ حيّات، أو يعالجون حياتهنَّ إذا أسقطنهنَّ، أو النساء البنات الصغار يبقونهنّ بلا قتل، وإن كان السقط بنتا عالجوا حياتها، أو المراد عموم ذلك كلّه.

﴿وَفِي ذَلِكُم﴾ المذكور من سوء العذاب إجمالا ﴿بَلآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ امتحان، أو في ذلكم الإنجاء إنعام، أو في ذلك الإنجاء وسوء العذاب والذبح ابتلاء، أتصبرون وتشكرون أم تجزعون ؟ والله عالم، قال الله تعالى:﴿ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة وإلينا تُرجعون﴾ (سورة الأنبياء: ٣٥)، ﴿فأمَّا الانسان إذا ما ابتلاه ربُّه فأكرمه ونعَّمه فيقول: ربِّي أكرمني، وأمَّا إذا ما ابتلاه فقدَر عليه رزقه، فيقول: ربِّي أهانني﴾ (سورة الفجر: ١٥-١٨).

(قصص) رأى فرعون في النوم نارا أقبلت من بيت المقدس، وأحاطت بمصر، وأحرقت كلّ قبطيٍّ بها، ولم تتعرَّض لبني

إسرائيل، فشقّ ذلك عليه وسأل الكهنة؛ فقالوا له: يولد في بني إسرائيل مَن يكون سببا في ذهاب ملكك؛ فأمرَ بقتل كلّ غلام يولد فيهم، وأسرع الموت في شيوخهم، فجاء رؤساء القبط وقالوا: أنت تذبح صغارهم ويموت كبارهم، ويوشك أن يقع العمل علينا، فأمر بالذبح سنة والترك أخرى، فوُلد هارون سنة ترك الذبح، وموسى سنة الذبح.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ﴾ لأجلكم يا بني إسرائيل، أو بسببكم، أو شبَّه سلوكهم بالآلة في كونه واسطة في حصول الفرق، فكانت الباء، ففي ذلك استعارة تبعية، والفرق مقدّم على السلوك فيه، لقوله تعالى ﴿فانفلق فكان كلّ فرق كالطود العظيم﴾ (سورة الشعراء: ٦٣)، وما قيل من أنّه فرق شيئا فشيئا بسلوكهم لا يصحّ.

﴿الْبَحْرَ﴾ لتسلكوه وتنجوا من عدوّكم، بحر القَلْزَم، فرقاً مستديرا راجعا إلى جهة المدخل، وكان عرضه في ذلك المحلّ أربعة فراسخ، فيستبعد السلوك فيه على ذلك الطول بلا تقويس، فيحتاجون إلى رجوع في سفن مع كثرتهم، وقيل النيل فُرقَ على سمت، ويسهل رجوعهم في سفن أو على استدارة وتقويس إلى جهة المدخل وهو أولى، ويُهلكَ عدوّكم.

﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ من عدوّكم ومن الغرَق ﴿وأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَونَ﴾ المراد فرعون وآله.

(لغة) هذا الجنس الشامل لفرعون وآله، كقوله تعالى: ﴿ولقد كرَّمنا بني ءادم﴾ (سورة الإسراء: ٧٠) أي جنس البشر الشامل لآدم وذرّيته، أو آل فرعون هو فرعون وأمَّا قومه فأتباع له، وذكر بالغرق في آيٍ آخر، وذلك كقوله ﷺ: «**مزامير آل داود**» [1]، أي مزامير داود. وكان الحسن البصري يقول: «**اللهمَّ صلِّ على آل محمَّد**» بدل اللهمَّ صلِّ على محمَّد، وذلك أنَّ ما للإنسان يكون لأهله تحقيقا أو فخرا، وأيضاً إذا غرق أهله فهو أولى، لأنَّه رأسهم وبه ضلُّوا.

وناسب نجاة موسى من الغرق نجاته منه حين أُلقي فيه طفلا، **وللأمَّة نصيبٌ ممَّا لنبيئها**، وفرعون غرق بالماء إذ فاخر به في قوله: ﴿وهذه الانهارُ تجري مِن تحتيَ﴾ (سورة الزخرف: ٥١) ولقومه نصيب ممَّا له، وكما عجَّل الموت بإنهارِ الدم عجَّل موته بالغرق، والموت به شديد، ولذلك كان الغريق شهيدا.

---

[1] – وأوّل الحديث أنَّ النبيء ﷺ سمع قراءة أبي موسى فقال: «لقد أُوتي أبو موسى مزماراً من مزامير آل داود».

رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، رقم ١٨٢٣، في المختصر.

ورواه النسائي، كتاب الافتتاح، باب تزيين القرآن بالصوت، رقم ١٠١٨، من حديث عائشة.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾: بعد خروج آخركم منه، أو انطباق البحر عليهم بعد دخول آخرهم وبعد خروج أوّلهم.

(قصص) وبنو إسرائيل يومئذ ستمائة وعشرون ألفا، ليس فيهم ابن عشرين لصغره، ولا ابن ستّين لكبره، وإنّهم بقوا في مصر، وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب عليه السلام اثنين وسبعين إنسانا ما بين رجل وامرأة، وبين يعقوب وموسى عليهما السلام ألف سنة، وقيل أربعمائة، بارك الله في ذلك النسل، وهم من عدا من مات ومن ذُبح؛ وآل فرعون ألف ألفٍ وسبعمائة ألف، وفيهم من دُهْمِ الخيل سبعون ألفا.

وإسناد النظر إذا كان بمعنى النظر بالعين إنّما هو للمجموع، لأنّه إنّما يرى الغرق، أو أخّر بني إسرائيل الذين يقربون من البحر، وإن فسّرناه بالعلم فهو لكلّ واحد، وفي المشاهدة نعمة زائدة، وإن فسّرنا النظر بنظر بعض إلى بعض من الكُوى حين استوحشوا، فأشار بالعصا فكانت الكُوى، فالأمر ظاهر، لكن على هذا تتعلّق الجملة بأنجيناكم أو بفَرقنا لا بأغرقنا.

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى﴾: المفاعلة للمبالغة لأنّ من شأن المتفاعلين جِدُّ كلِّ واحد ليغلب الآخر، وعلى بابها إذ وعده الله إنزال التوراة، ووعدَ الله المجيءَ إلى الطور للعبادة، أو يكفي فيها فعلٌ من طرفٍ وقبولٌ من طرفٍ آخَر، كعالجتُ المريض، أو الطلب طرف وامتناع القبول طرف.

﴿أَرْبَعِينَ لَيلَةً﴾ تمام أربعين يوما بلياليها: ذا القعدة وعشرة من ذي الحجَّة، أو ذي الحجّة وعشرة من المحرّم، يصوم الأيام في الطور بوصال، ويقوم الليالي ويتعبَّد، جَعلتُ له ذلك لأُنزِلَ عليه التوراة بعد تمامها فتعملوا بها، وأخبره الله بذلك، وعبَّرنا بالليالي لأنَّها أوَّل اليوم، والشهور والأعوام فإنَّها بالهلال، والهلال بالليل، ولأنَّ الظلمة أقدم من الضوء: ﴿وءاية لهم الليلُ نسلخ منه النهارَ فإذا هم مُظلِمون﴾ (سورة يس: ٣٧).

(قصص) استخلف هارون على بني إسرائيل، فذهب إلى الطور فتعبَّد أربعين، وأُنزل عليه بعد تمامها - أو في العشرة الأخيرة، وفي الأربعين كلّها أو في أوَّلها، أقوالٌ - التوراة سبعين سفرا، وقلَّما توجد كلُّها عند إنسان واحد على عهد موسى أو ما يليه، وذلك بعدما ذهب منها بإلقائه الألواح الزبرجدية المكتوبة هي فيها، فيحتاج إنسان إلى مسألة، فيقال هي في سفر كذا وكذا، عند فلان في موضع كذا، فتلاشت ولم يبق منها إلاَّ قليل، ثمَّ وقع التحريف أيضا.

ومواعدة الأربعين إخبار بما في نفس الأمر عند الله، إذ كان في الغيب عند الله أن يتعبَّد ثلاثين أمره بها، ثمَّ يزيد عليه عشرة، والنصب على المفعولية، أي واعدنا موسى إعطاء أربعين يتعبَّد فيها، أو على الظرفية، أي أمرا واقعا فيها أو بعدها، أو مفعول مطلق في مواعدة أربعين.

﴿ثُمَّ اتَّخَذتُمُ﴾ اتَّخذ آباؤكم الباقون في مصر ومَن معهم، إلاَّ اثني

عشر ألف رجل مع هارون، وقيل اتَّخذه ثمانية آلاف ﴿الْعِجْلَ﴾ الذي صاغه موسى السامريُّ المنافق إلها يعبدونه، فالمفعول الثاني إلهاً، أو لا ثاني له كقولك: اتَّخذت سيفا صنعته.

﴿مِن بَعْدِهِ﴾ بعد ذهاب موسى عليه السلام إلى ميقات الأربعين.

﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾: باتِّخاذه لأنفسكم، ولدين الله، ولمن يقتدي بكم، وزمانِكم، ومكانِكم.

(فقه) وكلُّ من عصى الله فقد ظلم وقته ومكانه، والظلم الضرُّ، ونقصُ حقِّ الشيء، ووضع الشيء في غير موضعه، **فاحفظ ذلك لغير هذا الموضع واعتبره**، وقد وضعوا العبادة واسم الألوهية في غير موضعهما.

وذلك العجل لحم ودم بإذن الله على الصحيح، وقيل صورة، فنسبة الخوار إليه على التجوُّز، ونُسب للجمهور.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾: الاتِّخاذِ، قبلنا توبة عَبَدةِ العجل بعدما قتلوا منهم سبعين ألفا، ورفع الله عنهم السيف، وصحَّ إطلاق العفو مع عقابهم بالقتل لأنَّه عفو عن مزيد العقاب، بخلاف الغفران فلا يكون مع العقاب، كذا قيل، والصحيح أنَّه يُستعمل كالعفو بلا عقاب ومع عقاب.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: تستعملون قلوبكم وألسنتكم وجوارحكم في

العبادة لمقابلة نعمة العفو، أي عاملناكم معاملة من يرجو الشكر على ما أُنعم عليه به لتشكروا.

والشكر استشعار العجز عن الوفاء بحقِّ النعم عند "الجُنَيْد"، والتواضع عند حضور النعمة في القلب عند "الشبلي"، والطاعة لمن فوقك لنعمه، ولنظيرك بالمكافاة، ولمن دونك بالإحسان.

﴿وَإِذَ -اتَيْنَا﴾ هي إذْ الساكنة، فتحت بالنقل، ومُدَّت بألف آتينا بعد حذف همزة - [عند ورش].

﴿مُوسَى﴾: منع الصرف للعَلَمية والعُجمة، مركَّب من ماء وشجر، فـ"مو" ماء، و"سى " شجر، أُبدلت الشين سينا وزاد الألف، لأنَّه وُجد بين ماء وشجر في بِركة فرعون من النيل، وقيل عربيٌّ مُفْعَلٌ، وقيل فُعلى، من ماسَ يميسُ، أُبدلت الياء واوا، كطوبى من طاب يطيب، والألف للتأنيث وهو ضعيف، لأنَّ زيادة الميم أوَّلا أولى من زيادة الألف.

﴿الكِتَابَ﴾: الصحف، و﴿والفُرْقَانَ﴾ التوراة الفارقة بين الحقِّ والباطل، والحلال والحرام؛ أو الكتاب التوراة، والفرقان المعجزات، كالعصا واليد أو كلاهما التوراة، وعُطِفَ تَنزيلاً لتغَايُر الصفات منزِلةَ تغايُر الذات، أي آتينا موسى كلاما جامعا بين كونه مكتوبا من الله في الألواح وفي اللوح المحفوظ، وكونه مفرقا بين ذلك.

(لغة) والفرقان أيضا مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي صحف الملائكة، والفرقان النصر الفارق بين العدو والولي، كما قيل سمِّي يومُ بدر يوم الفرقان لذلك، وذلك كما تقول: جاء زيد العالِم والشجاع والكريم، تريد جاء زيد المتّصف بالعلم والشجاعة والكرم، ويدلّ لذلك قوله تعالى: ﴿ولقد ءاتينا موسى وهارون الفرقانَ وضيآءً وذِكراً للمتّقين﴾ (سورة الأنبياء: ٤٨).

﴿**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾: من الضلال بهما، أو به إذا قلنا هما واحدٌ، أي لتهتدوا، أو عاملناكم معاملة الراجي، أو أرجو الاهتداء، **وكذا حيث تكون لعلَّ من ا لله ولو لم أذكرْ ذلك.**

﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ**﴾: مَن عبد العجل من الرجال والنساء، فإنَّ لفظ "قوم" يستعمل عاما للنساء مع الرجال تبعا على المشهور، ولو كان لا يستعمل فيهنَّ وحدهنَّ، لأنَّهم القائمون بهنَّ: ﴿الرجال قوَّامونَ على النسآء﴾ (سورة النساء: ٣٤)، وقيل يجوز إطلاق القوم عليهنَّ حقيقة، أو مع الرجال كذلك.

﴿**يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمُ, أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ**﴾ إلها ﴿**فَتُوبُوا**﴾ من عبادة العجل، وتسميتِه إلَها، والدعاء إليه، والرضا بتصويره، مع أنَّه لا يقدر على فعل شيءٍ فضلا عن أن يكون خالقا.

﴿**إِلى بَارِئِكُمْ**﴾: خالِقكم براءٍ من التفاوت، كيَدٍ في غاية القصر

والرقة وأخرى طويلة غليظةٍ، أو يدٍ سوداء ووجه أبيض، وهو أخصُّ من الخلق، أو مخرجكم من العدم، والخلقُ النقلُ من حال لأخرى والتقديرُ [للشيء].

﴿فَاقْتُلُواْ أنفُسَكُمْ﴾: ليس هذا من التوبة تفسيراً لها، بل هي في قوله ﴿توبوا﴾، وهذا عقاب تصحُّ به توبتهم وتقبل.

(فقه) كمن فعل ذنبا ممَّا بينه وبين الله، فاستقبحه وندم، عزم على عدم العود وأمر بكفَّارة، **فالتحقيق أنَّ الكفَّارة ليست من حدِّ التوبة**، ولو كانت قد تؤخذ في تعريفها، بخلاف ردِّ المظلمة فمن حدِّها.

ومعنى ﴿اقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ﴾: ليقتلْ بعضكم بعضا أنفسكم، أو نزَّلهم منزلة شيء واحدٍ، وذلك أنَّهم لم يؤمر كلٌّ واحد أن يقتل نفسه، بلا أمر من لم يعبد العجل - وهم اثنا عشر ألفا - أن يقتل مَن عَبَدَهُ، والقاتل والمقتول كنفس واحدة نسَباً وديناً، والخطاب لمن لم يعبده في اقتلوا، أو اقتلوا يا عابدي العجل بعضكم بعضا، أو اسلموا أنفسكم للقتل، فالخطاب للعابدين.

قالوا: «نصبر للقتل طاعة لله ليقبَلَ توبتَنا»، وعلى أنَّ القاتلين من لم يعبد العجل.

(قصص) فالعابدون جلسوا مُحْتَبِينَ، وقال لهم موسى: «من حلَّ

حبوته، أو مدَّ طرفه إلى قاتله، أو اتَّقاه بيد أو رجل، فهو ملعون مردود التوبة»، فأُخرجت الخناجر والسيوف، وأقبلوا عليهم للقتل، فكان الرجلُ يرى أباه وابنه، وأخاه وقرينه، وصديقه وجاره، فيرقُّ له ولا يمكنه أن يقتله؛ فقالوا: «يا موسى كيف نفعل؟»، فأرسل الله عليهم سحابة سوداء تغشى الأرض كالدخان، لئلاَّ يعرف القاتلُ المقتولَ، فشرعوا يقتلون من الغداة إلى العشيِّ، حتَّى قتلوا سبعين ألفا، واشتدَّ الكرب، فبكى موسى وهارون، وتضرَّعا إلى الله فانكشفت السحابة، وسقطت الشفار من أيديهم، ونزلت التوبة، فأوحى الله إلى موسى: «أما يرضيك أن أدخل القاتلَ والمقتولَ الجنَّة؟»، فكان من قتل منهم شهيدا، ومن بقي منهم مغفورا له خطيئته من غير قتل، وذلك حكمة من الله عزَّ وجلَّ[1]، وله أن يفعل ما يشاء، أبدل لهم عن الحياة الدنيا حياة سرمدية بهيجة، وقيل: **القتل إذلال النفوس بالطاعة، وترك المعصية.**

﴿**ذَلِكُمْ**﴾ أي القتل، ﴿**خَيْرٌ**﴾ منفعة، أو اسم تفضيل خارج عنه، وإن لم يخرج فباعتبار لذَّة المعصية في النفوس، أو من باب: العسل أحلى من الخلِّ ﴿**لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ**﴾ الخطاب للذين لم يعبدوا العجل

---

[1] - سبحانه الحكيم العليم، أورد هذه الأخبار ابن كثير نقلا عن الطبري والسدّي وسعيد بن جبير وغيرهم، وقالَ ابن كثير: «هذا قطعة من حديث الفتون» وقد ذكره كاملا في تفسير سورة طه. ابن كثير: تفسير، ج١، ص٩٨.

والذين عبدوه.

أذْعن العباد للقتل، وامتثل غير العابدين قتل العابدين، مع أنَّهم نسبهم، وقرابتهم، وأصدقاؤهم، وأصهارهم، وجيرانهم. وكرَّر لفظ بارئ، ولم يقل خير لكم عنده، ليشعر بأنَّ من هو بارئ حقيق بأن يُمتثل له أمرُه ونهيُه. ﴿**فَتَابَ**﴾ الله، ومقتضى الظاهر: فتبتُ، ﴿**عَلَيْكُم**﴾ قبل توبتكم، مَن قتلَ ومَن لم يَقتُل لإذعانه للقتل، ﴿**إِنَّهُ هُوَ**﴾ مقتضى الظاهر: إنِّي أنا، ﴿**التَّوَّابُ**﴾ على كلِّ من تاب من خلقه، ﴿**الرَّحِيمُ**﴾ المنعم على من تاب، أو أنَّه هو الذي عهدتم يابني إسرائيل قبل ذلك توبته عليكم ورحمته لكم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

تتمّة النعم العشر على بني إسرائيل

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ نسب القول إليهم لأنّه لآبائهم، وذلك القول ارتداد منهم، وقيل المراد: لم يكمل إيماننا بك حتّى نرى الله عزّ وجلّ، كقوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدُكم حتّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسِهِ**»[١] أي لن يكمل إيمانه. ﴿**يَامُوسَى لَنْ نُّومِنَ لَكَ**﴾ بنبوّتك مطلقًا، أو لن نذعن لك، أو لن نؤمن لأجل قولك أو بك فيما تقول من أنَّ التوراة من الله، أو من أنَّ الله ألزمنا قتل عابدي العجل كفّارة لهم، أو من أنَّ هذا الذي سمعنا كلام الله، والقائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى من قومه الذين لم يعبدوا العجل لميقات وقّت لهم من خيارهم، أمره الله أن يأتي بهم إلى طور سيناء ليعتذروا ويطلبوا العفو عن عباد العجل، فأتى بهم وأمرهم أن يتطهّروا ويطهّروا ثيابهم ويصوموا، وقالوا له: ادع الله أن يُسمعنا كلامه، فأسمعهم: «إنّنِيَ أنا الله لا إله إلاّ أنا، أخرجتكم من أرض مصر بيدٍ سديدةٍ، فاعبُدوني ولا تعبدوا غيري» سمعوا كلام الله بأن خلق صوتًا في أبدانهم أو في الهواء أو حيث شاء، أو في أبدانهم أو أسماعهم.

---

١ - رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب حبّ الرسول من الإيمان، رقم ١٤.
ورواه مسلم، في كتاب الإيمان، باب الدليل على أنّ من خصال الإيمان أنْ تحبّ... رقم ٧١ (٤٥)، من حديث أنس بن مالك؛ وأحمد وغيرهم

وقيل: القائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى لميقات التوراة، قالوا بعد الرجوع وقتله عبدة العجل وتحريقه، وقيل: عشرة آلاف من قومه، وعلى كلِّ حال لم يقنعوا بذلك وسألوا الرؤية جهارًا كما قال: ﴿حَتَّى نَرَى ا للهَ جَهْرَةً﴾ عيانًا، أي رؤيةً جهرةً بحاسَّة العين لا مناماً وقلبًا، أو ذوي جهرة، أو مجاهرين أو مبالغة، أو قولاً ذا جهرة، أو قول جهرة، أو قولاً جاهرًا أو مبالغة.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ النار مع صوت شديد من السماء لطلبكم ما لا يجوز، ويُلزِم التشبيه، ولتوقُّفكم عن الإيمان حتَّى شرطتم له.

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ يرى بعضكم بعضًا كيف يموت، أو ترون أثر الموت في أنفسكم، إذ يُحيِ كلّ واحد منكم عضوًا عضوًا، أو يرى بعضكم يُحيىَ من موت.

وقيل: الموت هنا غشيان كما قال ا للهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ويَاتِيهِ الموتُ من كلِّ مكان وما هو بِميِّتٍ﴾ (سورة إبراهيم: ١٧) كذا قيل، ولعلَّه تمثيل، وإلاَّ فغشيان أهل النار إراحة لهم لو كان، لكن لا يكون.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ بيومين من حيث موتكم، يرى بعضكم بعضًا كيف يحيى لِدعاءِ موسى عليه السلام وتضرُّعه إلى ربِّه أن يحييهم، ويقول: ياربِّ خرجوا معي أحياء ويقول قومُهم قتلتُهم أنا، ﴿لو شئتَ أهلكتَهم من قبلُ وإيَّايَ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٥).

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة الإحياء بعد الموت، و لله أن يميت الإنسان مرَّتين أو ما شاء.

(أصول الدين) والآية دليل على كفر مجيز الرؤية دنياً أو أخرًى، وذلك لأنَّ إجازتها ـ ولو في القلب ـ إجازة لتكييفه، وتكييفه ممتنع لأنَّ فيه تشبيهًا، وإدراكه بالقلب تكييف لا يتصوَّر بدونه فلا يصحُّ قولهم: بلا كيف، وتكييفه في القلب بلا تقدير أنْ يكيِّفه لغيره هو من نفس المحذور، فبطل قول طوائف من المبتدعة أنَّ الصاعقة ليست لمجرَّد الطلب بل لعنادهم واشتراطهم؛ وإذا كان المنع للتشبيه لم يضرَّنا أنَّها نزلت لطالبها في الدنيا.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ أي جعلناه ظُلَّة عليكم من حرِّ الشمس، وهو السحاب الرقيق يسير بسيرهم في التيه.

أمرهم ا لله بقتال الجبَّارين فقالوا: ﴿اذْهَبَ اَنتَ وربُّكَ فقاتِلاَ إنـَّا هاهُنا قاعِدونَ﴾ (سورة المائدة: ٢٤) فحبسهم ا لله في التيه، وكانوا يسيرون ليلاً ونهارًا، وينزل عليهم عمود من نور يسيرون في ضوئه، وثيابهم لا تتَّسخ ولا تبلى، وذلك من ا لله لا كما قيل: لا تبلى لعدم الحرارة ولا تتَّسخ لعدم الدخان.

والتيه واد بين الشام ومصر، فيه طرق لا رمل فيها بين جبال من رمل يمشي فيها الركب المصريُّ والمغربيُّ والشاميُّ، عرضه تسعة فراسخ في ثلاثين فرسخًا، وقيل: ستَّة فراسخ في اثني عشر فرسخاً؛

وقيل: خرجوا من التيه فوقعوا في صحراء، واشتكوا الحرَّ فظلَّلهم ا لله عزَّ وجلَّ بالغمام؛ وقيل: من عبد ا لله منهم ثلاثين سنة و لم يعص فيها أظلَّه الغمام، فكان ذلك لجماعة منهم.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُم﴾ في التيه ﴿الْمَنَّ﴾ الترنجبين بالمثنَّاة الفوقيَّة والرء المهملة والجيم والموحَّدة والمثنَّاة التحتيَّة والنون: لفظ يونانيٌّ تستعمله الأطبَّاء، ويقال: معرَّب «ترتكبين» وهو شيء يشبه الصمغ حلو مع بعض حموضة كالزنجبيل، ينزل عليهم مثل الثلج من الفجر إلى طلوع الشمس لكلِّ إنسان صاع، وينزل على الأشجار قليلا إلى الآن في بوادي "تركستان"، وهو مشهور في بلدة "آمد" وحواليها، شهر فيهم بحلوة القدرة(١)، وقد أمروا في التيه أن لا يأخذوا أكثر من صاع كلَّ يوم، ولا يدَّخروا الزيادة إلاَّ يوم الجمعة فيأخذون فيه صاعين ليدَّخروا ليوم السبت، فإنَّه لا ينزل يوم السبت.

﴿وَالسَّلْوَى﴾ طائر يشبه السمانى، أو هو السمانى، وألِفه ليست للتأنيث لورود سُلواة قلبت هذه التاء للوحدة لا للتأنيث، وقيل: هو واحد والجمع سلاوة، وقيل: هو للواحد فصاعدًا؛ تبعثه عليهم ريح الجنوب فيذبح الرجل ما يكفيه على حدِّ ما مرَّ في المنِّ، ويطير الباقي، وذلك بكرة وعشيًّا أو متى شاءوا، وادَّخروا من المنِّ والسلوى

---

١ - لعلَّ المراد أنَّها حلوى من ا لله تعالى، فهو المانُّ بها.

فأصاب النتن ما ادَّخروا، وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة عنه ﷺ: «لَولاَ بَنُو إِسرائِيل لَم يَخْنَزِ اللَّحمُ...» [1] الحديث.

ويروى أنَّ السلوى تجيئهم مطبوخة أو مشوية، قيل: ويناسبه الحديث المذكورلأنَّ التغيير أنسب بالمطبوخ، وهو أعظم معجزة، قلت: كما يخنز المطبوخ يخنز غير المطبوخ، ولا تثبت المعجزة بلا دليل قويٍّ. وقدَّم المنَّ مع أنَّه حلوى على السلوى مع أنـَّها غذاء لأنَّ نزوله من السماء خارق للعادة بخلاف الطير.

قائلين لكم:

﴿**كُلُواْ مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ المنّ والسلوى طيِّبان: طيب لذَّة، وطيب حلال، وطيب بمجيء بلا كسب، فكفروا النعمة وادَّخروا فقطعا عن حالهما، فصارا يدوِّدان ويخنزان ولو بلا ادِّخار، وعاشوا بهما كذلك، ظلموا أنفسهم بذلك.

---

١ - البخاري في كتاب الأنبياء ٢، باب قوله تعالى: ﴿**وإذ قال ربّك للملائكة**﴾، رقم ٣١٥٢؛ ومسلم في الرضاع ١٩، باب لولا حواء لم تخن أنثى زوجها، رقم ٦٥ (١٤٦٨)؛ وأحمد في مسنده ج٣، ص١٦٩، رقم ٨٠٣٨ من حديث أبي هريرة.

(فقه) وإذا وضع الطعام بين يديك فقيل لا تأكل حتّى يقول حامله: إليك كُلْ، لمناسبة الآية، وقيل: لك الأكل بلا انتظارٍ لقوله: كُلْ، وهو أولى إن اطمأنَّت النفس لذلك.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أشار به إلى أنَّهم ظلموا أنفسهم بالكفر والمخالفة، وصرَّح به في قوله: ﴿وَلَكِنْ كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تكرَّر الظلم منهم واعتادوه، وكانوا ستّمائة ألفٍ في التيه، وفيه مات هرون وموسى، وماتوا كلُّهم فيه إلاّ من لم يبلغ العشرين.

ذهب موسى وهرون إلى غار فمات هرون فدفنه موسى، فقالوا: قتلتَه لِحُبِّنا إيّاه، فتضرَّع إلى الله فأوحى إليه أن اسرِ بهم، فناداه: ياهرون، فخرج ينفض رأسه، فقال: أنا قتلتك؟ قال: لا ولكن متُّ، قال: فعدْ كما كنتَ في قبرك. وعاش موسى سنة، ومرَّ في حاجة له بملائكة يحفرون قبرًا لم ير أحسن منه بهجة وخضرة ونضرة، فقال: يا ملائكة الله لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبدٍ كريم على ربِّه، فقال: إنَّ هذا العبد من الله بمنزلة! فقالوا: ياصفيَّ الله، أتحبُّ أن يكون لك؟ قال: نعم، قالوا: فانزل فاضطجع فيه وتوجَّه إلى ربِّك، ففعل، وتنفَّس أسهل تنفُّس ومات، وسوَّوا عليه التراب. وقيل: أتاه ملك بتفاحة من الجنَّة فشمَّها فمات، وليس كما قيل: إنَّه مات في جبل أحد، لقوله ﷺ: «**لو أنِّي عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند**

الكثيب الأحمر» لعدم صحَّة هذا الحديث عنه ﷺ.

﴿**وَإِذْ قُلْنَا**﴾ لمن بقي من أهل التيه حيًّا بعد خروجهم ﴿**ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ**﴾ «أَرِيحَا» بفتح الهمزة وكسر الراء وإسكان المثنَّاة التحتيَّة بعدها حاء مهملة، قرية في الغور قريبة من بيت المقدس، في مكان منخفض بين القدس وحوران مسيرة ثلاثة أيَّام في عرض فرسخين، وهي قرية الجبَّارين، فيها قوم من بقيَّة عاد، يقال لهم العمالقة، ولم تصحَّ قصص عوج ولا أنَّه رأس هؤلاء الجبّارين، والقائل بإذن الله هو يوشع بن نون نبَّأه في آخر عمر موسى، وربَّما قال له موسى: بِمَ أوحى الله إليك؟ فيقول: لم أكن أسألك عن ذلك.

ويروى أنَّه لـمَّا احتُضر في التيه أخبرهم بأنَّ يوشع بعده نبيء، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ أمر يوشع بقتل الجبَّارين فقاتلهم وفَتَح أريحا. قيل: يروى عن رسول الله ﷺ أنَّ الله تعالى أرسل ملك الموت إلى موسى فلطمه موسى وفقأ عينه، فقال: ياربِّ أرسلتني إلى عبد كره الموت، ففقأ عيني، فردَّ الله عليه عينه، وقال: ارجع إلى عبدي وقل له: إن شئت أحياك الله عدد ما تقع عليه يدك من شعر متن الثور سنين، فقال له موسى: ثمَّ ماذا؟ قال: ثمَّ تموت، قال: «الآن من قريب، ربِّ أدنِني من الأرض المقدَّسة رمية حجر» وقبره في التيه بجانب الطريق عند جبل رمل.

ولا يصحُّ عنه ﷺ أنَّ موسى عليه السلام فقأ عين ملك

الموت، ولا ضرَّ به لأنَّه ظلم لملك الموت، وسخط لقضاء الله، وردٌّ له، اللهمَّ إلاَّ إن جاءه في صورة لصٍّ أو قاطع، ولم يعلمه ملكَ الموتِ، وعينه جسم نورانيٌّ.

وقيل: القرية بيت المقدس على يد يوشع، وقيل: على يد موسى، وأنَّه خرج من التيه بعد أربعين سنة مع قومه، وعلى مقدِّمته يوشع، وفتحها وأقام ما شاء الله ثمَّ مات. وسمِّيت القرية قرية من قرى بالألف بمعنى جمع، وهي جامعة للناس.

﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ لا منع عليكم منِّي ولا من أحد ولا من قلَّة أو جدب، فهذا مستثنى من كون الأمم السابقة لا يأكلون الغنيمة، فإنَّ لداخلي القرية المذكورة أكل ما فيها من مال العمالقة وأخذه ونقله إلى حيث شاءوا.

﴿وَادْخُلُواْ الْبَابَ﴾ باب أريحا، أراد الحقيقة، فإنَّ لها سبعة أبواب أو ثمانية يدخلون من أيِّها شاءوا ﴿سُجَّدًا﴾ منحنين تواضعًا، وقيل: على الأرض.

وقيل: القرية قرية بيت المقدس، والباب بابها المَقُول له باب حطَّة، والقائل ادخلوا موسى عليه السلام، قال لهم في التيه: «إذا مضت أربعون سنة وخرجتم من التيه فادخلوا بيت المقدس»، وقيل: خرج موسى من التيه حيًّا بعد الأربعين بمن بقي منهم ففتح

أريحا ومات.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ مسألتنا حطَّة، أو شأنك حطَّة، أي أن تحطَّ عنَّا ذنوبنا؛ وقيل: لفظ تعبُّدٍ عبرانيٌّ لا يُدرَى ما هو، وقيل: تواضعٌ لله، أي أمرنا تواضُعٌ لله.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ ذنوبكم.

(صرف) والأصل: خطائي بياء بعد الألف زائدة هي ياء خطيئة أبدلت همزة فاجتمعت همزتان قلبت الثانية، وهي لام الكلمة ياء، ثمَّ قلبت الياء ألفًا فكانت الهمزة بين ألفين فقلبت ياء، وإنَّما أبدلوا الياء ألفًا لفتح الهمزة قبلها مع تحرُّكها في النصب لفظًا، وفي الجرِّ والرفع حكمًا، وقال الخليل: الهمزة على الياء التي بعد الألف، وفُعِل ما ذُكر.

﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثوابًا لإحسانهم بالطاعة، عطفت الجملة على ﴿قولوا حطَّة﴾ ﴿فَبَدَّلَ الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالقول الذي قيل لهم منهم ﴿قَوْلاً غَيْرَ الذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ أي جعلوا قولاً مكانه، كقولك: بدَّل بخوفه أمنًا، أو صيَّرُوا القول الذي أمروا به قولاً آخر، وبدَّلوا فعلا إذ لم يدخلوا سجَّدًا بل يزحفون على أَسْتَاهِهم، وقالوا حبَّة في شعرة، أو في شعيرة أو حنطة في شعيرة، أو حطا سمقاثًا، أي حنطة حمراء، ولعلَّ بعضًا قال كذا وبعضًا قال كذا وذلك استهزاء.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بتبديل القول والفعل لسبب

التبديل، ومقتضى الظاهر فأنزلنا عليهم لكن أعاد ذكر ظلمهم للمبالغة في تقبيح شأنهم، وللتصريح بموجب العقاب ﴿رِجْزًا﴾ طاعونًا، أو صاعقة، أو ظلمة، أو ثلجًا، وأوَّل الطاعون في بني إسرائيل ﴿مِّنَ السَّمَآءِ﴾ ولو كان الطاعون من الجنِّ، لأنَّ قضاءه من الله، وبأسباب سماويَّة فقال لذلك: من السماء مع أنَّه أرضيٌّ ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ بكونهم ﴿يَفْسُقُونَ﴾ يظلمون الظلم المذكور وهو خروج عن السجود وقول حطَّة، وسمَّاه في "الأعراف" ظلمًا[١]، أو أراد بالفسق مطلق معصيتهم، ومات بهذا الرجز في هذه القرية التي أمروا بدخولها في ساعة سبعون ألفًا أو أربعة وعشرون ألفًا.

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ طلبَ لهم موسى من الله السقيَ حين عطشوا في التيه، طلبوا الطعام فأُعطوا المنَّ والسلوى والماء، فاستسقى لهم موسى فأعطوه، واشتكوا الحرَّ فأظلَّهم الله بالغمام. ذكر الله عزَّ وجلَّ كلَّ واحد على حدة في معرض أمر مستقلٍّ موجب للتذكُّر، استأنف لذلك ذكرًا بعد فصل عن قصَّة التيه مبالغة في بيان أنَّ السقي نعمة عظيمة ولو ذكرها عقب قصَّة التيه، ولو مع "إِذْ" هذه لكان بما يتوهَّم متوهِّم أنَّ الكلَّ نعمة واحدة. وقال أبو مسلم: ليس هذا في التيه.

---

١ - قال تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم رجزا مِّن السمآء بما كانواْ يَظلِمونَ﴾ (الآية: ١٦٢)

(قصص) ﴿فَقُلْنَا اَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ الذي فرَّ بثوبك لتتبعه من مغسلك عاريًا، ليرى بنو إسرائيل أنَّك ما بك أدرة، كانوا يغتسلون عراةً، وموسى في خلوة فاتَّهموه بانتفاخ بيضته، وهو ذراع في ذراع له أربعة أوجه، وقيل: كرأس الرجل من رخام، وقيل: خفيف، ومن قال مسلَّس اعتبر ما يلي الأرض وما يلي السماء، لأنَّه لا انفجار منهما. أوحى الله إليه مع جبريل أن يحمله إذا احتاجوا ماء ضربه فسال، وإذا اكتفوا ضربه فأمسك، وهذا معجزة أخرى إذ كان فعل واحد وهو الضرب سببًا للماء وكفِّه، وكلَّما ضُرب خلق الله الماء، وكلَّما ضرب آل أو جمع الله المياه الكثيرة في الحجر الصغير، وخلق فيها خفَّة. ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ فضربه بعصا فانفجرت.

وقال وهب: ما هو حجر معيَّن بل يضرب بها أيَّ حجر أراد فيسيل ماءً، فيضرب أقرب حجر إليه ولو صغيرًا؛ وقيل: حجر كان عند آدم وصل مع العصا إلى شعيب فأعطاهما موسى، وقيل: حجر خفيف من قعر البحر يشبه رأس الآدميِّ يحمله في مخلاته، ويقال: حجر مربَّع يخرج من كلِّ وجه ثلاثة أعين لكلِّ سبط عين[1]. وكانت العصا من آس الجنَّة طولها عشرة أذرع على طول موسى، لها شعبتان تتقدان في الظلمة نورًا حيثما كان، وأمَّا هُم في التيه فلهم عمود من

---

١ - أورد هذه الأوجه وغيرها ابنُ كثير في تفسيره لهذه الآية، وذكر عن الزمخشري والحسن أنَّ الله لم يأمره أنْ يضرب حجراً بعينه، و أل فيه للجنس، وهذا أنسب وأقوى في المعجزة.

نور ليلاً، حملها معه آدم من الجنَّة، وتوارثها الأنبياء إلى شعيب فأعطاها موسى.

والانفجار السيلان بوسع بعد انشقاق، وهو الانبجاس في السورة الأخرى، أو هو الرشح بقليل والانفجار بعده بوسع.

﴿**مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا**﴾ وقيل: خرج آدم بها وبالحجر من الجنَّة فتوارثهما الأنبياء كذلك إلى موسى، لكلٍّ سبط عين، وهم اثنا عشر سبطًا، وكان ليعقوب اثنا عشر ولدًا، لكلٍّ ولد ذرِّيَّة هي سبط.

﴿**قَدْ عَلِمَ**﴾ عرف ﴿**كُلُّ أُنَاسٍ**﴾ أي قوم هم سبط ﴿**مَشْرَبَهُمْ**﴾ موضع شربهم من الإثنتي عشرة، لا يشاركون غيرهم ولا يشاركهم غيرهم من كلٍّ وجه من وجوه الحجر الأربعة، ثلاثة أعين كلٌّ واحدة تسيل في جدول، وسعتها اثنا عشر فرسخًا أو ميلاً وهو أولى، وعددهم كما مرَّ ستُّمائة ألف.

(نحو) والجملة نعت اثنتي عشرة، والرابط محذوف أي مشربهم منها أو مستأنفة، أو حال بتقدير الرابط العائد إلى صاحب الحال أي منها كما في النعت، والمسوِّغ لمجيء الحال من النكرة تخصيصًا بالتمييز، قلنا لهم:

﴿**كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللهِ**﴾ المنِّ والسلوى وماء العيون، أضيف لله لأنَّه بلا عمل منهم، وقدَّم الأكل لأنَّه العدَّة، وبه قوام الجسد والاحتياج إلى الماء حاصل عنه، ولأنَّه مركَّب للطعام. والرزق

بمعنى المرزوق وهو الطعام تحمله الماء إلى العروق.

(أصول الدين) ولا دليل للمعتزلة في الآية على أنَّ الحرام غير رزق فإنَّه رزق يؤاخذ عليه متعمِّده، وكذا جاهله إذا كان مِمَّا يدرك بالعلم، وليس في الآية سوى أنَّه أمرهم بالأكل والشرب من ذلك، واتّفق أنَّه حلال وا لله عالم بأنَّه حلال، وإن أريد بالرزق العموم فالحلال قيد من خارج لا من لفظ الرزق.

﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ تفسدوا ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أرض التيه وغيرها مِمَّا قدروا أن يصلوا إليه، وما يخرجون إليه إذا أخرجهم ا لله منه ﴿مُفْسِدِينَ﴾ تأكيد في المعنى لتعثوا باعتبار النهي، أي نهيتهم نهيًا شديدًا عن الإفساد، وإنْ جعلنا العثي بمعنى الاعتداء المطلق، أو بالشرك والإفساد بالمعاصي فلا تأكيد.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ٦١﴾

مطامع اليهود وبعض جرائمهم وعقوباتهم

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ في التيه ﴿يَامُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ المنِّ والسلوى، سمَّاهما واحدًا باعتبار أنَّهما طعام لكلِّ يوم لا ينقص أحدهما ولا يزاد عليهما ولا يبدَّلان، هما أو واحِدهما، أو باعتبار أنَّهما جمعهما الاستلذاذ الشديد ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الاَرْضُ﴾ ما نأكله فإنَّا سئمنا المنَّ والسلوى، أي بعض ما تنبته الأرض، وبيَّنه بقوله: ﴿مِن بَقْلِهَا﴾ إلى آخره، أي هي بقلها أو بعض بقلها، وهو ما تنبته الأرض ولا ساق له، والمراد ما يؤكل منه، يكون حارًّا وباردًا، ورطبًا ويابسًا ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ ما يؤكل بطِّيخًا إذا أيْنع، أو الخيار، كلاهما بارد رطب. ﴿وَفُومِهَا﴾ بُرِّها، بل كلُّ ما يخبز فوم، أو ثومها، وهو حارٌّ يابس، وعليه فهو لغة، أو أبدلت الثاء المثلَّثة فاء كجدْفٍ في جَدَثٍ، وفُمَّ في ثُمَّ، وهو مسموع لا مقيس. ﴿وَعَدَسِهَا﴾ بارد يابس. ﴿وَبَصَلِهَا﴾ وهو حارٌّ رطب، وإن طُبخ كان باردًا رطبًا.

﴿قَالَ﴾ موسى، أو الله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ إنكار لأن يليق ذلك شرعًا أو عقلاً أو توبيخ ﴿الذِي هُوَ أَدْنَى﴾ أقرب وجودًا وتحصيلا لقلَّة قيمته، أو أدنأ بالهمزة كما قرئ بها قلبت ألفًا من الدناءة وهو الخسَّة، أو أدون أي دون كذا في الرتبة، أخِّرت الواو وقلبت ألفًا. والأدنى على الأوجُه البقل والقثَّاء والفوم والعدس والبصل، وأُفرِدن

هنا بالذكر باعتبار أنَّهنَّ كواحد إذ هنَّ نوع خالف المنَّ والسلوى، وبدل منهما ﴿بالذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أفضل، وهو المنُّ والسلوى أفردهما لِما مرَّ، والذي يظهر لي أنَّه تعالى ما عاب عليهم هذا الاستدلال، إلاَّ لأنَّه خلق فيهم عدَم سآمتهم للمنِّ والسلوى، وإلاَّ فقد خلق الله تعالى في الطباع سآمة الإنسان ما دام عليه من طعام مثلاً، ولاسيما أنَّه لا يخلط به غيره، ولا سيما مع طول المدَّة، فما ذكر عنهم من السآمة غير ثابت عنهم، أو ادَّعوها مع عدمها، واستمرُّوا على طلب البدل، فقال الله جلَّ جلاله على لسان موسى عليه السلام بعد دعائه الله فيما سألوا:

﴿اِهْبِطُواْ مِصـرًا﴾ إن قدرتم على الخروج من التيه، وليسوا بقادرين، والأمر للتعجيز، كقوله تعالى: ﴿كُونُوا حِجَارَةً...﴾، أو للإطلاق بعد الحصر على أن يكون ذلك عند قرب موت موسى عليه السلام وقرب الخروج من التيه، أوعلى أنَّ موسى لم يمت فيه بل خرج معهم، ويبعد أن يكون قائل: ﴿أتستبدِلونَ﴾ الله على لسان يوشع حين نُبِّئ في التيه عند حضور الخروج.

(لغة) والمراد مصرٌ مَّا من الأمصار، أو القاهرة[1] أو

١ - لعلَّه يعني موضع ومكان القاهرة، أو المراد عاصمة مصر آنذاك وهي الاسكندرية، وإلاَّ فالقاهرة حديثة النشأة بالنسبة لعهد موسى عليه السلام.

أعمالها، وعلى الأخيرين، نُوِّن مع أنَّه علَم على القاهرة أو أعمالها، لأنَّه ثلاثيٌّ ساكن الوسط كهِند، أو بتأويل البلد أو المحلِّ، ويدلُّ لهما قراءة عدم التنوين.

ومعنى هبوط مصر نزوله، والهبوط دناءة الرتبة فإنَّ طعام التيه أفضل من طعام مصر، أو حسِّيٌّ بأن تكون أرض المصر الذي يخرجون إليه أسفل من أرض التيه.

﴿**فَإِنَّ لَكُم**﴾ في المصر ﴿**مَّا سَأَلْتُمْ**﴾ من البقل وما بعده، إلاَّ أنَّه إذا فسَّرنا الفوم بالثوم كان الكلُّ بقلاً وجنسه، وكلامهم إنَّما هو على الطعام فالمناسب أنَّه البُرُّ وما يخبز طعامًا لكنَّ أفضله البرُّ، وذكر أوَّلاً ما يؤكل بلا علاج نار، وذكر بعده ما يعالج بها، مع تقديم الأشرف فالأشرف.

﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ**﴾ جُعلت على فروعهم لفعلهم مثل أفعال آبائهم ورضاهم عنهم، ولاسيما بعد ذهابهم إلى قتل عيسى عليه السلام، جُعلا شبيهًا بنقش الدراهم في لزوم الأثر واستمراره، ففي ضرب استعارة تحقيقيَّة تبعيَّة.

﴿**الذِّلَّةُ**﴾ ضعف القلب أو الخوف مِمَّا لا يُخاف منه، ولاسيما ما يخاف منه، أو هي الجزية. أخبر الله جلَّ جلاله أنَّها ستكون عليهم إذا بعث محمَّد ﷺ فهذه معجزة، وإن لم يقل هذا ممَّا لم يوح به قبل

القرآن فواضح أيضًا، أي قضيت عليهم أنــها ستكون.

﴿وَالْـمَسْكَنَـةُ﴾ أثر الفقر الظاهر على البدن ولو كانوا أغنياء، ولا يوجد يهوديٌّ غنيُّ النفس.

﴿وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ ا للهِ﴾ رجعوا، أو احتملوا، أو استحقُّوا، أو أقرُّوا أو لازموا حال كونهم ملازمين لغضب ا لله، وهو قضاؤه الأزليُّ عليهم بالشقوة وتوابعها، أو هو ذمُّه إياهم في الدنيا وعقابه في الآخرة ﴿ذَالِكَ﴾ المذكور من الغضب وضرب الذلّة والمسكنة، وصيغةُ البُعد لبعد ما قبل البوء بغضب، أو لبعد ذلك عن منصب من أكرمه ا لله بنعم الدين والدنيا وأنزل عليه كتابًا، لِفَظاعتها أو لبعدهم عنها.

﴿بِأَنَّـهُمْ﴾ أي سبب ذلك أنَّـهم ﴿كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ يؤوَّل المصدر من كان أي بكونهم يكفرون، وكثير يأتون به من خبرها.مثل أن يقال هنا: بكفرهم، وكأنَّـهم يقولون بأنَّـه لا تدلُّ على الحدث، والتحقيق أنَّـها تدلُّ عليه.

﴿بِئَايَـاتِ ا للهِ﴾ التي أنزلت في التوراة ممَّا يكرهونه، والتي في الإنجيل مطلقًا لكفرهم بعيسى عليه السلام، أو بما خالف منه التوراة، وبما أنزل من صفات رسول ا لله ﷺ وكتابه، وذلك قبل أهل عصره ﷺ، كراهة لأن تخرج النبوءة من ولد هرون عليه السلام، وقد

أنكروا الرجم أيضًا قبله ﷺ.

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيئِينَ﴾ مجموع ذلك لمن بعد موسى، وأمَّا من في زمانه فلا إلاَّ الذلَّة.

روي أنَّهم قتلوا بعده سبعين نبيئًا أوَّل النهار، ولم يشغلهم ذلك حتَّى أنَّه قام سوق البقل آخر النهار، وقتلوا زكرياء وأشعياء، وعملوا في قتل عيسى. وأمَّا قوله تعالى: ﴿إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنا والذين ءَامنُوا في الحياة الدّنيا﴾ (سورة غافر: ٥١) فإنَّما هو بالحجَّة وبأخذ الثأر بعدُ، فذلك لا يتخلَّف، كما روي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ قدَر بأن يقتل بكلِّ نبيء سبعين ألفًا، كما كان بعد قتل يحيى، وبكلِّ خليفة خمسة وثلاثين ألفًا»؛ والمراد بالنبيئين ما شمل الرسل لقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّما جآءَكمْ رَسولٌ بما لا تهوَى أنفسُكم استكبَرتم...﴾ الآية (سورة البقرة: ٨٧).

﴿بغَيْرِ الْحَقِّ﴾ عندهم، فإنَّهم يقتلونهم تشهِّيًا وحبًّا للدنيا، ولا يعتقدون أنَّ قتلهم حقٌّ، فليس المراد أنَّه قد يكون قتل الأنبياء حقًّا إذ لا يفعلون موجب قتل، ولا يبيح الله دمهم بلا موجب، **ووجه آخر أنَّ المراد بيان الواقع كالصفة الكاشفة تأكيدًا لذمِّهم وفضيحة، أو** يعتبر أنَّه لو شاء الله لأباحه كما أباح لملك الموت، وكما أمر إبراهيم

بذبح إسماعيل، وقيل: قتلوا في بيت المقدس في يوم واحد ثلاثمائة نبيء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور البعيد من الغضب وضرب الذلّة والمسكنة، كرِّر للتأكيد، أو ذلك المذكور من الكفر وقتل الأنبياء. ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ﴾ بعصيانهم وكونهم ﴿يَعْتَدُونَ﴾ ينهمكون في المعاصي.

ولا تنس أنَّ المعصية توجب العقاب بالإيقاع في معصية أعظم منها وذلك بعصيان منهم في قتلهم لا باعتقاد حلٍّ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾

عاقبة المؤمنين بنحوٍ عام

﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قبل بعثة سيِّدنا محمَّد ﷺ من لدن آدم أو بعدها بالأنبياء والوحي والكتب، كتُبَّع، وزيد بن عمرو بن نفيل، وقسٍّ بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وقيل: المنافقون بإضمار الشرك، وقيل: مؤمنوا هذه الأمَّة، فمعنى ﴿مَنَ ءامَنَ﴾ على هذا القول والأوَّل من آمن من اليهود والنصارى والصابين، وأمَّا على غيرهما فالمعنى من تاب من نفاقه، ويهوديَّته، ونصرانيَّته، وصابئته، وآمن بمحمَّد ﷺ.

﴿وَالَّذِينَ هَادُواْ﴾: دخلوا في اليهودية.

(لغة) واليهوديَّة مِن هاد، بمعنى تاب من عبادة العجل، أو سكن، ومنه الهوادة؛ أو معرَّب يهوذا - بذال معجمة بعدها ألف - عُرِّب بإهمال الذال وإسقاط الألف، سُمُّوا باسم ولد يعقوب يهوذا وهو أكبر ولده، ولا يلزم أن يكون هذا الاسم قبل موسى، مع أنَّهم في زمانه وما بعده فقط، ولا أن يكونوا كلّهم عبدوا العجل، لأنَّ التسمية تحدث ولو بعد زمان مَن سمُّوا به، ولأنَّ وجه التسمية في بعض الأفراد كاف.

(لغة) ﴿والنَّصَارَى﴾: جمع نَصرانٍ، كالندامى، والياء في نصراني للمبالغة، كقوله: «والدهر بالإنسان دوَّاريٌّ» أي دوَّار، ورجل أحمريٌّ أي أحمر، وقيل: للوحدة، كزنجيٌّ من زنج، وروميٌّ من روم؛ وقيل: جمع نصري كمهريّ ومهارى حذفت إحدى ياءيه، وفتحت الراء، وقلبت الياء الباقية ألفًا.

سمُّوا لأنَّهم نصروا المسيح، أو لأنَّهم كانوا معه في قرية يقال لها نصران عند الجوهريِّ، أو نصرانة أو نصرانيا، أو نصرى أو ناصرة، كان عيسى ينزلها سمُّوا باسمها، أو باسم مؤسِّسها كما سمِّيت قسنطينة المغرب والعظمى باسم من بناها.

﴿وَالصَّابِينَ﴾ طائفة من اليهود أو من النصارى، عبدوا الملائكة أو الكواكب، أو بين اليهود والمجوس؛ أو تعبد الكواكب في الباطن، وتنتسب إلى النصارى في الظاهر؛ أو لفَّقوا دينا من التوراة والإنجيل،

ولـمَّا جـاء القـرآن أخـذوا منـه بعضًـا كـالصلاة إلى الكعبـة والوضوء؛ أقوال.

ويدَّعون أنَّهم على دين صابئ بن شيت بن آدم؛ وقيل: منهم مـن يعبـدون الكواكـب الثوابـت وهـم صابئـة هنـد، ومنهـم مـن يعبـدون السيَّارة وهم صابئة الروم، ومنهم من يفزع إلى الجمادات، ومنهم مـن يصلّي إلى الجنوب، ومنهم من يعبد الملائكة. مِن صبا يصبو بلا همـز، أو صبأ يصبأ بالهمزة قلبت ياء وحذفت، كمـا حذفـت في الأوَّل اليـاء التي هي عن واو.

﴿مَنَ ـ امَنَ﴾ من اليهـود والنصـارى والصـابين، وتـرَك الإشـراك بـا لله. ﴿بِـا للهِ﴾ ورسـله وأنبيائـه وكتبـه، ولم ينكـر نبيًّـا أو كتابًـا. ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ يوم البعث والجزاء، ولم يذكر المجـوس لأنـَّه ليس منهـم من لو تبع كتابًا لنجا، إذ كتابهم أضـاعوه سـرعة. ﴿وَعَمِـلَ صَالِحًـا﴾ ولم يفرِّق بين أحد من رسـله قبـل بعثـة نبيئنـا ﷺ، أو بعدهـا فـآمن بـه واتـَّبع القرآن.

(أصـول الديـن) ومن لم يومن به وبالقرآن لم ينتفع بعملـه فهـو مشرك في النار، وهو غير متَّبع للتوراة والإنجيل بـل كـافر بهمـا أيضًـا، لأنَّ فيهمـا

الأمر باتِّباعه ﷺ؛ وكذا من كفر من اليهود والنصارى قبل سيِّدنا محمَّد ﷺ لا يدخلون في الآية، كمن قال: عيسى إله، ومريم إله، أو عيسى ابن ا لله.

﴿**فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ**﴾ أجرة عملهم للطاعات وتركهم للمعاصي والمكروهات. ﴿**عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ حفظه ا لله لهم لا يَضيع، كما يحفظ الشيء بحضرة الملك في خزانته. ﴿**وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ من العقاب لانتفائه ﴿**وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ على تضييع العمر، وفوت الأجر والفضل، لعدم تضييعهم وعدم الفوت.

والمراد نفي الخوف والحزن في الآخرة قبل الجنَّة، وأمَّا في الدنيا فَيَقَعانِ للجهل بالخاتمة، ويكونان أيضًا في الآخرة لعظم الهول حتَّى ينسوا؛ أو المراد الخوف والحزن الدائمان، فإنَّ الشقيَّ في الآخرة لا يزول خوفه وحزنه حتَّى يدخل النار، بل يخاف فيها أيضًا، لأنَّه يخاف في كلِّ عقاب عقابًا بعده، ويحزن لذلك.

(سبب النزول)ويدخل في الآية أهل الفترة الذين آمنوا وأدركوا البعثة كأبي ذرٍّ وسلمان رضي ا لله عنهما، أو لم يدركها كقسّ بن ساعدة، قيل: وورقة بن نوفل وبحيرى الراهب. روي أنَّ سلمان قال لرسول ا لله ﷺ: ما تقول في أهل دين كنتُ معهم؟ ــ وذكر صلاتهم وعبادتهم ــ فقال: «**هم في النار**»، فأظلمت عليَّ الأرض، فنزلت: ﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ الآية، فكأنَّما كشف عنِّي جبل.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

بعض جرائم اليهود وعقابهم

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وُثوقكم، كالميعاد بمعنى الوعد، وأفرد الميثاق لأنَّ ما أخذ على كلٍّ واحد أخذ على غيره، فكان ميثاقًا واحدًا، والمراد عهدهم بالإيمان بالتوراة كلِّها، و العمل بما فيها. أعطيتم الميثاق على ذلك ثمَّ أبيتم، وقيل: أخذ الميثاق قبل نزولها على أن يعملوا بما ينزل عليهم من الكتاب، ولـمَّا نزلت التوراة نقضوا لما فيها من المشاق.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ﴾ حين نقضتم ﴿الطُّورَ﴾ الجبل، وكلُّ جبلٍ طورٌ، وقيل: إن كان فيه نبات. وهو عربيٌّ، أو سريانيٌّ معرَّب.

وقيل: المراد جبل المناجاة، حمل إليهم، اقتلعه جبريل من أصله وحمله في الهواء، بينهم وبينه قدر قامة أحدهم، وهو فرسخ في فرسخ

على قدر عسكرهم، قيل: والنار قدَّامهم والبحر المالح خلفهم، فقيل لهم: إن لم تقبلوا رضختكم به، فسجدوا للقبول على أنصاف وجوههم، ناظرين بالعين اليمنى إليه خوفًا، فكان أفضل سجود اليهود بعد ذلك ما كان على الشقِّ الأيسر والنظر باليمنى إلى جهة السماء، قائلين: ﴿خُذُواْ﴾ اِقبَلُوا ﴿مَآ ءَاتَيْنَاكُم﴾ وهو التوراة، ﴿بِقُوَّةٍ﴾ باجتهاد. وقيل: لا يقدَّر القول هنا، لأنَّ الميثاق قول. ولا دليل في الآية لمن قال: الاستطاعة قبل الفعل، إذ لا يقال: خذ هذا بقوَّة إلاَّ والقوَّة فيه، لأنَّ الاستطاعة بهذا المعنى لا تنكر صحَّة تقدُّمها على الفعل.

﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ تعاهدوه بالمطالعة والدرس، والتفهُّم لمعانيه والعمل به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عقاب الله أو المعاصي. وتقدَّمت أوجه لعلَّ في كلام الله، وقِسْ عليها في جميع القرآن.

(فقه) وليس رفع الجبل فوقهم إجبارًا على الدين، فلا يقال: كيف تقبل الطاعة، لأنَّ الإجبار ما فيه سلب الاختيار، بل الآية كمحاربة العدوِّ، إن أسلم رفع عنه السيف، وإن أخذوا زال الجبل؛ وأمَّا الإكراه في الدين ففي مخلوق لآخر، أن يحبسه حتَّى يؤمن، أو يمنع عنه الطعام حتَّى يؤمن، أو نحو ذلك لا يجوز. ولو فسِّر ﴿لاَ إِكرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ بالنهي عن القتال حتَّى يؤمر به، وأمَّا الله فله فعل ما شاء.

قيل: ولا يقال: الإيمان بالإجبار يجزي في الأمم السابقة أو بعضها

فتكون منه هذه القصَّة، لأنَّ هذا مِمَّا لا تختلف الشرائع فيه، وقد قال الله تعالى: ﴿فلولا كانت قريةٌ ـ آمنتْ فنفعَها إيمانُها...﴾ الآية (سورة يونس: ٩٨-١٠٩)، ﴿فلمْ يكُ يَنفَعُهم إيمانُهمْ لمَّا رأوا بأسَنا سنَّة الله التي قد خلت في عباده﴾ الآية (سورة غافر: ٨٥)؛ قلت: الآيتان غير ما في هذه الآية، لأنَّ هذه الآية جاءت في القهر على الفعل، والآيتان فيمن أغلق عنه الله باب الفعل بتوجيه الموت إليه؛ ووجهٌ آخر: لا يقبلُ ما عن إجبار إذا استمرَّت الكراهة، أمَّا إذا كان بعده الفعل بالاختيار فيقبل كلَّ ما باختيار، فأخذوه بقوَّة ثمَّ تركوه كما قال.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم بعدم القبول، وأصله الإعراض بالجسد. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ العهدِ الذي أعطيتم وعملتم به مدَّة، أو من بعد ذلك العمل المعلوم من المقام، أو من بعد الأخذ بقوَّة، إذ لو لم يمتثلوا بل استمرُّوا على العصيان، لم يقل: ثمَّ تولَّيتم؛ وقيل: بعد رفع الطور فوقكم وإيتاء التوراة، فطوى عن ذكر امتثالهم.

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ بتوفيقكم للتوبة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ الخطاب باعتبار الآباء. ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ لكم بالتوبة أو بقبولها؛ قيل: أو الخطاب للأبناء، فالفضل والرحمة بإرسال الرسول ﷺ.

(لغة) "لو" لنفي تاليها، وإذا زيدت لا النافية ثبت ما نفي، هذا قول الكوفيِّين بتركيب لولا من "لَوْ" و"لاَ"، والبصريُّون على أنَّها بسيطة.

﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كمن ذهب رأس ماله أو بعضه. هذا عندي يعيِّن الخطاب للآباء، لأنَّ يهود عصر رسول الله ﷺ خاسرون، إلاَّ ما شذَّ، بخلاف من تقدَّم ففيهم الخاسر والرابح.

(أصول الدين) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ عرفتم، والمعرفة: إدراك نفس الشيء حسًّا كان أو عرضًا، والعلم إدراكه على صفة كذا. ولا يقال: الله عارف أو عرف أو يعرف بالبناء للفاعل، فقيل: لأنَّ المعرفة تقتضي تقدُّم الجهل؛ وقيل: لعدم التوقيف، وقد يستعمل؛ وقيل بالجواز ولم يتقدَّم جهل تعالى الله. ﴿الذِينَ اعْتَدَوْا﴾ جاوزوا الحدَّ، وقدَّر بعضهم مضافًا، أي ولقد علمتم اعتداء الذين اعتدوا ﴿مِنْكُمْ﴾ بصيد السمك ﴿فِي السَّبْتِ﴾ وقدَّر بعضهم مضافًا، أي في حكم السبت، وهو يوم أو مصدر، والخطاب في ﴿منكم﴾ و﴿عَلِمتم﴾ لمن في زمانه ﷺ من بني إسرائيل، وهم عارفون بقوم مُسِخوا في زمان داود، ولا يشترط العلم بالكنه في لفظ المعرفة.

وقوم داود سبعون ألفًا في أرض «أَبْلَةَ» ـ بفتح الهمزة وإسكان الباء ـ قرية على الساحل بين المدينة والطور: صنفٌ أَمْسَك ونهى، وصنفٌ أمسك ولم ينه، وصنف اصطاد، وهم اثنا عشر ألفًا، شرعوا

حياضًا ينزل الحوت فيها ولا يقدر على الخروج، ويصطادون ما فيها يوم الأحد، فعلوا ذلك زمانًا، فقالوا: قد حلَّ السبت فكانوا يصطادون فيه جهرًا، ويبيعون في الأسواق، وقد نهى الله عن الاصطياد في اليوم الذي بعد يوم الجمعة، أمروا بالتجرُّد للعبادة في يوم، فاختار موسى يوم الجمعة؛ وقيل: أمروا بذلك وخالفوه للسبت، لأنَّه يوم تمَّ فيه الخلق، فألزمهم الله إيَّاه.

(لغة) والسبت في الأصل عن السبوت، وهو الراحة، أو من السبت وهو القطع، قَطَع الله فيه الخلق وتمَّ، وأيضًا أمر الله اليهود بقطع الأشغال فيه والتفرُّغ للعبادة. ولا يبعد تسميته بالسبت في زمان موسى عليه السلام لذلك، ولو كان تبديل أسماء الأسبوع بما هي عليه الآن واقع من العرب بعد عيسى عليه السلام.

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ: كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أذلاَّء خاضعين، ونجا الناهون والساكتون على الأصحِّ، لأنَّ الساكتين أنكروا بقلوبهم فقط لوجود من ادَّى فرض النهي، وأمَّا الممسوخون خنازير فأصحاب المائدة؛ وقيل: مسخت شبَّانهم قردة، وشيوخهم خنازير، إلاَّ أنَّه لم يذكر هنا الخنازير، فهم يتعاوون كالقردة بأذناب كأذنابها، ويعرفون قرابتهم، ويحتكُّون إليهم، عاشوا ثلاثة أيَّام، وقيل: سبعة، وقيل: ثمانية؛ وماتوا و لم يأكلوا و لم يشربوا في الأيَّام الثلاثة، وقد كان قبلهم القردة

والخنازير. والممسوخ لا نسل له، كما روي عنه ﷺ.(١)

والأمر للتسخير، إذ لا طاقة لهم أن يتحوَّلوا قردة، ولا يؤمر بما لا يطاق، ولكنَّه مجاز عن تكوينهم قردة، أو تمثيل بأمر من يطاع فورًا، فهو أمر إيجاد لا أمر إيجاب، كقوله تعالى: ﴿كُنْ، فيَكون﴾. وجمع السلامة لكونهم عقلاء قبل المسخ بل وبعده، فإنَّهم يعرفون قرابتهم ويحتكُّون إليهم، فيقولون: ألم ننهكم؟ فيجيبون برؤوسهم: بلى، وتدمع عيونهم بكاءً، وإنَّما بدَّلت الصورة لا العقل، فلا حاجة إلى ما قيل: الجمع بذلك تشبيه بالعقلاء.

وهم بعد المسخ مكلَّفون عند مجاهد، وقيل: لا.

﴿**فَجَعَلْنَاهَا**﴾ أي المسخة المعلومة، أو العقوبة، أو القرية، أو كينونتهم قردة ﴿**نَكَالاً**﴾ ردعًا ومنعًا عن أن يصطاد مثلهم يوم السبت الحوت، وعن أن يخالف أمر الله مطلقًا، ولو بغير الصيد؛ أو ﴿نكالاً﴾ اسم لِلجام الحديد، شبَّه العقوبة به في المنع. ﴿**لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا**﴾ في زمانها من الناس، وذكرهم بـ«ما» إشارة للأنواع من الناس؛ أو «ما»

---

١ - لعلَّه إشارة إلى الحديث الذي رواه مسلم عن ابن مسعود أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال لمن سأله عن القردة والخنازير أهي ممَّا مسخ؟ فقال: «إنَّ الله تعالى لم يهلك قوما - أو يعذِّب قوما - فيجعل لهم نسلا، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك» انتهى، وانظر الأولسي، روح المعاني، ج١.

عبارة عن القرى الحاضرة لها، والمراد أهلها، وكذا في قوله: ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ من الناس إلى يوم القيامة، والآية مقوِّية لتفسير خلفهم في الآيات غير هذه بما بعد، لأنَّ هذه لا يصلح فيها «من مضى» إذ لا تكون المسخة نكالاً لمن مات قبلها.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ منهم أو من غيرهم، وقيل: من هذه الأمَّة عن أن يقصِّروا أو لغيرهم، وخصَّهم لأنَّهم المنتفعون، أو لأنَّ المراد بالموعظة حصول أثرها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾(سورة يس: ١١) أي يحصل أثر إنذارك.

قلت: قوله: ﴿فجعلناها نكالاً...﴾ إلخ ردٌّ لقول مجاهد إنَّهم لم يمسخوا صورة ولكن قلوبًا، ومثِّلوا بقردة، إذ تحويل قلوبهم لا يظهر لكلِّ أحد حتَّى يكون رادعًا وموعظة، ولو ظهر لم يتبيَّن قبحه لجمهور الناس، بخلاف مسخ صورهم فإنَّه يظهر قبحها للموحِّد والمشرك، والمطيع والعاصي.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا

تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قصّة ذبح البقرة

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ وقد قُتل لهم قتيل لا يدرَى قاتله، اسمه عاميل، وسألوا موسى أن يدعو الله أن يبيِّنه لهم، والقتيل ذو مال قتله بنو عمِّه؛ وقيل: أبناء عمِّه اثنان؛ وقيل: إخوة؛ وقيل: ابن أخيه، وهم فقراء ليرثوه، وحملوه إلى باب قرية وألقوه فيه، فطلبوا ثأرهم، وادَّعوا القتل على رجال جاءوا بهم إلى موسى عليه السلام. وروي أنَّه قتله قريب له ليتزوَّج زوجه؛ وقيل: ليتزوَّج بنته وقد أبى. **ذكر الله تعالى قصَّتهم ذمًّا لهم بالتعاصي، أو برفع التشاجر بينهم، وبيانًا لمعجزة من معجزات موسى عليه السلام.**

﴿إِنَّ اللَّهَ يَامُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾ أوَّل القصَّة هو قوله تعالى: ﴿وإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ ولكن أخَّره ليتَّصل توبيخهم على عيوبهم

بالعيوب المتقدِّمة، إذ وبَّخهم على قولهم لنبيء الله ﷺ: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾ وليس من شأنه أن يعبث معهم بذبح البقرة، وينسب الأمر لله بذبحها، مع أنَّه لم يأمرهم، وما قال عن الله إلاَّ الحقَّ، وبَّخهم على تعنُّتهم في البقرة: ما هي؟ ما لونها؟ وما هي بعد لونها؟ مع أنَّه لو ذبحوا بقرةً مَّا لَكفى، إذ لم يؤمروا بمعيَّنة، ولو كان الأمر الغائب المقضيُّ عند الله يؤول إلى معيَّنة لا محيد عنها، وكذا لو عمدوا إلى بقرة عوانٍ ما بعد سؤالهم الثاني لكفى ذبحها، ولو عمدوا إلى عوانٍ صفراء لاشيةً فيها بعد سؤالهم الثالث لكفى.

﴿قَالُواْ: أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟!﴾ أتتَّخذ أمرنا هزؤًا! أو تتَّخذنا ذوي هزؤ! أو مو ضع هزؤ، أو مهزوءًا بنا، أو لنفس الهزء مبالغة لبعد ما بين ذبح البقرة وأمر القتيل، ولو عقلوا لامتثلوا فتظهر لهم الحكمة أن يضرب ببعضها فيُحيَ، مع أنَّهم لم يجرِّبوا منه العبث قطُّ، ونسبتهم الهزؤ إليه شرك، لأنَّهم لم ينسبوه إليه على وجه مزاح جائز، بل على وجه الكذب عن الله، لأنَّه نسب الأمر بالذبح إلى الله. وإن جعلوا محطَّ الاستهزاء أنَّ الله لا يقدر على إحياء الميِّت فأشدُّ كفرًا، **ويحتمل أنَّ ذلك من غلظ الطبع والجفاء لا إشراك**، أو الاستفهام استرشاد لا إنكار.

﴿قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ أَنَ اَكُونَ﴾ من أن أكون ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي

في سلك من اتَّصفوا بالجهل لبرهان على جهلهم، فذلك أبلغ من أن يقول: «أن أكون جاهلاً»، واختار الأبلغ لأنَّه أليق بما وصفوه به، فإنَّ من يكذب على الله، ويقول: أمرَ بكذا، ولم يأمر به من أهل الجهل البَيِّن كظلمة الليل.

والجهل عدم العلم، أو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو به، **أو فعل الشيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعل**، وهذا الأخير هو المراد هنا. ولـمَّا علموا أنَّ ذلك أمر من الله عزَّ وجلَّ، لقوله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ...﴾ إلخ، قالوا ما ذكر الله عنهم بقوله: ﴿**قَالُواْ: ادْعُ لَنَا**﴾ اللام للنفع أو للتعليل. ﴿**رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ**﴾ أي ما وصفها معها، فإنَّ «ما» سؤال عن الوصف هنا، فكأنَّه قيل: ما سنُّها فأجيب عليه وعن الجنس أو الحقيقة وليس مراداً هنا إذ لا يسألون عن جنس البقرة أو حقيقتها لعلمهم بها، ومن السؤال عن الوصف نحو ما عمرو؟ تريد أخياط أم حدَّاد؟ أو أمُسنٌّ أم شابٌّ؟ وما زيد؟ أفاضل أم كريم؟ والكثير في "ما" الجنس أو الحقيقة نحو: ما العنقاء؟ وما الحركة؟

﴿**قَالَ**﴾ أي موسى ﴿**إِنَّهُ**﴾ أي الله ﴿**يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ**﴾ هي ﴿**فَارِضٌ وَلاَ**﴾ هي ﴿**بِكْرٌ**﴾ أو لا صلة بين النعت والمنعوت، أو منزلة مع ما بعدها منزلة اسم، فظهر الإعراب فيما بعدها كقوله تعالى: ﴿لَو كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ اِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (سورة الأنبياء: ٢٢)؛ أي غير فارض

وغير بكر، وغير الله[١]؛ ولم يقرنهما بالتاء لأنَّهما لا يطلقان على المذكَّر، فهما كحائض لا يطلق إلاَّ على المؤنَّث.

ويقال في غير البقرة - جمل أو غيره -: بَكْر، والمؤنَّث بَكْرة بالتاء. والفرض القطع، أي لم تقطع أسنانها لكبرها بالانكسار، أو باستفراغ سنيها المعتبرة في الأسنان، كالثنيِّ والجَذَع والرباع؛ أو انقطاع ولادتها. والبكر الشابَّة الصغيرة بحيث لا تلد؛ وقيل: التي ولدت ولدًا واحدًا ﴿عَوَانٌ﴾ أي نَصَفٌ ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين ما ذكر من الفارض والبكر؛ وقيل: ولدت مرَّة أو مرَّتين ﴿فَافْعَلُواْ مَا تُومَرُونَ﴾ به من ذبحها على هذا الوصف بلا توقُّف وطلب استفسار، فتكلَّفوا سؤالاً هم في غنًى عنه، وهذا من كلام الله، أو من كلام موسى عليه السلام.

﴿قَالُواْ: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ كأنَّهم استعظموا ذبح بقرة في ميِّت لا يعرف قاتله، فهوِّل الأمر عليهم، ولم تكتف قلوبهم ببقرةٍ ما فأكثروا السؤال. ﴿قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهَا﴾ أي البقرة العوان ﴿بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي لونها خالص الصفرة.

---

١ - يريد الشيخ - رحمه الله - لفظ الجلالة المأخوذ من الآية الكريمة: ﴿لو كان فيهما ءالهة إلاَّ الله لفسدَتا﴾.

(لغة) أصفر فاقع كما يقال: أبيض يقِق، وأبيض ناصع، وأسود حالك، وأحمر قانٍ، أي شديد اللون، ولا يخفى أنَّ الأصل في الصفرة بقاؤها على ظاهرها من لون بين بياض وحمرة، ولا حاجة إلى تفسيرها بالسواد، ولوْ وَرَدَ مثله لعدم القرينة هنا عليه، فلا مجاز، ولو كان مشتركًا لحملته على الأظهر، وناقلو اللغة عن العرب مشافهة كالجوهريِّ وأبي عبيد وأبي عبيدة والأصمعيِّ لم يثبتوا الفقوع إلاَّ في الصفرة، لا يقال: أسود فاقع ولو أثبته في القاموس، وهو مقبول إلاَّ أنَّ الجمهور على خلافه.

﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ تلذُّ قلوب الناظرين إليها بحسنها، ومادَّة السرور لذلك، فمنه السرير لأولي النعمة، وسرير الميِّت تفاؤلاً. وعن عليٍّ من هذه الآية: «كلُّ أصفر يسرُّ كالنعل الأصفر، وأنَّ الأسود يحزن» فهو مفسِّر للصفرة بظاهرها. ﴿قَالُواْ: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَّنَا مَا هِيَ﴾ أي ما الوصف الآخر المبيِّن لهذه البقرة العوان الصفراء الفاقع؟ أو أرادوا مطلق البقرة التي أمروا بذبحها، إلغاءً للبيان المتقدِّم، وإعراضًا عنه بسوء أدبهم؛ وعلى كلِّ حال أجابهم عن الله مع إثبات الأوصاف السابقة بأنَّها غير مذلَّلة بالعمل، وأنَّها كلُّها على لون واحد. ﴿إِنَّ الْبَقَرَ﴾ الموصوف بتلك الصفات ﴿تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لكثرته.

﴿وَإِنَّا إِن شَآءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إليها بوصفٍ تصفها به بعدُ. قال ﷺ: «**لو لم يستثنوا** ـ أي لم يقولوا إن شاء الله ـ **لما**

بُيِّنت لهم آخر الأبد». وليس قولهم: ما هي؟ تكريرًا للأوَّل، لأنَّهم قالوا أوَّلا ما هي؟ فبيَّن لهم بأنَّها عوان، وزادوا سؤالاً: ما هي بعدما وصفتَها لنا بأنَّها صفراء عوان؟ وهذا يكفي، وهو الأصل، ولا تحتاج إلى ما قيل: إنَّ المراد آخرًا بقولهم: ما هي؟ أسائمة أو عاملة، إذ لا دليل عليه إلاَّ قوله: ﴿لا ذلول﴾ و﴿لا تسقِي﴾ فيبقى على هذا ﴿مسلَّمة لا شية فيها﴾ فالأولى تفويضهم له في ازدياد بيان، فأجابهم بما أقنعهم.

﴿قَالَ: إِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ﴾ هي **﴿ذَلُولٌ تُثِيرُ الاَرْضَ﴾** وهذه الإشارة سبب الذلِّ. **﴿وَلاَ﴾** هي **﴿تَسْقِي الْحَرْثَ﴾** أو لا صلة بين النعت والمنعوت، أو منزَّلة مع مدخولها منزِلة اسم كما مرَّ.

(لغة) والذلول: التي ذلَّت، وإثارة الأرض: قلبها وشقُّها للزرع، والحرث: الأرض المشقوقة للزراعة، أو ما وضع فيها من البذر، والمراد أنَّها ليست يحرث بها فتذلَّ لما أنَّها ليست تسقي الحرثَ فتذلُّ فتثير، في حيِّز النفي، وقيل: هي تثير الأرض بأظلافها لقوَّتها وبطرها ومرحها، فالإثارة صفة أخرى لها في الإثبات. وقيل: هي وحشيَّة إذ كانت لا تثير ولا تسقي؛ وقيل: هي من السماء والقولان ضعيفان.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب كالعور والعرج وانكسار القرن، ومن كلِّ

عيب كهزالٍ لِكثرة الحمل عليها. ﴿لاَ شِيَةَ فِيهَا﴾ لا شيء من اللون فيها يخالف لونها، حتَّى قيل: ظلفها وقرنها وأهداب عينها صُفْر، وهذا تشديد على أنفسهم أورثهم تشديدًا في ثمنها عليهم. وقال ﷺ: «**لو ذبحوا أيَّ بقرة كانت لأجزأتهم، ولكن شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم**»[1].

والصحيح أنَّ هذا موقوف على ابن عبَّاس لا مرفوع. ومرادهم طلب البيان لاستبعادهم إحياء ميِّت ببقرة ميِّتة، ظنُّوا أنَّها ليست من سائر البقر وهي منها في قدرة الله، وتعيَّنت هذه في قضائه تعالى.

(فقه) وتأخير البيان ممنوع عن وقت التكليف لا عن وقت الخطاب.

﴿**قَالُوا: الآنَ**﴾ لا قبله ﴿**جِئْتَ بِالْحَقِّ**﴾ البيِّن[2] التامِّ، وهو الوصف الأخير، إذ قال: ﴿لاَ ذَلُولٌ...﴾ إلخ، ومن قبلُ جئت بحقٍّ لم

---

١ - هذا الأثر جزء ممَّا تقدَّم منسوبا إلى رسول الله عليه السلام: «لو لم يستثنوا لَما بيِّنت لهم آخر الأبد» أورده ابن كثير من حديث أبي رافع عن أبي هريرة عن الرسول.

وقالَ ابن كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وأحسن أحواله أنْ يكون من كلام أبي هريرة.

٢ - في النسخة الحجرية: البيان التام.

نفهمه باتّضاح. وعرفوا أنَّه الحقُّ البيِّن التامُّ، لأنَّهم ما وجدوا على هذا الوصف إلاَّ واحدة، فزال بها تشابه البقر عليهم.

وجدوها عند فتًى بارٍّ بأمِّه، وقال له مَلَك: اذهب إلى أمِّك وقل لها: أمسكي هذه البقرة فإنَّ موسى بن عمران يشتريها منك بملء مسكها[1] ذهبًا، ويروى أنَّ ملَكًا قال: شاور أمَّك ولا تبعها إلاَّ بمشورة؛ فلم يشر بالبيع حتّى سيمت بملئه ذهبًا، وكانت البقرة في ذلك الوقت بثلاثة دنانير. وهي من بقر الأرض لا كما قيل: نزلت من السماء لأنَّه لا دليل له؛ قيل: ﴿الآنَ جِئْتَ بالحقِّ﴾ يناسب أنَّهم يبحثون عنها في بقر الأرض، وإلاَّ قالوا: لا نقدر عليها؛ قلت: لا يلزم هذا. وفرَّقوا ثمنها على بني إسرائيل، فأصاب كلَّ فريق ديناران.

﴿فَذَبَحُوهَا، وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ ذبْحَها، أي ذبحوها بعد ما اتَّصفوا بالبعد عنه، تباعدوا عن ذبحها جدًّا و لم يقربوا منه، ومع ذلك اتَّصلوا بها بعد ذلك وملكوها وذبحوها.

(لغة) ونفي كاد نفي، وإثباتها إثبات كسائر الأفعال، وأخطأ من قال غير ذلك، وذلك أنَّه طال الوقت لكثرة مراجعتهم لموسى في

١ - المِسْك والمسَك: جلود دابَّة بحرية، ويطلق على الجلد مطلقا. ابن منظور: لسان العرب.

بيانها، وطول زمان التفتيش عنها، وتوقُّف أمِّ الفتى في بيعها لأجل الزيادة الخارجة عن العادة في ثمنها، ولخوف فضيحة القاتل. ويبعد ما قيل إنَّهم طلبوا البقرة الموصوفة أربعين سنة.

(نحو) ومن خطإ المحدِّثين أنَّهم لا يكادون ينطقون بخبر كاد غير مقرون بأنْ، مع أنَّ قرنه قليل، وأنَّهم دائمًا يقولون: مثنى مثنى، ولا يقتصرون على مرَّة، حاشاه ﷺ عن ذلك.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ هذا القتل أوَّل الأمر، وأخَّره ليبيِّن لهم شأنه وقت الإحياء، ونسب القتل إليهم لأنَّ القاتل من جملتهم، أو قتله جماعة منهم، ولأنَّ الحرص على المال فاشٍ فيهم كلِّهم، والقاتل حريص؛ وكذا الحرص على ما يحبُّون كجمال المرأة. ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ تدافعتم في قتلها كلٌّ ينفيه عن نفسه ويحيله على خصمه. والأصل: تدارأتم، أبدلت التاء دالاً وأدغمت، فكانت همزة الوصل لسكون الأوَّل، وحذفت الهمزة بعد الراء في المصحف.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ مظهر ﴿مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ كان فيهم من يحبُّ أن لا يظهر القاتل كالقاتلين ومن يليهم مِمَّن عرفهم، وغير ذلك مِمَّن لم يناسبه الظهور. ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ أي القتيل في بدنه قبل أن يدفن، وقيل: على قبره، ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أيِّ بعض كان، فاتَّفق أنَّهم ضربوه بلسانها أو بذنَبها أو قلبها أو بفخذها اليمنى أو بالأذن، أو

بعجب الذنب أو ببضعة بين الكتفين، أو بعظم أو بالغضروف، فيُحيَى، **ولو ضربوه بغير ذلك منها لحيي كذلك**. ولمَّا حييَ وأوداجه تشخب دمًا قال: قتلني فلان وفلان لابني عمِّه، أو ابني أخيه، أو فلان ابن أخي، ومات، وحرِما الميراثَ وقُتلاَ. قال ﷺ: «**ما ورِثَ قاتلٌ قتيلَهُ مِن عَهْدِ أصحابِ البقرةِ**»[١].

وخصَّ البقر لأنَّهم كانوا يعبدونها، فيذبحون ما حبِّب إليهم فيذبحون النفوس الأمَّارة بالسوء، ولأنَّهم عبدوا العجل، وأشربوا في قلوبهم العجل. وخصَّ الضرب بالميِّت لئلاَّ يتوهَّم أنَّ الحياة انتقلت إليه من الحيِّ.

﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ كما أحيى الله هذا القتيل ﴿**يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ**﴾ كلَّهم يوم القيامة بلا ضرب، وبنو إسرائيل لا ينكرون البعث، ولكن وعظهم بالبعث ليستعدُّوا، ويذِّكِر منكرو البعث من العرب، والكاف لمن يصلح للخطاب، فيدخلون بالأولى، أو لكلِّ واحد، فوافق قوله: ﴿**وَيُرِيكُمْ**﴾ عطف على ﴿**يُحْيِي**﴾ ﴿**ءَايَاتِهِ**﴾ دلائل قدرته، أو ما اشتمل عليه هذا الإحياء من الآيات، أو كلام الميِّت، أو كلِّ ما مرَّ من المسخ، ورفع الجبل، وانبجاس الماء، والإحياء؛ والخطاب لبني إسرائيل

---

١ - لم نقف على نصّ الحديث.

مع غيرهم كالعرب، أو لهم فقط، وكذا في قوله: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ تستعملون فكركم فتذكروا أنَّ الله قادر على إحياء غيره كما قدر على إحيائه، وكما أنشأهم.

ويجوز أن يكون الخطاب في ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ للعرب المنكرين للبعث، اعترض به في قصَّة بني إسرائيل، ويختصُّ ببني إسرائيل الخطابُ في قوله: [﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ...﴾].

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

قسوة قلوب اليهود

﴿**ثُمَّ قَسَتْ**﴾ انتفت عن الاتِّعاظ بالمعجزات واللين لها، وأشبهت في ذلك الجسم الصلب الذي لا يتأثَّر بانغماز، ففيه استعارة تبعيَّة، أو في الكلام استعارة تمثيليَّة. ﴿**قُلُوبُكُمْ**﴾ في الحال وما قبلها قسوة بعيدة عن شأن من شاهد من المعجزات ما شاهدتم بُعداً، تشبيهًا في الامتداد بتراخي الزمان، أو بعد مدَّة من الزمان زادت قسوة، ﴿ولاَ يزيدُ

الظَّالِمينَ إلاَّ خسارًا﴾ (سورة الإسراء: ٨٢)، وقد زادوا سوءًا بعد نزول الآيات، وأكَّد البعد بقوله: ﴿مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما ذكر من الآيات كإحياء القتيل. ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ في عدم الانفعال كما لا يطاوعك الحجر في الانغماز والتثنّي، لا تتأثَّر قلوبهم في الوعظ بما شاهدوا من الآيات. ﴿أَوَ اَشَدُّ قَسْوَةً﴾ من الحجارة أي بل أشدُّ قسوة، كقوله: ﴿إنْ هُمْ إلاَّ كالأنْعامِ بلْ هُمْ أضلُّ سبيلاً﴾ (سورة الفرقان: ٤٤) أو يشكُّ الناظر أهي كالحجارة أم أشدُّ، أو يخيَّر بين أن تشبه بها وأن يقال: أشدُّ على جواز التخيير بأوْ في غير الأمر والنهي؛ أو نوَّعهم إلى قلوب كالحجارة وقلوب أشدَّ.

والحديد ولو كان أقوى من الحجر لكن قد يلين بالنار، وقد وقع لينه لداود عليه السلام خارجًا بلا نار، وأيضًا الحديد لا يخرج منه الماء فلا يناسب ذكر خروج الماء من الحجر وهبوطه من الخشية بعده، ولاسيما أنَّ الحديد إنَّما قد يلين بانضمام النار لا بمجرَّده، ولينه لداود معجزة لا مسيس لها هنا. ولم يقل: أو أقسى لأنَّه يدلُّ على حصول الشدَّة لا على زيادتها؛ وأشدُّ قسوة يدلُّ على زيادتها فهو أبلغ. ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ﴾ ينبع نبعًا واسعًا ﴿مِنْهُ الاَنْهَارُ﴾ المياه، سمَّاها أنهارًا تسمية للحال باسم المحلِّ، والكلام تعليل جمليٌّ لأشدَّ قسوة.

(لغة) وزعم بعض وتبعهم الشيخ عمرو التلاتي[١] أنَّ الواو تكون للتعليل ولا يصحُّ، ولو صحَّ لحملنا عليه الآية، أي لأنَّ من الحجارة ما يتفجَّر منه الأنهار، وهو مطلق الحجارة، وزعم بعض أنَّه أراد حجر موسى الذي انفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، والأوَّل أصحُّ للإطلاق، ولأنَّ حجر موسى حجر خارق للعادة معجزة.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ بعد أن لم يكن منشقًّا، أصله يتشقّق أبدلت التاء شينًا وأدغمت. ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ﴾ قليلا دون الانفجار، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ يسقط من الجبل على الاستقلال ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ لا بحيوان أو مطر أو صاعقة أو رعد أو نحو ذلك.

خلق الله فيه التمييز والعقل، فخشع فيسقط، ومن خلْق العقل في الحجر قوله ﷺ: «**إنِّي لأعرف حجرًا كان يسلِّم عليَّ قبل أن أبعث**»[٢]. وأنَّه ﷺ بعد مبعثه ما مرَّ بحجر أو مدر إلاَّ سلَّم عليه،

---

١ - عمرو بن رمضان التلاتي (ت:١١٨٧هـ/١٧٧٣م): عالم من علماء جربة، ولد في حومة "تلاّت" بجربة، أخذ عن أبي الربيع سليمان الحيلاتي، له العديد من الحواشي والمختصرات، منها "اللآلي الميمونية على المنظومة النونية"، و"عمدة المريد لنكتة التوحيد" وغيرها. جمعية التراث: **معجم أعلام الإباضية**، ج٤/ص٥٥٦ (ط.م)

٢ - رواه أحمد في مسنده، ج٧، ص٤١٠، رقم ٢٠٨٦٧.
ورواه مسلم، في كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبيء، رقم ٢، ٢٢٧٧.
والترمذي، في المناقب، رقم ٣٦٢٤، من حديث جابر بن سمرة.

وأنَّ الحصى سبَّح في كفِّه وكفِّ بعض الصحابة، وأنَّ الحجر الأسود يشهد لمن استلمه؛ وليس المراد هنا الانقياد لما يريد الله فإنَّ الخلق كلَّه كذلك، حتَّى قلوب الكفرة فإنَّها منقادة لما يريد الله منها من هزال وسمن وصحَّة ومرض وزوال وبقاء وفرح وحزن وغير ذلك... ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهو عالم بما تعملون فيعاقبكم على مساوئكم المحبطة لمحاسنكم في الآخرة.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

استبعاد إيمان اليهود

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ إنكار للياقة الطمع، العطف على قست والهمزة من جملة المعطوف، أو على مقدَّر بعد الهمزة، والخطاب للمؤمنين، قيل: وللنبيء أيضًا، أي أتحسبون أنَّ قلوبهم صالحة للإيمان فتطمعون؛ وقيل: للأنصار. وفي ذلك تشديد العتاب. ويقال: الخطاب للنبيء ﷺ

والمؤمنين لأنـَّهم يطمعون فلا حاجة، ولا دليل على أنَّ الخطاب للنبيء ﷺ بصيغة الجمع تعظيمًا كما هو قول ابن عبَّاس. ﴿أَنْ يُؤمِنُواْ﴾ أي في أن يؤمن اليهود، أي ينقادون ﴿لَكُمْ﴾ أو يؤمنوا لأجلكم؛ والواو لليهود في المدينة وما قرب منها. كيف تطمعون في إيمانهم مع ما فيهم من موانع الإيمان: تحريف الحقِّ مع العلم به في طائفة من الأحبار، ونفاقهم إليكم بظاهر الإيمان، وإخلاص الكفر إذا خلا بعضهم ببعض في طائفة، وتحذير بعض بعضًا عن التحدُّث برسالة سيِّدنا محمَّد ﷺ المذكورة في التوراة في طائفة، واعتقاد الباطل توراةً في طائفة، وكتابة كلام يقولون إنَّه من التوراة وليس منها في طائفة؛ وأشار إلى ذلك كلِّه بقوله: ﴿وَقَدْ كَانَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ أي طمعكم في إيمانهم بعيد والحال أنَّه قد كان ﴿فَرِيقٌ﴾ أحبار تفرَّقوا طوائف، ﴿مِّنْهُمْ﴾ مِمَّن حضروا وأسلافهم، ﴿يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ﴾ في التوراة مِمَّن قرأ من كتاب الله، أو رآه بعينه وفهمه أو لم يفهمه، والمراد هنا الفهم فقد سمعه ولو لم يسمعه بأذنه من غيرهم، أو من لسان نفسه؛ وقيل: المراد القرآن. ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ يردُّونه في طرف غير ما هو فيه، بمحوه أو إسقاط بعضه، أو زيادة ما يفسد به، أو تفسيره بخلاف ما هو عليه.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ فهموه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّه حقٌّ وأنَّهم

مبطلون، وأنَّه من الله. ولا حاجة إلى جعلها تأكيدًا في المعنى لقوله: ﴿عَقَلُوهُ﴾.

ومن ذلك تبديل ما في التوراة من الرجم بالتسخيم وتسويد الوجه، وما فيها من أنَّه ﷺ أبيض ربعة بأنَّه أسمر طويل، وأنَّهم طلبوا أن يسمعوا كلام الله تعالى كموسى فأمرهم أن يتطهَّروا ويلبسوا ثيابًا نظيفة، فأسمعهم، فزادوا أنَّه قال لهم: إن شئتم فلا تفعلوا؛ وهم السبعون الذين اختارهم.

﴿وَإِذَا لَقُواْ﴾ أي اليهود، إذ القائل منهم لا كلُّ فردٍ، أو إذا لقي منافقوهم، والمراد أشرار علمائهم، ومن معهم من العرب كعبد الله بن أبي ﴿الذِينَ ءَامَنُواْ قَالُواْ ءَامَنَّا﴾ بمحمَّد رسولا مبشَّرًا به في التوراة، وأنَّكم على الحقِّ في اتِّباعه، وهذا إلى قوله: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ داخل في توبيخ المؤمنين على الطمع في إيمانهم، أتطمعون أن يومنوا مع أنَّهم. ﴿إذا لقوا الذين ءَامنوا قالوا...﴾ إلخ. وإنَّما وبَّخهم على ذلك الطمع لأنَّ الطمع هو تعلُّق النفس بإدراك المطلوب تعلُّقًا قويًّا، وهو أشدُّ من الرجاء، فشدَّد عليهم فيه، لأنَّه ربَّما يؤدِّي إلى ملاينة لا تجوز.

﴿وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمُ, إِلَى بَعْضٍ قَالُواْ﴾ أي رؤساؤهم الذين يصرِّحون بالكفر و لم ينافقوا، أي قالوا لمن نافق منهم.

قام النبيء ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم، فقال: «**يا إخوان**

القردة، ويا إخوان الخنازير، ويا عبدة الطاغوت»، فقالوا: ما أخبر بذلك محمَّدًا إلاَّ أحد منكم، أتحدِّثونهم... إلخ[1]، كما قال: ﴿**أَتُحَدِّثُونَهُمْ**﴾ أتحدِّثون المؤمنين؟ وهذا توبيخ على ماضٍ مستمرٍّ، فهو موجود في الحال إذا اعتقدوا أنَّ منافقيهم لم يقطعوا نياتهم عن التحديث؛ والتوبيخ يقع على ماض وحاضر، أو صوَّروا حالهم الماضية من التحديث بصورة الحاضر. ﴿**بِمَا فَتَحَ**﴾ به ﴿**اللهُ عَلَيْكُمْ**﴾ أنعم به عليكم من العلم برسالة محمَّد في التوراة وصفاته، والإيجاب على الأنبياء ان يؤمنوا به، أو قضى عليكم به، أو أنزله عليكم بوساطة موسى، أو بيَّنه لكم، كما يقال: فتح على الإمام إذا ذكر له ما توقَّف عنه، وذلك أنَّ الأمر قبل بيانه كالشيء المغلق عليه، وبعد بيانه كالشيء المفتوح، وذلك إقرار منهم بأنَّ الله قضى عليهم أن يؤمنوا بمحمَّد ﷺ، وأنزل عليهم رسالته؛ وتفسيره بالإنزال معنويٌّ.

﴿**لِيُحَآجُّوكُمْ**﴾ حجًّا عظيمًا، والمفاعلة مبالغة لا على بابها ـ من أنَّها تفيد المشاركة ـ ﴿**بِهِ**﴾ بما فتح الله عليكم فيغلبوكم، واللام لام العاقبة مجاز على التعليل، أي فيكون المآل أن يخاصموكم به ﴿**عِندَ رَبِّكُمْ**﴾ في الآخرة بأن يشهدوا عليكم بإقراركم بأنَّ الله حكم علينا، أي قضى بأن نؤمن بمحمَّد وكتابه، فتقام عليكم الحجَّة بترك

---

١ - أورده ابن كثير نقلا القاسم عن برزة عن مجاهد.

اتِّباعه مع إقراركم بصدقه، وهو متعلّق «لِيُحَاجُّوا». ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ عطف على ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ﴾.

أو يقدَّر: ألا تتأمَّلون فلا تعقلون أنَّكم يحاجُّونكم يوم القيامة بأنَّ محمَّدًا رسول الله في التوراة، وذلك من جهلهم فإنَّهم يوم القيامة محجوجون بما في التوراة، حدَّثوا المؤمنين به أم لم يحدِّثوا؛ وإن رجعنا هاء «به» للتحديث، أي ليحاجُّوكم بتحديثكم بأنْ يقول المؤمنون: ألم تقولوا لنا بأنَّ محمَّدًا رسول الله في التوراة؟ كأنَّ المعنى أنَّه اشتدَّ عليهم أن يحاجُّوكم بالتحديث، ولو كانوا لا ينجون من قطع العذر، ولو لم يحدِّثوهم، إلاَّ أنَّه يضعف ردُّ الهاء للتحديث بقوله: ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ﴾ عطف على ما قبل، أو يقدَّر: أيلومونكم ولا يعلمون ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ مطلقًا ، ومنه إسرارهم الكفر ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مطلقًا، ومنه إظهارهم الإيمان، فإنَّه أنسب بردِّ «ما» إلى «ما فتح الله»؛ وأيضًا قد يمكنهم إنكار التحديث لا ما فتح عليهم؛ والمشركون قد يخفون ما علموا أنَّ الله عالم به لفرط دهشهم، وذلك في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿والله ربِّنا ما كُنَّا مشرِكين﴾ (سورة الأنعام: ٢٣) وقوله: ﴿ربَّنا أخرِجْنا منها فإن عدنا فإنَّا ظالمونَ﴾ (سورة المومنون: ١٠٧) وقد علموا أنَّهم لا يخرجون، فينكرون التحديث، ولو علموا أنَّ الله عالم به.

ويجوز أن يكون ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ من كلام الله للمؤمنين، لا من كلام اليهود، كما أنَّ ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ﴾ من كلام الله، أي: أفلا تعقلون أن لا مطمع في إيمانهم، وممَّا أسرُّوه من صفات رسول الله ﷺ.

﴿وَمِنْهُم﴾ من اليهود ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يكتبون ولا يقرأون الكتابة، كأنَّهم في حينهم ولدتهم أمَّهاتهم، وأنَّهم باقون على أصل خلقتهم، أو من العرب الذين لا يكتبون ولا يقرأون المكتوب، أو من أمِّ القرى مكَّة وأهلها لا يقرأون الكتابة ولا يكتبون ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ لا يعرفون ﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة أو الكتابة، فهم عوامٌّ رسخ التقليد في قلوبهم، فكيف تطمعون أن يؤمنوا؟ ﴿إِلاَّ أَمَانِيَ﴾ أي لكن يعتقدون أماني أي أكاذيب، فالاستثناء منقطع؛ أولا يعلمون المكتوب إلاَّ مكتوبًا مكذوبًا فيه، أو إلاَّ مكتوبًا يقرأونه بلا معرفة معنًى، لأنَّ الأماني ـ بالشدِّ والتخفيف ـ بمعنى ما يقدر في النفس ولو كذبًا، بمعنى ما يتمنَّى، وبمعنى ما يقرأ، فالاستثناء متَّصل، وذلك أنَّهم تلقَّوا من رؤسائهم المحرِّفين أكاذيب أو كتبًا كتبوها هم مكذوبًا فيها، مثل أنَّ النبيء محمَّداً الموعود به أسود أحول قَطَط الشعر قصير أو طويل بدل ربعة، وغير ذلك مِمَّا هو ضدَّ صفته ﷺ، وأنَّ الجنَّة لا يدخلها إلاَّ من كان هودًا، وأنَّ النار لا تمسُّهم إلاَّ أيَّامًا معدودة، ونحن أبناء الله وأحبَّاؤه.

﴿وَإِنْ هُمْ﴾ ما هم ﴿إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ في جحود محمَّد ﷺ وصفاته وكتابه.

والمراد بالظنِّ خلاف العلم، فتناوَلَ الاعتقاد الجازمَ غير المطابق، لا الظنَّ المشهور الذي هو الاعتقاد الراجح مع تجويز النقيض، طابق الواقع أو لم يطابق، لأنَّ بعضهم جازمون بالاعتقاد الفاسد، وجاهلون جهلا مركَّبًا، وبعضهم جاهل أمِّيٌّ مقلِّد للجاهل جهلاً مركَّبًا، فالضمير لليهود مطلقًا، والقسم الثالث العارف بالحقِّ داخل في ذلك، لأنَّ لفظه لفظ الجازم بالإنكار، وهو ظانٌّ أي غير قائل بالعلم، ويجوز عوده للأمِّيِّين.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

تحريف أحبار اليهود وافتراءاتهم

﴿فَوَيْلٌ﴾ هلاك أو واد في جهنَّم، لو وقع فيه جبل لذاب وسال، أو واد في جهنَّم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره ــ كما ذكرتُه في وفاء الضمانة[1] ــ. ﴿لِلذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ذكر الأيدي مع أنَّ الكتابة لا تقع إلاَّ باليد، تأكيدًا لقبح فعلهم، كما أكَّد في قوله تعالى: ﴿يَطِيرُ بجناحيه﴾ ﴿يقولونَ بأفواههم﴾ وأيضًا قد يقال: كتب فلان وهو لم يكتب بيده بل كتب له غيره، ووجه آخر أنَّ معناه نفي أن يكتبه كاتب قبلهم، فهو مختلق من عند أنفسهم. ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ: هَـذَا﴾ أي هذا الكتاب ﴿مِنْ عِندِ اللهِ، لِيَشْتَرُواْ بِهِ﴾ يستبدلون به ﴿ثَمَنًا﴾ ما به الشراء، أو الشراء على ظاهره، والثمن المثمن، أي مثمَّنًا ﴿قَلِيلاً﴾ بالنسبة إلى ما باعوا من دينهم ومن الجنَّة.

خاف رؤساء اليهود على زوال ملكهم حين قدم النبيء ﷺ المدينة، فبدَّلوا صفة النبيء ﷺ بضدِّها إثباتًا لرئاستهم، ولما يعطيهم سفلتهم وعامَّتهم. ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتَ﴾ أي كتبته ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ أو من كتابة أيديهم. ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من سائر شركهم وبدعهم وكبائرهم وصغائرهم، ومن كبائرهم أخذ الرِّشى، وهم أربع

---

١ - كتاب للمؤلِّف - رحمه الله تعالى - في الحديث وعنوانه الكامل: **وفاء الضمانة بأداء الأمانة**. وهو مطبوع.

فرق: محرِّفون، ومنافقون، ومانعون من إظهار الحقِّ، وجاهلون مقلِّدون.

﴿وَقَالُواْ: لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ كناية عن دخولها. ﴿إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ أي قليلة، وكان الحساب في العرب عزيزًا، فصاروا يعبِّرون عن القليل بالعداد، لا يألفون عدَّ الكثير وقوانين الحساب، والقائلون: ﴿لن تمسَّنا النار إلاَّ أيَّامًا مَّعدودة﴾ يهود المدينة، وهم نشأوا على العربيَّة، وكلامهم فيها حجَّة فقالوا: «معدودة» مكان «قليلة» وهي مقدار عبادة آبائهم العجل أربعين، زعموا أنَّ الأربعين مدَّة جعلها الله عذابًا لآبائهم ولهم، وقال من قال: نعذَّب سبعة أيَّام عدد الأسبوع، وأنَّه سبعة آلاف سنة، رجع إلى سبعة أيَّام، يوم مكان ألف سنة.

﴿قُلَ اَتَّخَذْتُمْ﴾ بهمزة مفتوحة ثابتة وصلاً حتَّى أنَّه نقل فتحها للاَّم فيه، ووفقًا للاستفهام الإنكاريِّ، أو التقريريِّ على معنى التخطئة، فهو في معنى التوبيخ، أو نزله منزلة الاستفهام الحقيقيِّ.

﴿عِندَ اللهِ عَهْدًا﴾ علمًا يوثَق به أنَّكم تعذَّبون أيَّامًا معدودة. ﴿فَلَن يُّخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾ عطف على مدخول الهمزة كقوله تعالى: ﴿أفمن شَرَحَ اللهُ صدرَهُ للإسلامِ فهو على نورٍ مِّن رَّبِّه﴾، وقوله تعالى: ﴿أفمن وَّعدْناهُ وعدًا حسنًا فهو لاقيه﴾ وذلك بمرتبة المضارع

المنصوب في جواب الاستفهام، إلاَّ أنَّ النصب هنا بلن، كأنَّه قيل: «أتَّخذتم عند الله عهدًا فيُوفَى لكم به»، بنصب يوفى، ولا حاجة إلى تقدير الشرط هكذا: «إن اتَّخذتم عند الله العهد فلن يخلف الله عهده»، بمعنى: أيُّ هذين واقِع؟ أتِّخاذكم العهد أم قولكم على الله ما لا تعلمون؟ خرج ذلك مخرج المتردِّد في تعيينه على سبيل التقرير، والنبيء ﷺ عالم بوقوع أحدهما، وهو قولهم بما لا يعلمون على التعيين.

(نحو) ﴿أَمْ﴾ متَّصلة عطفت جملة لأنَّها، تعطف المفرد والجملة، أو حرف ابتداء منقطعة بمعنى بل وهمزة الإنكار، وهكذا ما أشبهه، والمنقطعة حرف ابتداء وإضراب وتقدَّر بـ«بل» والهمزة، أو بـ«بل»، أو بالهمزة، وإذا كان الاستفهام بعدها فبمعنى بل فقط، وإذا لم تصلح بل وحدها حمل الكلام على التهكُّم إن قدِّرت كقوله تعالى: ﴿أم كَنتمْ شُهدآءَ﴾ أي بل كنتم شهداء، فإنَّهم لم يكونوا شهداء، أو يقدَّر: بل تقولون، على مقتضى دعواكم أنَّكم كنتم شهداء.

﴿تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ بل أنتم فيه جاهلون من دعوى الخروج من النار، وتقليل المدَّة. ﴿بَلَى﴾ تمسُّكم النار مع الخلود فيها، واحتجَّ عليهم بما قُضي في الأزل، وكُتب في اللوح المحفوظ من قوله: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ ذنبًا كبيرًا أو صغيرًا أصرَّ عليه، فالسيِّئة

تشمل الشرك وما دونه.

(فقه) ولا دليل على تخصيص الشرك، ويدلُّ على ما قلت في أهل الجنَّة: ﴿الذينَ ءامَنواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحاتِ﴾، وقومنا مجتمعون معنا على أنَّ الإصرار محبط للأعمال الصالحات، ودعوى أنَّه يحبط ثواب الأعمال ويبقى ثواب التوحيد بدخول الجنَّة لا دليل عليها، والله يقول: ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحاتِ﴾ ، ومن أين لهم أن يقولوا: بلا عمل للصالحات؟! وحديث دخول الجنَّة بمجرَّد التوحيد محمول على ما قبل أن تفرض الفرائض، وقد قال بهذا بعض سلفهم كما بيَّنته في «**وفاء الضمانة بأداء الأمانة**»[١].

ومن شأن السيِّئة غير المتوب منها أن تجرَّ سيِّئات، وهو قوله: ﴿**وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ**﴾ سيِّئاته، أو أشار إلى أنَّه لـمَّا لم يتب عن السيِّئة لم تغفر له صغائره لإصراره، أحدَقت به من كلِّ جانب إذ لم يتب منها كلِّها، ولو تاب من بعضها، وقيل: لا يعاقب على ما تاب منه، وهو قول لا بأس به، فيحيط به ما لم يتب منه ولو واحدة.

﴿**فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ لا يخرجون منها، المشركون والفاسقون، والأصل في الخلود الدوام، وحمله على المكث

---

١ - ج١/ص٣٠.

الطويل إنَّما يصحُّ لدليل، ولا خلاف في دوام المشرك في النار. ومعنى إحاطة الخطيئة به أنَّها أهلكته إذ لم يتخلَّص منها بالتوبة.

وليس المراد أنَّها به معنى أنــَّها في قلبه وجوارحه، فلا دليل في الآية على أنَّ الخلود إنَّما هو لمن عمَّت قلبه بالشرك، لأنــَّا إذا صرنا إلى تعميم البدن بالمعصية وردَ علينا أنَّ من جسد الكافر ما لم تصدر منه معصية مثل عنقه وأعلى صدره إذا لم تصدر منهما.

﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أتى هنا بالواو، وفيما مرَّ بالفاء، لأنَّ وعيد الكريم مظنَّة الخلف، حاشاه تعالى عن الخلف، بخلاف وعده، فأكَّد الوعيد بربط الفاء وتعقيبها، أو لسبق الرحمة، ولأنَّ خلودهم في النار بسبب أعمالهم، وأمَّا الجنَّة فبفضل الله عزَّ وجلَّ، فإنــَّهم يحاسبون يوم القيامة بنعم الله فتستغرق أعمالهم، فيقول الله عزَّ جلَّ: «ادخلوا الجنَّة بفضلي».

﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ شامل للتقوى، إذ ترك المعاصي من الأعمال الصالحات، وهكذا حيث لم يذكر التقوى مع العمل الصالح، وذلك أولى من حمل المطلق على المقيَّد بالتقوى في الآي الأُخر، أو يقدَّر: وعملوا الصالحات واتَّقوا، وكذا في سائر القرآن، فلا دليل في الآية على أنَّ العمل الصالح قد ينجو صاحبه مع عدم

التوبة من الذنوب.

﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْـجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون، وخلود أهل النار وأهل الجنَّة فيها دوام.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

مخالفة اليهود المواثيق

﴿وَإِذَ اَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إلاَّ الله﴾ إمَّا مفعول لأخذنا لتضمُّنه معنى قلنا، واللفظ نفيٌ والمعنى نهي، وحكمته الحثُّ على المسارعة للامتثال، حتَّى أنَّه قد امتثل فأخبر عنه، وصونًا للكلام عن الكذب إن كان بصيغة الإخبار فلم يمتثل، فلا حاجة إلى تقدير: قلنا، ووجه ذلك أنَّ أمر الله عزَّ وجلَّ بشيء أو نهيه عنه أخذ للميثاق، ولو لم يقل المأمور والمنهيُّ: نَعَم.

وإمَّا جواب القسَم الذي هو الميثاق، ومقتضى الظاهر على هذا: «لا يَعبدون» ـ بالتحتيَّة ـ وإمَّا تفسير لأخذ الميثاق، **وهكذا فيما يأتي من القرآن تتصوَّر فيه هذه الأوجه.**

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي أحسنوا، أو تحسنون بالوالدين إحسانًا، أي أحسنوا، أو استوصوا بالوالدين، أي بالوالد والوالدة، فغلّب المذكّر. ويبعد تفسير الميثاق هنا بميثاق يوم السبت بربّكم، **والآية مفصحة بعظم الإحسان إلى الوالدين إذ قرن بطاعة الله تعالى.**

﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾ القرابةِ، كالرُّجعى بمعنى الرجوع. ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ أحسنوا إلى هؤلاء بالمال والخدمة والنفع بالجاه والبدن والرفق، وتعليم العلم، والأمر بالعروف والنهي عن المنكر، وهو على ذلك الترتيب.

فالله أحقُّ لأنَّه الخالق المنعم، وحقُّه أعظم من كلِّ حقٍّ، ثمَّ الوالدان لأنَّهما سبب وجود الولد، ومتلقّيان المشاقَّ في الولد، ثمَّ ذو القربى لأنَّه بواسطتهما، و«**الرضاع لحمة كلحمة النسب**»[1]. ثمَّ اليتيم لأنَّه أضعف لصغره من المسكين، مأخوذ من اليتم بمعنى الانفراد، كدرَّة يتيمة؛ وهو من بني آدم من مات أبوه قبل بلوغه، و«لا يُتْمَ بعد البلوغ». ومن الدوابِّ من ماتت أمُّه، وفي الطير من ماتا عنه، **وقد يطلق على من ماتت أمُّه من الآدميِّين.** وأفرد القريب لأنَّ القربى مصدر يصلح للأكثر فتَبِعه المضاف وهو «ذي»؛ والإشارة

١ - قاعدة فقهية مأخوذة من حديث رسول الله الذي أورده القطب في جامع الشمل، من حديث أنس: «إنَّ الله حرَّم من الرضاع ما حرَّم مِن النسب»، ج٢/ص٢٩١، رقم ٣١٨٥

إلى أنَّهم كواحد ولو كثروا، فلا تقصِّروا في حقِّهم.

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ بضمٍّ فإسكان، أي حسَنًا بفتحهما، أو ذا حسن، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، والصدق في شأن محمَّد ﷺ والقرآن والدعاء إلى التوحيد، والرفق بهم بما يحبُّونه مِمَّا لا معصية فيه ليذعنوا، وحين يكون التغليظ هو النافع فالتغليظ حسن، وذلك قبل الأمر بالقتال وبعده، وليس مِمَّا ينسخ.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ المفروضة عليكم في التوراة، ﴿وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ﴾ على ما فرض عليكم فيها وهو ربع المال، تنزل النار فتحرقه أو تأخذه، أو شيء كالنار، وذلك علامة قبوله، ولا تحرق الحيوان.

وهذا خطاب لأوائلهم المأخوذ عليهم الميثاق ومَن بعدهم، والكلام في ذلك، لا في المعاصرين لرسول الله ﷺ، لأنَّ معاصريه تجب عليهم الصلاة والزكاة على ما فرض عليه ﷺ.

أمَرْناكم بما ذكر من إفراد الله بالعبادة وما بعده من إيتاء الزكاة وقَبِلتُم ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾ عن الوفاء ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ﴾ وهو من اتَّبع التوراة والإنجيل قبل البعثة كعبد الله بن سلام. ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن الوفاء.

(لغة) والآية ﴿ثمَّ تولَّيتُم﴾ كقوله: ﴿ولَّى

مستكبِراً كأن لم يسمَعْها﴾ (سورة لقمان: ٧) وقيل: التولّي الانصراف بحاجة مع ثبوت العقد، والإعراض الانصراف بالقلب؛ وقيل: التولّي الرجوع إلى ما كان أوّلاً، والإعراض أخذ طريق آخر.

والخطاب لمن قبل رسول الله ﷺ، وأجيز أن يكون الخطاب بقوله: ﴿وأنتم مُّعرِضُونَ﴾ لمعاصريه، أو المعنى: معرضون عن الفكر، فلا تأكيد، أي وأنتم معرضون عن الوفاء بعهد التوراة والإنجيل قبل البعثة، وقد وجب عليكم اتّباعهما، وعن الوفاء بالقرآن بعد البعثة وقد وجب عليكم اتّباعه بعدها، ويضعف أن يقال: معرضون عن الغضب على المتولّين، أو عن القليل الذين لم يتولّوا بأن لم توالوهم وتحبُّوهم، **والأولى أنَّ الخطاب للآباء لأنَّ ما قبله وما بعده هم**، نعم ما بعده هم باعتبار آبائهم وهو قوله:

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٨٤ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ

﴿الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

بعض حالات مخالفة اليهود الميثاق

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي أذكروا وقت أخذ العهد على آبائكم، ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضًا، أو لا تقتلون أمثالكم، **وجاءت العبارة بذلك لأنَّهم كنفس واحدة نسبًا ودينًا، فمن قتل غيره كأنَّه قتل نفسه**، وأيضًا هو كمن قتل نفسه بالقصاص، لأنَّه تعرَّض لأن يُقتصَّ منه، وكذا فيما أشبه هذا.

﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ لايخرج بعضكم أنفُسَ بعض، ومن أخرج أخاه كمن أخرج نفسه، لأنَّهم إخوة دينًا ونسَبًا، أو لا تفعلون ما يوجب سفك دمائكم أو إخراجكم من دياركم، أو لا تهلكون أنفسكم بالمعاصي كمن قتل نفسه بحيث لا يلتذُّ كميِّت، إذا كان لا ينال لذَّات الجنَّة، ولا تصرفونها عن دياركم في الجنَّة.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ اعترفتم بأنَّ ذلك الميثاق حقٌّ فقبلتموه، ومَن لاَزم ما يُقرُّ به أنَّه حقٌّ أن يُقبَل، وثمَّ لترتيب الأخبار باتِّصال، أو في الرتبة بالتراخي، لأنَّ رتبة الإقرار أقوى. ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على أنفسكم، تأكيدٌ لأقررتم في المعنى، أو أقررتم قبلتم وأنتم تشهدون على

القبول، أو أنتم معشر المعاصرين له ﷺ تشهدون على إقرار أسلافكم لتوسُّط الأنبياء والرواة إليكم بينكم وبينهم، وضعِّف بأنَّه يكون حينئذٍ استبعاد الإجلاء والقتل منهم، مع أنَّ أخذ العهد والميثاق كان من أسلافهم.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ يا معاصري محمَّد ﷺ ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ أخصُّ هؤلاء، أو يا هؤلاء، أو أنتم المشار إليهم المعهودون، وكأنَّه قيل: بماذا ؟ فأجيب بما بعدُ. وأجاز الكوفيون أنَّ هؤلاء بمعنى الذين، فتكون صلته هي قوله: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ وذلك الإخراج بالاستعانة عليهم كما قال: ﴿تَظَّاهَرُونَ﴾ تتعاونون ﴿عَلَيْهِمْ بِالاِثْمِ﴾ فعل ما يستحقُّ به الذمَّ، أو نفس هذا الذي يستحقُّ به الذمَّ، أو ما ينفر عنه ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ الظلم الشديد.

﴿وَإِنْ يَّاتُوكُمْ﴾ ذلك الفريق الذين تخرجونهم من ديارهم وقت الحرب. ﴿أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾ بالمال أو بغيره كالرجال، العرب في المدينة وأعمالها الأوس والخزرج، واليهود قريظة والنضير وبني قينقاع.

(تاريخ) وكان بين الأوس والخزرج حروب، فكانت قريظة حلفاء الأوس، والنضير حلفاء الخزرج، ولم يكن بين اليهود مخالفة ولا قتال، وإنَّما يقاتلون لحلفائهم، فإذا أسرت الأوس أو الخزرج يهوديًّا فداه النضير وقريظة جميعًا، وفي الحرب يقتل القرظيُّ

النضيريَّ والنضيريُّ القرظيَّ، ويخرب بعضهم دار بعض، ويخرجه منها معاونة لحلفائهم، يقال لهم: ما هذا؟ فيقولون: القتل والإخراب لأجل حلفائنا لا نستذلُّهم، وهو مخالف لما عُهد في التوراة، ولذلك نفاديهم لأنَّا أمرنا بالفداء، فأحلُّوا بعضًا وحرَّموا بعضًا، فكأنَّهم حرَّموا جميعًا، وأمَّا بنو قنيقاع فلم يقتلوا ولم يخرجوا أحدًا من داره، ولم يظاهروا، وضرب الجزية عليهم، لأنَّهم لم يؤمنوا وبقوا في ديارهم.

﴿وَهُوَ﴾ أي الشأن ﴿مُحَرَّمٌ﴾ خبر مقدَّم ﴿عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ مبتدأ. أي الشأن أنَّ إخراجهم من ديارهم محرَّم عليكم، كما عاتبهم بقوله: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّنْ دِيَارِهِمْ﴾. حرَّم الله عليهم إخراج إخوانهم وقتلهم في التوراة، وفيها بعد ذلك: «وأيُّما عبد أو أَمَة وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروه بكلِّ ما وجدتم، واعتقوه».

﴿أَفَتُومِنُونَ﴾ أتتعدُّون الحدود فتؤمنون ﴿بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ التوراة، وبعضُها هو فداء من وجدوه منهم أسيرًا عند الأوس أوالخزرج، ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ بعض الكتاب، وهو ترك القتل والإخراج والمظاهرة، وهم لم يتركوا القتل إذ يقتلون بعضهم بعضًا في الحرب معاونة لحلفائهم، ولم يتركوا الإخراج ولا المظاهرة.

وفي الآية تنزيل ترك العمل بالكتاب منزلة الكفر أي الشرك، فإنَّهم آمنوا بالتوراة كلِّها لكن نافقوا، ومن لازم الإيمان بالشيء العمل

بمقتضاه بذلك، ويحتمل أنَّ ذلك في دينهم شرك. وفيه أنَّ الشرك لا تختلف الشرائع فيه، قيل: أو سمِّي ذلك شركًا مبالغة، **أو المراد: بالكفر كفر الجارحة وهي الفسق.** وقيل عن ابن عبَّاس رضي ا لله عنهما: عادة قريظة القتل، وعادة النضير الإخراج، فأجلى رسول ا لله ﷺ النضير وقتل قريظة وأسر نساءهم وأطفالهم، جازى كلاًّ بما كان يفعل.

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَّفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمُۥ إِلاَّ خِزْيٌ﴾ ذلٌّ **﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** بقتل سبعمائة من قريظة في السنة الثالثة[1] عقب الأحزاب، وأسر نساءهم وأطفالهم، وضرب الجزية على باقيهم، وضرب الجزية على بني النضير ثمَّ أجلاهم إلى الشام، ولا جزية عليهم بعد الإجلاء لأنَّ الشام فتح بعده ﷺ، ولو كان قد تصرَّف في بعضه بالتمليك.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ هو أشدُّ مِمَّا لقوا في الدنيا وفي القبر، فلا يرد أنَّ المنكر لله وعبدة الأصنام أشدُّ منهم عذابًا إلاَّ من كان منافقًا بإضمار نوع من الشرك، أو بإسرار إلى بعض فإنَّ عذابه في الدرك الأسفل، والمراد التصيير إلى عذاب أشدَّ لا إلى عذاب كانوا فيه؛ ولا شكَّ أنَّ عذاب النار أشدُّ من عذاب القبر وعذاب الدنيا، وزاد أيضًا بالدوام؛ ولا يتصوَّر أنَّ عذاب النافي لله دون عذاب

---

١ - كذا في النسخ المعتمدة، ولعلَّ ذلك وهم من الشيخ إذ أنَّ غزوة الأحزاب وحوادثها وقعت في السنة الخامسة لا الثالثة.

اليهود والنصارى والفاسق بل أعظم. ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فهو لعلمه بما عملوا يجازيهم على صغيره وكبيره، وصغائر المشرك كلُّها كبائر.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنيَا﴾ لذَّتها ومتاعها ﴿بِالآخِرَةِ﴾ فباعوا ما هم فيها من الخير بالدنيا، بأن ضيَّعوا دينهم لأجل تحصيل الدنيا ﴿فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ في الآخرة، أو فيها وفي الدنيا؛ ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يُمنعون عنه البتَّة؛ أو لا يُنصرون بترك الجزية.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

موقف اليهود من الرسل والكتب المنزَّلة

﴿وَلَقَدَ ءاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ المعهود: التوراة، أو الجنس

فيشمل الصحف المنزَّلة عليه قبلها ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ التشديد للمبالغة، والباء للتعدية، والمفعول محذوف، أي قَفَوْنا بتخفيف الفاء بالرسل، أي تَبعناه بالرسل، أي أتبعناه الرسل، وهذا أولى من جعل التشديد للتعدية إلى آخَر، والباء صلة، أي قفَّيناه الرسل، لأنَّ كثرة مجيئه في القرآن تُبعد هذا.

(تاريخ) والرسل: يوشع وشمويل وشمعون وداود وسليمان وأشعياء وارميا وعزير وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكرياء ويحيى وغيرهم؛ ويقال: عدد الأنبياء بين موسى وعيسى عليهم السلام سبعون ألفًا، وقيل: أربعة آلاف، وكلُّهم على شريعة موسى عليه السلام، وبينهما ألف سنة وتسعمائة سنة وخمس وعشرون سنة، **ولا حجَّة لهذه الأعداد والعلم عند الله.**

ومعنى إتباع الرسل من بعده الإتيان من بعده برسول، وبآخر بعده، وباثنين في زمان وبثلاثة في آخر، وما أشبه ذلك من انفراد رسول بزمان، ومن تعدُّده في زمان ـ كما مرَّ ـ أنَّهم قتلوا سبعين نبيئًا في يوم واحد، وروي أنَّه لم يطق موسى أن يحمل التوراة فأعانه الله على حملها بملائكة عدد حروفها فلم يقدروا فخفَّفها الله بالنقص فحملها. ويبعد ما قيل: إنَّ المراد بإيتاء التوراة إفهامه معانيها له.

(لغة) ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾، لفظ عيسى سريانيٌّ أو عبرانيٌّ، قولان، كما هو مراد القاموس بأو على عادته وليس ترديداً، وهو معرَّب من إيسوع، بهمزة بين بين، أو مكسورة، ومعناه المبارك أو السيِّد، وقيل: اليشون بالشين المعجمة، أبدلت سينًا. ومريم بالسريانيَّة الخادم، سُميت لأنَّها أريد بجنين هو هي أن يكون خادمًا لبيت المقدس لو كان ذكرًا، أو معنى مريم العابدة، والعابدة خادمة لله عزَّ وجلَّ.

وفي لغة العرب مريم المرأة التي تحبُّ التكلُّم مع الرجال ومخالطتهم، وعليه فمعنى مريم المرأة التي لا تحبُّ ذلك، كقولهم للأسود كافورًا؛ وقيل: تتحدَّث معهم ولا تفجر؛ وقيل: من شأن من تخدمها الرجال والنساء أن تتحدَّث معهم فسمِّيت بذلك.

﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار بالغيوب، وليس المراد الإنجيل كما قيل، لأنَّ اليهود كفروا به، فإنَّما يقمعون بتلك المعجزات، والآية في قمعهم وذكر عيوبهم، إذ لم يستقيموا مع المعجزات، لا بالإنجيل لأنَّه ليس معجزًا، وخصَّ عيسى مع أنَّه من الرسل بعد موسى لأنَّه جاء بالإنجيل ناسخًا لبعض التوراة، فلم يكن كمن قبله من أتباع موسى. ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قوَّيناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جبريل يسير معه حيث سار مقارنًا له من حين ولد

إلى أن رفعه الله إلى السماء ابن ثلاث وثلاثين سنة.

(لغة) وسمِّي جبريل روحًا تشبيهًا بروح الإنسان مثلاً في أنَّ كلاًّ جسم لطيف نورانيٌّ، وأنَّ كلاًّ مادَّة للحياة، فما يجيء به جبريل من الوحي لحياة القلوب كالروح لحياة الأبدان، وأضيف للطهر لطهارته عن مخالفة الله عزَّ وجلَّ؛ قيل: خصَّ بذلك اللفظ لأنَّه من ولادته كحاله بعد الرسالة؛ ولا تقلْ: ذلك من إضافة المنعوت إلى النعت، وأنَّ الأصل الروح المقدَّسة أو ذات القدس، بل من إضافة الشيء إلى حال من أحواله، ليُخَصَّ به أو يعرف أو يمدح أو لنحو ذلك، أو روح القدس روحٌ مِن مُلك لله[1]، أو روح عيسى أضيفت للقدس، لعظم شأنه، أو لأنَّه منزَّه عن مسِّ الشيطان، فتنزيهه تنزيه لروحه، أو أضيفت لكرامته على الله، أو لأنَّه لم يكن في رحم حيض، وقيل: حاضت حيضتين، وحملته ذات عشر سنين أو ثلاث عشرة، أو روح القدس الإنجيل، كما قال الله في شأن القرآن: ﴿وكذلك أوحيْنَآ إِلَيكَ روحًا مِّنَ امرِنَا﴾ (سورة الشورى: ٥٢)؛ أو اسم الله الأعظم كما أنَّ القدُّوس اسمه، وقيل: القدس اسمه والاسم الأعظم غيره؛ وقيل: إنَّه اسمه الأعظم الذي كان يحيي به الموتى؛ وقيل: لأنَّه قصده سبعون ألف يهوديٍّ لقتله فطهره الله عنهم.

[1] - وفي نسخة ج: روح ملك الله.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ أفعلتم ما فعلتم، أو أكفرتم فكلّما جاءكم رسول ﴿بِمَا لاَ تَهْوَى﴾ تحبُّ ﴿أَنفُسُكُمُ﴾ من الحقِّ ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي أتكبَّرتم كلَّ وقت مجيء رسول بما لا يوافق هواكم عن اتِّباعه. ﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى، وقدَّم التكذيب لأنَّه عامٌّ منهم، لمن لم يقتلوه ولمن قتلوه، ولأنَّه سبب للقتل. ﴿وَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿تَقْتُلُونَ﴾ تحقيقًا كيحيى وزكرياء، وفي قتل زكرياء خلاف، أو حكمًا كما قصدوا قتل عيسى فخابوا. والمراد قتلتم، ولكنَّ المضارع تنزيل لما مضى من القتل منزلة الحاضر المشاهد، أو الموجودين الآن منزلة من مضى وحضر، لأنَّ مشاهدة الشيء أقوى.

وخوطبوا بالقتل والتكذيب لرضاهم عن آبائهم الفاعلين لذلك، ولأنَّهم يحاولون قتل النبيء ﷺ بإلقاء الصخرة وبسمِّ الشاة؛ قال ﷺ: «**ما زالت أكلة خيبر تعاديني - أو تعاودني - فالآن قطعت أبهري**»[١] فمات بقتلهم وغير ذلك.

(بلاغة) والجملتان عطفتا على ﴿اَستكبرتم﴾ لا على ﴿أيّدناَ﴾ كما أجازه بعض، وقدَّم فريقا في الموضعين على طريق الاهتمام وللتشويق إلى ما بعد. وكذا تقول بالتشويق في سائر القرآن إذا صلح المقام

---

١ - رواه أبو نعيم في الحلية في كتاب الطبّ، من حديث أبي هريرة.

له؛ وقلت: على طريق، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ منزَّه عن الاهتمام، وبدأ بالتكذيب لأنَّه أوَّل ما يفعلونه، ولأنَّه المشترك بين المكذَّب والمقتول.

﴿وَقَالُواْ﴾: للنبيء ﷺ استهزاء به ﷺ ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾: جمع أغلف، كحُمر جمع أحمر، طبعت على أن لا يصل إليها ما يذكر من الوعظ والأمر والنهي، كشيء متغطٍّ أغلف بغطاء حسِّيٍّ، فالآية تشبيه أو استعارة كما في زيد أسد. ولا يوجد في اللغة الغلفة بمعنى الرين حقيقة، بل مجاز كما أريد في الآية.

والرين واقع في قلوبهم تحقيقا، وكذبوا في قولهم خلقت لا يصل إليها ذلك، لأنَّهم متمكّنون من الفهم وأعرضوا ــ كلُّ مولود يولد على الفطرة ــ فذلك الإعراض كان به الرين، وبعضهم فهم الحقَّ وجحد وذلك الجحود رين، والرين غطاء لما بعد ذلك، أو فعلوا ما يورثهم الإعراض والجحود، وذلك الفعل رين مانع عن النظر والقبول وترك الجحود. أو جمع غلاف فأصْله ضمُّ اللاَّم، سُكِّن تخفيفا ككتاب وكتب، أي أوعية للعلم؛ فلو كان قولك حقاً لَوَعَتْه، أو استغنينا بما فيها من العلم بالتوراة. أو بسلامة الفطرة عن غيره كما يمنع الغلاف الزيادة.

﴿بَلْ﴾: أي ليس كما قالوا من الخلقة على عدم الفهم، أو امتلائها علماً،، ومن عدم حقّيَّة ما يقول محمَّد ﷺ. ﴿لَّعَنَهُمُ

الله﴾: أبعدهم بالخذلان عن القبول، ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾: أي بكفرهم السابق الذي جرَّ إليهم قولهم ﴿قلوبنا غُلف﴾ ، ولم تأبه قلوبهم لعدم كونه حقًّا فإنَّه حقٌّ، ولكن خذلهم الله عزَّ وجلَّ، أو أبعدهم عن رحمته بكفرهم هذا، الذي هو قولهم ﴿قلوبنا غلف﴾.

﴿فَقَلِيلاً مَّا﴾ صلة لتأكيد القلَّة. ﴿يُومِنُونَ﴾ أي يؤمنون إيمانًا قليلاً جدًّا لقلَّة ما آمنوا به، أو لقلَّة من آمن، أو زمانًا قليلا، فإنَّ قلَّة ما آمنوا به قلَّة لزمان يوقع فيه الإيمان، ولو كثر ما أومن به لكثر زمان الإيمان، إذ تنزل الآية فيؤمنون بها، وتنزل الأخرى في زمان فيؤمنون وهكذا... وقلَّة من آمن قلَّة لزمان إيقاع الإيمان، إذ لو كثر من آمن لوقع إيمان هذا في زمان وهذا في زمان آخر، وهكذا... فتكثر أزمنة إيقاع الإيمان، وأمَّا قولهم: ﴿ءَامِنوا بالذِي أُنزِلَ على الذِينَ ءَامَنُوا وَجهَ النَّهارِ واكفُرواْ آخرَه لعلَّهم يرجِعونَ﴾ الآية (سورة آل عمران: ٧٢)، فلا تفسَّر به القلَّة هنا لأنَّها غير حقيقة، لأنَّها خدعة وكذب، وهنا حقيقة؛ أو أراد بالقلَّة النفي، كما جاء أنَّه ﷺ: «يقلُّ اللغوَ»، ولا مانع من ذلك؛ وقيل: المراد إيمانهم حال الاحتضار تحقيقًا، لكن لا يقبل.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي اليهود المعاصرين للنبيء ﷺ ﴿كِتَابٌ﴾ هو القرآن ﴿مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ هو التوراة وغيرها من

كتب الله والأخبار المكتوبة، ومعنى تصديقه إيَّاها أنَّه نزل بحسب ما نعت فيها هو، أعني القرآن وما نعت فيها النبيء ﷺ، وما يختصُّ ببعثه ﷺ، ونحو ذلك ممَّا لم ينسخه القرآن، وليس المراد أنَّه موافق للكلِّ، والقرآن لإعجازه لا يحتاج إلى ما يصدِّقه.

﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ﴾ قبل بعثته ﷺ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ الله أي يستنصرونه ﴿عَلَى الذِينَ كَفَرُواْ﴾ مشركي العرب، من الأوس والخزرج المجاورين لهم إذا نالوا منهم سوءًا وغضبوا لدينهم قالوا: «اللهمَّ انصرنا عليهم بالنبيء المبعوث آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة» ويضعون أيديهم على اسمه فيها، فينصرون، وهو نبيئنا محمَّد ﷺ.

(سبب النزول) وقال لهم معاذ وبشر بن البراء: «اتَّقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمَّد ونحن أهل شرك»، فقال: سلام بن مشكم: ما جاء بشيء نعرفه وما هو بالذي نذكره فنزلت الآية. أو يستفتحون يملون ويخبرون العرب أنَّ نبيئًا يبعث الآن نقاتلكم معه قتل عاد وإرم، كما يقال: «فتح المأموم على الإمام» إذا أخبره بما توقَّف فيه، وكانوا يقاتلون غطفان فتغلبهم غطفان في كلِّ وقعة، فكانوا يقولون: «اللهمَّ إنَّا نسألك بالنبيء الأمِّيِّ ﷺ الذي وعدتنا أن تبعثه آخر الزمان انصرنا عليهم» فينصرون، فلمَّا بعث كفروا به فنزلت:

﴿وكانوا من قبلُ يستفتِحون...﴾ الآية. أو يستخبرون: هل وُلد؟.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ في التوراة وغيرها من النبيء ﷺ وصفاته وعلاماته وكتابه ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ حسدًا وخوفًا على زوال رئاستهم وما يُعطَوْن.

(نحو) وجواب «لـمَّا» الأولى يقدَّر كجواب الثانية تأكيدًا، أي كفروا به، أو تأسيسًا مدلولاً عليه بجواب الثانية، أي استهانوا أو ردُّوه أو امتنعوا أو نحو ذلك، أو جوابها: «كفروا» فتكون الثانية أعيدت لبعد الأولى، كقوله: ﴿أَيَعِدُكُمُ, أَنَّكُمُ, إذا مِتُّمْ وكُنتمْ تُرابًا وعِظَامًا اَنَّكُم مُّخرَجونَ﴾ (سورة المومنون: ٣٥) فأعاد «أنَّكم»، وعلى هذا الوجه أقحمت الفاء للإشعار بأنَّ ذلك عقب استفتاحهم. قيل: أو «لـمَّا» وما بعدها جواب للأولى كقوله تعالى: ﴿فإمَّا ياتِيَنَّكم مِّنِّي هُدًى فمن تبِعَ هُدَايَ فلاَ خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنونَ﴾ (سورة البقرة: ٣٨) . ويردُّه أنَّ جواب لـمَّا لا يقرن بالفاء إلاَّ نادرًا جدًّا، ولا سيما أنَّه فعل ماض مجرَّد.

وكذا لا يقبل قول بعض إنَّ الجواب هو قوله: ﴿فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ إذ قرن بالفاء، وإذ هو جملة اسميَّة، الذين سبقت لهم الشقاوة أنس يموتوا كافرين

وهكذا لا يدخل في لعن الكافرين في القرآن إلاَّ من قضى الله أن يموت كافرا. والمراد في الآية الجنس أو الاستغراق، فتدخل اليهود ببرهان أنَّ الكافر ملعون أوَّلا وبالذات، بمعنى أنَّ الكلام سيق لهم، وهكذا وكذا كلَّما قلت أوَّلا وبالذات، أو المراد اليهود، وعليه فذكروا باسم الكفر لا بالضمير ذمًّا وتصريحا بموجب اللعن.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝٩٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٩١﴾

كفرهم بما أنزل الله وقتلهم الأنبياء

﴿**بِئْسَمَا اشْتَرَوْا**﴾ استبدلوا ﴿**بِهِ أَنْفُسَهُمْ**﴾ أو باعوها باختيار الكفر، أو اشتروا أنفسهم في زعمهم من العذاب بتصلُّبهم في دينهم جازمين، ولو عرفوا ما جاء ﷺ به، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ . ﴿**أَنْ يَكْفُرُوا**﴾ مخصوص بالذمِّ، أي هو كفرهم ﴿**بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ**﴾ من القرآن، والكفر ماض غير مستقبل، لكن قال: ﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾ لاستحضار الأمر الماضي بمنزلة

المستقبل المترقّب الوقوع، ليشاهد ويعاين.

(نحو) وإنَّما قلت ذلك لأنَّ المضارع المنصوب للاستقبال، وهذا أولى من أن يقال: المضارع هنا للحال، ليكون الأمر كالمشاهد، وأنَّه لم تخلّصه "أن" للاستقبال.

﴿بَغْيًا﴾ طلبًا لما ليس لهم، أي حسدًا أو ظلمًا، تعليل لـ«يكفروا»، أي أن يكفروا لأجل البغي، أو تعليل لاشتروا، ولو فصل لِقلّة الفاصل، أو ذوي بغي أو باغين، ووجه تعليقه بـ«اشتروا» أنَّ المعنى على ذمِّ الكفر الذي أوثر على الإيمان بغيًا، لا على ذمِّ الكفر المعلَّل بالبغي؛ وأيضًا إبدال أنفسهم بالكفر هو لمجرَّد العناد الذي هو نتيجة البغي والحسد، كأنَّه قيل: بئس استبدال أنفسهم بالكفر لأجل محض الحسد ﴿أَن يُنَزِّلَ اللهُ﴾ على أن ينزِّل الله الوحيَ، أو لأنْ ينزل، على أنَّه تعليلٌ لِـ«بغيًا». ﴿مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ حسدوا محمَّدًا على رسالته ﷺ، إذ كان من العرب ومن ولد إسماعيل لا منهم ولا من ولد يعقوب، أو نبيء من أنبيائهم. ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ﴾ هو هذا الكفر ﴿عَلَى غَضَبٍ﴾ استلحقوه من قبلُ لتضييع التوراة، والكفر بعيسى والإنجيل، وقولهم: عزير ابن الله، وقتلهم الأنبياء ونحو ذلك...

والمراد اجتماع غضبات عليهم، وتكرُّرها عليهم هكذا عمومًا. أو الأوَّل لعبادة العجل، أو قولهم عزير ابن الله، ويد الله مغلولة ونحو ذلك... والكفر بالإنجيل أو بعيسى، والثاني: الكفر بالقرآن أو به ﷺ. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ مثل الكافرين في الآيةِ قَبلُ. ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مذلٌّ، جُوزُوا بما حاولوا من أن يذلُّوا المسلمين بدعوى فضلهم عليهم، والمذلُّ الله، وأسند الإذلال إلى السبب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُۥ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ القرآن، أو القرآن والتوراة وغيرها من كتب الله ووحيه، وهذا إشارة إلى أنَّهم كفروا بالتوراة كلِّها إذْ كفروا ببعضها، وإلى أنَّهم كفروا بكتب الله ووحيه كلِّها إذ كفروا ببعض التوراة، فإنَّه من كفر بكتاب أو بعضه أو بنبيء فقد كفر بجميع الكتب والأنبياء. ﴿قَالُواْ: نُومِنُ﴾ نستمرُّ على الإيمان ﴿بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي كلِّفنا به في كتبنا، مع أنَّهم لم يؤمنوا بها إذ كفروا ببعضها.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أي سوى ما أنزل إلينا وهو التوراة، كقوله: «ليس وراء الله منتهى»؛ أو بمعنى بعده، والمراد على الوجهين: القرآن لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ﴾ أي ما وراءه ﴿الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ فإنَّ هذا في القرآن مستعمل للقرآن؛ ولا مانع من أن يراد بـ«ما وراءه» كتب الله، فإنَّها كلَّها حقٌّ مصدِّق للتوراة، لأنَّها كلَّها

أمر بالتوحيد وطاعة الله واتِّباع كتبه ورسله؛ ويقال: ما وراءه هو القرآن والإنجيل، كما أنَّ التوراة مصدِّقة أيضًا لغيرها من كتب الله.

ثمَّ إنَّه إمَّا أن يخصِّص ما أنزل الله بالتوراة والقرآن أو يعمَّم ـ وهو الحقُّ ـ لجميع ما سوى التوراة، وعلى كلِّ حال تناقَضَ كلامهم، لأنَّ كفرهم بما وراءه حال الإيمان بالتوراة يستلزم عدم الإيمان به، ووجه الحصر التقييد بالحال وهو «مصدِّقًا» فإنَّ غير القرآن والإنجيل ولو صدَّق ما عندهم لكن لم يذكر فيه تصديق ما عندهم باسمه، ولكن فيه أنَّ التصديق بالموافقة يكفي، ولعلَّ الحصر هنا غير مرادٍ، أو يراد حصر غيرِ ما شُهر، وهو معنى ﴿وهو الحقُّ﴾ لا غير الحقِّ.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمَّد، أو من يصلح للمناظرة ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ يقتل آباؤكم، ورضيتم بقتلهم وصوَّبتم، وتتعاطون مثل فعلهم لو وجدتم ﴿أَنبِيَآءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾ بالتوراة، ولقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء وغيرهم، وعن سائر الظلم؛ أو «إنْ» نافية، أي ما كنتم مؤمنين بما خالفتموهم، ويجوز أن يكون قولهم: ﴿نومِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ بمعنى: نؤمن به نحن وأسلافنا، أي نؤمن به كما آمن أسلافنا، فلمَّا ادَّعوا إيمانهم وإيمان أسلافهم توجَّه الاعتراض عليهم بأنَّكم وآباءَكم إن آمنتم بالتوراة فلم قتلوا الأنبياء؟ فيكون ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ تغليبًا.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

تكذيب ادّعائهم الإيمان بالتوراة

﴿**وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ**﴾: كفلق البحر، والمنِّ والسلوى، وتظليل الغمام، وإحياء القتيل، ورفع الطور فوقهم، وانفجار الماء من الحَجر، وهذا أولى من تفسير بعض العلماء الآيات بدلائل التوحيد، والعموم أولى.

وليس هذا وما بعده تكريرا لما تقدَّم، لأنَّه أمر أن يقوله لهم، فهو من جملة المحكي بقُل في قوله: ﴿قلْ: فلمَ تَقتُلونَ...﴾ مشيرا إلى أنَّ طريقتهم مع محمَّد طريقتهم مع موسى عليهما السلام، وأيضا سيقت لإبطال دعواهم في الإيمان بالتوراة، وللتلويح بأنَّ كفرهم بمحمَّد ليس بأعجب من كفرهم بموسى، وإن قلنا كرَّر ﴿**وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَى**﴾ لإبطال دعواهم الإيمان بالتوراة، أو لبيان أنَّ طريقتهم معه ﷺ طريقتهم مع موسى ﷺ جاز أن يقدَّر قائلين. أو قلنا خذوا...الخ على

أنَّ حذوه غير داخل في الحكاية بقُل.

﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾: عجل السامريِّ إلها تعبدونه، أو اتخذتم العجل بمعنى صوَّرتموه، ونصُّ التوراة: «لا تعملوا صوَراً»، فتصوير الرأس أو مع الجسد محرَّم، ولو لم يُعبد. والتوراة نزلت بعد اتِّخاذه بمدَّة قريبة. وثمَّ للاستبعاد، أو لأنَّهم فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر في الآيات، وذلك فعل لآبائهم خوطِبوا به، فجرى الخطاب على مقتضى أنَّهم فعلوه، لرضاهم عن آبائهم عن ذلك، وبهذا الاعتبار يصحُّ أن يراد بالبيِّنات التوراةَ، فلا يعترض بأنَّ اتِّخاذ العجل قبل التوراة.

﴿مِن بَعْدِهِ﴾: بعد ذهابه إلى الميقات، أو بعد مجيئه بالبيِّنات، كما قال: ﴿ولقد جآءَكم موسى بالبيِّنات﴾، وقيل الاتِّخاذ بعد رجوعه من الميقات وهو ضعيف. ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أنفسَكم باتِّخاذ العجل، وظالمون لمن يقتدي بكم، ولدين الله والزمان والمكان، ولِنعم الله، إذ وضعتموها في غير محلِّها وهكذا تستحضر بعد، أو أنتم عادتكم الظلم قبل الاتِّخاذ فينتج منكم الاتِّخاذ وغيره.

﴿وَإِذَ اَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ على التوراة درسا وتفهُّماً وعملا، والحال أنَّا رفعنا الطور كما قال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ يسقط

عليكم أن امتنعتم من قبولها، مقولا لكم أو قائلين لكم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَاكُمْ﴾ جعلناه آتيا إياكم ﴿بِقُوَّةٍ﴾ باجتهاد وترك الكسل والفتور، كما هو عادة المنافقين ﴿وَاسْمَعُواْ﴾ سماع إجابة، ﴿قَالُواْ: سَمِعْنَا﴾ قولَك بآذاننا ﴿وَعَصَيْنَا﴾ بقلوبنا وجوارحنا، لا نعتقد أمرك ولا تعمل به جوارحُنا، كلُّ ذلك باللسان، أو سمعنا بلسان القال وعصينا بلسان الحال، أو سمعنا قبلُ أحكاماً وعصينا.

﴿وَأُشْرِبُوا﴾ أشربهم الشيطان بالوسوسة، أو أشربهم الله بالخذلان، أو موسى إذ بَرَدَ بالمَبْرَد العجلَ وأسقاهم بُرادته، كما يأتي إن شاء الله، جعل مخالطاً كما يخالط الشرابُ أعماق البدن أو كما يدخل الصبغ الثوب، وهذا على أنَّه من الإشراب بمعنى دخول لونٍ على لونٍ. ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ حبّ العجل، ورسخ كما رسخ الماء في محلّه من العطشان، أو الصبغ في الثوب. قيل ولك أن لا تقدِّر «حبَّ» بأن رسخت صورته وشغفوا بها، وفيه بُعدٌ إذ لا بدَّ من حكم يعرض على ذات، فيقدَّر شغف أو حبّ، ووجهه المبالغة بأنَّه كأنَّه نفسه مشروب، وبأنَّه مثل قولك: فلان يأكل في جميع بطنه، إذا بالغ في الأكل.

وذكرُ القلوبِ مع أنَّ الحبَّ لا يكون إلاَّ فيها، ليجمع بين مزيد التقرير والتأكيد، وبيان أنَّ المشرَب الحبُّ إذ لم يُذكر،

ولفائدة البيان بعد الإجمال أو بعد الإبهام، فإنَّ محلّ الشرب في المعتاد البطن، واختار الإشراب لأنَّ الماء أبلغ مساغا في البدن ومطية الأغذية والأدوية. وقيل برَدَه موسى بالمَبرد وألقاه في الماء وأمرهم بشربه، فمن أحبَّه خرجت بُرادته إلى شفتيه، **وهو قولٌ باردٌ**، ويردُّه ذكر القلوب أو يضعِّفه. وقيل ربط إلى قلوبهم كما يشرب البعير، بمعنى شدَّ في عنقه حبلٌ يمسك به.

﴿**بِكُفْرِهِمْ**﴾ بسبب كفرهم السابق على اتِّخاذ العجل، كفرَ شركٍ، وهم مجسِّمة يجيزون ألوهية الأجسام، أو حلوليةٌ يجيزون حلول اللهِ أو الألوهية منه في الأجسام - زادهم الله عذابا في الدنيا والآخرة - ﴿**قُلْ بِيسَمَا يَامُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمُ**﴾ بالتوراة والمخصوص بالذمّ عبادة العجل. تهكّم عليهم بأنَّ إيمانهم بالتوراة أمرَهم بعبادة العجل، فذلك نفي للإيمان بها، لأنَّ الإيمان يورث العلم والحكمة والفهم والإيمانَ بمحمَّد ﷺ، لا عبادةَ غير الله ولاسيما أبلد الحيوان وهو البقر ولاسيما صغيره، أو المخصوص قتل الأنبياء ونحوه، أو قولكم ﴿عصينا﴾ أو كلُّ ذلك، **وما ذكرتُه أوّلاً أولى**. ﴿**إِنْ كُنتُمْ مُّومِنِينَ**﴾ بها، متّصلٌ بما قبله، أو إن كنتم مؤمنين فاعملوا بما فيها، أو فلا تقتلوا الأنبياء ولا تكذّبوا الرسلَ ولا تكتموا الحقَّ، أو ما كنتم مؤمنين إذ خالفتموهم إنكارا أو فسقا، فإنْ نافية.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

حرص اليهود على الحياة

﴿قُلِ اِن كانَتْ لَكـمُ الـدَّارُ الاَخِـرَةَ﴾: الجنّة نفسها أو نعيمها، وليست الدار الآخرة انقضاء الدنيا، بل انقضاؤها اليومُ الآخر، والنار أيضا دار آخرة، والعهد والسياق ينفيان إرادتها ﴿عِنـدَ ا للهِ﴾ في حكمه، أو عندية ﴿خَالِصةً﴾ لم يشبها النقص بثبوت بعضها لغيركم، بمعنى صافية حقيقة، أو خاصة بكم مجازا ﴿منْ دُونِ النَّاسِ﴾ كما قلتم: ﴿لن يَّدخلَ الجنّة إلاّ من كانَ هوداً اَوْ نصَارى﴾ (سورة البقرة: ١١١)، و﴿نحنُ أبناَءُ ا للهِ وأحبَّاؤُه﴾(سورة المائدة: ١٨)، و﴿لن تمسَّنا النار إلاّ أيّاماً معدودةً﴾ (سورة البقرة: ٨٠) إلخ. ولم يخلق ا لله الجنّة إلاّ لإسرائيل وبنيه.

ثمَّ إمَّا أن يريدوا بالنّاس سائرهم بعد الخاصَّة، فيستثنون إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونحوهم، ومن دعواهم الباطلة أنَّ هؤلاء يهوديُّون؛

ويستثنون أيضا آدم ونوحا ونحوهما ومن مات قبل اليهودية، وإما أن يعملوا ولا يستثنوا هؤلاء ولا غيرهم، لأنَّ من شأنهم إنكار ما عرفوا من الحقِّ واعتقدوه، كما أنكروا رسولَ الله ﷺ وعيسى، والقرآنَ والإنجيل، وكثيرا من التوراة، مع معرفتهم بهم، وكما قالوا: ﴿مآ أنزلَ اللهُ على بشرٍ مِّن شيءٍ﴾ (سورة الأنعام: ٩١)، وإمَّا أن يريدوا النبيء ﷺ والمسلمينَ من أمَّته.

﴿**فَتَمَنَّوُا الموتَ إِنْ كنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ في دعوى اختصاص الجنَّة بكم، فإنَّ من أيقن بذلك يحبُّ الإفضاءَ إليها من دار البؤس والأكدار.

والمسلمون ولو لم يتمنّوا الموت لكنّهم لا يخصّصون أنفسهم بها، بل يقولون: هي لكلِّ مؤمن من الأمم، والأمر بالتمنّي مسبّب عن دعواهم وذلك نقيض التالي، هكذا لو اختصصتم بها لتمنّيتم الموتَ لكنّكم لا تتمنّونه فليس مختصّة بكم، وتمنّي ما يختصُّ بك أعظم من تمنّي ما شورِكتَ فيه، وقد تمنّاه من صدق في دعواه كقول عمّار: «غدا نلقى الأحبَّة محمَّدا وأصحابه»، وحذيفة إذ قال: «مرحبا بحبيب جاء على فاقة»، وقوله ﷺ في قتلى بئر معونة: «**يا ليتني غودرت معهم في لحف الجبل**»[1]، وعبد الله بن رواحة:

---

١ - أورده الألوسي في تفسيره و لم نقف على تخريجه.

«يا حبّذا الجنّة واقترابَها طيّبةً وباردٌ شرابُها
والرومُ رومٌ قد دنا عذابُها»

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أبداً بِمَا قَدَّمَتَ اَيْدِيهِمْ﴾ من تحريف التوراة وسائر معاصيهم، والكفرِ بمحمَّد ﷺ والقرآنِ، لِعلمهم أنَّه على الحقِّ فتخوَّفوا من عقاب الآخرة على إنكاره، ومَن لم يعتقد منهم نبوءته فما قدَّمت يده عنده هو غير إنكاره ﷺ **﴿وا لله عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾** الجاحِدين، والآية إخبار بالغيب إذ لم يقدروا أن يتمنَّوا، ودلالة على نبوءته ﷺ، وأنَّهم لو لم يوقنوا لتمنَّواْ، ولاسيما إذا قلنا: التمنّي هنا التلفُّظ، فلم يقدروا أن يتلفَّظوا بالتمنّي، ولو مع خلوٍّ قلوبهم منه، ولو وقعَ لنُقِل، ولو تمنَّوا لماتوا في موضعهم بالريق، كما روي عن ابن عبَّاس موقوفا، وروي عنه مرفوعا، وفي رواية عنه مرفوعا: «**لو أنَّ اليهود تمنَّوا الموت لماتوا**»(١)، وعنه موقوفا: «**ما بقي على وجه الأرض يهوديٌّ إلاَّ مات**».

﴿وَلَتَجِدَنَّهُم﴾ الخطاب لرسول ا لله ﷺ أو لمن يصلح، وكذا في جميع القرآن بحسب الإمكان، والأوَّل أولى، والهاء لليهود المخاطبين، ويلتحق بهم اليهود الباقون؛ وقيل: للجنس. **﴿أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى**

---

١ - ذكره الألوسي في تفسيره، ونسبه إلى البخاري. انظر ج١، ص٣٢٨.
وأورده ابن كثير نقلا عن ابن جرير الطبري، ج١، ص٢٢٢.

حياةٍ﴾ نوع من الحياة، وهي المتطاولة لقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُم لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، والآية تدلُّ على أنَّ لغيرهم أيضًا حرصًا على الحياة الطويلة إلاَّ أنَّهم أحرص، لأنَّ أحرص اسم تفضيل، فإنَّ الحرص على الحياة في طباع المؤمن وغيره، وفي الحديث القدسي: «**إنَّ المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته**»، وإنَّه قد يحرص المؤمن على الحياة ليكثر العبادة، إلاَّ أنَّه ليس ذلك منه مذموماً، وقد يحمل الحديث عليه.

﴿وَمِنَ الذِينَ أَشْرَكُواْ﴾: المجوس وعبدة الأصنام من العرب، وكانت المجوس يقولون للعاطس: «عش ألف سنة»، عطف على المعنى، ويقال في غير القرآن عطف توهُّمٍ، لأنَّ معنى أحرص الناس من الناس، أي من سائرهم، أو يقدَّر أحرص من الذين أشركوا، أو يقدَّر ومن الذين أشركوا أناس يودُّ أحدهم، وعلى الوجهين الأوَّلين يكون يودُّ...إلخ مستأنفا، أو حالاً من «الذين»، أو "واوِ" أشركوا أو من الهاء، وذكرُهم مع دخولهم في الناس زيادة في التوبيخ لهم بأنَّهم مع إقرارهم بالبعث والحساب أشدّ حرصا ممَّن يعبد الصنم وينكر البعث.

وبيَّن حرص اليهود بقوله: **﴿يَوَدُّ أَحَدُهُم﴾** أي أحد اليهود ليس المراد واحدا خاصًّا، ولكن التمثيل بالواحد كأنَّه معيَّنٌ مخصوص مشاهد **﴿لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾** أي يودُّ تعميره ألف سنة، والنصب على الظرفية، أو لو حرف تمنٍّ محكيًّا مع ما بعده بـ«يَودُّ» لتضمين

معنى القول، أو لـوْ شـرطية جوابهـا لسـرَّه ذلـك، والألـف هـي تمثيـل للكثرة لا خصوص هذا العـدد، وبيَّـن حرصَهـم بقولـه: ﴿ومـن الذيـن أشـركوا...﴾ إلخ، علـى أن يـراد بـالذين أشـركوا اليهـود تصريحـا بشركهم، وجاء الظـاهر في موضـع الضمـير لذلـك على معنـى: ومـن المشركين ناس يودُّ...إلخ، فيودُّ...إلخ نعت لمبتدأ محذوف على هذا.

﴿**وَمَا هُوَ**﴾ أي أحدهم ﴿**بِمُزَحْزِحِهِ**﴾ مبعده خبر ما، والباء صلة، أصله زحَّحَ فيها، أبدلت الحاء المدغمة من جنس الفاء بوزن فعَّل بشـدِّ العين، وقيل كرِّرت الفاء فوزنه "فعفل". ﴿**مِنَ**﴾ أي: عن ﴿**الْعَذَابِ**﴾ بالنار وغيرها، من حين يمـوت إلى مـا لا ينتهـي ﴿**أَنْ يُـعَمَّرَ**﴾ تعميره ألف سنة فاعل مزحزح كقولك: ما زيـد قائمـاً أبـوه ﴿**وا للهُ بَصِيرٌ**﴾ عليم ﴿**بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾ كلّه، يعذّبهم على كلِّ صغير وكبير.

(سبب النزول) قال عبد ا لله بن صوريا ــ حَبر مـن اليهـود ــ للنبيء ﷺ: «أيّ ملَـكٍ يـأتيك مـن السـماء؟» قـال: «**جبريل**»، قال: «هو عدوُّنا، ينزل بالعذاب والشدَّة والخسف، عادانـا مرارا، لو كان ميكائيل لآمنَّا بك». وقيـل سـأل عبـد ا لله بـن صوريـا عمرَ: «من يأتي محمّداً من السـماء؟» فقـال: «جـبريل»، فقـال: «هـو عدوُّنا...» إلخ.

وقيل كـان لعمـر أرض بـأعلى المدينـة، ويمـرُّ علـى اليهـود في

مدارسهم، ويجلس إليهم، ويسألهم، ويسمع كلامهم، فقالوا: «ما في أصحاب محمَّد أحبُّ إلينا منك، وإنَّا نطمع فيك» فقال: «والله ما آتيكم لحبِّكم، ولا لأنّي شاكٌّ في ديني، بل لأزداد بصيرة في أمر محمَّد ﷺ وأرى أثره في كتابكم». فقالوا: «من يأتيه من السماء؟» قال: «جبريل» قالوا: «هو عدوُّنا، يُطلع محمَّداً على سرِّنا، وهو صاحب عذاب وخسف وشدَّة؛ وإنَّ ميكائيل يأتي بالخصب والسلامة، ولو كان يأتيه هو لآمنَّا، وإنَّ محمَّداً رسول الله، وإنَّ بين جبريل وميكائيل عداوة» وقال عمر: «أشهد أنَّهما سِلمٌ، ومع الله سِلمٌ، ومن عادى جبريل فهو حربٌ لله، ولميكائيل، ولأنتم أكفر من الحمير» ـ أي أجهل ـ. وقيل: سألهم عمر عن جبريل فقالوا: «يأتي بالشرِّ، ولو كان يأتي محمَّداً ميكائيل لآمنَّا به».

وعن عبد الله بن صوريا: «عادانا مرارا أشدُّها أنَّ نبيئنا بعث من يقتل بخت نصر، وهو طفل، لأنَّه يخرب بيت المقدس، فردَّه، فقال: إن قضى الله تعالى خرابه لم تقتلوه، وإلاَّ فلمَ تقتلونه؟ فرجع فكَبُر بخت نصر فخربه».

وعلى كلِّ حالٍ نزل في ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ

﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَـٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ۝٩٨﴾

موقف اليهود من جبريل والملائكة والرسل

﴿**قُلْ**﴾ لهم ﴿**مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبرِيلَ**﴾ إلخ. وجبريل علم عجميٌّ، وزعم بعض أنَّه علم عربيٌّ مركَّب من جبروت الله، وفيه أنَّه لو كان كذلك لورد فيه وجهان آخران: البناء، وإضافة الجزء الأوَّل للثاني، كنظائره، قال ﷺ لعمر رضي الله عنه - وقد سبقه الوحي -: «**لقد وافقكَ ربُّك يا عمر**» قال عمر: «لقد كنت بعد ذلك أصلب من الحديد». والمعنى من كان عدوًّا لجبريل لمجيئه بالعذاب والقرآن الفاضح لهم، فهو عدوٌّ لله، لأنَّه هو الذي أرسله؛ أو فلْيَمُت غيظاً؛ أو فلا وجه لعداوته؛ أو فلِعداوته وجه هو أنَّه نزَّله على قلبك، كقولك: «إن عاداك فقد آذيته أمس» وناب عن الجواب علَّته، وهو قوله: ﴿**فَإِنَّه**﴾ أي جبريل، أو الشأن، أو الله لأنَّه ﴿**نَزَّلَهُ**﴾ أي القرآنَ المستتر في نزل لجبريل، أو لله عزَّ وجلَّ ﴿**عَلَى قَلبِكَ**﴾ مقتضى الظاهر على قلبي لقوله: ﴿قل﴾، لكن قال: ﴿على قلبكَ﴾، لأنَّ المعنى: قل ذلك لأنَّه نزل على قلبك، وقيل التقدير: قال الله من كان...إلخ، ولم يقل: عليَّ، أو عليك تصريحا بالقلب الذي هو محلُّ النزول، وبيت لوحي الله والفهم والحفظ.

(نحو) ولا يجوز أن يكون: ﴿فإنَّه...﴾ إلخ تعليل

لما قبله، ويقدَّر الجواب فليمت غيظا، أو فا لله عـدوُّه، لأنَّ فـاء التعليـل عاطفة على جملة، ولا يصحُّ العطف على ﴿من كـان عـدوًّا لجـبريل﴾، ولو صحَّ معنى قولك: «لأنَّه نزَّله...» إلخ.

﴿بِإِذْنِ ا للهِ﴾ بأمره في صـورة القـول وتيسـيره في صـورة الفعـل، وأصل الإذن الإباحة، والعلاقة اللزوم ﴿مُصَدِّقاً﴾ حـال مـن هـاء نزَّلـه العائدة إلى القرآن، أو من ضمير نزَّل ﴿لِّمَا بينَ يَدَيْهِ﴾ مـن كتـب ا لله التوراة وغيرها، والموجود هو بين اليدين، وأمَّا ما سيوجد فهـو مفقـود لا يصحُّ أنَّه موجود بين اليدين، ويصحّ بمعنى أنَّه مستقبل ﴿وَهُـدًى﴾ من الوقوف لعدم العلم، ومن العمل بغير علم، وهذا في غير هـذا المحلّ ﴿وَبُشْـرَى﴾ بالجنَّـة، ذا هـدى وتبشـيرا، وهاديـا ومبشِّـراً، أو مبالغة. ﴿لِلمُومِنينَ﴾.

﴿مَـنْ كَـانَ عـدُوًّا للهِ﴾ بـأن قـال: إنِّـي عـدوٌّ لـه، أو بمخالفتـه ﴿وملائِكتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَميكَآئِلَ﴾ خصَّهما بالذكر، لأنَّ الكـلام في عدواتهم جبريل ومصادقتهم لميكائيل، فصرّح لهم بأنَّ ميكـائيل قـد عادوه أيضا، لمخالفتهم جبريل وما نزل بـه مـن الوحـي، ولأنَّ جـبريل يجيء بالوحي الذي هو حياة للقلوب، وميكـائيل يجـيء بـالأرزاق الـتي هي حياة الأبدان، ولأنَّـهم قالوا بين جبريل وميكـائيل عـداوة. وروايـة أنَّ عمر رضي ا لله نطق بهذه الآية قبل نزولها ضعيفة. وجـبريل أفضـل

الملائكة لأنَّه رسول الله إلى الأنبياء بالكتب والدين، ولأنَّه ينصر رسول الله ﷺ وأمَّته ويحبُّهم، ولقوله ﷺ: «**جبريل أفضل الملائكة**»[1]. ﴿**فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ**﴾ أي لليهود، لكفرهم، ولهذا لم يقل عدوٌّ لهم.

وهكذا أمثاله في سائر القرآن ولو لم أنبِّه عليه من وضع الظاهر موضع المضمر، لأنَّ تعليق الحكم بالمشتقِّ يؤذن بكونه علَّة للحكم، والآية دلَّت أنَّه من عادى ملَكا كجبريل فقد عادى الآخَرين أيضا، كميكائيل.

وقد جمع الملائكة جميعا والرسل ليفيد أنَّ من عادى واحدا من جمع الملائكة فقد عادى الآخر، ومن عادى واحدا من الأنبياء كمحمَّد ﷺ فقد عادى الأنبياء كلَّهم عليهم السلام؛ وأمَّا ما روي أنَّ عبد الله بن سلاَّم قال: «أسألك عن ثلاثة لا يعلمهنَّ إلاَّ نبيءٌ: أوَّل أشراط الساعة، وأوَّل طعام يأكله أهل الجنَّة، وما ينزع الولد لأبيه أو أمِّه» فقال: «أتاني بهنَّ جبريل آنفا» فقال: «هو عدوُّ اليهود» فقد أنزلت قبله، ولكن قرأها عليه[2].

---

[1] - ذكره الألوسي رواية عن الطبراني، بسند ضعيف، عن ابن عبَّاس.

[2] - رواه البخاري في كتاب الأنبياء ٢، قول الله تعالى: ﴿وإذ قالَ ربّك للملائكة إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفةً﴾، رقم ٣١٥١.

ورواه أحمد في مسنده، ج٤، ص٢١٧، رقم ١٢٠٥٧، في حديث طويل عن أنس.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

كفرهم بالقرآن ونقضهم العهود

﴿وَلَقَدَ انزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَاتِم بيِّناتٍ﴾ يا محمّد، القرآن المعجز والمعجزات الأخرى، وذلك ردٌّ على قول ابن صوريا: «ما جئتنا بشيء يصدقك في دعوى النبوءة» فإنَّ معنى بيِّنات واضحات المعنى والدلالة على نبوءته التي يدَّعيها ﴿وَمَا يَكفُرُ بِهَآ إِلاَّ الفَاسِقُونَ﴾ إلاَّ اليهود لفسقهم، أو جنس الفاسقين، فدخلت اليهود ببرهان الفنسق.

وقال مالك بن الصيفي: «والله ما عهد إلينا في محمَّد عهد في التوراة» فنزل ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ أكفروا؟ وكلَّما ﴿عَاهَدُواْ﴾ لله ﴿عَهداً﴾ على أن يؤمنوا بالنبيء ﷺ إن بعث، أو عاهدوا النبيء ﷺ أن لا يعينوا عليه المشركين، وقد قيل: نزلت في قول اليهود: «لإن خرج لنومننَّ

=

جاعلٌ في الأرض خليفة﴾، رقم ٣١٥١.

ورواه أحمد في مسنده، ج٤، ص٢١٧، رقم ١٢٠٥٧، في حديث طويل عن أنس.

به، ولنقاتلنَّ معه العرب المشركين» ولـمَّا بُعث كفروا به؛ وقيل في قريظة والنضير نقضوا عهودا له. ﴿نَّبَذَهُ﴾ طرحه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ بنقضه، وهذا الفريق هو الأكثر، والفريق الآخر لم ينقضوا، ولكن لم يؤمنوا ﴿بَلَ اَكْثَرُهُمْ لاَ يُومِنُونَ﴾ أي كلُّهم لا يؤمنون مَن نَقض ومَن لم ينقض، فاستعمل الأكثر بمعنى الكلّ لقلّة من آمن، كاستعمال القلّة بمعنى النفي، أو أراد بالأكثر ظاهره، وأنَّ الفريق الآخر القليل لم ينقضوا وهم آمنوا، وهم عبد الله بن سلاّم وأهله، والذي قال: «ما ننتظر، والله لقد علمتم أنَّ محمدًا هو رسول الله فأعينوه»، فقالوا: «لا ننقض السبت»، فخرج وقال: لا سبت لكم، فقاتل يوم السبت. أو أراد أنَّ الأكثر نقضوا جهرا، والأقلّ خفاء.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾ عيسى عليه السلام ﴿مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُم﴾ من التوراة بالإنجيل ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ﴾ التوراة ﴿كِتَابَ اللهِ﴾ الإنجيل، وهذا لأسلافهم عوتبوا به لأنَّهم على ملّتهم إذ جاءهم محمَّد بالقرآن مصدِّقا للتوراة فنبذه فريق منهم، وهم الأكثر، أو الرسول سيّدنا محمَّد ﷺ وكتابَ اللهِ القرآن، أو كتابَ الله الذي نبذوه هو التوراة، نبذوها بإنكار القرآن، أو الإنجيل نبذهما الذين على عهده ﷺ، وليس المراد الذين على عهد سليمان كما قال بعضٌ محتجًّا بقوله تعالى بعد ذلك ﴿واتَّبعوا ما تَتْلوا...﴾ إلخ، لأنَّ النبذ عند مجيء رسول الله ﷺ لا يتصوَّر منهم.

وقال السدِّي: «لـمَّا جاءهم محمَّد عـارضوه بـالتوراة، فـاتَّفقت التـوراة والقرآن، فنبذوا التوراة لموافقة القرآن لها»، وأخذوا بكتاب "آصف" وسحر "هاروت وماروت" فلـم يوافق القـرآن، فهـذا قولـه تعـالى: ﴿ولَمَّا جـآءهم رسول...﴾ إلخ ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ لم يعتنوا به إذ لم يعملوا بما فيه من الفرائض، والإيمان برسول الله ﷺ، ولم ينتهوا عمَّا نهوا فيه كالشيء الحقير الملقى وراء الظهر لجـامع عـدم المبـالاة، فلـم ينفعهـم أن أدرجـوه في الحريـر وحلُّوه بالفضَّـة والذهـب الإبريـز، وقـد سمَّـاه الله كتـاب الله تعظيمـاً لـه، وتهويلاً لِما اجترأوا عليه، من نبذه وراء الظهر ﴿**كأنَّـهم لا يعلمـونَ**﴾ أنَّ التوراة كتاب الله، وأنَّ فيها نبوءة محمَّد ﷺ.

وهم خمس فرق:

فرقة آمنوا بها وقاموا بحقِّها، وعملوا بما لم ينسخه الإنجيـل منهـا، كعبد الله بن سلاَّم، وهـم الأقلُّون المفهومـون مفهـوم مخالفـة مـن قولـه ﴿أكثرهم﴾، كأنَّـه صرَّح بهم إذ فُهموا بالقيد.

وفرقة نبذوها جهرا، وهم المذكورون بقوله: ﴿نَبَذَهُ فريـقٌ﴾ وهـم عـالمون بأنَّـها حقٌّ.

وفرقة نبذوها في خفاء جهلا بأنَّـها حقٌّ، وهـم الأكـثرون في قولـه تعالى: ﴿بل أكثرُهم لا يومنُون﴾.

وفرقة علموا أنَّـها حقٌّ، وتمسَّكوا بها ظاهرا، ونبذوها خفيـة عنـادا أوتجاهلا، وهم في قوله ﴿**كَأَنَّـهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾.

وفرقة علموا أنَّها حق ولا يتمسكون بها ظاهرا.

وهـذه قسـمة متعيِّنـة صحَّـت بالعنايـة المقصـودة في التقسـيم، فـلا يضرُّنا جواز دخول الخامسة فيما قبلها، والعـدد مـن حكـم المجمـوع المتوزِّع في الآيات، مع أنَّ الظمائر فيها لليهود مطلقا.

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) ﴾

اشتغال اليهود بالسحر والشعوذة والطلاسم

﴿وَاتَّبَعُواْ﴾ معطوف على قوله: ﴿ولـمَّا جآءَهُمْ...﴾ إلخ عطفَ قصَّة على أخرى ﴿مَا﴾ أي السحر وما تأخذ الكهنـة عـن الشـياطين، وما تضمُّ إليه من الأكاذيب. ﴿تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ﴾ تـتَّبع، أو تقرأ علـى الناس، أي ما تلت، ولكن نزَّل الحال الماضيـة منزلـة الحـاضرة، كأنَّــها تشاهد، فليس مـمَّا يترتَّب على «نبذ» الذي هـو جـواب لـ«مـا»، إلاَّ

على ما مرَّ من أنَّ القرآن وافق التوراة فنبذوها، وأخذوا بكتاب "آصف"، وسحر "هاروت وماروت"، فلم يوافق القرآن، فهذا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ...﴾ الآية.

﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ في عهد ملكه أي زمانه، أو «على» بظاهرها فيتضمَّن تتلو معنى تتقوَّل أي تكذب.

(سبب النزول) قالت اليهود: انظروا إلى محمَّد يخلط الحقَّ بالباطل، يذكر سليمان في الأنبياء، إنَّما كان ساحرًا يركب الريح، وكانوا لا يسألونه عن شيء إلاَّ أنزل عليه، فقالوا: محمَّد أعلم بما أنزل إلينا منَّا، فسألوه عن السحر فنزل: ﴿واتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا...﴾ الآية.

وقيل: ملك سليمان كرسيُّه. ﴿وَمَا كَفَرَ﴾ أشرك ﴿سُلَيْمَانُ﴾ فإنَّ السحر الذي تتلوه الشياطين تضمن إشراكًا، كدعوى أنَّ الساحر خَلق كذا، أو حوَّل الشيخ شابًّا، أو الإنسان حمارًا، أو الطبيعة علَّة تغني عن الله، وكدعوى أنَّ السحر حلال، وما لم يكن فيه شرك ففسق، فلا مانع من أنَّ الكفر شامل لذلك كلِّه، وهذا كما عند هذه الأمَّة، ويحتمل أنَّه عند من قبلنا شرك مطلقًا، وما فعل سليمان ذلك وما علَّمه ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ﴾ إذ فعلوه وعلَّموه الناس، كما فسَّر الكفر بقوله: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ والمراد بالشياطين في الموضعين متمرِّدو الجنِّ، أو المعنى الموجود في الحقيقة وهي متمرِّدو

الجنِّ وفي المجاز وهو هنا متمرِّدو الإنس، وذلك المعنى هو مطلق التمرُّد، وذلك عموم المجاز؛ وقيل: شياطين الإنس.

(فقه) وتعلُّم السحر للعمل به أو لتعليمه أو للرياء به حرام، وللحذر منه أو لتعليمه من لا يعصى به فمباح، أو لغيره فمكروه، أو مباح أو حرام أقوال. وعن أحمد إنَّ السحر شرك ولو لم يعتقد حلَّه، ولا تضمَّنَ خصلة شرك.

(قصص) دَفَنَ سليمان عليه السلام كُتُب السحر وما يلقيه مسترقو السمع من الملائكة إلى الكهنة من صدق وكذب في صندوق تحت كرسيِّه، وقد شاع في الناس أنَّ الشياطين تعلم الغيب، وقال من قال ذلك قتلته، ولـمَّا مات قال شيطان في صورة إنسان لنفر من بني إسرائيل: احفروا تحت الكرسيِّ تستخرجوا منه ما لا يفنى، وأراهم المكان فقالوا: ادنُ، فقال: مِنْ هُنَا، وإن لم تجدوا فاقتلوني، وكان لا يدنو منه شيطان إلاَّ احترق فأخرجوها[١]، وقال لهم: إنَّ سليمان ضبط الثقلين والطير بها؛ وفشا في الناس أنَّه ساحر، ورفضوا كتب الله، إلاَّ العلماء والصالحين علموا أنَّ ذلك ليس من علمه بل نبيء يعمل بتأييد الله، ومازال قول السوء عليه حتَّى بعث رسول الله ﷺ فأنزل عليه براءته

١ - نقل القصَّة ابن كثير عن الحاكم في مستدركه عن السدِّي.

من السحر.

وقيل: دفنها "صخر" تحت الكرسيِّ، حين قبض الخاتم من زوجه الأمينة، وكان يضعه عندها بجنابته أو حاجة الإنسان، وقال: اعطني الخاتم، فأعطته ظنَّته سليمان، فلبسه وقعد على الكرسيِّ، وأذعن له الخلق، وجاء سليمان يطلبه منها فقالت: ما أنت هو، قد أخذه سليمان، وطار بعد أربعين يومًا، وألقاه في البحر على طريقه، فبلعته سمكة فوقعت في يد سليمان فأخذه منها؛ ولمَّا مات استخرجوها من تحت الكرسيِّ على ما مرَّ؛ ولا مانع من ذلك. وأمَّا ما يقال أنَّه كان صخر يدخل على زوج سليمان فيطأها فمنكر لا يصحُّ!! لأنَّ أزواج الأنبياء محفوظة عن ذلك، ولو كنَّ مشركات. وأمر الجنَّ فأحضروه فحبسه في صخرة فسدَّ عليه بالرصاص والحديد في قعر البحر[١].

﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ عطف على ما تتلو، أو على السحر، كأنَّه قيل: ويعلِّمونهم ما أنزل ﴿عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ من ملائكة الله، أو رجلين كالملَكين في الصلاح.

والإنزال على ظاهره، أو بمعنى الإلهام؛ وما أنزل عليهما نوع من السحر قويٌّ، بل نوع غير السحر كما يدلُّ عليه العطف، وعلى أنَّه

١ - ذكر القصَّة ابن كثير عن الطبري عن الأعمش عن النهال عن سعيد بن جبير عن ابن عبَّاس.

من السحر فالعطف لتنزيله بالقوَّة منزلة تغاير الذات. ﴿بِبَابِلَ﴾ في بابل، بلد في سواد الكوفة؛ وعن ابن مسعود: هو أرض الكوفة؛ وقيل: من نصيبين إلى رأس العين، سمِّيت لتبلبل ألسنة الناس عند وقوع صرح نمروذَا، ولأنَّ الله حشر الناس بالريح لهذه الأرض، فلم يدر أحدٌ ما يقول الآخر، ثمَّ فرَّقتهم الريح في البلاد كلٌّ بلغته، فالبلبلة تفرُّقُهم عن بابل، أو تغاير الألسنة فيها، والتغاير تفرُّق، ونزل نوح بلدة «بنوها» قرية بثمانين إنسانًا سمِّيت بهم، فأصبحوا يومًا وقد تبدَّلت ألسنتهم على ثمانين لغة، فقيل: سمِّيت بهذه الثمانين لغة. ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ لفظان أعجميَّان، وقيل: عربيَّان من الهرت والمرت بمعنى الكسر، ويردُّه منع الصرف، واسمهما عزا وعزايا فلمَّا أذنبا سمِّيا باسم الكسر.

أباح الله لهما ملكين أو بشرين تعليم السحر ابتلاء من الله عزَّ وجلَّ للناس هل يتعلَّمونه وهل يعملون به؟ كما أنَّ الله خلق المعصية ونهى عنها، وخلق المحرَّمات كالخنزير ونهى عن تناولها، وكما ابتلي قوم طالوت بالشرب من النهر، أو لتمييز السحر من المعجزة، إذ كثر في ذلك الزمان مع ادِّعاء النبوءة به.

(قصص) وأمَّا ما روي أنَّهما ملكان من أعبد الملائكة، تعجَّبت الملائكة من كثرة ذنوب الناس وعظمها، فقال الله: لو ركبت فيكم ما ركبت فيهم من الشهاوي لعصيتم مثلهم، فقالوا:

سبحانك ما كان ينبغي لنا ذلك، فقال: اختاروا من هو أعبدكم، فاختاروهما، فركّبها فيهما، وأمرهما بالقضاء بين الناس، ويصعدَان مساءً، فاختصمت إليهما امرأة من لخم أو فارسيَّة ملكة مع زوجها، فراوداها فشرطت أن يقضيا لها عليه، فقضيا لها، ثمَّ أن يقتلاه فقتلاه، وأن يشربَا خمرًا ويسجدا للصنم ففعلا، وأن تعلّماني الاسم الذي تصعدان به، فعلّماها، فصعدت فمسخت زهرة، فلم يقدرا على الطلوع، فالتجآ إلى إدريس في عصرهما، فشفع لهما أن يختارا عذاب الدنيا أو الآخرة، فاختاراه لأنَّه ينقطع، وعلّقا بشعورهما أو منكوسين، يضربان بسياط الحديد إلى قيام الساعة، **فبعيدٌ**، ولو أنَّه ممكن.

(فقه) ولا يحكم بالكفر على قائله، لأنَّه لم يثبت لهما تلك المعاصي مطلقًا، بل قال: ركَّب الله فيهما ما ركَّب في البشر من الشهوة، وذلك من حين أنزلا، وليس متأخِّرًا إلى وقت القضاء بين المرأة وزوجها، فلا يعارض بعصمة الملائكة، لأنَّ الله أخرجهما من شأنهما إلى شأن البشر.

وقول الملائكة سبحانك ما كان ينبغي لنا تعظيم لله، لا ردٌّ لقوله: لو ركّبت فيكم الشهوة لعصيتم، وهما ملكان ولو ركّب فيهما ذلك فلا ينافي تسميتهما ملكين في الآية، وإن سلّم ذلك فهما ملكان قبل، فهو مجاز بلا ضعف، والشاهد الأحاديث، والكلام في العصمة مع البقاء على شأنها بلا إخراج، وأمَّا مع الإخراج عن شأنها فلله أن

يخرج من يشاء من أهلها إلى غيره فلا يكون معصومًا. وأمَّا الزهرة فالظاهر أنَّها قبل ذلك لكن بلا نصٍّ على قبليتها، فجاءت هذه الرواية بحدوثها بنسخ المرأة إليها.

وقد روي أنَّ امرأة دخلت على عائشة رضي الله عنها تطلب التوبة من تعلُّم السحر منهما، وأنَّ رجلا من هذه الأمَّة أتاهما ليتعلَّم فوجدهما معلَّقين بأرجلهما، مزرقة أعينهما، مسودَّة جلودهما، بين ألسنتهما وبين الماء أربعة أصابع يعذَّبان بالعطش.

وقد أثبت قصَّتهما الشيخ يوسف بن إبراهيم الوارجلاني(1)، ورواها مرفوعة عن أحمد وابن حبَّان والبيهقي، وموقوفة عن عليٍّ وابن مسعود وابن عبَّاس، وصحَّح السيوطي الرواية.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنَ اَحَدٍ حَتَّى يَقُولآَ﴾ له مرَّة، وهو الثابت، وقيل: ثلاثًا، وقيل: سبعًا، وقيل: تسعًا ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء من الله

---

١ - أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني (ت: ٤٧٠هـ): ولد بمدينة وارجلان جنوب شرق الجزائر، وإليها ينسب، تفقَّه بها على منهج الإباضية، ثمَّ ارتحل إلى الأندلس، فأقام في قرطبة زمن الموحّدين، ثمّ استقرّ في بلده للتعليم والتأليف؛ وله عدَّة مؤلفات منها: الدليل والبرهان (ط.حجرية)، العدل والإنصاف...

وقد حُقّق العدل والإنصاف في دراسة أكاديمية بتونس، وأعدّ الباحث باجو مصطفى رسالة ماجستير في أصول الفقه عند الوارجلاني مقارنة بالغزالي، نوقشت في جامعة قسنطينة، وطبعت في سلطنة عمان طباعة أنيقة.

للناس، فمن تعلَّمه كفر، ومن تعلَّمه وعمل به كفر، وكذا من اعتقد أنَّه حقٌّ جائز، ومن لم يتعلَّمه أو تعلَّمه ليتَّقي ضرَّه، أو يدفع به دعوى النبوءة عمَّن ادَّعاها به، وكان مؤمنًا فهو باق على إيمانه. ﴿فَلاَ تَكْفُرْ﴾ بتعلُّمه أو بالعمل به أو دعوى النبوءة به، فإن لم يرتدع بهذه النصيحة علَّماه.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أي الناس المعبَّر عنهم بأحد في سياق السلب عطف على ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾، كأنَّه قيل: يعلِّمان الناس، بعد قولهما: ﴿إِنَّما نحنُ...﴾ إلخ، فيتعلَّمون، أو على «يعلمون». ﴿مِنْهُمَا﴾ من الملكين أنفسهما، وقيل: بتوسُّط شيطانين يأخذان عنهما مرَّة في السنة ويعلِّمان الناس. أو من السحر وما أنزل على الملكين، أو من الفتنة والكفر، أي يتعلَّمون بعضًا من كلٍّ منهما؛ وعلى الثاني: العطف على «اتَّبَعوا»، والوجه الأوَّل أحقُّ. ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ﴾ الإنسان ﴿وَزَوْجِهِ﴾ أي قرينه حليلة وحليلها، أو صاحبٍ وصاحِبه مطلقًا، بأن يُبغض كلاًّ إلى الآخر؛ ولا مؤثِّر إلاَّ الله، والله يؤثِّر السحر ويطبع الطبائع ويؤثِّر أثرها، ومن قال باستقلال شيء أشرك.

﴿وَمَا هُمْ﴾ أي السحرة وهذا أولى من ردِّ الضمير إلى اليهود أو الشياطين. ﴿بِضَآرِّينَ بِهِ﴾ أي بالسحر، أو ما يفرِّقون به. ﴿مِنَ اَحَدٍ اِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ متعلِّق بـ«ضارِّين» أي إلاَّ بتقديره، ومن قال بتخليته

بينه وبين المسحور لم يرد أنَّ السحر مستغن عن الله ومستقلٌّ فإنَّه لا تأثير لشيء إلاَّ بالله، وكلُّ شيء مستأنف من الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ في الآخرة أو مع الدنيا وهو السحر. ﴿وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾ زاده لأنَّه قد يضرُّ الشيء ومعه نفع، فالسحر ضرر محض.

(فقه) وأمَّا تعلُّمه لدفع الشبهة عن دعوى النبوءة وليتَّقيه ففي تعلُّمه خير على ما مرَّ. والذي عندي أنَّه لا يجوز تعلُّمه إلاَّ لمن استوثق من نفسه أنَّه لا يستعمله ولا يعلِّمه لمن يعلم أنَّه يستعمله أو لا يعلم حاله، لأنَّ للعلم بالشيء قوَّة داعية للعمل به، ولا سيما مثل هذا، والنفس داعية.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ﴾ أي اليهود المذكورون بالسوء في عهده ﷺ، أو عهد سليمان والشياطين، والكلام متعلِّق بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ فُصل بقصَّة السحر. ﴿لَمَنِ اِشْتَرَاهُ﴾ استبدله أو اشتراه بدينه. اللام للابتداء، والجملة مفعول العلم، والمجموع جواب القسم. ﴿مَا لَهُ فِي الاَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ نصيب في الجنَّة لبيعه بالسحر أو تعلُّمه. ﴿وَلَبِيسَ﴾ اللام لام جواب القسم، والجملة معطوفة على الجواب السابق وهو: «لقد علموا» ﴿مَا شَرَوْاْ﴾ باعوا ﴿بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ وهو الكفر مطلقا، أو السحر، أو تعلُّمه، إذ نبذوا كلام الله ــ المنجِّي من الهلاك ــ إلى ذلك الهلاك ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي حقيقة ما يصيرون

إليه من العذاب للكفر، أو السحر، أو تعلُّمِه ما فعلوه، وإلاّ فقد أثبت لهم العلم في قوله: ﴿ولقدْ عِلموا﴾ فالعلم المثبت الظنّ، أو هو العلم بأنَّ اشتراءَ النفس بالسحر مثلا مذموم بدون علم أنَّ منه ما يفعلونه، فإنَّ حبَّ الشيء يعمي ويصمُّ، والعلم المنفي بِلَوْ: العلم بحقيقة ما يصيرون إليه، والعلم بأنَّ منه ما يفعلونه، أو التفكُّر في ذلك، أو يعلمون بمعنى يعملون، لأنَّ العلم سبب للعمل وملزوم له في الجملة، ويجوز كون لَوْ للتمنّي، فلا جواب لها.

﴿وَلَوَ اَنَّهُمُۥ ءَامَنُواْ﴾ بالنبيء ﷺ والقرآنِ، أو أراد اليهودَ مطلقا لو آمنوا بالكتب والأنبياء مطلقا ﴿وَاتَّقَوْاْ﴾ عقاب الله على الكفر والسحر والمعاصي لأُثيبوا من عند الله، دلَّ عليه ذكر المثوبة، أو للتمنّي فلا يقدَّر لها جواب، والتمنّي في الموضعين مصروف للناس.

(نحو) والمصدر من خبر أنَّ بعد لَوْ الشرطية أو التمنية فاعل بمحذوف، أي لو ثبت إيمانهم واتّقاؤهم، أو مبتدأ خبره محذوف وجوبا، ونُسب "لسيبويه"، أو مبتدأ لا خبر له، ووجهه اشتمال الكلام على المسند والمسند إليه لفظاً قبل التأويل، وهو وجه سيبويه إذ قدَّر المبتدأ مع اختصاص لَوْ بالفعل، حيث استغنى بوجوده قبل التأويل، **والصحيح الأوّل، وهكذا في القرآن، ولا أعيده.**

﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ مستأنفة، وليس من جواب لَوْ، لأنَّ جوابها لا يكون

جملة اسمية.

(صرف) واللاّم للإبتداء، والمعنى ثواب، نُقلت ضمَّة الواو إلى الثاء الساكنة كمعونة، أو وصف بمعنى المصدر كمفعول ومصون، والأصل مثووبة، نُقلت ضمَّة الواو للثاء، فحُذفت إحدى الواووين لالتقاء الساكنين، كمفتون ومعقول وصفَّين في الأصل وكانا بمعنى الفتنة والعقل، وهو وجه في قوله تعالى: ﴿فستُبصِرُ ويُبصرونَ بأيِّكم المفتون﴾ (سورة القلم: ٥) أو اسم مصدر أي إثابة.

﴿مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ﴾ من كلِّ شيء، أو ممَّا استبدلوا به دينهم، وهذا مراعاة لما في استبدالهم من نفع ادَّعوه، ولا يلزم التنقيص الذي في قولك: هذا السيف خير من العصا، أو السلطان خير من الحجَّام؛ لأنَّ الكلام باعتبار القصد، والقصدُ في المثالين النقص.

وفي الآية ذمُّهم بأنَّهم مع جهلهم تظهر لهم الخيرية، وأيضاً ما استبدلوا به الدين في اعتقادهم عظيم، أو أنَّه فاق في الخير أكثر ممَّا فاق في استبدالهم في شرِّه، كقولك: الخلّ أحمض من العسل، أي زاد في حموضته على زيادة العسل في حلاوته، ولك أن تقول خير خارج عن التفضيل، أو هو بمعنى المنفعة قابَلَ به أنَّ ما استبدلوا به غير حسن، أو أنَّه مضرَّة.

﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّها خيرٌ لم يستبدلوا الحقَّ بالباطل، أو لوْ

للتمنّي مصروف للناس، وقس على هذا في مثله، إلاَّ أنَّ الأصل الشرط لتبادره وأكثريته.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٠٤ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝١٠٥﴾

أدب الخطاب مع النبيء ﷺ ومصدر الاختصاص بالرسالة

﴿يَاأَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقُولُواْ﴾ للنبيء ﷺ **﴿رَاعِنَا﴾** اعتبرنا وانظر أحوالنا وتدبَّرْها، وتدارك مصالحنا، وتأنَّ بنا حتَّى نفهم ما تقول، وهذا مرادهم رحمهم الله.

ومن ذلك رعي الغنم ونحوها، والمفاعلة للمبالغة هنا، وهي بلغة اليهود سبٌّ، لـمَّا سمعوا المؤمنين يقولونها قالوها له ﷺ سبًّا في لغتهم: عبرية أو سريانية، يتسابُّون بها بينهم، فكانوا يسبُّون بها النبيء ﷺ، وليست من الرعونة بمعنى الحمق، وإن كانت منها فممَّا توافق فيه لغة العرب والعجم، وقد يكون بين لفظ العرب ولفظهم مغايرة فيزيلونها ليوافقوا كلام العرب خداعاً للسبِّ.

(سبب النزول) وقد قيل معناها: اسمع لا سمعت، وقالوا: كنَّا نسبُّ محمَّداً سرًّا فأعلِنوا به الآن، فيقولون: يا محمَّد، راعنا ويضحكون فيما بينهم. ويقال: كان مالك بن صيف ورفاعة بن زيد إذا لقيا النبيء ﷺ قالا ـ وهما يكلِّمانه ـ: راعِنا سمعك، واسمَع غير مسمع، فظنَّ المسلمون أنَّ هذا شيءٌ يعظِّمون به الأنبياء، فنزلت الآية، ويقال كان ذلك لغة للأنصار في الجاهلية، وكان سعد بن معاذ، أو سعد بن عبادة يعرف لغتهم، فسمعهم يقولونها للنبيء ﷺ، فقال: «يا أعداءَ الله، عليكم لعنة الله، والذي نفسي بيده لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربنَّ عنقه» قالوا: «أوَلستم تقولونها؟» فنزلت الآية قطعا لألسنة اليهود عن التدليس.

ويحتمل أن يراد أنت راعن، أو يا راعن أي أحمق، فزادوا الألف وفتحوا، أو أنت راعينا لا نبيء، فحذفوا الياء واختلسوها.

﴿وَقُولُواْ انظُرْنَا﴾ اعتبرنا حتَّى نفهم وأمهلنا، فإنَّه يقال نظره بمعنى أمهله، فلا حاجة إلى تقدير انظر إلينا ﴿وَاسْمَعُواْ﴾ من رسول الله ﷺ سماعَ قبول وعمل، وانتهاء بجدٍّ، بحيث لا تحتاجون إلى الإعادة وطلب المراعاة، لا كقول اليهود: ﴿سمِعنا وعصينا﴾ السابِّين براعِنا، ولا تكونوا أيُّها المسلمون مثلهم في طلبكم الإعادة.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ اليهود السابِّين براعِنا، أو جملة الكافرين فدخل

اليهود، وذلك السبُّ كفرٌ ﴿عَذابٌ اَلِيمٌ ﴾.

زعم طائفة من اليهود أنَّهم يودُّون الخير للمؤمنين، فكذَّبهم الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿مَّا يَوَدُّ﴾ يحبُّ أو يتمنَّى حسدا ﴿الذِينَ كَفَرُواْ مِنَ اَهْلِ الكِتَابِ﴾ أي وهم أهل الكتاب، وكلُّهم كفرة، إذ لم يؤمنوا برسول الله ﷺ إلاَّ من آمن كعبد الله بن سلاَّم، وإن جعلناها للتبعيض فالمراد البعض الأكثر وهو خلاف الظاهر.

﴿وَلاَ المُشْرِكِينَ﴾ من العرب، والكلام جاء فيهم عطف على أهل الكتاب، وذكَرهم أتباعا لليهود، وهم لم يدَّعوا ودَّ الخير للمؤمنين ولذلك أخَّرهم ﴿أنْ يُّنزَّلَ﴾ أي أن يُنزل الله ﴿عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ نائب فاعل ينزل، فمن صلة للتأكيد والاستغراق، وصحَّ ذلك مع أنَّ قوله ﴿ينزل﴾ مثبت لانسحاب نفي الودِّ إليه.

والمراد بالخير الوحيُ والعلمُ والنصرُ، وغير ذلك من أنواع الخير، وكراهتهم تعمُّ كلَّ خير. رويَ أنَّ المسلمين قالوا لحلفائهم من اليهود: آمِنوا برسول الله ﷺ. فقالوا: وددنا لو كان خيرا ممَّا نحن فيه فنتَّبعه، فنزلت الآية تكذيباً لهم؛ ومعنى تكذيبهم أنَّه ﷺ على خير ممَّا هم فيه ولم يؤمنوا. وقيل: نزلت تكذيبا لجماعة من اليهود، يظهرون أنَّهم يحبُّون المؤمنين، وإنَّما قال: ﴿عليكم﴾ مع أنَّ الوحي على سيِّدنا محمَّد

ﷺ، لأنّا متعبّدون بما أنزل إليه، فهو خطاب متوجّه إلينا، وواقع علينا بواسطة رسول الله ﷺ، وهذا أبلغ من تقدير مضاف، أي ينزل على نبيئكم.

ولا تنزيل إلاّ من الله ومع ذلك قال: ﴿**مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ إغاظة للكفّار، وتحبيباً لنفسه إلينا، وتذكيراً لنعمة التربية منه والعبودية منّا له ﴿**وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ**﴾ أي السعادةَ والجنّة، أو النبوءة، أو الخير المذكور؛ ذكره بالاسم الظاهر تصريحا بأنّه رحمة من الله وفضل، لا واجب عليه، ولا يوجبه عمل عامل، أو أراد بالرحمة مطلقها في الأمّة وسائر الأمم. ﴿**مَن يَشَآءُ**﴾ هو النبيء ﷺ وأمّته، دون اليهود والمنافقين والمشركين، أو هو العموم. ﴿**وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ كلُّ خير دينيٍّ، أو دنيويٌّ أو أخرويٌّ منّةٌ من الله عزَّ وجلَّ.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

إثبات نسخ الأحكام الشرعية

ولـمَّا قال اليهود والمشركون من العرب: محمَّدٌ يقول من عنده لا من الله، لأنَّه يأمر بأمر ثمَّ ينهى عنه، نزل:

﴿مَا ننسَخ مِنَ ـ ايةٍ﴾ نرفع حكمَها ولفظَها، أو نرفع حكمَها ونبقِ لفظها، أو نرفع لفظها ونبق حكمها ﴿أَوْ نُـنسِهَا﴾ نرفعها من قلبك ونَمْحِهَا منه ومن قلوب أصحابك، فلا يدركون لفظها ولا معناها، ولا العمل بها، وهذا قسم آخر لأنَّه قد يكون في الأخبار وقد يكون في غيرها، فأمَّا أن يكون معناها في آية أخرى أو لا يكون، فيكون قد رفع التكليف بها، وهو شامل للنبيء ﷺ لقوله تعالى: ﴿سنقرئكَ فلا تنسَى إلاَّ ما شآءَ اللهُ﴾ (سورة الأعلى: ٦).

وأمَّا الامتناع في قوله تعالى: ﴿ولئن شئنا لنذهبنَّ بالذي أوحينآ إليك﴾(سورة الإسراء: ٨٦) فباعتبار ما لا يجوز نسخه، أو باعتبار الكلِّ. وبين النسخ والإنساء عموم وخصوص يجتمعان في الرفع عن القلوب، ويختصّ النسخ بمنسوخ الحكم مع بقاء التلاوة وبالعكس، ويختصُّ الإنساء بالأخبار التي أُذْهبت عن القلوب.

﴿نَاتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ ثوابا أو سهولة في الامتثال ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ في ذلك، كما قال: ﴿وإذا بدَّلنآ ءَايةً مكانَ ءَايةٍ والله أعلمُ بما ينزِّل قالوا

إنـما أنت مفترٍ﴾.

(أمثلة لما نُسخ) روي أنَّ جماعة من الصحابة قـاموا ليلـة ليقـرأوا سـورة، فلـم يبـق لهـم منهـا إلاّ ﴿بسـمِ الله الرحمـنِ الرحيـمِ﴾ فأخبروه ﷺ غدوة الليلة، فقال: «**رفِعت تلاوتُها وحكمها**»[1].

وممَّـا نُسـخ لفظــه وحكمــه: «**عشـــر رضعــات معلومــات يحرِّمن**»، وكثير من سورة الأحزاب، وكانت كـالبقرة إلاّ أنـَّه يحتمـل بقاء بعض حكمها في سورة أخرى.

قال بعض الصحابة: «كنَّا نقرأ سورة تشبه في الطول والشـدَّة ببراءة، فأُنسيتها غير أنِّي حفظت منها: «**لو كان لابن آدم واديان من المـال لابتغــى إليهمــا واديــا ثالثــا، ولا يمــلأ جــوف ابــن آدم إلاّ التراب**»[2]. وكنَّا نقرأ سورة نشبـِّهها بإحدى المسبِّحات فأُنسيتها، غير أنــِّي حفظـت منهـا: «**يـا أيّهـا الذيـن آمنـوا لــمَ تقولـون مـا لا تفعلون، فتكتب شهادتها في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة**».

١ - أوردها الطبراني عن الزهري عن سالم عن أبيه. راجع ابن كثير، فقد بسط القول عن النسخ واختلاف الأصوليين والمحدثين في الموضوع، وكذلك التحرير والتنوير.

٢ - الحديث متواتر قال المخرج لـ"جامع الشمل"، فقد أورده السيوطي عن خمسة عشر نفسا، وأوردته غالب كتب السنَّة، أورده البخاري في كتاب الرقاق، ومسلم في كتاب الزكاة، والقطب في "جامع الشمل"، ج١/رقم ٤٩٧.

ومِمَّا نسخ لفظه فقط آية الرجم: «**الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما...**» الآية، قال عمر: «قرأناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا، إذا كانت البيِّنة أوالحمل أوالاعتراف». وكانت في سورة الأحزاب، وقيل في النور.

وقوله تعالى: «خروجكم عن آبائكم كفرٌ بكم» يعني انتسابهم إلى غيرهم.

ومِمَّا نسخ حكمه فقط آية عِدَّة الوفاة بالسنَة، نسخت بآية العدَّة بأربعة أشهر وعشر، وآية وجوب ثبوت واحد لعشرة بآية ثبوت واحد لاثنين. ويكون النسخ بالإبدال إلى أخفَّ كأربعة الأشهر، والمصابرة لأقلَّ من ثلاثة، وإلى أثقل كوجوب الصوم بعد التخيير بينه وبين الإطعام، وكترك القتال حتما إلى وجوبه فيما قيل. ونسخ الإباحة إلى التحريم كتحريم الخمر بعد إباحتها، وإلى مساوٍ كنسخ الصلاة إلى القدس بالصلاة إلى الكعبة؛ وبلا إبدال وحمل عليه قوله عزَّ وعلا: ﴿أو ننسها﴾، فالمعنى نأت بغيرها في غير شأنها، وأمَّا نسخ وجوب صوم عاشوراء إلى الندب بصوم ثلاثة أيَّام من كلِّ شهر، أو لرمضان وصوم الثلاثة برمضان فموجود إلاَّ أنَّه لا يوجد المنسوخ في القرآن صراحًا بل بتأويل.

﴿أَلَمْ تَعْلَمَ اَنَّ ا للهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ زيادة تثبيت للنبيء

ﷺ، وأمَّتُه تبعٌ له، والخطاب لكلِّ من يصلح له يعلمون أنَّ الله لا يعجزه شيء فقد نسخهم قردة وخنازير بعد أن كانوا في صورة البشر، وليس ذلك بداوةً له بل قضى الله في الأزل أنَّ إبقاءهم في صورة البشر إلى وقت مخصوص، فكذلك قضى الله فيه أنَّ الآية تبقى إلى كذا.

ثمَّ إنَّه إن كان النسخ إلى أخفَّ فالخيريَّة في النفع، أو إلى أثقل فالخيريَّة في الثواب، وإن كان النسخ في اللفظ إلى أخصر فالخيريَّة في النفع، أو إلى أطول ففي الثواب، وإن كان في اللفظ والحكم إلى أخفَّ حكماً، وأخصر لفظا فالخيرية في النفع، أو إلى أثقل حكمًا وأطول لفظًا فالخيريَّة في الثواب، أو إلى أخفَّ حكمًا وأطول لفظًا فالخيريَّة في النفع والثواب، أو إلى أثقل حكمًا وأخصر لفظًا فالخيريَّة في الثواب بالنسبة للحكم، وفي النفع بالنسبة إلى اللفظ. ومنع بعضهم النسخ إلى أثقل.

(أصول الدين) والنسخ دليل على أنَّ القرآن حادث مخلوق، ولا نثبت الكلام النفسي، فضلا عن أن يقال التغيُّر من عوارض ما يتعلَّق به الكلام النفسي، وهي الأفعال في الأمر والنهي، والنسب الخبريَّة في الخبر، وفي إثبات الكلام النفسيِّ إثبات كون الله ظرفًا ومتحيِّزًا وإن رجع ذلك إلى العلم لزم أنَّ كلَّ ما علمه

قديم، والقرآن هو هذه الألفاظ لا غيرها.

﴿اَلَمْ تَعْلَمَ اَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ له التصرُّف فيهما بالزيد والنقص والتغيير، ومن له ذلك فكيف وله أضعافهما العرش والكرسيُّ وغيرهما، فله التصرُّف بالنسخ، وكلُّ ذلك على ما سبق به قضاؤه الأزليُّ، ولم تعطف هذه الجملة لأنَّها إيضاح لما قبلها وتأكيد في المعنى، وللإشعار بأنَّها مستقلَّة في الاحتجاج.

﴿وَمَا لَكُمْ﴾ الخطاب لكفَّار العرب وغيرهم ﴿مِن دُونِ اللهِ مِن وَّلِيٍّ﴾ يحفظكم عن توجُّه العذاب إليكم ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ يدفعه عنكم إذا أتاكم. وقد يضعف الوليُّ عن النصرة، وقد يكون النصير أجنبيًّا، فبينهما عموم وخصوص من وجه، فعموم الوليِّ في النصر وعدمه، وخصوصه في القرابة، وعموم النصر في القرابة وعدمها، وخصوصه في إيقاع النصر جزمًا، ومن وليُّه الله لا يجد إلاَّ خيرًا في أمر النسخ وغيره، ولا يرتاب، والمراد بالوليِّ الوليُّ من حيث الدفع، وإلاَّ فلكلٍّ أحد وليٌّ.

(نحو) و«ما» حجازيَّة لم تعمل لتقدُّم الخبر، ويجوز أن يكون اسمها اسم فاعل ناب عنه «لكم»، و«وليّ» فاعل له أغنى عن خبرها، أي ما ثابت لكم وليٌّ ولا نصير، كما تقول: ما قائم الزيدان.

﴿أَمْ﴾ بل تريدون، وهو إضراب انتقال عن قصَّة لا إبطال

﴿تُرِيدُونَ﴾ يامعشر العرب وغيرهم كاليهود ﴿أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ﴾ أعلَمَهم أنَّه رسول للعرب واليهود وغيرهم.

أمَّا العرب فسألوه أن يوسِّع أرض مكَّة بإذهاب الجبال عنها للحرث والنزهة، وأن يجعل الصفا ذهبًا، وأن يبعث قُصيًّا يخبرهم أنَّه نبيء. قال السدِّيُّ: وأن يروا الله جهرة قال: نعم، على أنَّه لكم كالمائدة لبني إسرائيل، فقال ابن أبي العالية: أن تكون كفَّاراتنا ككفَّارات بني إسرائيل، فقال: كفَّاراتكم خير: الاستغفار والصلوات والجمعة وكفَّاراتهم خزي، فإن لم يكفِّروها ففي الآخرة، ومن ذلك قول رافع بن خزيمة: إن كنت رسولا فيكلِّمنا الله حتَّى نسمع كلامه.

وأمَّا اليهود فسألوه أن يأتي بالكتاب من الله جملة كالتوراة، وأن يأتي بالله والملائكة قبيلاً، ونحو ذلك. ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ سأله اليهود أن يريهم الله جهرة، وأن يجعل لهم إلهًا كما جعل قوم لأنفسهم آلهة، ونحو ذلك. ﴿وَمَن يَّتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالاِيمَانِ﴾ يأخذ الشرك والكبائر بدل التوحيد، والإيمان بترك التفكُّر في ما أنزل الله، وطلب آيات أخر تعنُّتًا. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ﴾ أي عن سواء، أو أخطأ سواء ﴿السَّبِيلِ﴾ أي السبيل السواء، أي المعتدل وهو الحقُّ.

قيل: قوله ﴿وَمَن يَّتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالاِيمَانِ...﴾ إلخ يدلُّ على أنَّ الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ للمؤمنين، لأنَّ هذا لا يصحُّ إلاَّ في المؤمنين، لأنَّهم آمنوا فنهوا أن

يبدِّلوه بالكفر، قلت: لا يتعيَّن هذا لجواز أن يكون معنى التبدّل إعراض الكفرة عن التوحيد والإيمان، واستدلَّ على أنَّ الخطاب في ذلك كلّه للمؤمنين بأنَّ قوله ﴿أم تريدون﴾ عطف على ﴿لا تقولوا راعنا﴾ قلت لا يتعيَّن لجواز أن تكون «أم» حرف ابتداء للإضراب كما مرَّ، ولا داعي إلى تقدير: أتفعلون ما أمرتم من السمع، وقول انظرنا، أتريدون. واستدلَّ على أنَّ الخطاب للمؤمنين بأنَّهم كانوا يسألونه ﷺ عمَّا لا خير فيه، كما سأل اليهود موسى عليه السلام، كما روي أنَّهم قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما أنَّ للمشركين ذات أنواط، شجرة يعبدونها ويعلّقون عليها سلاحهم ومأكولهم ومشروبهم، إلاَّ أنَّهم لم يريدوا أن يعبدوها فقال: «**الله أكبر! هذا كما قال لأخي موسى قومُه: ﴿اِجْعَلْ لَّنَآ إِلَهًا كما لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، والذي نفسي بيدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سَنَن من قَبْلَكُم حَذْوَ النَّعلِ بالنَّعل، والقِدَة بالقِدَة، إن كان فيهم من أتى أمَّه يكن فيكم، فلا أدري أتعبدون العجل**»[1]، واختار بعض أنَّ الخطاب لليهود لأنَّ الكلام فيهم من قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اَذْكُرُواْ...﴾.

---

١ - رواه أحمد في مسنده، ج٨، ص٢٠٨، رقم ٢١٩٥٦ و ٢١٩٥٩ إلى قوله عليه السلام: «سنن من قبلكم».

ورواه الترمذي في كتاب الفتن (١٨) باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، رقم ٢١٨٠ من حديث أبي واقد الليثي.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

موقف أهل الكتاب من المؤمنين وكيفيّة الردّ عليهم

﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ منهم حيي بن أخطب وأبو ياسر، وكانا أشدَّ الناس حسدًا للعرب على الإسلام وكون النبيء منهم. ﴿مِّنَ اَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ أحبَّ وتمنَّى كثير من اليهود ردَّكم أي تصييركم ﴿مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ مشركين، وقوله: ﴿حَسَدًا﴾ تعليل لودَّ لا ليردَّ، لأنَّ المعنى عليه ودَّ، وأن يكون الردُّ للحسد وليس مرادًا، ووصفَ الحسدَ بقوله: ﴿مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ﴾ لخبثها الشديد بلا موجب لذلك الودِّ من التديُّن، بل تشهِّيًا أو من عند ذواتهم، كأنَّهم جبلوا عليه فيصعب زواله.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ﴾ في التوراة بموافقة نعوته فيها وبالمعجزات. ﴿الْحَقُّ﴾ أي تبيَّنالحقُّ لهم أنَّ محمَّدًا رسول الله بالقرآن ﷺ.

(سبب النزول) قال نفر من أحبار اليهود كفنحاص بن عازوراء، وزيد بن قيس، لحذيفة وعمَّار بعد أُحد: «لو كنتم على الحقِّ لَما غُلبتم، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم»، فقال عمَّار: «كيف نقض العهد فيكم؟» قالوا: «أمر شديد»، قال: «عاهدت الله تعالى أن لا أكفر بمحمَّد ﷺ ما عشت»، فقالت اليهود: «أمَّا هذا فقد صبأ»، وقال حذيفة: «وأمَّا أنا فقد رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن إمامًا، وبالكعبة قبلة، وبالمؤمنين إخوانًا»، فأخبرا رسول الله ﷺ فقال: «**أفلحتُما**» فنزل ﴿وَدَّ كَثِيرٌ...﴾.

﴿**فَاعْفُواْ**﴾ عن اليهود والعرب، كما لم يذكر لفظ عنهم، والفاء تدلُّ على اليهود أوَّلاً وبالذات، ودخلت العرب ثانية وبالتبع، لا تعاقبوهم؛ ﴿**وَاصْفَحُواْ**﴾ عنهم لا تعاتبوهم العتاب الشديد، وضعُف ما قيل: لا تخالطوهم.

(لغة) وقد يعفو الإنسان ولا يصفح، وأصل العفو محو الجريمة، مِن عَفَا إذا درس، وترك العقوبة لازمُه، وبينهما عموم وخصوص من وجه يجتمعان إذا عاقب وعاتب، ويختصُّ الصفح بما لم يعاقب وعاتب، والعفو بما عاتب ولم يعاقب.

﴿**حَتَّى يَاتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ**﴾ واحد الأمور وهي القيامة والجزاء فيها، وقوَّة الرسالة وكثرة الأمَّة، أو ضدُّ النهي بأن يأذن في قتالهم لوقته،

فجاء الإذن في قتال العرب قبل بدر إذ قال: ﴿أُذِنَ للذينَ يُقاتَلون بأنَّهم ظُلموا وإنَّ الله على نصرهِم لقديرٌ﴾ الآية (سورة الحج: ٣٩). وجاء الإذن في أخذ الجزية عن أهل الكتاب، وبقتل قريظة وإجلاء النضير بعد أُحد، بل بعد الأحزاب، وهي بعد أحد. **﴿إنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾** فلا يعجزه الانتقام منهم.

﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾ بطهارة وخشوع وإخلاص، مع تأديتها بأجزائها، وهكذا في سائر القرآن. ﴿وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ﴾ صيِّروها آتية أهلها بأن توصلوها إلى مستحقِّها.

(فقه) وعلى أصحاب الزكاة مؤونة حملها والمجيء بها، حتَّى تصل العامل الذي جاء إليها، أو الفقير إذا لم يكن الإمام، أو أمرهم بتفريقها، وذلك هو الأصل، وإن جاءها الفقير أو وكيله وقبَضها أجزت. والمراد بالزكاة الجزء المعلوم من المال. ويجوز أن يراد: اجعلوا التزكية آتية منكم إلى أهلها، **وكذا في سائر القرآن.** وذلك أمر بالعبادة البدنيَّة والماليَّة لأنَّها تدفع المكروه. وزعم الطبريُّ أنَّها كفَّارة لميلهم إلى قول اليهود: راعنًا، وهو مردود.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ﴾ طاعة كأمر ونهي، وتعليم وصلة رحم، وأداء فرض أو سنَّة أو نفل، **﴿تَجِدُوهُ عِندَ الله﴾** تعلموا أنَّ الله عالم به، وأولى من هذا تجدوه بوجود ثوابه. سمِّي الثواب باسم

سببه وملزومه، أو يقدَّر: تجدوا ثوابه، اللقمة والتمرة كأُحد، أو تجدوه نفسه مجسَّمًا.

وأنا أقول: لا بأس بتجسيم الأعراض، لأنَّ الله قادر على إنشاء كلِّ شيء من أوَّل، فهو قادر على تصيير العرض جسمًا، كما جاءت الأحاديث والآثار بأنَّه تجيئه صلاته بصورة رجل حسن، وتجيئه صدقته ظلاًّ، وهكذا في الشرِّ، إلاَّ أنِّي لا أقول بوزن ما تجسَّم من الأعراض. ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عنه شيء، فهو يجازي على مثاقيل الذرِّ من خير وشر.

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

رأي كلٍّ من اليهود والنصارى في الآخر

﴿وَقَالُواْ﴾ متعلّق بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾، والواو لأهل الكتاب لا لكثير في قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنَ اَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أو لليهود والنصارى ولو

لم يتقدَّم ذكر النصارى لدلالة ما بعده عليهم، أو على الاستخدام لأنَّ الكثير المذكور أريد به أحبار اليهود خاصَّة، إلاَّ أنَّه لا مانع من أن يراد به النصارى. ﴿لَن يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَن كَانَ هُودًا اَوْ نَصَارَى﴾ أي قالت اليهود لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا، وقالت النصارى: لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ نَصَارَى، وروعي فيمن كان هودًا أو نصارى معنى مَن، إذْ هُما جمع هائد، أي تائب من عبادة العجل، أو منتسب لليهود، وقد قيل: هودا مخفَّف من يهود بحذف الياء؛ ونصرانيٌّ أو نصرانٌ أو نصريٌّ.

(سبب النزول) قدم نصارى نجران إليه ﷺ، وناظرهم أحبار اليهود، وارتفعت أصواتهم، قالت اليهود للنصارى: ما أنتم على شيء، وكفروا بعيسى والإنجيل، والجنَّة لنا دونكم، وقالت النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وكفروا بموسى والتوراة، والجنَّة لنا دونكم، فنزلت الآية.

جمعهم بالواو في «قالوا» لأنَّ السامع يميِّز ما قال كلٌّ بما بعده، لأنَّ اليهود لا تقول: لن يدخل الجنَّة إلاَّ من كان نصارى، والنصارى لا تقول: لن يدخل الجنَّة إلاَّ من كان هودًا، ولا يقول اليهود ولا النصارى: لن يدخل الجنَّة إلاَّ اليهود والنصارى، لأنَّه ينافيه سببُ النزول وقولُه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ: لَيْسَتِ النَّصَارَى...﴾ الآية؛ وأو

بمعنى الواو، أو للتفصيل كما قال: ﴿وَقَالُواْ: كُونُوا هُودًا اَوْ نَصَارَى تهتَدُوا﴾. ﴿تِلْكَ﴾ القولة التي هي قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ...﴾ الآية ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ شهواتهم الباطلة التي يتمنَّونها، أي يقدِّرونها ويقطعون بها.

(صرف) أمانيُّ جمع أمنيَّة، وأصل هذا المفرد: أُمنُويَة، بوزن أضحوكة، قلبت الواو ياءً وأدغمت الياء في الياء، وقلبت ضمَّة النون كسرة، وهذا الوزن للمبالغة وهو بمعنى الأكاذيب حقيقة، وبمعنى ما يُتمنَّى مجاز.

﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُم﴾ حجَّتكم عليها.

(لغة) والأصل: هاتيوا، ثقلت الضمَّة على الياء فنقلت للتاء، وحُذفت الياء للساكن، والماضي هاتَى، والمضارع يهاتي، لكن لا يتصرَّف، ولكنَّ الأصل ذلك؛ وقيل: يتصرَّف. وقيل: الهاء عن الهمزة، وقيل: للتنبيه والهمزة حذفت؛ أو اسم فعل، وزعم بعض أنَّه اسم صوت، ويردُّه اتِّصال الضمير به. والبرهان من البره وهو القطع، والحجَّة تقطع الخصم، والنون زائد، أو من البرهنة بمعنى البيان، فالنون أصلٌ، كذا قيل، ويحتاج إلى ثباته في كلام العرب، وإلاَّ فلعلَّ لفظ البرهنة تصرَّف من غير العرب.

﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيها.

وإنَّما قال: ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ بالجمع مع أنَّ القولة أمنية واحدة لأنَّها قالتها اليهود وقالتها النصارى، فاستعملوا الجمع في اثنتين، أو لأنَّها تعدَّد قولها في اليهود، وغالبهم يقولها، وأيضًا يردِّدها في نفسه، وتعدَّد قولها في النصارى وغالبهم يقولها وأيضاً يردِّدها في نفسه، ولأنَّ لليهود أمنية أن يدخلوها، وأمنية أن لا يدخلها غيرهم؛ وللنصارى أمنية أن يدخلوها وأمنية أن لا يدخلها غيرهم، فهؤلاء أربعة أماني. أو عدَّ الأمنية الواحدة أماني لشدَّتها، أو الإشارة إلى تلك القولة وإلى تمنِّيهم أن لا ينزل على المؤمنين خيرٌ، وتمنِّيهم أن يردُّوهم كفَّارًا، وقولهم لن تمسَّنا النار إلاَّ أيَّامًا.

﴿بَلَى﴾ إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنَّة ولو كانوا أيضًا لا يدخلونها، فالمعنى لا يدخلونها وغيرهم يدخلها، وقد تقع في غير النفي والاستفهام. ﴿مَنَ اَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ أخضعه ﴿لِلهِ﴾ وخصَّ الوجه لأنَّه أعظم، إذ فيه أكثر الحواسِّ بل كلُّها، وشاركه غيره في الحسِّ، ولأنَّه موضع السجود الذي العبد فيه أقرب ما يكون من ربِّه، فغيره أولى بأن يكون قد أسلم لله، أو الوجه بمعنى الذات كلِّها، إذ هو جزءها الأعظم؛ أو بمعنى قَصْدَه. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ موحِّد عامل متَّق، ولو

لـــم يبلغ إلى قوله ﷺ: «**الإحســان أن تعبـد ا لله كأنــك تـراه**»[١]. ﴿**فَلَهُ, أَجْرُهُ**﴾ ثوابه على عمله وتقواه وتوحيـده وهـو الجنـَّة. ﴿**عِنْدَ رَبِّهِ**﴾ عنديَّة علم وعهد وتشريف. ﴿**وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ في الآخرة، لا خوف إلاَّ خوف يحدث لعظم الهول ويزول، ويعقبـه الأمـن الدائـم. ﴿**وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ فيها على فـوت التوحيـد والعمـل والتقـوى، لأنَّ ذلك لم يفتهم، وإنـَّما يحزن من فاته أو بعضه. **وأمـَّا في الدنيا فـالمؤمن أشدُّ حزنًا في أمر دينه.**

وفصـل قولـه: ﴿وَقَالُـواْ: لَـن يَّدْخُـلَ الْـجَنَّـةَ...﴾ إلخ بقولـه: ﴿**وَقَالَتِ الْـيَهُودُ**﴾ أحبـارهم في المدينـة، أو نـافع بـن حرملـة ونُسـب للجميع، لأنـَّه منهـم راضـون بقولـه؛ أو مطلقًـا ذكـر ا لله اعتقـاد مـن اعتقد ذلك ولفْظ مـن لفـظ وهـم القليـل. ﴿**لَيْسَتِ النَّـصَارَى عَلَى شَيْءٍ**﴾ معتدٍّ بـه مـن الديـن، كفـروا بـالإنجيل وعيسـى، وأثبتـوا الحـقَّ لأنفسهم. ﴿**وَقَالَتِ النَّصَارَى**﴾ كلُّهم إلاَّ قليلاً أو واحـدًا منهـم كمـا مرَّ، أو من وفَد مـن نصـارى نجـران علـى رسـول ا لله ﷺ، ذكـر ا لله

---

١ - رواه مسلم في الإيمان (١)، بـاب بيـان الإيمـان والإسـلام والإحسـان، رقـم ١ (٨)، ورقم ٥ (٩)

والترمذي في الإيمان (٤)، باب ما جاء في وصف جبريل للنبيء، رقـم ٢٦١٠، مـن حديث أبي هريرة رضي ا لله.

اعتقاد من اعتقد ذلك ولفْظ من لفظ، وهم القليل. ﴿**لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ**﴾ معتدٌّ به من الدين، كفروا بموسى والتوراة وأثبتوا الحقَّ لأنفسهم، ونفي الشيء في الموضعين كناية عن عدم الاعتناء به، وهي أبلغ من التصريح.

﴿**وَهُمْ**﴾ أي الفريقان ﴿**يَتْلُونَ الْكِتَابَ**﴾ جنس الكتاب، تتلو اليهود التوراة وتجد فيه تصديق عيسى والإنجيل، وتتلو النصارى الإنجيل وتجد فيه تصديق موسى والتوراة، أو تتلو اليهود التوراة والإنجيل، يجدون فيهما تصديق الكلِّ، وكذا النصارى؛ وقيل: المراد التوراة. ﴿**كَذَالِكَ**﴾ كقول اليهود للنصارى، والنصارى لليهود. ﴿**قَالَ الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ وهم مشركو العرب وغيرهم، كأمم قبل اليهود والنصارى. ﴿**مِثْلَ قَوْلِهِمْ**﴾ قالوا لكلِّ ذي دين ليسوا على شيء يعتدُّ به، وفي ذلك تشبيهان، تشبيه المقول بالمقول في المؤدَّى، وتشبيه القول بالقول في الصدور عن مجرَّد الهوى، ولو زاد اليهود بالتعصُّب، فليس في الآية تكرير بل فيها مزيد التوبيخ.

بل شبَّه من في يده علم التوراة والإنجيل بمن لا علم له من عبدة الأصنام كقريش ومن ينكر الله، والمراد بالتشبيه التنظير، وهو من التشبيه المقلوب، إذ شبِّهوا بالجاهلين، و«كذلك» مفعول لـ«قال»، أي مثل قول اليهود والنصارى قال الذين لا يعلمون.

(نحو) و«مِثْلَ» مفعول به لـ«يعلمون»، بمعنى يعتقدون، أو مفعول به لـ«قال» أو مفعول مطلق له، وكذا مفعول به له، أو مثل توكيد لكذلك لا بدل، لاتّحاد مفهومهما، بخلاف جاء زيد أخوك، فإنَّ الأخوَّة ليست مفهومة لزيد.

﴿فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بين الفريقين أو بينهما وبين الذين لا يعلمون، والمراد الفريقان بالذات، لأنَّ الكلام فيهما، والذين لا يعلمون بالتبع.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين، فيدخل الجنَّة من عمل بالناسخ وترك ما نُسخ فقط من الكتاب الآخر، ويدخل النار من عمل بالمنسوخ وكفر بالناسخ، وذلك إشراك، ومن أشرك بعبادة الصنم أو بإنكار الله، وأيضًا المشركون أسفل النار، واليهود في لظى، والنصارى في الحطمة، وذلك من الحكم المذكور، فالحكم بينهم أن يقسم لكلٍّ فريق ما يليق به من العذاب.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ١١٥﴾

ظلم مانع الصلاة في المساجد، وصحّة الصلاة في أيّ مكان

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ أيَّ مسجد كانت من مساجد الإسلام، ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ بتلاوة كتب الله والصلاة وسائر الأذكار. والاستفهام للنفي، أي لا أحد أظلم، وقد ثبت الظلم لغير مانع المساجد، ولكن مانعها أعظم ظلمًا من المعصية بمنع غيرها، وبغير منع بشيء، لكن جاء أيضًا: ﴿وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ على الله وكذَّب بالصدق إذ جآءهُ﴾ (سورة الزمر: ٣٢) ونحو هذا، فنقول ذلك كلّه أمر واحدٌ مفضَّل على غيره، كأنَّه قيل: المفترى على الله ومانع المساجد ونحوهما أظلم من غيرهم، والتفضيل بينهم يوكل إلى الفهم، مثل أن تقول: من قال ﴿اتَّخذ الله ولداً﴾ أظلم من المفتري عليه، والمفتري عليه أظلم ممَّن منع مساجد الله.

والممنوع الناس لا المساجد ولكن وقع على المساجد لأنَّها محلّ إيقاعهم العبادة، وللإشارة إلى أنَّها مظلومة كما ظُلم النَّاس، ولأنَّه يوقع لها تمييز لمن يتعبَّد فيها فظلمت بمنع من تحبُّه عنها، ومنعهم كإغلاقها، وبعد ذلك قال الممنوع ذكر الله، أو المراد لأجل ذكره أو من أن يُذكَر، والمراد بالمساجد كل مسجد خرب أو سيخرب، ومنع أو سيُمنع، كما منعت قريش رسول الله ﷺ والمؤمنين قبل الهجرة

وفي عام الحديبيَّة أنْ يدخلوا المسجد الحرام للعمرة.

﴿وَسَعَىٰ﴾ اجتهد، ﴿فِي خَرَابِهَآ﴾ في تحصيل خرابها، أو اسم مصدر أي في تخريبها بالتعطيل أو الهدم.

كما هدم "بخت نصر" بيت المقدس وألقى فيها الجيف، وذبح فيها الخنازير، وأحرق التوراة، وقتل بني إسرائيل، وسبى الذّراري، وكما فعل "ططيوس الرُّومي" وقومه من روم ونصارى ذلك بعد أنْ بُني على عهد "عُزَيْز"، وبقي خراباً[1] إلى أنْ عمَّره المسلمون على عهد عمر رضي الله عنه.

ويجوز أن يراد بالمساجد المسجد الحرام وتخريبه تعطيل قريش النبيء ﷺ والمومنين عنه، جمع تعظيماً ولأنَّ مساجد الإسلام كلّها تنبني عليه وتُبنى إليه، وأنَّ معطّل مسجد حقّ[2] كمانع المساجد كلّها، كما أنَّ مكذّب نبيء أو كتاب كمكذّب الأنبياء كلّهم، والكتب كلّها، ولا سيما أعظم المساجد وأعظم الأنبياء وأعظم الكتب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المانعون الساعون في خرابها ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَآ إِلاَّ خَآئِفِينَ﴾ وقد تحقّق ذلك وقوعاً في مدّة عظيمة لا يدخل مشرك نصرانيٌّ ولارومّيٌّ ولا غيره مسجداً من مساجد المسلمين

---

١ - كذا في النسخ، لعلّه يريد جزءا منه بقي خراباً.

٢ - كذا في النسخ، ولعلَّ الصواب: وأنَّ معطّل حقّ المسجد.

إلاَّ خائفاً، وهذا إلى الآن إلاَّ مساجد بلاد أخذوها[١]، أو لا يدخل مشرك المسجد الحرام إلى الآن إلاَّ خائفاً متنكّراً، ومضى زمان مديد من عهد عمر وما بعده لا يدخل بيت المقدس مشرك ، ولا يوجد فيها إلا أوجع ضرباً، وليس في الآية أنَّه لا يدخلها أبداً بل فيها أنَّه يتحقّق هذا المقدار من عدم الدخول إلاَّ مع خوف، فلا يَرِدُ ما ذكرت من دخولهم مساجد بلاد أخذوها، ودخلوهم المسجد الحرام، وأخذهم الحجر الأسود، ثمَّ إنَّه رُدَّ، وكَوْن المقدس في يد الإفرنج أكثر من مائة سنة بحيث لا يدخله مسلم إلاَّ خائفاً حتى نزعه منهم الناصر صلاح الدين يوسف[٢]، وذلك إمَّا على أنَّ معنى الآية أنَّ ا لله قضى أنْ لا يدخلوها إلاَّ خائفين، وعدًا بالنَّصر للمومنين، وإمَّا على معنى أنَّه لا يجوز لكم أنْ تترُكوهم ودخولها، أو ما كان الحق أنْ يدخلوها إلاَّ خائفين أنْ تبطشوا بهم فضلاً عن أنْ يجترءوا على تخريبها، أو يمنعوا المؤمنين عنها.

---

١ – يعني الشيخ أنَّهم استعمروها، وكأنَّه يتألَّم ممَّا يفعله الاستعمار في زمانه.

٢ – هو سلطان المماليك صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيُّوب، أمَّره نور الدين، ولمَّا توفي نور الدين قام بعده صلاح الدين، ودانت له العساكر، وقهر الفاطميين، ومحا دولتهم، وكان خليقا بالإمارة، مهيبا شجاعا حازما، عالي الهمَّة، وكانت دولته نيفا وعشرين سنة. فتح طبرية، ونازل عسقلان، وكانت وقعة حطّين، وفيها حطّم الصليبيين، ومحاسن صلاح الدين جمَّة. توفي رحمه ا لله بقلعة دمشق سنة ٥٨٩هـ.

تهذيب سير أعلام النبلاء: رقم ٥٣٤٦، ص١٣٣ (بتصرّف).

(فقه) ولا يجوز عندنا أنْ يترك مشرك أنْ يدخل مسجداً إلاَّ إنْ لم نقدر، وذلك قول مالك، لقوله تعالى: ﴿إنّما المشركون نَجَس فلا يقربواْ المسجدَ الحرامَ بعدَ عامِهم هذا﴾ (سورة التوبة: ٢٨)، والمساجد مثله في التطهير عن الأنجاس فهي مثله أيضًا في الحرمة، وأجازه الشافعي في غير المسجد الحرام بشرط الحاجة فيه وإذن المسلمين له لذكره في الآية، وإدخال رسول الله ﷺ وفد ثقيف وغيرهم المسجد منسوخ بهذه الآية: ﴿إنّما المشركون نجس...﴾ الخ لاستلحاقه سائر المساجد لجامع علّة النجس والحُرمة، ولقوله: ﴿مَا كانَ لَهُم أن يدخلوها...﴾ الخ سواء أفسَّرناه بالأمر بإبعاد المشركين عنها، أو بقضاء الله، لأنَّه أمر يرغب فيه فلا إشكال، وأجازه أبو حنيفة مطلقاً.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، بالقتل والسبي في بعض والجزية في البعض الآخر، وأصل الخزي ذلٌّ يستحى منه، ولذلك يستعمل في كلٌّ منهما، والقتل والسبي ذل عظيم يستحى منه في السبي دون القتل، إلاَّ أن يقال يستحيى منه المقتول قبل أنْ يقتل وأصحابه وقرابته. قَبِلَت النضير الجزية، وقُتِل بعض قريظة وسبيُ بعضٍ.

﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في النار لمنعهم مساجد الله، وسعيهم في خرابها.

(سبب النزول) وكان ﷺ يصلّي النَّافلة على الدابَّة أينما توجَّهت من مكَّة إلى المدينة وفي غير ذلك حتى الوتر قبل أن يُفرض عليه، وحوِّلت القبلة إلى الكعبة، وطعنت اليهود في ذلك، وقالواْ لا قبلة لهم معلومة، وصلَّى كلٌّ على اجتهاده إلى جهة ليلا في غزوة ومعهم النبيء ﷺ، وقيل لم يكن معهم لظلمة فلما أصبحوا تبيَّن أنَّ بعضا صلَّى إلى الشمال وبعضاً إلى الجنوب، فنزل قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ اسْتُلْحِقَا[1] جوانبهما، فذلك الأرض كلُّها ﴿فَأَيْنَمَا﴾ هو المكان الذي أنتم فيه أو الذي استقبلتم إليه.

﴿تُوَلُّواْ﴾ وجوهكم في الصلاة بأمره لكم بالتولية ﴿فَثَمَّ وَجْهُ﴾ ذات ﴿اللَّهِ﴾ أو فثمَّ الله بالعلم والحفظ وسعة الرَّحمة وغير ذلك، أو فثمَّ جهة الله أي الجهة التي أمركم بها.

وليس تولِّيكم باختياركم حتَّى يعيبوكم بصلاة بعض إلى الجنوب وبعض إلى الشمال في السفر للجهل بالجهة في غزوة، وقد قيل: نزلت الآية فيهم، وقيل: في الصلاة على الراحلة للضرورة، وصلاة النفل عليها مطلقاً.

---

١ - كذا في النُّسخ، ولعلَّ الأنسب أن يكون الفعل مجرَّدا من الضمير: اسْتَلْحق، أي الله تعالى، تأمَّل.

وفي ذلك اختصاص لنا بأن نصلّي حيث أدركتنا الصلاة، لا كمن قبلنا لا يصلُّون إلاَّ في كنائسهم، وكان عيسى عليه السلام يصلّي حيث أدركته الصلاة، فصلُّوا إلى الكعبة والنفلَ على الراحلة، وصلُّوا في الأرض كلِّها فقد جعلت لكم الأرض مسجداً، ولا يضرُّكم أن منعوكم عن المسجد الحرام أو الأقصى.

وقبل فتح المقدس منع المسلمون من الصَّلاة فيه، وقيل منعهم الإفرنج حين استولوا عليه حتى ردَّه صلاح الدين، وعليه فالآية إخبار بالغيب.

﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يسع فضله وعلمُه كلَّ شيءٍ، ومن سعة فضله أنَّ لكم الأرض مسجداً، فقيل: ولو سبخة حال الاختيار. ولا بدَّ من الطَّهارة، ومن قبلنا لا يصلُّون إلاَّ في مساجدهم، فإذا غابوا عنها تركوها وقضوها.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

افتراءات أهل الكتاب والمشركين بنسبة الولد لله والمطالبة بتكليمه الناس

﴿وَقَالُواْ﴾ عطف على منع، أي ومن أظلم ممَّن منع وسعى وقالوا، أي وممَّن قالوا: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ قالت العرب وبعض النصارى الملائكة والجن بنات الله وقالت النصارى المسيح بن الله، وقالت اليهود عزير بن الله.

(أصول الدين) ومن قال بالأبوَّة والبنوَّة بمعنى الرحمة لم يجز له ذلك، لأنَّ لفظ الكفر كفر، ولو لم يعتقد ظاهره وإن صحَّ أنَّ عيسى قال بذلك على معنى الرحمة فقد قيل به على ظاهره بعده، فيكون لفظ الشرك شركاً بحكم الشرع قطعا لمادة الشرك.

وقد كان بعض بربر الغرب يقولون: «للرحمن بابَ»، فقال بعض علماء الغرب:

يقولون للرحمن بابَ بجهلهم ومن قال للرحمن باب فقد كفَر[1]

وأجاب بعض بأنَّه لا كفر إذ لم يقصدوا الإشراك، ومن قاله و لم

---

١ - تقدَّم قبل في صفحة ٧٨.

يرد الإشراك فليس مشركاً، لكن يُنهى عن قوله.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزِّهوه أيُّها المؤمنون عن الولد تنزيهاً، لأنَّ الوالد له جهات وحدوث وفناء، فيخلفه ولده، وا لله بخلاف ذلك. ﴿بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من غير العقلاء والعقلاء.

ولفظ «ما» هنا للأنواع، والأنواع غير عاقلة، وإنَّما العاقل بعض الأفراد، والمملوك والمخلوق لا يكونان ولدًا للخالق والمالك.

﴿كُلٌّ﴾ ممَّا في السماوات والأرض عليهما وما فيهما من أجزاء. ﴿لَّهُ قَانِتُونَ﴾ عابدون عبادة يعلمها ا لله، أو منقادون لما أراد ا لله، ومن زعموه ولداً فقد أذعن للعبوديَّة لله، وهم ممَّن في السماوات والأرض فليسوا بأولاد.

والآية تناسب حديث: «**من ملك ذا رحمٍ عتِق عليهِ**»[1]. وجمع السلامة للمذكَّر تغليب وتلويحٌ بأنَّ الجمادات وغيرها كالعقلاء في الانقياد، أو لأنَّ ا لله خلق تمييزاً للجمادات يتعبَّدون به، أو جمْعُ السَّلامة للمذكَّر تغليب للعقلاء الذكور.

﴿بَدِيعُ﴾ هو بديع ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي غريب شكلهما إذ

---

١ - لم نقف على تخريجه.

أوجدهما بلا مثال سابق، وفائقهما فيما نشاهد، والعرش ولو كان أعظم منهما لا نشاهده.

(نحو) غريب صفة مشبَّهة أضيفت لفاعلها لأنَّ «بدع» لازمٌ لا مفعول له كقولك: زيد كثير المال، وقد يقال: بمعنى مبدع أضيف لمفعوله.

﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أراد إيجاده، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ﴾ أي اُحْصُل، ﴿فَيَكُونُ﴾ فهو يكون أي يحصل بلا توقُّف. وليس هناك قول بل تمثيل لوجود ما يريد وجوده بسرعة.

﴿وَقَالَ...﴾ إلخ عطف على ﴿قالوا اتَّخذ الله﴾ أو على ما عطف عليه، وذلك قدح في التوحيد وهذا قدح في النبوءة. ﴿الذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ مشركو العرب من مكَّة ومن غيرها، أو مع اليهود والنَّصارى وغيرهم.

وقيل: المراد اليهود على عهد رسول الله ﷺ لما روى ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ رافع بن خزيمة اليهودي قال لرسول الله ﷺ: إنْ كنت رسول الله تعالى فقل له يكلِّمنا حتى نسمع كلامه، فنزلت هذه الآية وقوله تعالى: ﴿يسألك أهل الكتاب...﴾ إلخ، وقيل: النصارى، وأنَّهم المرادون في قوله تعالى: ﴿وقالواْ اتَّخذ الله ولداً﴾ المذكورون

في الآية وهو ضعيف.

﴿لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا ا للهُ﴾ جهرة أو بانزال الوحي إلينا. ﴿أَوْ تَأتِينَآ ءَايَةٌ﴾ على صدقك كتصيير الصفا ذهباً، وإفساح الجبال عن مكّة، وبعث قصي وأنْ يأتي با لله والملائكة قبيلاً، ونحو ذلك ممَّا مرَّ مثل: ﴿لولآ أنزل علينا الملآئكة أو نرى ربّنا﴾ (سورة الفرقان: ٢١). ﴿كَذَالِكَ قَالَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الماضية لأنبيائهم تعنتاً. ﴿مِّثْلَ قوْلِهِمْ﴾ كما قالوا: ﴿أرنا ا لله جهرة﴾(سورة النساء: ١٥٣). ﴿هل يستطيع ربُّكَ أن يُنزِّلَ علينا مآئدة مِّنَ السمآءِ﴾ إلخ (سورة المائدة: ١١٢).

وليس مِن طلب الآيات ﴿لن نَصبِرَ على طعامٍ واحدٍ...﴾ إلخ (سورة البقرة: ٦١) و﴿اجعل لنآ إلَهاً﴾ (سورة الأعراف: ١٣٨) بل مجرَّد عناد وفساد. ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قلوب هؤلاء وأولئك في الكفر والعناد، فلا يشتدُّ حزنك يامحمَّد إذ قيل لك ما قيل لمن قبلك.

﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بأنَّها آيات توجب الإيمان أي نزَّلناها بيِّنة من أوَّل الأمر، لا غير مبيِّنة ثم بيَّناها، وهذا كقولك: «وسِّع فم البئر» و«أدِرْجيب القميص» و«سبحان من صغَّر البعوض».

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

التحذير من اتباع اليهود والنَّصارى

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ﴾ يامحمَّد ﴿بِالْحَقِّ﴾ مع الحقِّ وهو دين الإسلام أو لأجل إقامته، ﴿بَشِيراً﴾ لمن اتَّبعه بالجنَّة، ﴿وَنَذِيراً﴾ لمن خالفه بالنار، ولم نرسلك لتجبَّر عليه إنْ أنت إلاَّ بشير ونذير، ﴿لست عليهم بمسيطر﴾. ﴿وَلاَ تَسْئَلْ عَنَ اَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ النار الملتهبة، وأصحابها اليهود والنصارى ومشركوا العرب، وسائر المشركين؛ لا تسأل عنهم فإنَّ عقابهم لا يسعه إخبارك به، ولا يحتمله فهمك فلا فائدة في السؤال عنه، وا لله قادر على الإخبار به ولكن لا يمكنك الإطلاع عليه في الدنيا، فتسلَّ بشناعته عن ضرهم لك، ولا تسأل عنهم سؤال تحسُّر لِم لمْ يؤمنوا؟ مع وضوح الدلائل.

(سبب النزول) وعن ابن عباس أنه ﷺ سأل ا لله عن أبويه فنزلت نهياً عن السؤال عن الكفرة عموماً، وإنَّما سأل عن خفَّة عذابهما وشدَّته، أو عن حال أهل الفترة فأخبره

بأنَّـهم غير معذورين، وذلك قبل أنْ يحييَهما ا لله ويؤمنـا بـه علـى ما روي ضعيفاً. وروي أنـَّه سأل جبريل عن قبريهما فدلَّه عليهمـا فذهـب إليهمـا فدعـا لهمـا وتمنّـى أنْ يعـرف حالهمـا، وقـال ليـت شعري ماحالهما في الآخرة؟ فـنزلت الآيـة **والصحيـح أنَّ الآيـة في أهل الكتاب، أو فيهم وفي سـائر المشـركين لا فيهمـا**. ولا بـأس على من وقف فيهما لشبهة ماذكروا من الأحاديث في إيمانهمـا إذْ كانت ضعيفة لا للحَمِيـَّة والضعفِ في الولاية والبراءة.

﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ اليَهُـودُ وَلاَ النَّصَارى حَتّى تـتّبِعَ مِلّـتَهُمْ﴾ أفرد المِلّة مع تعدُّدها لأنَّ مِللهم كلها كفر، والكفر ملـَّة؛ وسمِّيت ملَّـةً لأنَّ الشيطان أملاها عليهم أو أهواؤهم وأنفسهم، كما أنَّ دين ا لله عزَّ وجلَّ أملاه جبريل للنبيء ﷺ.

قالوا له ﷺ لن نرضى عنك حتّى تتَّبع ديننا وقبلتنا فإنَّـه الهـدى، فأنزله ا لله عليه وهو في اللوح المحفـوظ سـابق، وأعلمـه أنَّ الأمـر كمـا قالوا لا يرضون عنك إقناطاً له عنهم إذ اتـّباعه ملّتهم في غاية البعد التي لا غاية بعدها.

وكان يلاطفهم طمعاً في إيمانهم حتى نزلت، وعلَّمه أنْ يردَّ عليهم في قوله: **﴿قُل اِنَّ هُدَى ا للهِ﴾** وهو ديـن الإسـلام، **﴿هُوَ الـهُدَى﴾**،

تحقيقا إلى الحقِّ لاملَّتكم ولا غيرها من كل ما خالفه، **فأيسوا** بعد ما كانوا يرجونه.

﴿**وَلَئِنْ اِتَّبَعْتَ**﴾ وا لله لئن اتبعت، ﴿**أهْوَآءَهُمْ**﴾ أي ملَّتهم التي ادَّعوها دينا، ومقتضى الظاهر: ولئن اتَّبعتها ـ أي الملة ـ وعبَّر عنها بالأهواء ليصرّح بأنَّها مجرَّد اتِّباع النفس. ﴿**بَعْدَ الذِي جَآءَكَ مِنَ العِلْمِ**﴾ هو العلم، والمراد الحقيقة أو بعض العلم.

﴿**مَا لَكَ مِنَ ا للهِ مِن وَّلِيٍّ**﴾ يلي أمرك بحفظك من العذاب من أوَّل، ﴿**وَلاَ نَصِيرٍ**﴾ يدفعه عنك إنْ جاءك لا وليَّ ولا ناصر إلا ا لله، فإذا لم يجئك وليٌّ من عنده ولا نصير هلكت، أو ما لك وليٌّ ولا نصير من عند ا لله.

﴿**الذِينَ**﴾ خبره ﴿أولئك يُومنون به﴾، ﴿**ءاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ**﴾ الإنجيل والتوراة، وقيل: المراد المؤمنون والقرآن، ﴿**يَتْلُونَهُ**﴾ أي القرآن، والجملة حال، أي مقدَّراً ـ بفتح الدال ـ لهم أنْ يتلوه ﴿**حَقَّ تِلاَوَتِهِ**﴾ لا يغيِّرون لفظه ولا معناه، ولا يزيدون ولا ينقصون، ويعملون به ويتفكَّرون في معانيه، ويكلون متشابهه إلى ا لله، **وذلك هو قراءته حقَّ قراءته**، وأمَّا قراءته بإخلال ذلك أو بعضه فكَلاَ قراءة، أويتلونه: يلونه

بتلك الحقوق، وهم عبد الله بن سلام ونحوه من أهل المدينة وغيرها من علماء أهل الكتاب العاملين به، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية رهابين من أهل الشام، منهم بحيرى الراهب دخلوا الحبشة ورجعواْ مع الإثنين والثلاثين منها مع جعفر رضي الله عنه وأصحابه في سفينة إلى رسول الله ﷺ.

وإنّما جعلت يتلونه حالا مقدَّرة لأنـَّهم حال إيتاء الكتاب ليسواْ يتلون القرآن حقَّ تلاوته، بل بعدُ.

﴿أولَئِكَ يُومِنُونَ بِهِ﴾ بالكتاب، أو بالله لا إله إلا الله، أو «الذين»: الأنبياء، و«الكتاب»: الجنس؛ وإنّما قلت: والتوراة لأنَّ من آمن بالإنجيل تحقيقاً حتّى آمن بالقرآن لا يكفر بها. ولا يجوز أنْ يراد علماء أهل الكتاب مطلقا كقوله: ﴿والذين ءاتيناهم الكتابَ يعرفونه...﴾ الآية، لأنـَّه ليس كلُّ من عرفه يتلوه حقَّ تلاوته. ﴿وَمَن يَّكْفُرْ بِهِ﴾ بالكتاب: التوراة والإنجيل، بل يحرِّفه بزيادة أو نقص أو كتم أو تفسير بما ليس حقاً. وقيل: القرآن كما مرَّ. ﴿فأولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ إذ بدَّلوا الهدى بالضَّلالة، والجنّة بالنّار، وهذا لعمومه أولى من التفسير بأخذ الرُّشى على الدِّين.

﴿يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

تذكير بالنعمة وتخويف من الآخرة

﴿يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عالَمي زمانهم ومن قبلهم ومن بعدهم، إلاَّ هذه الأمَّة فإنَّها أفضل الأمم على الإطلاق، لقوله: ﴿كنتمْ خيرَ أمَّة أُخرجت للنَّاس﴾ (سورة آل عمران: ١١٠)، ولا تكون خير أمَّة إلاَّ لمنْ هو خير الرُّسُلِ، صدَّر قصتهم بهذا وختمها به تأكيداً لتذكُّر النِّعم، وللتَّحذير من إضاعتها.

﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا﴾ عقاب يوم، ﴿لاَّ تَجْزِي﴾ فيه ﴿نَفْسٌ﴾ مؤمنة أو مطلقا، ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ كافرة أو مطلقاً، ﴿شَيْئًا﴾ أي جزاءاً، ولا تدفع شيئاً، ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فداء، لأنَّه يعادل المفدى، ﴿وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ أي لا شفاعة لهم فضلاً عن أنْ تقبل، أو هو على ظاهره إلاَّ لمن أذن له، فقد روي أنَّه ﷺ يقول: «أُصَيْحَابِي»

فيقال: «لا تدري ما أحدث هذا بعدك»[١]. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بدفع العذاب عنهم.

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

اختبار إبراهيم عليه السلام وخصائص البيت الحرام وفضائل مكّة

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل، أو أذكر يا محمَّد إذ ابتلى، أو متعلّق بـ«قال» بعد، أوبـ«كان كذا وكذا» فحذف، أي كلّف حقيقة أو اختُبِر مجازًا لعلاقة اللُّزوم، فإنَّ التكليف ــ وهو الأمر

---

١ - رواه مسلم في كتاب الصلاة (١٤)، باب حجَّة من قال البسملة آية من كلّ سورة، رقم ٥٣ (٤٠٠).

والنسائي في كتاب الافتتاح (٢١)، باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم، رقم ٩٠٣، من حديث ابن عبَّاس.

والنّهي وإلزام ما فيه المشقّة ـــ يستلزم الإخبار بالنسبة إلى من يجهل العواقب تعالى الله. ومعنى تكليفه أنّه قدّر له ذلك وقضى أنْ يجري له، فلا يشكل بما كان من الكلمات قبل بلوغه. ﴿إبراهيم﴾ «أب راهيم» أي رحيم، وذلك لغتهم العبرانية تشبه العربيّة.

(قصص) قال السهيلي: كثيراً ما يقع الاتّفاق أو التّقارب بين العبرانيِّ والعربيِّ، ألاّ ترى أنَّ إبراهيم تفسيره أبٌ ارْحَم، لرحمته بالأطفال، ولذلك جعل هو وزوجه كافلين لأطفال المؤمنين الذين يموتون صغارًا إلى يوم القيامة. إبراهيم بن تارخ بن آزر، أو إبراهيم بن آزر، وهو الصحيح، بل تارخ هو آزر بن ناخور بن شارخ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن فينان بن ارفخشد بن سام بن نوح، ويقال فينان ساحر فأسقَطوه.

(فقه) ﴿رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾: أي معان، تسميةً للمدلول باسم الدّال: المضمضة والاستنشاق والسواك وقصٌّ الشارب وفرق شعر الرَّأس إلى الجانبين إذا طال أربعة أصابع عرضاً، وقلم الأظفار، ونتف الابطين، وحلق العانة والختان ــ قيل ختن نفسه وهو ابن مائة وعشرين سنة ـــ والاستجمار والاستنجاء بالماء، وأمَّا بالحجارة قبله فلهذه الأمَّة خاصَّة، والتوبة والعبادة والحمد والسياحة، والركوع والسُّجود، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وحفظ حدود الله والصَّلاة والخشوع، وترك اللَّغوِ، والزَّكاة، وحفظ الفروج،

وحفظ الأمانة، وحفظ العهد، والمحافظة على الصَّلاة، والإيمان، والقنوت، والصدقة، والصوم، وكثرة ذكر الله، ومداومة الصلاة، وإعطاء السائل والمحروم، والتصديق بيوم الدين، والإشفاق من العذاب، والقيام بالشهادة، وقربان الأزواج، وقربان المملوكات، وإعفاء اللّحية، والإحرام، والوقوف بعرفات، والمبيت بالمزدلفة، والرَّمي، والذّبح، والحلق، والطواف، والسَّعي، والنّظر في الكوكب والقمر والشمس ــ فيحصل الحجَّة ــ وذبح الولد، والتسليم للوقوع في نار نمروذ، وسائر الأوامر، والنّواهي، والهجرة بدينه من العراق لكفر فيه إلى حرَّان، ثم إلى الشَّام ليجد الوصول إلى دينه، **صبر على ذلك كله** كما قال الله جلَّ وعلا.

﴿**فَأَتَمَّهُنَّ**﴾ أتى بهنَّ تامَّات كما قال: ﴿وإبراهيم الذي وفّى﴾(سورة النجم: ٣٧). ﴿**قَالَ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾ قدوة في الدين إلى يوم القيامة، ولا نبيء بعده إلاَّ من ذرِّيته مأموراً باتِّباعه في الجملة، وهو إمام لكلِّ نبيء بعده وكل نبيء إمام لمن بعده من العامَّة والأنبياء، وذلك في الأصول ومكارم الأخلاق، وهو محبوب في جميع الملل.

وعن مجاهد الكلمات هي: ﴿إنِّي جاعلك...﴾ إلى آخر القصَّة، والإمام كلُّ ما يؤتمُّ به كما قيل لخيط البناء إمامًا لأنَّه يقتدى به في البناء.

﴿قَالَ:﴾ إبراهيم ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعل ائمَّة أنبياء، وقيل أو غير أنبياء من ذرِّيتي ، أو وأئمة من ذرِّيَّتي عطفاً على محلِّ النَّصب للكاف، وكأنَّه قيل: وجاعل من ذرِّيتي أئمَّة.

وللكاف محل جرٍّ بالإضافة، ومحلُّ نصب على المفعولية، لأنَّ «جاعل» اسم فاعل للإستقبال، وهو من زيادة السَّامع إلى كلام المخاطب، كقول الصَّحابة: والمقصِّرين، بعد قوله ﷺ: «**اللهمَّ ارحم المحلِّقين**»، ويقول القائل: جاء زيد، فتقول: راكباً، وكما قال العبَّاس: «إلاَّ الإدخر» بعد تحريم النبيء ﷺ شجر مكَّة وكلأها.

(صرف) والذرِّية تشمل الأنثى، كما أنَّ عيسى هو ابن مريم، ومريم من ذرِّيته؛ والياء المشدَّدة زائدة، فوزنه فُعْلية ــ بضمٍّ فاسكان ــ وياءه في الأصل للنسب، والأصل فتح أوله وضمٌّ، كما قيل: دهريٌّ بضمِّ الدَّال في النَّسب إلى دَهر بفتحها، أو الياء الثانية عَنْ راء، قلبت ياء لئلاَّ تجتمع ثلاث راءات، وأدغمت فيها الياء، والأصل «ذُرِّيرة» بضم الذَّال وشدِّ الرَّاء الأولى مكسورة، أو «ذرُّورة» بالواو، وكلُّ ذلك من الذَّرِّ بمعنى التَّفريق؛ وإمَّا من الذرء بمعنى الخلق، فالراء الثانية زائدة، والأصل ذريئة أو ذروية قلبت الهمزة ياء، وأدغمت الياء في الياء في الأوَّل، وقلبت الواو ياء في الثاني وأدغمت الياء في الياء.

﴿**قَالَ: لاَ يَنَالُ**﴾ لا يصيب ﴿**عَهْدِيَ**﴾ معهودي إليك، أو أمانتي، وهو الأمانة؛ تسمى الأمانة عهداً لأنَّها تعاهد بـالحفظ. ﴿**الظَّالِمِينَ**﴾ من ذرِّيَّتك، وهـذا إجابة لدعائه أنْ يجعل من ذريته أئمَّة، ولكنَّه استثنى الظالمين بفسق أو بشرك.

(فقه) فأيُّما فاسق أو مشرك تصدَّر فليس بإمام، أو خليفة أو حاكم بل غاصب، **ولا يصلح للإمامة - وهي أمانـة الله - من يخون** ولا ينفذ حكم الفاسق، وناصبه ظالم «ومن استرعى الذئب ظَلم». وعن الحسن أنَّ الله تعالى لم يجعل للظالم عهداً فلا يوفى له بشأن إمامته إذا أحدث ظلماً، **فالعدل كما شرط في البدء شرط في البقاء**، وإنْ نصب بعد توبته جاز كما كان أبو بكر وعمر خليفتين بعد إسلامهما من شرك.

﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ**﴾ الكعبة، ﴿**مَثَابَةً لِلنَّاسِ**﴾ مرجعا يثوب إليه من كان عنده أو يجيئه من لم يكن عنده، ويلتجئ إليه الخائف.

(لغة) وإطلاق الرجوع لمن لم يكن عنده مجاز، فذلك جمع بين الحقيقة والمجاز وقد أجيز، وهو من عموم المجاز يناسب الإطلاق، إنَّ الآتي والرَّاجع كواحد، لاتِّفاق الدِّين، أو «مثابة» بمعنى موضع ذهاب إليه أو مزار، استعمالٌ للمقيَّد في معنى المطلق، أو هو موضع ثواب فلا مجاز، وتاؤه لتأنيث البقعة، وقيل هي للمبالغة كما في

الوصف كعلامة لكنَّه يؤنَّث، وهو اسم مكان ميميٌّ، أو مصدر ميمي أي ذا ثواب، والأوَّل أولى والأصل مثوبة باسكان الثاء فتحت بفتحة الواو نقلا فقلبت ألفًا.

﴿وَأَمْناً﴾ موضع أمن، أي ذا أمن، وقد يناسب هذا أن تجعل مثابة مصدرًا أي ذا مثابة وامن للناس في حرمه، أو أمن لحرمه لا يقع فيه ما يقع في غيره من الظلم والغارة، يلقى فيه الرجل قاتل أبيه فلا يخيفه ولا يُهيِّجه، ويتبع الكلب الصيد فيدخل في الحرم فلا يتبعه بعد لحرمة الحرم، وقد قال الله: ﴿حَرَمًا ـ امِنًا﴾.

(بلاغة) فقد نقول «أَمْنًا» بمعنى آمِن، إلاَّ أن فيه مجاز التعلق والاِشتقاق، إذ جعلنا المصدر بمعنى اسم الفاعل، ومجاز الإسناد لأنَّ الذي يأمن هو الناس لا الحرم، وما تقدَّم فيه مجاز واحد كَلاَ مجازٌ، إذ هو مجاز حذف.

(فقه) ومن جنى في الحرم حدَّ فيه، أو خارجاً فالتجأ إليه أخرج أو ضيِّق عليه حتى يخرج فيحدَّ، وذلك من جملة الأمن فيه، وذكر بعض أنَّه أمن للحاجِّ من النار، وكفَّارة لذنوبه التي بينه وبين الله يوم القيامة، ولا يدري في الدنيا أُقبل منه أو ردَّ.

﴿وَاتَّخَذُواْ﴾ أي الناس، ﴿مِنْ مَّقَامِ إبراهيم مُصَلًّى﴾ بفتح الخاء [على قراءة ورش] إخبار بمعنى الأمر كأنَّهم امتثلوا الاِتخاذ فهو يخبر

بوقوعه. والعطف عطف قصَّة على أخرى، أي وإذ اتخذوا، أو على جعلنا، لأنَّ الغرض بيان أحوال البيت، ومنها الجعل والإتـِّخاد، أو يقدَّر: فثابوا واتخذوا، ولا بأس به، ولو كان الأصل عدم الحذف لاتحاد المسندين في المسند إليه.

(لغة) و«مِن» بمعنى إلى، لأنَّ المصلّي يتوجَّه إلى الحجر الذي هو المقام، وينوي القبلة الكعبة، أو للابتداء كقولك: رأيته من ذلك المكان، أي انتهى شأنه منه إليك، أو«من» للتبعيض أو الظرفيَّة، على أنَّ المقام الحرم، أو ما دار بالمطاف لا الحجر خصوصاً، والمراد على كلٍّ وجه بالمصلى هذا الموضع المختار لركعتي الطواف.

ويستحبُّ النفل والفرض فيه إذا لم يعطّل ركعتي الطواف، وذلك أنـَّه اتخذ للصلاة مطلقاً، وهو أربعون ذراعاً شمالاً، ويميناً، وخلفاً.

(قصص) والمقام موضع القيام، وهوذلك الحجر قام عليه عند بناء الكعبة، يدور به إلى جهاتها ويعلو به، وعند ندائه: «أيـُّها الناس حجُّوا بيت ربِّكم»، تطاول حتى ساوى أبا قبيس، وعند غسل زوج إسماعيل رأسه أعني رأس إبراهيم إذ زاره ولم يجده، أو زار الكعبة.

والمحوِّل له الى موضعه اليوم هو رسول ا لله ﷺ كما هو مروي بسند ولو كان فيه ضعف، لا عمر، كما روي بسند ولو كان

قويًّا. ولو احتمل أنَّه صلّى رسول الله ﷺ ملصقا بالبيت، فعلم عمر أنَّ المرادَ جعله بين المُصلّي والكعبة أينما هو فأخَّره إلى حيث هو اليوم. وروي أنَّه ﷺ أخذ بيد عمر فقال له: «**هذا الحجر مقام إبراهيم**»، فقال: عمر: «ألا تتَّخذه مصلًّى؟» فقال: «**لم أومر بذلك**»[1]، فلم تغب الشمس حتّى نزلت الآية.

ويقال كان داخل الكعبة ثم أخرج، وقيل موضعه اليوم هو بيت إبراهيم يحوله إليه من البناء كلَّ يوم.

وقيل المقام الحرم، وقيل مواضع الحج والصلاة والدعاء: عرفات والمزدلفة ومنى ومواضع الرمي. والصلاة في ذلك دعاء، وقيل الكعبة أي موضع صلاة إليه إذ يصلّى إليها.

(فقه) ولا مقام إلا مقام إبراهيم عليه السَّلام، وهو مقام للمؤمنين كلّهم على حدٍّ سواء، ولا وجه لنسبته "للشافعي"، ولا وجه للبناء فيه لأنَّه نقص منه، ومن المسجد، ولا وجه لجعل مقام آخر "لمالك" وآخر "لأبي حنيفة" وآخر "لأحمد"، فإنَّ ذلك زيادات في الدين، وتشرُّع فيه، وبدعة ونقص من الحرم والمقام بالبناء، ومناقضة

---

١ - ذكره ابن كثير في تفسيره، ج١، ص٢٩٦، من حديث جابر، بلفظ: «**لـمَّا طاف النبيء صلّى الله عليه وسلّم قال له عمر: هذا مقام أبينا؟ قال: نعم، قال: أفلا نتَّخذه مصلًّى؟ فأنزل الله الآية**».

لمقام إبراهيم حتّى أنّه استوت الثلاثة عند العامّة بمقام إبراهيم، ويفضّلها عامة أهليها على مقام إبراهيم(١).

وقد قال أمير مكّة للسلطان حمود(٢) وهو سلطان زنجبار أعوام إقامته بمكّة: أَبْنِي مقامًا لك وللإباضية لأهل مذهبك؟، فقال: «لا تفعل، لأنّه خلاف الشريعة، ولأنّهم لا يقبلون ذلك عني ولا عنك، ولا يقف فيه أحد منهم»، فلذلك ونحوه قلت فيه القصيدة:

حمّودنا بن محمَّد وشيعتِه ظِلُّ البريَّة، والحقُّ شريعتُه

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إبراهيم وَإِسماعيل﴾ أصله «اسمع ايل» أي يا الله، ولقد علِمْت أنَّ العبريَّة قريبة من العربيَّة، والمعنى أنَّ إبراهيم قال: «اسمع ياالله دعائي بأن ترزقني ولداً» فرزقه فسمَّاه إسماعيل وهو قويٌّ،

---

١ - هكذا كان في عهد المؤلّف، أمّا الآن فقد أزيلت، ولم يبق إلاّ مقام إبراهيم عليه السلام.

٢ - هو السلطان حمود بن حمد العماني الزنجباري (١٢٧٠-١٣٢٠هـ)، سافر من مسقط إلى زنجبار في أيَّام سلطنة ماجد بن سعيد، وتزوَّج هناك، وقد اشتهر بالرحلة والدعوة في سبيل الله، وقد جاور في مكّة المكرّمة مدّة ثلاث سنين، وكان غاية في الورع والزهد. تولى الحكم في زنجبار يوم ١٧ ربيع الثاني ١٣١٤هـ، لمدَّة ستّ سنوات وستّة أشهر. وقد توفي رحمه الله بزنجبار.

جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار: سعيد بن علي المغيري، تحقيق محمَّد علي الصليبي، نشر وزارة التراث، عمان، ط٢، ١٩٨٦م.

ولو ضعَّفه بعض، وأختار أنَّه بمعنى: مطيع الله، والعهد إلى إبراهيم بالذَّات وإلى إسماعيل بالواسطة أمرناهما، وأمرهما علمٌ عهد إليهما. وفسر العهد إذ فيه معنى القول بقوله: ﴿أَنْ طَهِّرَا﴾ أو يقدَّر بـ«أن طهِّرا» ﴿بَيْتِيَ﴾ من الأوثان والأنجاس وما لا يليق، والحائض والنفساء وأهل الشرك، أي: اِبنياه على رسم أنْ لا يكون فيه ذلك، كقولك: «أدِرْ جيب القميص، وأطل القلم» أي جئ بهذه الصِّفة من أوَّل، أو أخلصاه.

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ حوله لا يعطِّلون عن الطَّواف، ولا يكون عنده من ليس أهلاً للطواف كالمشرك وذلك على عمومه، وقال ابن جبير: ا لغرباء الوافدون حجاجا وزوَّاراً. ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ المقيمين عنده بالتوحيد والطاعة، قال عطاء: الجالسون عنده بلا طواف، وقيل: المجاورون له من الغرباء، وقيل: المعتكفون فيه.

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ جمع ساجد، والمراد بالركع السجود المصلُّون وذكر الرُّكوع والسجود، لأنَّهما أقرب أحوال المصلِّي إلى الله تعالى.

وقد أتمَّ الله تطهيره عن الأوثان وكلِّ ما لا يليق بنبيئنا ﷺ وأتمَّ عمارته بالطَّواف والعبادات والصلاة المشتملة على الركوع مقدَّماً والسجود بعده على ترتيب لفظ الآية، لا كصلاة اليهود بلا ركوع، ولا كصلاة لا سجود فيها، ولا كصلاة يتقدَّم سجودها على ركوعها

كما قيل عن اليهود أيضاً، ولا كصلاة مشركي العرب يقولون: السُّجود مسبَّة، فيركعون ولا يسجدون.

﴿وَإِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّ اِجْعَلْ هَذَا﴾ أي هذا البلد. دعا بعد أن كان عمارة، أو هذا المكان وهو أرض مكّة قبل أنْ يكون فيها ماء وعمارة، وهذا الدعاء قبل ذلك. ﴿بَلَدًا ـ امِنًا﴾ ذا أمْنٍ، كـ«لاَبِنٌ» بمعنى ذي لبن، أو بمجاز عقلي من الإسناد إلى المكان، إذ الآمِنُ مَن فيه، أو آمنًا أهلُه، طلب في المرة الأولى كون الوادي بلداً آمناً، أي معموراً آمناً، فاستجيب له في كونه بلداً معموراً، وتأخّرت الاستجابة في الأمن، ثم كرَّر الطلب للأمن فاستجيب له، إذ قال: ﴿ربِّ اجعل هذا البلد ءامناً﴾ فجعله ا لله بلداً ءامناً.

(فقه) لا ينفر صيده، ولا يسفك فيه دم، ولو قصاصاً أو حدًّا، إلاّ إن جنى فيه، وعن الشافعي يُقتصُّ منه ويُحَدُّ فيه، ولو جنى خارجه إذا دخله؛ ولا يختلى خلاه، وتضاعف فيه السيئات: الواحدة بمائة كالحسنات: الواحدة بألف وبمائة ألف؛ ولا يظلم فيه، ولا يخسف، ولا يمسخ فيه، إلا ما قيل أنَّه مسخ رجل وامرأة زنيا في الكعبة، ولا يقحط، ولا يخاف من عدوٍّ.

وليس طلب الأمن تكريراً لقوله: ﴿وإذْ جَعَلنا البيتَ مثابةً للناسِ وأمناً﴾، لأنَّ ذلك إخبار من ا لله وما هنا طلب من إبراهيم؛ أخبرنا ا لله بما

استجاب له فيه قبل، فلا حاجة إلى أنْ يُقالَ: أرادَ هنا الأمن من القحط.

كما قال: ﴿وَارْزُقَ اَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي من أنواعها، وقد استجيب له حتى أنَّه يجتمع فيها في اليوم الواحد ثمرات الفصول من الطائف.

قال: ابن عباس نقل الله بقعة فلسطين بالشام، وقيل من الأردن، وجعلها في الطائف، وسمِّيت بالطائف لأنَّ جبريل طاف بها سبعاً ووضعها في ذلك الموضع، توسعة لرزق الحرم إجابة لدعائه عليه السلام.

﴿مَنَ ـ امَنَ مِنْهُمْ بِا للهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ﴾ لا جميع أهله، ولا كفّاره، متابعة لقوله تعالى: ﴿لا يَنالُ عَهدِيَ الظالمين﴾، فأخبره الله أنَّ الرِّزق يعمُّ الظالم لا كالإمامة لقوله: ﴿قَالَ﴾ الله جلَّ وعزَّ ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ عطف من الله على قول إبراهيم من آمن، كما في قوله: ﴿ومن ذرِّيتي﴾، كما يقول الرجل: «أكرمْ زيداً» فتقول: «وابنه»، أويقدَّر: وأرزقُ من كفر ـ بفتح الهمزة وضمِّ القاف ـ، وعطَف على هذا المقدَّر بقوله: ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ أو قل يا إبراهيم: ومن كفر، أو أرزقُ من آمن ومن كفر ـ بالفتح والضمِّ ـ، أو من كفر فأنا أمتِّعه، أو فقد أمتِّعه، فحذف «أنا» أو «قد»، وإنْ جعلنا «مَن» موصولة مبتدأ فالفاء صلة في خبرها بلا تقدير، والمراد تمتيعاً قليلاً أو زماناً قليلاً، وكلما كثر أو طال من الدنيا فقليل قاصر. ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ,﴾ أُلجئه بَعْدَ موته ﴿ إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾ لكفره، فلا يجد امتناعاً عنها، وذلك بلا

تحرك منه، كقوله تعالى: ﴿يوم يُدَعُّون إلى نار جهنّم دعًّا﴾ (سورة الطور: ١٣) وقوله: ﴿إذ الأَغلالُ في أعناقِهم والسلاسِلُ يُسحَبون﴾(سورة غافر: ٧١) وقوله: ﴿يُعرَف المجرمونَ بسيماهُم فيُوخذ بالنواصي والأَقدامِ﴾(سورة الرحمن: ٤١) وبتحرُّك كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وسِيقَ الذين كفروا﴾ (سورة الزمر: ٧١). ﴿وَبِيس الْمَصِير﴾ النار أو عذابها، أو الصيرورة، فإنَّه يصار إلى المعاني كما يصار إلى الأجسام.

والمتسبِّب عن الكفر شيئان: الأول تقليل التمتيع إذ قصر على التمتيع الدنيوي، و لم يوصل بالأخروي، والثاني اضطراره إلى عذاب النار.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

بناء البيت الحرام، ودعاء إبراهيم وإسماعيل

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾ المضارع لحكاية الحال الماضية، كأنَّ المخاطب حَضَر حين رفع ﴿إبراهيم الْقَوَاعِدَ﴾ الأساس أي ينشئها، والجُدر

لأنَّ كل جزء منها قاعدة لما فوقه، أو رفعها تعظيمها بالحجِّ إليها، من القعود وهو الثبوت. ﴿مِنَ الْبَيْتِ﴾ وليس المراد أنَّها كانت قصيرة وأطالها، أوقَعَ الإطالة على القاعدة للجوار أو الحلول، لأنَّ الجدار المجاور لها أو الحال فيها غير مرفوع أيضاً، بل يحدث بأحداث سافة ثم سافة؛ ولا مانع من أن يراد برفع الجدُر جعل آخرها عالياً بإكثار السافات. ﴿وَإِسماعيل﴾ أخَّره لأنَّه غلام تابع له معين له بمناولة الحجر والطين، ومع ذلك سمَّاه رافِعاً، لأنَّ الرفع بواسطة المناولة وذلك من عموم المجاز، وهو هنا مطلق ما به حصول الرفع، أو جمع بين الحقيقة والمجاز، أو يقدَّر: وإسماعيل يناوله كقوله:

وزججن الحواجب والعيونا[1]

ويضعف أن يقال: تارة يبني إبراهيم وتارة إسماعيل، أو يبني أحدهما موضعاً منه والآخر موضعاً، ولو في وقت واحد.

قائلين: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ﴾ التفعُّل للمبالغة بمعنى: اِقبل قبولاً عظيماً، بأنْ يزيد له ثواباً على القبول؛ ﴿مِنَّآ﴾ بناءنا وسعيَنا فيه؛ ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ﴾ لدعائنا أي العليم به، واختار لفظ السَّمع لأنَّه في الجملة للأصوات. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتنا.

---

١ - نسبه في لسان العرب للراعي، وصدره: وهزَّة نسوةٍ من حيّ صدقٍ .... ابن **منظور**: لسان العرب، ج٣، ص١١، مادة "زجج".

﴿رَبَّنَا﴾ تأكيد للأوَّل أو استجب دعاءنا يا ربَّنا؛ ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ منقادَيْن إليك، ومخلصين لك أعمالنا؛ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً﴾ واجعل من ذرِّيتنا أمَّة ﴿مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ طلب البعض لعلمه من قوله: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ أنَّ من ذرِّيته من لا يكون مسلماً لله، واختار الذرِّية لأنَّها أحقٌّ بالشفقة ﴿وأنذرْ عشيرَتَك الأقربين﴾ (سورة الشعراء: ٢١٤)، ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ (سورة التحريم: ٦)، ولم يلغِ غيرهم لأنَّ صلاح بعض الذرِّية صلاح لغيرهم من الأتباع.

وقد أوقع الله ذلك فأخبر به نبيه ﷺ إذ قال: ﴿ومن ذرِّيتهما محسنٌ وظالمٌ لنفسِه مبينٌ﴾ (سورة الصافات: ١١٣) ومن ذلك البعض أمَّة رسول الله ﷺ المجيبة المخلصة العربيَّة التي من نسل إبراهيم، وأمَّا غيرهم فتبع لهم. ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَآ﴾ علِّمناها وهي شرائع ديننا أو مناسك الحجِّ، ومنها الذَّبح؛ أو بصِّرنا مواضعها، ومنها مواضع الذَّبح. وأصل النسك: العبادة الشاقَّة، ثم خصَّ بالحجِّ لمشقَّته، وربَّما خصَّ بعده بالذَّبح.

(قصص) وموضع الكعبة قبل الأرض بألفي عام زبدة بيضاء، وبسطت الأرض من تحتها واستوحش آدم وشكا إلى الله عزَّ وجلَّ فأنزل عليه البيت المعمور ياقوتة من الجنة لها بابان من زمرد أخضر: باب غربي وباب شرقي في موضع الكعبة، وقال طف وصلِّ

عنده كعرشي، وأنزل عليه الحجر الأسود فحج آدم من الهند ماشياً معه ملك يدلُّه، واستقبلته الملائكة أربعين فرسخاً وقال له الملائكة: «برَّ حجُّك يا آدم»، وقالوا دفعا لما قد تستعظم النفس من عبادتها: لقد حججناه قبلك بألفي عام، وزاد بعد ذلك تسعة وثلاثين حجَّةً من الهند ماشياً، ورفع في عهد آدم ألى السَّماء الرَّابعة وبنى الكعبة في موضعه، وقيل رُفع في الطوفان، يدخله كلَّ يوم سبعون ألف ملك ولا يعودون إليه، وأمر الله عزَّ وجلَّ جبريل عليه السلام أنْ يخبئ الحجر في أبي قبيس صيانة من الغرق، وبقي البيت خرباً إلى أن أمر الله إبراهيم ببنائه وبناه وردَّ إليه الحجر[1].

(تاريخ) وقد أمر الله جلَّ جلاله الملائكة أن ينوا في كلِّ سماء، وأرض بيتاً على سمت الكعبة. روي أنَّ الأرض انشقَّت إلى منتهاها وقذفت فيها الملائكة حجارة كالإبل أو كأسنمتها خضراً، وبنوا عليها البيت ثم بَناهُ آدم لطول عهده من حين بنوه، فتلك التي بنى عليها إبراهيم اظهرها الله، فذلك بناآن.

ثُمَّ شيت ثم إبراهيم ثم العمالقة ثم الحَرث بن مضاض الجرهمي، ثم قصي جدُّ النبيء ﷺ، ثمَّ قريش لضعفه بالسَّيل، وحضره ﷺ ابن خمس وثلاثين، ثمَّ عبد الله بن الزبير ليدخل فيه الحطيم على

---

١ - انظر: ابن حجر في **فتح الباري**، كتاب أحاديث الأنبياء، ج٦، ص٣١٦.

أصله، مع ضعفه بحجارة المنجنيق إذ حاصره الحجَّاج. حفر إلى حجارة الملائكة وبنى منها، وإذا ضرب المعول فيها تحرَّكت كلُّها وسائر الأرض القريبة، وجعل لها بابا تحت الموجود الآن، وباباً مقابلاً له من جهة الركن اليمني ملتصقين بالأرض، ابتداء في جمادى الأخيرة وختم في رجب سنة خمس وستين، وذبح مائة بدنة للفقراء وكساهم، وهدمه الحجَّاج كلّه وبناه وأخرج الحطيم، وقيل: هدم الجدار الذي يلي الحطيم فقط، وبناه وسدَّ باب جهة ركن اليمن. وهدم جهة الحجرالقرامطة وأخذوا الحجر، وقتلوا من وجدوا من المسلمين، ثم رد بعد مدَّةٍ طويلةٍ، وبُنيَ ما هدَموه[١]، وبَنى فيه بعض الملوك سنة ألف

١ - ذكر صاحب كتاب **تاريخ الكعبة** حسين عبد الله سلامة: «ذكر أهل التاريخ أنَّ عدوَّ الله أبا طاهر القرمطي وافى مكّة في سابع ذي الحجَّة سنة ٣١٧هـ ، وفعل فيها هو وأصحابه أموراً منكرة، وقلع الحجر، وذهب به معه إلى بلاده "هجر" وبقي موضع الحجر خاليا يضع الناس فيه أيديهم للتبرك، إلى حين ردّ إلى موضعه من الكعبة يوم النحر سنة ٣٣٩هـ، وذلك من أحداث ومذكّرات ثورة القرامطة المعروفة في التاريخ.

والقرامطة أصحاب دعوة شيعية متطرّفة، تفرَّعت عن الإسماعيلية، وانتشرت سنة ٣١٠ هـ بزعامة حمدان القرمطي الإسماعيلي اليمني، وأقام دولة في اليمن وانقرضت بالحروب الصليبية سنة ٩١٥هـ، وبقيت مبادئهم عند الباطنية في صنعاء»

الموسوعة العربيّة الميسَّرة، ص١٣٧٣.

وتسع وثلاثين[1]، وهو من حجارة خمسة أجبل: طور سيناء وطور زيتاء ولبنان بالشَّام والجودي بالجزيرة وقواعده من حراء بمكَّة.

﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ فيما فرط منا من ترك ما هو أفضل إلى ما دونه، وذلك ما ليس بمعصية في حق غير الأنبياء كنوم أكثر الليل، وكما يكون من طبع البشر كعُجب ضروري ينفيانه، وكالانتقام الجائز ونحو ذلك ممَّا ليس ذنباً في حقِّ الناس، وفعلاه عمداً أو سهواً أو نسياناً.

أو ذلك هضم [للنفس] أو تعليم للتوبة، أو استتابة لذنوب ذرِّيتها واضافا لأنفسهما مبالغة، أو يقدَّر: «وتُب على ذريتنا»، أو إجراءٌ للولد مجرى النفس لعلاقة البعضية ليكون أقرب للإجابة، والمعنى: اِقبل توبتنا.

(فقه) وتوبة العامة النَّدم عن المعصية وإصلاح ما فسد، والعزم على إصلاحه إن لم يمكن في الحال، وتوبة الخواصِّ الندم عن المكروه والتقصير والكسل في العبادة، وتوبة خواصِّ الخواصِّ

---

١ - هو السلطان مرادخان العثماني سنة ١٠٤٠هـ، وهو البناء الثاني عشر للبيت المعظَّم، قال صاحب كتاب **تاريخ الكعبة المعظَّمة عمارتها وكسوتها وسدانتها**، حسين عبد الله سلامة: «استغرقت عمارتها من طرف السلطان مراد ستَّة أشهر ونصف، وهذه العمارة هي الأخيرة، ولا تزال على حكمها إلى العصر الحاضر» وطبع الكتاب سنة ١٣٥٤هـ بجدَّة.

الترقّي في الدرجات، وهما عليهما السلام من الثالث، أو يخافان أنْ يكونا من الثاني، ويجوز أنْ يقدَّر: تب على عُصاتنا، أو أراد المجموع فيرجع الكلام إلى العصاة.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ﴾ لمن تاب، ﴿ الرَّحِيمُ﴾ به، كالحجَّة لقولهما: «تب علينا»، وقد مر أنَّ توبة الله التوفيق إلى التوبة أو قبوله التوبة.

﴿رَبَّنَا﴾ استجب دعاءنا، أو كرَّره تأكيداً وتلذُّذاً، وهكذا يقدَّر محذوف، أو يجعل تأكيداً إذ كرَّر النِّداء. ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ في الأمَّة المسلمة لك من ذرِّيتي أو في ذرِّيتي؛ ﴿رَسُولاً﴾ عظيماً ترسله بشرع جديد وكتاب مجيد. ﴿مِّنْهُمْ﴾ من أنفسهم.

وقد استجاب الله دعاءهما بسيِّدنا محمَّد ﷺ لأنَّهما لم يجتمعا إلاَّ فيه، فإنَّ أكثر الأنبياء من ذرية نبيء الله يعقوب ولد نبيء الله إسحاق ولد إبراهيم نبيء الله، وقليل من ولدِ روم بن إبراهيم وهو أيوب وذو القرنين في قول، قال ﷺ: «**أنا دعوة أبي إبراهيم**(١) - يعني هذه الآية، وهو أيضاً دعوة إسماعيل و لم

---

١ - رواه أحمد في **مسنده**، ج٦، ص٨٤، رقم ١٧١٥٠. والطبراني في **الكبير**، ج١٨، ص٢٥٣، رقم ٦٣١، ولفظه عندهما: «**إنِّي عبد الله في أمّ الكتاب وخاتم النبيئين، وإنَّ آدم عليه السلام لمنجدل في طينه، وسأنبِّئكم بأول ذلك - تفسيره - دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى...**» من حديث العرباض بن سارية.

يذكره اجتزاء بالأب الأكبر ولتقدُّمه ـ **وبشرى عيسى** ـ يعني قوله: ﴿ومبشِّراً برسول...﴾ إلخ ـ **ورؤيا أمِّي التي رأت حين وضعتني أنَّه أضاءت بي قصورُ الشام**» وهو ﷺ دعوة أبيه إسماعيل أيضاً لهذه الآية، ولم يذكره النبيء ﷺ لأنَّه تبع لأبيه إبراهيم، ولأنَّ أباه إبراهيم هو الأصل في هذا الدُّعاء الذي في الآية.

﴿**يَتْلُو**﴾ يقرأ ﴿**عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ**﴾ أي القرآن والمراد معانيه، لكن بألفاظه، وهو دلائل النُّبوءة والتَّوحيد والشَّرع. ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ**﴾ القرآن أيضاً، والمراد لفظه، أو الآيات ألفاظه والكتاب معانيه عكس ذلك، أي ويعلِّمهم معانيه. ﴿**وَالْحِكْمَةَ**﴾ ما فيه من الأحكام بينها لهم، أو الحكمة العمل به، أو وضع الأشياء في مواضعها، أوما يزيل حبَّ الدنيا، أو الآداب أو السنَّة. ﴿**وَيُزَكِّيهِمْ**﴾ من الشرك والمعاصي.

ومعلوم أنَّ التَّخلية قبل التَّحلية ولكن أخَّرها هنا لشرف التَّحلية هذه، ولتقدم التخلية هذه في الذِّهن والقصد فجيء بترتيب الذِّهن ولو تقدَّمت التَّخلية في الخارج، ولأنَّ المقصود التحلية والتخلية وسيلة. ﴿**إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ**﴾ الغالب لمن أراد مخالفته، فالغلبة فعل، أو المنتفي عنه الذُّل فهي صفة. ﴿**الْحَكِيمُ**﴾ في صنعه لا يقول عبثاً ولا يفعله، ولا سفها، ولا يضع الشيء إلاَّ موضعه.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

سفه من يرغب عن ملّة إبراهيم

﴿**وَمَن يَّرْغَبُ**﴾ توبيخ، ونفي لأنْ يصحَّ عقلاً أو شرعاً تصويب أنْ يرغب راغبٌ. ﴿**عَن مِّلَّةِ إبراهيم**﴾ ويتركها، ﴿**إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ**﴾ حملها على الخسَّة والحقارة، وهو متعدٍّ كقوله ﷺ: «**الكبر أنْ تسفَه الحقَّ...**» [١] إلخ بفتح الفاء في رواية التخفيف، واللاَّزم سفُه بضمِّها، أو تعدَّى في الآية لتضمن معنى جهل أو أهلكها، أو أذلَّها بالإعراض عن النظر، وأنَّ أصله اللزوم أي جهلها لخفَّة عقله، أو جهل أنَّها مخلوقة لله، أو يقدَّر سفه في نفسه.

---

١ - رواه أحمد في مسنده، ج٢، ص٥٨، رقم ٣٧٨٩.

والطبراني في الكبير، ج٢، ص٦٩، رقم ١٣١٨، من حديث قيس بن شماس، وأول الحديث: «كنت عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية: ﴿إنَّ الله لا يحبُّ كلَّ مختال فخور﴾ فذكر الكبر فعظَّمه، فبكى ثابت، فقال له الرسول ما يبكيك؟...» الخ

﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ اخترناه للرِّسالة، والخلَّة، والإمامة، والحكمة، أو بذلك[1]. ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ وشهر بذلك في الأزمنة بعده عند مسلميها وكافريها. ﴿وَإِنَّهُ فِي الاَخِرَةِ﴾ حال من اسم إنَّ على قول سيبويه بجواز الحال من المبتدأ، أو متعلّق بنسبة الكلام أي وأنّه محكوم عليه في الآخرة بأنَّه من الصالحين، وإنْ علقناه بقوله: ﴿لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أو بمتعلّقه المحذوف أي لمعدود أو ثابت من الصالحين في الآخرة ففيه خروج للاّم في خبر إنَّ على الصدر كما هو ظاهر، ﴿وإنَّه على ذلك لَشهيدٌ، وأنَّه لِحبِّ الخير لشديدٌ﴾(سورة العاديات: ٧،٨) ولا يتعلّق بصالحين لأنَّه ليس المراد أنَّه يصلح في الآخرة بل المراد أنَّه يتبيَّن في الآخرة، ويشاهد أنَّه من جملة الصَّالحين الذين لهم الدرجات العلى.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ, أَسْلِمْ﴾ اذكر إذ قال، أو متعلّق بـ«اصطفيناه»، والتعليل مستفاد من المقام فإنَّه إذا قيل اصطفيناه وقت ﴿قال له...﴾ إلخ، علم أنَّ الاصطفاء لقوله: ﴿أسلمت...﴾ إلخ بعد قول الله جلَّ وعلا: ﴿أسلِمْ﴾، أو حرف تعليل كما تكون على وعن حرفا واسماً، بل كما قال سبويه في إذما أنَّ إذ حرف وفي غير الشرط اسم، أي نال الاصطفاء بالمبادرة إلى الإذعان والإخلاص، ومعنى أسلمْ أذعنْ، أو

---

[1] - في نسخة (ج) سقط: "أو بذلك".

أخلصْ وجهك، وجاء على المعنيين قوله: ﴿**قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ أو أسلم لفظه أمر ومعناه إخطارُ دلائل التوحيد بباله، كالقمر والشمس والنجم[١]، فيكون قوله أسلمت مجازاً عن النظر والمعرفة على حدِّ «كن فيكون».

والمراد بالآية على كلِّ حال ما بعد النبوءة أو قبلها حين كبر، فالمراد ازدياد ذلك، أو ما في حال الصِّغر إذ كان في الغار، فيكون المراد إنشاء ذلك، ﴿ولقدَ اتينآ إبراهيمَ رُشْدَه من قبل﴾ (سورة الأنبياء: ٥١) وتقدَّم على هذا أيضاً أنَّ كلَّ مولود يولد على الفطرة. قال ابن عيينة دعا عبد الله بن سلام ابني أخيه سلمة ومهاجراً إلى الإسلام، وقال قد علَّمتنا أنَّ الله قال في التوراة أني باعث من ولد إسماعيل نبيئاً اسمه أحمد، من آمن به فقد اهتدى ورشد، ومن لم يومن به فهو ملعون، فنزل: ﴿ومن يرغبُ...﴾ الآية. **قال السيوطي لم نجد هذا في كتب الحديث.**

﴿**وَأَوْصَى بِهَآ**﴾ بالملَّة أي باتِّباعها لصراحة ذكرها وإظهار إبراهيم، وأصل الإيصاء التقدُّم إلى أحد بخير والوصل، يقال: وصَّاه إذا

---

١ - إشارة منه - رحمه الله - إلى ما ورد في سورة الأنعام عن إبراهيم عليه السلام، الآيات ٧٦-٧٩.

وصله وقصَّاه إذا قطعه، وإظهار إبراهيم وعطف يعقوب عليه مع أنَّ عطف وصَّى على ما قال له ربُّه يقتضي الضَّمير، أو بكلمةِ ﴿أسلمتُ لربِّ العالمين﴾، لقوله: ﴿وجَعَلها كلمةً باقيةً في عقِبه﴾(سورة الزخرف: ٢٨) ، فإنَّه أنسب، ولا سيما إنْ رجَّعنا الضمير إلى قوله: ﴿إنَّا بُرءَآء منكم﴾ (سورة الممتحنة: ٤) بتأويل الكلمة ولقربه، ولو كان فيه تأويل؛ وفيه أنَّه لو رجع الضمير لكلمة «أسلمت» لقال: «أسلمت لربِّ العالمين، وأوصى به بنيه ويعقوب».

﴿إبراهيم بَنِيهِ﴾ ثمانية أو أربعة عشر، إسماعيل وهو أوَّلهم وأمه هاجر بفتح الجيم القبطية، واسحاق وأمُّه سارة، وأم الباقين قنطوراء بنت يقطن الكنعانية، تزوَّجها بعد وفاة سارة، مدين، ومدائن، وزمران، ولنشان ولبشق وشوخ، زاد بعض: روم.

﴿وَيَعْقُوبُ:﴾ بنيه كما أوصيا غير بنيهما، أو خصَّهم للشفقة، ولأنَّ صلاحهم صلاح لغيرهم قال كل منهما لبنيه.

﴿ يَابَنِيَّ﴾ إلخ وقال إبراهيم لأنَّه أشد عمدة ولذكر بنيه، أو يحكى بأوصى لأنَّه بمعنى قال، أو المقدَّر ويعقوب قال:

يابني ﴿إِنَّ ا للهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ الكامل المعهود دين الإسلام الذي جاء به إبراهيم. ﴿فَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ راسخون فيه، أي دوموا عليه حتى إذا جاءكم الموت وافاكم عليه متَّصفين به،

وأما الموت نفسه فليس بأيديهم.

وأولاد يعقوب: روبين بضم الراء وكسر الباء الموحدة بعدها مثناة فنون، ويروى باللام بدل النون، وشِمعون بكسر الشين، وبشوخور، ولاوي، ويروى ليوى، ويهوذا، أو زبولون بفتح الزاي وزواني بفتح الزَّاي والنُّون، ويروى تفتالى بفتح التَّاء واللام ويروى نفتلي بفتح النون والتاء وكسر اللام، ويروى بتيون بدله، وإسَّاخر بكسر الهمزة وشدِّ السين وفتح الخاء، ويروى بالياء المثنَّاة بدل الهمزة بذلك الضبط، وكاد ويروى كوذى، ويروى بإهمال الدال، وآشر كناصر، ويروى أوشير، وبنيامين بكسر الباءِ، ويوسف، وأكبرُهُم سنًّا رُوبين، وأصغرهم سنًّا يوسف، وأكبرُهُم رايا شمعون، وقيل يهوذا أو النبوءة في أولاد لاوي، والملك في أولاد يهوذا.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِيۖ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ

وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

إبطال دعوى اليهود أنَّهم على دين إبراهيم ويعقوب

﴿**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ**﴾ جمع شاهد كعالم وعلماء، أو شهيد ككريم وكرماء. ﴿**إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ**﴾.

(أسباب النزول) قالت اليهود لعنهم الله للنبيء ﷺ: ألم تعلم أنَّ يعقوب يوم مات وصَّى بنيه باليهوديَّة، وما مات نبيء إلاَّ عليها؟، فنزل: ﴿أَمْ كنتم شهدآءَ﴾ وعنوا باليهوديَّة ملَّة موسى، وعنوا أنْ لا تخالف فيما خالفها القرآن والإنجيل فيه، أو عنوا اليهودية المحدثة الباطلة، فكذَّبهم الله بأنَّ يعقوب أوصاهم بدين الحقِّ ولم تحضروا ولو حضرتم في زمانه لسمعتموه في ذلك، وإنَّما اليهودية بعد موسى. ﴿**إِذْ**﴾ بدل من «إذ» [الأولى] ﴿**قَالَ لِبَنِيهِ: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟**﴾ من بعد موتي، أراد بـ«ما» العموم، من يعلم ومن لا يعلم، ويبعد أنْ يكون المراد ما لا يعلم فقط، وأنَّه كمختبر لهم، وكانت المعبودات في زمانه أصناماً ونجوماً وغير ذلك ممَّا لا يعلم، فيقول لهم أيَّها تعبدون؟ فأجابوا: أنْ لا نعبدها بل نعبد الله كما قال:

﴿ **قَالُواْ: نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَآئِكَ**﴾ أي الله الذي هو معبودك ومعبود آباك. ﴿**إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ**﴾ عدَّه أبًا ليعقوب تغليباً للأكثر، ولأنَّه عمُّه، والعم أبٌ كما في الحديث: «**وأنَّ العمَّ صنو الأب، وأنَّ العباس بقية آباءي**»[1] وقال: «**ردوا عليَّ أبي**» وهو العباس حين بعثه لمكَّة ليدعوهم لئلا يقتلوه «**واحفظوني في العباس فإنَّه بقية آباءي**»، وقدَّمه على إسحاق الأب الحقيقيِّ تغليبا ولكبر سنّه إذ زاد على أخيه إسحاق بأربع عشرة سنة، وأنَّه جد نبيئنا ﷺ وعليهم.

ولو جعلنا إبراهيم بدلا من إلَه على حذف مضاف أي إله إبراهيم، لم نحتج لتاويل في ذكر إسماعيل، **إلاَّ أنَّ فيه سوء أدب**. ﴿**وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا**﴾ بدل من «إلهك»، أو نعني: إلها واحدا، تصريح بالتوحيد نفيا للتعدُّد المتوهَّم من قوله ﴿إلَهك وإلَهَ ءَابآئِك﴾، فإنَّ أغلبيَّة كون المعرفة المكرَّرة عين الأولى لا تكون نصاً، ولأنَّها في غير العطف، أما فيه كما هنا فقد عارضها أغلبيَّة أخرى هي أنَّ الأصل في العطف التغاير.

ولو أراد أنْ لا يكرِّرَ لقال: نعبد إلهكم أنتم وإبراهيم وإسماعيل واسحاق، وقد تستفاد الوِحدَة من «إلها» فيكون قوله: «واحداً» نفياً

---

١ - رواه **الترمذي** في كتاب المناقب (٢٩)، باب مناقب العبَّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه الله، رقم ٣٧٥٩-٦٠-٦١.

للتركيب والمشاركة في الصِّفات. ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون التوحيد أو منقادون لأمره ونهيه، ﴿تِلْكَ﴾ أي هؤلاء إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب وبنوهم، وقال تلك لمعنى الجماعة أو للخبر وهو قوله: ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة.

(لغة) سمِّيت أمَّة لأنَّها تُؤمُّ أي تُقصدُ، ويؤم بعضُها بعضاً، ويجمعهم أمر واحدٌ: دين أو زمان أو مكان هذا أصل الأمَّة، وقد يطلق على الملَّة أوعلى الزمان أو على المنفرد بشيء في زمانه؛ وحمل بعضهم الآية عليه بمعنى أنَّ كل واحد من إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب أمَّة في زمانه، فالإشارة إلى الأربعة على هذا، لعلَّه لا يرِدُ علينا ما يعمل الأربعة من خير أو شرٍّ إذ لا يعملون شرًّا، اللهمَّ إلاَّ على سبيل الفرض للبرهان.

﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت؛ ﴿لَهَا﴾ لا لغيرها ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ أجر عملها، ﴿وَلَكُمْ﴾ لا لغيركم، ﴿مَّا كَسَبْتُمْ﴾ ولهم أولكم ما كسب لهم أولكم، وحذف ذلك.

(فقه) [وذلك] مثل أن يتصدَّق واحد أو يصلِّي النَّفل أو يصومه وينوي بثوابه غيره من الأحياء أو الأموات، وأما العلم المنتفع به والصدقة الجارية فمن كسب الإنسان ومنفِّذ ذلك كوكيله، وولد الرجل من كسبه، وقيل يختصُّ ذلك بهذه الأمَّة، والخطاب لليهود.

والمراد الجزاء بخير أو شرٍّ كما في قوله: ﴿**وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ من خير أو شرٍّ، ولا يسئلون عمَّا كنتم تعملون.

والسؤال عبارة عن لازمه وهو المؤاخذة ولو كان حقيقاً فكيف وهو توبيخ، قال ابن أبي حاتم مرسلاً إنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يامعشر قريش إنَّ أولى الناس بالنبيء المتَّقون فكونوا بسبيل من ذلك، فانظروا أن لا يلقاني الناس يحملون الأعمال الصالحة وتلقوني بالدنيا تجمعونها فأصدُّ عنكم بوجهي**»[١] وفي معناه ما روي: «**يابني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم**»[٢].
أو لا تسئلون عما يعمل هؤلاء الأنبياء قبلكم من الشرائع، بل عمَّا يعمل نبيئكم محمَّد ﷺ.

﴿**وَقَالُواْ: كُونُواْ هُودًا اَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ**﴾ «أو» للتفصيل، قالت يهود المدينة: كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، ووهب بن يهوذا، وأبو يسار بن أحطب، وعبد الله بن صوريا الأعور، وهم

---

١ – رواه الربيع في **مسنده**، باب ما ذكر من حديث الشفاعة، وهو من مراسيل جابر بن زيد رضي الله عنه. رواه الطبراني في **الكبير**، ج١٨، ص١٦١، رقم ٣٥٤.

٢ – ذكره الدكتور وهبة الزحيلي في **التفسير المنير**، ج١، ص٣٢٣، دون إسناد، وأورده الطبراني في كنز العمَّال ج١٦، ص١٩، رقم ٤٣٧٥١ من حديث عمران بن حصين. فقرة من الحديث السابق.

رؤساء يهود المدينة، للمسلمين: كونوا هوداً تهتدوا، لا دين إلاَّ دين اليهود، وأنكروا الإنجيل وعيسى والقرآن ومحمَّدًا صلَّى الله وسلَّم عليهما، وقالت نصارى نجران لهم: كونوا نصارى تهتدوا، وأنكروا التوراة وموسى والقرآن ومحمَّداً صلَّى الله وسلَّم عليهما.

﴿**قُلْ:**﴾ يا محمَّد لهم: ﴿ **بَلْ**﴾ نتبع ﴿**مِلَّةَ إبراهيم**﴾ كما جاء اتبعوا، أو نلزمها كما كنا لا نفارقها، أو اتَّبعوا أنتم كما اتَّبعناها، وذلك مضمون الردِّ على قولهم: ﴿كونوا...﴾ إلخ. أو بل نكون ملَّة إبراهيم أي أهل ملَّة إبراهيم، كما هو لفظ ﴿كونوا هوداً﴾، أو يقدَّر: بل كونوا أهل ملَّة إبراهيم كما كنَّا على ملَّته.

﴿**حَنِيفًا**﴾ عن الأديان كلِّها إلاَّ دين الإسلام. ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ كما كان الشرك في يهوديتكم ونصرانيتكم، إذ قلتم: عزير بن الله والمسيح ابن الله، أو اله ونحو ذلك، وكما أشركتم بإنكار القرآن وبعض الرُّسل، واليهود بإنكار الإنجيل، والنصارى بإنكار التوراة.

والآية تعريض بشرك العرب المشركين إذ يعبدون الأصنام كما أنَّها تعريض بشرك اليهود والنصارى.

﴿**قُولُواْ**﴾ أيها المومنون، أي النبيء والمومنون، وكلُّ نبيء أوَّل من يومن بما أنزل عليه. ﴿**ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا**﴾ أي أخبروهم

بأنَّا على الهدى مؤمنون بما يجب الإيمان به ممَّا أنزل علينا وهو القرآن، أو هذا القول من جملة ما حكي بـ"قُلْ"، والخطاب لليهود والنصارى، كأنَّه قيل: قلْ لهم: قولوا آمنَّا با لله وما أنزل إلينا من التوراة والإنجيل والقرآن، فإنَّه نزل عليهم كغيرهم.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ﴾ من الصحف العشر. ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ إلخ. أنزلت على إبراهيم خاصة، لكن خوطبوا بالعمل بها فهي منزَّلة إليهم، فهم كمن أرسل إليهم السلطان في شأن بواسطة كبيرهم. ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ اجتمع هو وعيص في بطن أمِّهما، فقال عيص تأخَّر أنزلُ قبلك، وإلا خرقت بطن أمي، فتأخر فخرج عيص قبله، فخرج عقبه يعقوب أو متصلاً بعقبه فسمِّي يعقوب، **وهذا ممَّا يقال.** ﴿وَالأَسْبَاطِ﴾ أولاد يعقوب سمَّاهم لأنَّهم أولاد الولد لإسحاق ولإبراهيم.

(لغة) والسبط ولد الولد أو يراد أولاد أولادِ يعقوب، والأسباط في بني إسرئيل كالقبائل في العرب من بني إسماعيل، من السبوطة وهي الاسترسال، أومن السبط وهو شجر كثير الأغصان لكثرتهم، أو من البسط فقلب لكثرتهم.

وليسوا كلُّهم أنبياء بل بعضهم على الصحيح لصدور كبائر(١) منهم، والصحيح أنَّها لا تصدر من نبيء ولو قبل البلوغ.

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ من ربِّهم فحذف لدلالة ما بعده، جمع التوراة والإنجيل بلفظ «ما» لشهرة التوراة لموسى والإنجيل لعيسى، واتِّصال ذكرهما إلى وقت الخطاب، ولأنَّ الإنجيل مقرِّر للتوراة وما نسخ منها إلاَّ قليلا.

وموسى وعيسى داخلان في الأسباط وخصَّهما بالذكر لعظمهما ولتخصيصهما بكتابيهما، وكانت العبارة كذلك تحرُّزاً عمَّا زاد اليهود والنَّصارى ونقصوا من الكتابين، وكذا في قوله: ﴿وَمَآ أُوتِيَ﴾ من الكتب والمعجزات والدلائل، ﴿النَّبِيئُونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَنُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ﴾ واحد فحذف العطف، أو أحد بمعنى الجماعة بعد السلب، أي لا نفرق بينهما على أنَّه موضوع للواحد والاثنين فصاعداً بعد كل، أو النفي كما قال الفارسي.

﴿مِّنهُمْ﴾ بل نومن بهم كلّهم لا كاليهود والنصارى، آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وأما التفريق بتفضيل بعض على بعض تفضيلا لا يؤدِّي لنقص فجائز ﴿تلك الرُّسل فضَّلنا بعضَهم على بعضٍ﴾.

---

١ - إشارة إلى ما فعلوا بأخيهم يوسف.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنَ ــ امَنُواْ﴾ أي اليهود والنصارى. وهذا يناسب أنَّ قوله: قولوا خطاب لليهود والنصارى، ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْاْ﴾ متعلق بقوله: عزَّ وجلَّ ﴿قولواْ ءامنَّا﴾ أو بقوله: سبحانه ﴿بل ملَّة إبراهيمَ﴾ أي إنْ حصَّلوا الإيمان بمثل ما حصلتم الإيمان به، وهو الاعتقاد والنطق والتعميم في كتب ا لله وأنبيائه، أو إنْ حصلوا ديناً مثل دينكم وهو لا يوجد، فيكون تعجيزاً عن أن يوجد دين صحيح غير دين الإسلام، مثل ﴿فاتواْ بسورةٍ﴾ (سورة البقرة: ٢٣) ولو ادَّعوا أنَّ ما هم عليه الحق، لأنَّهم بين عالمٍ أنَّ دين الإسلام هو الحق وكتم، وعاقل لو فكَّر لأدرك ذلك، وهَاءُ «بهِ» لِـ«مَا»، أو «مثل» زائدا والباء زائد، وعليه فـ«ما» مصدريةٌ، أي مثل إيمانكم با لله وهاءُ «بهِ» للهِ.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا عن الإيمان بالحقِّ المذكور، أو عن قوله عليه السلام لهم: ﴿قولوا ءامنا با لله...﴾ إلخ. ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ عظيم مخالفة لكم لأجل دينكم، أو مخالفة للقول، والفعال[1] على بابه فإنَّ المسلمين أيضاً مخالفون لهم، فإنَّه في معنى جازوكم على مخالفتكم لهم وأنتم المحقُّون، وأصله الشقُّ وهو الجانب أو المشقَّة، أو من شقَّ العصا إذ أظهروا العداوة. ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ مضرَّة شقاقهم ﴿ا للهُ﴾ يا محمَّد بقتل قريظة

---

١ – أي صيغة المفاعلة التي تفيد المشاركة، باعتبار أنَّ كلمة: ﴿قولوا ءامنَّا با لله﴾ من كلام يعقوب عليه السلام.

وبني قينقاع وسبيهم، وإجلاء بني النضير، وضرب الجزية قبل إجلائهم وضرب الجزية على اليهود والنّصارى. ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم، أي العليم بها، ﴿العَلِيم﴾ بأحوالهم فيعاقبهم عليها، وهو متعلّق بـ«شقاق»، أو السميع لأقوالكم الحقّة أيُّها المؤمنون، العليم بأحوالكم الصالحة فيجازيكم عليها، فيتعلق بالكفاية الممتنّ بها الموعود بها.

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

صبغة الإيمان وأثره في النفوس والعبوديّة لله تعالى

﴿صِبْغَةَ الله﴾ قيل: بدل من ملّة، أو ألزموا صبغة الله، أو صبغنا الله صبغة، وحذف صبَغنا، وأضيف للفظ الجلالة، أو متعلّق بقوله: ﴿ءامنا﴾ على حدِّ: "قعدتُ جلوساً"، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي الإسلام أوالتوفيق، أوالحجة، أوتطهير القلب من الكفر والمعصية.

(بلاغة) شبَّه بالصبغة في كونه ظاهراً ظهور الصبغة وحلية، ومتداخلاً في أعماق المصبوغ لأنَّه راسخٌ، وفي كونه يمتاز به الإنسان عن سائر الحيوان وعن الكفار امتياز الثوب المصبوغ، وهو استعارة تصريحية أصليَّة تحقيقيَّة، أو سمِّي ذلك صبغة للمشاكلة لوقوعه في جوار محذوف، هو صبغة النصارى أولادهم في ماء المعموديَّة لتحقق نصرانيتهم.

وهو ماء أصفر، ويدَّعون أصله ماء غسل به عيسى عليه السلام في اليوم الثالث من ولادته، وكلَّما انتقص زادوا فيه ماء، ويقولون: هو تطهير بهم، ويقال هو معرب معموذينا باعجام الذال، أو معناه الطهارة، ماء يقدس بما يتلى من الإنجيل ثم تغتسل به الحاملات[١]، أمر الله المؤمنين أنْ يقولوا للنصارى قولوا آمنا بالله، وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغة المعمودية، والإبدالُ ضعيف لكثرة الفصل بالأجنبي.

﴿وَمَنَ اَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ لا أحسن من صبغة الله ولا مساوي لها، لأنَّها الإسلام المنجي من خزي الدنيا والآخرة المورثُ لخيرهما. ﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ لا لغيره، كما تشركون معشر اليهود

---

١ - في نسخة (ج): الاستغناء عن هذه القصَّة، فلم يذكرها.

والنصارى غيره في العبادة. ﴿عَابِدُونَ﴾ قيل: أو داخل فيما أمروا أن يقولوه أي قولوا معشر اليهود والنصارى نحن له عابدون.

(سبب النزول) قالت اليهود: نحن أهل الكتاب الأول وقبلتنا أقدم، ولم تكن الأنبياء من العرب، ولو كان محمَّد نبيئاً لكان منّا، فنزل قوله: تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد أو يامن يصلح للقول، ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ تجادلوننا جدالاً يقطعنا والحجُّ القطع، لا قدرة لكم على ذلك لأنّكم مبطلون. ﴿فِي اللهِ﴾ شأنه وقضائه إذ قضى وقدَّر أنْ يكون نبيء من العرب، ولا سيما أنّه مذكور في التوراة والإنجيل، متداول ذكره من أوائلكم إلى الآن.

وقد أتى "قيدار" ولد إسماعيل بالتابوت من الشام إلى مكّة وردَّه منه إمَّا إسحاق أو يعقوب عليهما السلام، وقال: إنَّ لكم نوراً واحداً آخر الأنوار.

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فله أن يختار للنُّبوءة من شاء منّا أو منكُم. ﴿وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ فإنْ توهَّمتم أنَّ النُّبوءة بالعمل فلنا من الأعمال ما نستحقُّ به النُّبوءة، كما تدَّعُون أنَّ لكم أعمالاً إلاَّ أنَّها باطلة بخلاف أعمالنا فصحيحة بالإخلاص كما قال:

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ الدِّين والعمل، وأنتم جعَلتم له

شركاء فنحن أولى بالنُّبُوءة، لكن النُّبوءة لا تُعطى صاحبها لعمل غيره، ولا لعمله بل اضطِراريَّة، لا كسبيَّة بالأعمَال أو بوصول نوع من الأعمَال.

وعنه ﷺ أنَّه قال بعد أنْ سُئِل عن الإخلاص: «**سألتُ جبريلَ عنه فقال: سألتُ ربِّي عنه فقال: سرٌّ مِن أسراري أوْدَعْتُه قَلْبَ مَن أحْبَبْتُهُ مِن عِبَادِي**»(١). وقال سعيد بن جبير: «أنْ لا تشرِك في دينه، ولا ترائي أحداً في عمله»؛ وقال الفضيل: «ترك العمل من أجل الناس رياء والعملُ من أجل الناس شركٌ، والإخلاص أنْ يعافيك الله منهما»؛ وقيل: استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن؛ وقيل: كتم الحسنات كما تكتم السيِّئات، وقيل: احتقارك عملك. ومعنى كونه سرّاً من أسرار الله أنَّه لا طاقة لأحد عليه باختياره، ومعنى كون الترك رياء أنَّه راءى الناس أنَّه غير مراء، ومعنى أنَّ العمل لهم شرك أنَّه رياء أيضاً، زاد باسم الشِّرك لأنَّه عمل لغير الله عزَّ وجلَّ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ: إِنَّ إبراهيم وَإسماعيل وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالاَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا اَوْ نَصَارَى﴾ ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تحآجُّون في إبراهيمَ وما

---

١ - أورده الشيخ إسماعيل الجيطالي في **قناطر الخيرات** مقطوع السند، في كتاب الإخلاص، ج٣، ص٤٥٩، ط. حجرية.

أُنزلتِ التوراةُ والإنجيلُ إلاَّ من بعده أفلا تعقِلُون﴾ (سورة آل عمران: ٦٥) و«أم» متّصلة متعلّقة بقوله: ﴿أتُحَآجُّوننا﴾؟ أو منقطعة للانتقال من التّوبيخ على المحاجّة إلى التوبيخ على الافتراء على الأنبياء، ووجه الاتّصال ذمُّهم بجمعهم بين المحاجّة في الله، والقول بأنَّ إبراهيم ومن معه كانوا هوداً أو نصارى مع كون واحد منهما كافياً في القبح.

(نحو) وأبو حيان لمـَّا رأى أنَّ الغالب في [أمْ] المتَّصلة استدعاء وقوع إحدى الجملتين، والسؤال عن إحداهما وما هنا ليس كذلك اقتصر على المنقطعة، وهكذا عادته يرى غير الغالب كأنَّه غير موجود فيقتصر على الغالب.

﴿**قُلَ -آنـتُمُ أَعْلَمُ**﴾ بحال إبراهيم في الدِّين. ﴿**أَمِ ا للهُ**﴾ عطف على أنتم، وأمر الله أعلم، والتفضيل استهزاء بهم، وأعلم بمعنى عالم أنتم الجهلاء والله هو العالم، قال: ﴿ما كان إبراهيمُ يهوديًّا ولا نصرنيًّا﴾، وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط تبع له. ﴿**وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ**﴾ أخفى عن الناس. ﴿**شَهَادَةً عِنْدَهُ**﴾ جاءت ﴿**مِنَ ا للهِ**﴾ في التوراة والإنجيل لإبراهيم بالحنيفيَّة لا باليهوديَّة أو النصرانيَّة، ولمحمَّد بالرِّسالة.

والكاتمون هم اليهود والنصارى لا أحد أظلم منهم، أو لا أحد أظلم منَّا لو كتمناها كما كتمتُمُوها، وقدَّم ثبوتها عنده على كونها

من ا لله مع أنَّه متأخِّر في الوجود مراعاة لطريق الترقِّي. ﴿وَمَا ا للهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم على مثاقيل الذرِّ، ككتمان شهادته تعالى، والافتراء على الأنبياء.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ، وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كرَّر تأكيدًا في الزَّجر عمَّا رسخ في الطباع من الافتخار بالآباء والقرابة والاتكال على أعمالهم؛ وقيل الأولى لليهود، والثانية لنا، لئلا نقتدي بهم في الاتكال إلا أنَّ الكلام مسوق لأهل الكتاب أو الأمَّة، في الأولى الأنبياء، وفي الثانية أسلاف اليهود والنصارى، إلاَّ أنَّ أسلاف اليهود لم يجر لهم ذكر وما سبق ذكر الأنبياء.

وقد يقال: إنَّ القوم لما قالوا في إبراهيم وبنيه إنّهم كانوا هودا صاروا كأنّهم قالوا: إنّهم كانوا على مثل طريقة سلفنا من اليهود، فصار سلفهم في حكم المذكورين فجاز أنْ يقال: ﴿تلكَ أمَّةٌ قد خَلَتْ﴾ ويعنيهم، وفيه تعسُّف، وقد يقال: إنَّه لمَّا اختلفت الأوقات في الأحوال والمواطن لم يكن التكرار ضعيفاً، كأنَّه قيل: ما هذا إلاَّ بشر، وصف هؤلاء الأنبياء وما أنتم عليه من الدين لا يسوغ بالتقليد في الجنس، فاتركوا الكلام في تلك الأمَّة فلها ما كسبت، وانظروا فيما دعاكم إليه محمَّد فإنّه أنفع لكم، ولا تسئلون إلا عن عملكم.

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾

التمهيد لتحويل القبلة

﴿سَيَقُولُ﴾ إلخ نزلت قبل قوله: ﴿ما ولاّهُم...﴾ وبعد ﴿قد نَرَى تَقَلُّبَ وجهِك...﴾ الآية، فتكون معجزة بالإخبار بالغيب، وتوطينا لنفوس المؤمنين على الصبر، وليستعدُّوا للجواب، ومفاجأة المكروه أشد على النفس وأدعى لاضطراب الجواب أو خطئه، فقدَّم الله الأخبار لهم ولقَّنهم الجواب.

وعلى صحة نزولها بعد قولهم: ﴿ما ولاَّهم﴾ فالسين للتأكيد دون الاستقبال، وفائدة التأكيد ذمُّهم بأنَّهم قد تحقَّق منهم كلام سوء وطعن، فيكون الفعل للحال المحكية تنزيلاً للماضي منزلة الحاضر، أو للاستمرار، أو هي للاستقبال بمعنى أنَّهم سيعيدون القول ويكرِّرونه مجاهرة وجدالاً بعد إخفاء ويكرِّرونه. ﴿السُّفَهَآءُ﴾ من يضعون الشيء في غير موضعه لخفَّة عقولهم، ويعملون بغير دليل، ويرون غير الدليل دليلاً. ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ أي من جملة الناس، لئلاَّ يتوهَّم أنَّ السفهاء هم خصوص المذكورين أوائل السورة، والسفيه ولو كان قد يكون في الحيوانات لكن لا قول لها الاَّ شاذًّا أو تأويلاً فلا يحترز عنها.

والسفهاء: اليهود المجاهرون، والمنافقون باضمار الشرك من العرب، والمنافقون من اليهود ومشركو العرب، أمَّا اليهود فإنَّهم لا يرون النسخ، وكانوا يأنسون باستقبال النبيء ﷺ بيت المقدس، ويرجون أن يرجع إلى دينهم، ولمَّا استقبل القبلة اغتمُّوا وقالوا: اشتاق إلى دين آبائه، ولو ثبت على قبلتنا لعلمنا أنَّه المبشَّر به في التوراة، فبعض علموا أنَّه النبيء وأنَّه سيرجع إلى الكعبة وكتم، ولو لم يرجع إليها لعلموا أنَّه غير النبيء، وقال: ذلك سفهاً، وبعض ما علم وقال ذلك، وأمَّا المنافقون فقالوا تحوُّله للكعبة لعب بالدين وعمل بالرأي لا بدين، وأمَّا مشركو العرب فقالوا قد رجع إلى وفاقنا ولو بقي عليه من أوَّل الأمر لكان أولى له، وَكَذِبُوا، لم يكن قط إلا على الإسلام، إلا إنْ أرادوا موافقة الكعبة.

ويروى أنَّه كان يصلِّي إلى بيت المقدس فتأذَّوا بذلك، وقيل بجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، ولمَّا حوِّلت القبلة قالوا: لو كان من أوَّلٌ كذلك كان أليق به، وقالوا رغب عن قبلة آبائه، ثم رجع إليها وسيرجع إلى دينهم.

قال البراء لمَّا قدم رسول الله ﷺ صلَّى نحو بيت المقدس ستَّة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يحبُّ أنْ يتوجَّه إلى الكعبة فأنزل الله تعالى ﴿قدْ نرى تقلُّب وجهِكَ...﴾ الآية، فكان يصلِّي

إليها، وفي رواية صلَّى إلى بيت المقدس تسعة أشهرٍ أو عشرة أشهرٍ؛ وعن معاذ: ثلاثة عشر شهراً، وقيل: سبعة أشهر. **﴿مَا وَلاَّهُمْ﴾** صرفهم إلى الكعبة. **﴿عَنْ قِبْلَتِهِمْ﴾** صخرة بيت المقدس. وأصل القبلة نوع من الاستقبال في ذات المستقبل وأحواله في مكانه، ثمَّ صار حقيقة عرفيَّة عامَّة للجهة المستقبل إليها. **﴿الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾** في صلاتهم ودعائهم وأمورهم، وذلك ظاهر في اليهود والمنافقين من العرب المعتقدين لحقِّية قبلة اليهود تقليداً لليهود.

وممَّا ورد في صخرة بيت المقدس أنَّ المياه تقسم عليها لأهل الأرض، وأمَّا مشركو العرب فقولهم: «ما ولاَّهم...» إلخ، مجرد طعن بأنَّ الانصراف بلا داع والتوجُّه أوَّلاً بلا داعٍ، وأمَّا استقبال الكعبة فحقٌّ عندهم.

﴿قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وسائر الأرض داخل فيهما تعميماً للجوانب، أو كناية عن جميع الأرض، وذلك أبلغ من أنْ يقول: للهِ الأرض كلُّها، وأيضاً في ذكرهما تلويح بذكر قبلة النصارى وهي المشرق وقبلة اليهود وهي المغرب، وأخّره لأنَّ الطلوع قبل الغروب، ومطابقة لمزيد ظهورهما لكونهما مطالع النور والظلمة، وكثرة توجُّه الناس إليهما للأوقات والمقاصد، ولا بدَّ أنَّهما سُمِّيا لشروق الشمس وغروبها، لكن إمَّا أنْ يعتبرا على طول الأرض وعرضها، وإمَّا أن

يعتبرا بمشارق الشمس ومغاربها.

فأينما تولُّوا وجوهكم إليه أو فيه فثمَّ وجه الله، ذات الله بالخلق والعلم والقدرة والحفظ. ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ﴾ هدايته، ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هداية توفيق إلى قبول دين الله، سواء عمل به أو آمن وقَبِل وعمل الكبائر فهو للنار إنْ أصرَّ.

فهؤلاء أُمَّة الإجابة، ومقابلهم من لم يهده إلى التوحيد وقبول الدين وهم اليهود والنصارى وكلُّ مشرك، وهم أُمَّة كفرٍ، من جملة أُمَّة النبيء ﷺ، كقوم نوح وقوم هود، أو هداية توفيق للسعادة، ويدلُّ للأوَّل العموم في قوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ

إِتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

تحويل القبلة

﴿وَكَذَٰلِكَ...﴾ إلخ، أي كما هديناكم إلى الصراط المستقيم، وجعلنا قبلتكم الكعبة لا تُنسخ هي ولا دينكم، وهما أفضل دين وقبلة، ولو لم تصرِّح الآية بالأفضلية وعدم النسخ، لكن ناسبه التفضيل في قوله: ﴿جعلْناكُم, أمَّةً﴾ إلخ.

ولاشكَّ أنَّ الكعبة أشرف، لأنَّها قبلة إبراهيم وقبلة آدم ومن بعده إذا صير إلى السبق فهي أسبق، لأنَّها قبل آدم بألفي عام لحجِّه الملائكة، ووضع الله بيت المقدس أيضاً لكن بعد الكعبة بأربعين عاماً.

﴿جَعَلْنَاكُمْ,﴾ يا أمة محمَّد، ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ أفضل من غيركم بالعلم والعمل من الواسطة التي هي المختار من الجواهر، أو من الوساطة بمعنى الاعتدال في الشأن، لأنَّ وسط الشيء مصون والأطراف يتسارع إليها الخلل، ولأنَّها وسط معنويٌّ بين إفراط وتفريط. والوسط في الأصل اسم لما يستوي نسبة الجوانب إليه كالمركز، ثم استعير للخصال المحمودة لكونها أوساطاً للخصال المذمومة المكتنفة بها من طرفي الإفراط والتفريط، كالجود

بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين الجبن والتهوُّر.

﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أنَّ أنبياءهم بلَّغوهم، والمراد بالكاف و«واو» - تكونوا - المجموع لا الجميع، لأنَّ الأشقياء من هذه الأمَّة لا يكونون شهداء على الناس الذين قبل هذه الأمَّة.

﴿وَيَكُونَ الرَّسولُ عَلَيْكُمْ﴾ لكم، ﴿شَهِيدًا﴾ بأنَّكم عدول تقبل شهادتكم على الأمم، وأنَّه بلَّغكم وقبلتم، كما دلَّ عليه ﴿أمَّة وسَطاً﴾ وأنَّكم شهداء، فله مدخل في التعليل بخلاف ما لو فسَّرنا بمجرَّد شهادته ﷺ أنَّه بلغكم فيخصُّ على الأنبياء بشهادته لنفسه بالتبليغ، فتكون «على» بظاهرها، فتكون اللام للعاقبة في هذا. ولو صحَّ التعليل في تكونوا فيجمع فيه بين الحقيقة والمجاز، أو تجعل لعموم المجاز أو تجعل في الأوَّل للتعليل وتقدَّر في الثاني للعاقبة، أي وليكون الرَّسول عليكم شهيداً.

تنكر كفَّار الأمم تبليغ الرسل فيقول الرسل: تشهد لنا أمَّة محمَّد ﷺ فيشهدون لهم بالتبليغ، فيقول الكفَّار: كيف يشهدون علينا وهم بعدنا؟ فيقولون: ياربَّنا أرسلت إلينا رسولاً وأنزلت عليه كتاباً فيه تبليغهم، وأنت صادق، فيسأل ﷺ عن أمَّته فيزكِّيهم، يشهد كلُّ نبيء على أمَّته بالكفر بما بلغها، ﴿فكيفَ إذَا جِئنا من كلِّ أمَّةٍ بشهيدٍ﴾(سورة النساء: ٤١) فتكذِّبه فتشهد له هذه الأمَّة، وشهادته ﷺ بعدالة أمَّته الشاهدين للأنبياء شهادة على كفَّار الأمم.

﴿وجِئْنا بك على هؤلآء﴾: أي كفَّار الأمم شهيداً. وعن أبي سعيد عنه ﷺ : «**يجيء النبيء يوم القيامة ومعه الرجل والنبيء ومعه الرجلان وأكثر، فيُدعى قومُه فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون لا، فيقال له: هل بلّغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال له: من يشهد لك؟، فيقول محمَّد وأمَّته، فيدعى محمَّد وأمَّته، فيقال لهم: هل بلّغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما أعلمكم؟ فيقولون: جاءنا نبيئنا ﷺ، فأخبرنا أنَّ الرُّسل قد بلّغوا، فذلك قوله: تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ الآية**». وفي رواية: «**فيؤتى بمحمَّد ﷺ فيسأل عن حال أمَّته فيزكّيهم ويشهد بعدالتهم، وذلك قوله تعالى: ﴿ويكُونَ الرَّسُول عليكُم شهِيداً﴾**»(١).

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ﴾ وهي الكعبة في نفس الأمر. **﴿الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَآ﴾** قبلُ، كانت قبلتُه حين كان بمكَّة الكعبةَ، ولو كان يجعلها بينه وبين بيت المقدس، واستقبل المقدس في المدينة ستّة أو سبعة عشر شهراً بأمر الله تأليفاً لليهود، ثم حوَّله للكعبة، فـ«التي» مفعول ثانٍ لا نعت على المختار، أو ما جعلنا القبلة في المدينة قبل التحويل للكعبة هي بيت المقدس الذي كنت عليه قبل التحويل، أو ما جعلنا القبلة التي كنت عليها قبل الهجرة قبلةً، أو ما جعلنا القبلة التي كنت

---

١ - رواه أحمد في مسنده، ج٤، ص١١٧، رقم ١١٥٥٨.

عليها بعد الهجرة قبلة، فالمفعول الثاني محذوف و«التي» نعت.

﴿إلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ محمَّداً ﷺ علم ظهور أو ليظهر علمنا، أو نعاملهم معاملة المختبر.

وعِلْم الله أزلي لكن لا يخفى عنه وقوع الشيء، ووقته وتفاصيله، لأنَّه الخالق له؛ أو ليعلم رسولنا أو عبادنا الصَّالحون، فحذف المضاف أو أسند لنفسه لأنَّهم خواصُّه، وفي ذلك تعظيم لهم، أو لنميز من يتَّبع الرسول للناس، والعلم سبب للتمييز وملزوم له، فإنَّ العلم صفة توجبُ تمييزاً لا يحتمل النَّقيض، أو لنجازيَ الطائع والعاصي؛ وإنَّما يكون الجزاء ممَّن علم طاعة الطائع وعصيان العاصي، والمراد بالاتِّباع البقاء على اتِّباعه فيما مضى، وفيما يحدث من القبلة وغيرها.

﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ يكفر بعد الإيمان بسبب تبدُّل القبلة كفراً شبيهاً برجوع الماشي إلى ورائه، يظنُّ أنَّه ﷺ في حيرة من أمره وقد ارتدَّ لذلك الظَّنِّ جماعة. ﴿وَإِنْ﴾ إنه، إنَّ الشَّأن؛ ﴿كَانَتْ﴾ أي التولية المعلومة من قوله: ما ولاَّهم، أو القبلة والتحويلة أو الردَّة إلى الكعبة، أو الجعلة أو المتابعة.

﴿لَكَبِيرَةً﴾ شاقَّة على قلوب الناس.

(نحو) وقاعدة الكوفيين في جميع القرآن وغيره

أنْ يجعلوا «إنْ» المخفَّفة نافيه لا مخفَّفة، واللاَّم بعدها بمعنى إلاَّ، ويردُّه أنَّه لم يجئ في كلام العرب ما جاء ليزيد أي إلاَّ زيد، وجاء القوم لزيداً أي إلاَّ زيداً.

﴿**إِلاَّ عَلَى الذِينَ هَدَى اللهُ**﴾ منهم، أجاز بعضهم التفريغ في الإثبات والمانع يعتبر ما في «كبيرةً» من معنى النفي أي لا تخفُّ إلاَّ على الذين هدى الله.

(سبب النزول) كان رسول الله ﷺ يصلِّي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ، فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منَّا قبل أنْ نُصرف إلى القبلة، وكيف صلواتنا إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ. ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾ أي طاعتكم أي ثوابها، **وكل عبادة إيمان**، وفي الحديث: «**الإيمان بضع وستُّون جزءاً**»[1] وهي في الآية الصلاة.

قال حيي بن أخطب وأصحابه من اليهود إنْ كانت صلاتكم إلى

١ - أورده **مسلم** في كتاب الإيمان ١٢، باب بيان عدد شعب الإيمان؛ والقطب في **جامع الشمل**، ج١، رقم ٣١، مع زيادة في آخره؛ والهندي في **كنز العمال** ج١، ص٥٣ من حديث علي رضي الله عنه.

بيت المقدس هدى فقد تحوَّلتم عنه، أو ضلالة فقد دنتم بها مدة، ومن مات قبل التحول مات عليها، كأسعد بن زرارة، وأبي أُمامة من بني النجار، والبراء بن معرور، من بني سلمة، وكانا من النقباء وآخرين، فقال عشائرهم: يارسول الله قد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم فما حال من مات منّاً قبل الصَّرف؟ فنزل ﴿وما كانَ اللهُ ليُضِيع إيمَانكُم﴾ أي صلاتكم أو طاعتكم مطلقاً لا يضيِّع صلاتكم ولا غيرها، أو إيمانكم باستقبال بيت المقدس، سواء قلنا استقبالها بوحي على ما رجَّحوا، أم اجتهاد منه، إذ وجد أهل التوراة يستقبلونها، كما صام عاشوراء متابعة لهم، فوطّن أنْ يستقبلها حتّى يوحى إليه في الاستقبال، ومن قال: الإيمان التصديق فقط وفسَّره بالصَّلاة، فقد تجوَّز لأنّه سببها وملزومها.

﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ﴾ متعلّق بما بعد اللاَّم بحسب الظَّاهر، فيحمل عليه، فيقال: لا صدر للاَّم في خبر «إنَّ» إذا كان المتعلّق ظرفاً أو مجروراً، لأنَّ تاويل الكثير لايحسن إلاَّ لما لابدَّ منه ولا محيد عنه.

﴿لَرَؤُوفٌ﴾ شديد الرَّحمة، ﴿رَّحِيمٌ﴾ الرَّحمة أعمُّ من الرأفة ومع ذلك أخَّرها للفاصلة، وهي مبنية على الميم نظير الميم في مستقيم.

(بلاغة) وأولى من ذلك أن نقول: لا محذور في تقديم خاص لا يشمل كلَّ ما في العامِّ فلذكر العامِّ بعده دلالة على ما لم يدلَّ عليه الخاصُّ، فذكر الرَّحمة ليدُلَّ على رحمة أخرى دون

الشديدةِ، بخلاف فلان متكلّم فصيح، فإنَّه لو أخَّر متكلّمٌ لم تكن له فائدة، فإنَّ فلاناً لا يكون فصيحاً إلاَّ وهو متكلّم، لذلك قدِّمت بلا فاصلة في قوله: تعالى ﴿رأفةً ورحمةً﴾.

وقيل الرحمة تعمُّ دفع المكروه وإزالة الضرر وسائر الأفضال، والرأفة دفع المكروه والضرِّ، ودفعُهما أهمُّ من جلب الرِّزق مثلاً، فقدِّمت لذلك على الرحمة، فهي تخلية متقدِّمة على التحلية، أو الرأفة دفع المضار والرَّحمة جلب المسارِّ.

﴿قَدْ نَرَى﴾ تحقّق أنَّا لنعلم، وقال سيبويه: كثر تقلُّب وجهك. ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ حال الدعاء، ﴿فِي السَّمَآءِ﴾... إلخ تعليل جملي ثان لقوله: تعالى ﴿ومَا جعَلنَا...﴾ إلخ، والأوَّل ﴿لنعلمَ من يَّتّبع...﴾ إلخ.

(سيرة) روي أنَّه أمره الله بعد الهجرة باستقبال المقدس تأليفاً لليهود فرضِيَ وأحبَّ، وكان بطبعه يحبُّ استقبال الكعبة لأنَّها أشرف وأقدم للملائكة قبل آدم، ولأنَّها قبلة آدم إلى إبراهيم وإسماعيل ومن بعدهما حتّى نزلت التوراة، ولأنَّ الأنبياء تحجُّه، ولأنَّه أدعى للعرب إلى الإسلام وهم أفضل، ولهم قرابة وأنفع في الإسلام وأقوى، ولو كان استقبال القدس أدعى لليهود، ولأنَّه أغيظ لهم وأشدُّ مغايرة، ولأنَّه لو لم يتحوَّل لوجدوا مقالاً إذ علِموا أنَّه يؤمر بالتَّحوُّل، ولأنَّهم قالوا: يخالفنا ويتَّبع قبلتنا، وقال

لجبريل: «**وددت لو حوَّلني ا لله إلى الكعبة**»، فقال جبريل: إنَّما أنا عبد مثلك، ثمَّ عرج جبريل وجعل النبيء ﷺ يديم النظر في جِهَةِ السماء رجاء نزوله باستقبال الكعبة، فنزلت ﴿قد نرى تقلُّبَ وجهِك في السمآءِ﴾[1].

﴿**فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**﴾ فوا لله لنصيِّرنَّك تالياً قبلة محبوبة لك بالطبع، وما معه من دواعي الدين كما رأيت، وأما بيت المقدس فهو أيضاً يحب استقباله امتثالاً لأمر ا لله عزَّ وجلَّ؛ أو لَنوجِّهنَّك إلى قبلة ترضاها.

قيل: لا تدعو الأنبياء بشيء حتَّى يأذن ا لله لهم فيه خوف أنْ يكون فتنة لقومهم، وقد روي أنَّه ﷺ استأذن جبريل أنْ يدعو ا لله في شأنٍ فأخبره أنَّ ا لله عزَّ وجل قد أذن له أنْ يدعو فيه، والواضح أنَّه لا يلزمهم أنْ يستأذنوا، وقد جاءت أخبار بأنَّهم دعوا بدون استئذان، وليس ذلك خروجاً عن الأدب، وما ورد فيه معاتبة له ﷺ فإنَّما هو لأسرار خفيَّةٍ.

﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ**﴾ جهة، ﴿**الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ جهته لا لذاته بل للكعبة فيه وهي التي تقصد، ولكن ذكر شطر المسجد وهو الحرم لأنَّه يتعذَّر الجزم بإصابة عينها مع عدم معاينتها والبعد عنها.

---

١ - أورده الألوسي في تفسيره أثراً، لا حديثاً. ج٢، ص٨.

(سيرة) نزلت في رجب بعد الزوال قبل بدر بشهرين، وقد صلَّى بأصحابه في مسجد بني سلِمة ـ بكسر اللاَّم ـ في زيارة أمٍّ بشر بن البراء بن معرور، وقد صنعت لهم طعاماً ركعتين من الظهر، وقيل: كان في ركوع الركعة الثَّانية فتحوَّل واستقبل الميزاب، وتبادل الرِّجال والنِّساء صفوفاً، وزاد الرَّكعتين الباقيتين.

(فقه) ولا يضرُّ ذلك صلاتهم ولو كثرت الخطا والأعمال، ورفع الأقدام والقيام من الرُّكوع بمشي، لأنَّهم في إصلاح الصلاة بذلك، وفي امتثال أمرِ الله.

وقيل قدم المدينة في ربيع الأوَّل وصلَّى إلى بيت المقدس تمام السنة، وصلَّى من سنة اثنتين سبعة أشهرٍ أو ستَّة أشهرٍ ثمَّ حوِّلت الكعبة في جمادى؛ وقيل: يوم الثلاثاء نصف شعبان، وقيل: نصف رجب يوم الإثنين، وقيل: في صلاة العصر؛ وقيل: في صلاة الفجر وذلك قبل بدر بشهرين؛ وقيل: مرَّ رجلٌ ببني سلِمة فناداهم وهم ركوعٌ في صلاة الفجر نحو بيت المقدس: «ألا إنَّ القبلة قد حوِّلت للكعبة»، فمالوا كلُّهم ركوعاً إليها، وروي ذلك في قباء في صلاة الفجر، وأنَّه قال المارُّ: ألا إنَّ القبلة قد حوِّلت الليلة.

وقال السيوطي حديث بني سلِمة تحريف فإنَّه ﷺ لم يكن إماما في تلك الصَّلاة ولا هو الذي تحوَّل في الصَّلاة، فإنَّ أبا سعيد بن المعلَّى

روى أنَّه ﷺ قرأ: ﴿قد نـرى تقلُّب وجهِك في السَّمآء...﴾ الآيـة، فـنزل فصلَّى الظهر أربعاً؛ قلت: لعلَّه نزل في صلاة الفجر وتحوَّل، وأعاد قراءتها عند الظهر فإنَّ أبا سعيد لم يقل: نزلت في الظهر بل قال: قرأ على المنبر، قال: فقلت لصاحبي: تعال نركع ركعتين قبل أنْ ينزل رسول الله ﷺ فنكون أوَّل من صلّى إليها، فصلّيناهما فنزل ﷺ فصلَّى الظهر إليها.

(فقه) ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ وهو الحرم، ومن كان فيه فشطره المسجد، ومن عاينة كلِّف الجزم بمقابلتِه، ويكلَّف بمقابلة الكعبة جزماً مَن عاينها.

وعن مالك: الكعبة قبلة لأهل المسجد، وهو لأهل مكَّة، وهي لأهل الحرم، وهو لأهل الدُّنيا، قلت: ذلك مقاربة.

وعمَّم الأمكنة لتعمَّ بيت المقدس وغير المدينة وما حضر فيه اليهود وما لم يحضروا فيه، فلا يتوهَّم خصوص المدينة إذ نزلت فيها، ولا غير محضر اليهود إذ كان يصلّي لبيت المقدس حين هاجر استجلاباً لهم، أمره الله سبحانه بالتّولية خصوصاً تعظيماً له، ولأنَّه الدَّاعي لله بالتَّحويل، فخاطبه بأنا قد استجبنا لك، وذكر دعاءه في قوله: ﴿قد نرى تقلُّبَ...﴾ الآية، فكأنَّه قيل: دعوتنا للتَّحويل فاستجبنا لك، ثمَّ عمَّم أمَّته بالخطاب تأكيدا وحضًّا على المتابعة، وإلاَّ فخطابه كافٍ إلاَّ إذا تبيَّنت الخصوصيَّة.

﴿وَإِنَّ الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ اليهود والنَّصارى والصَّابين، ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي ما ذكر من التولية، أو أنَّ التولي المطاوع للتَّولية، أو أنَّ التوجيه أو التَّحويل، أو أنَّ التحوُّل أو التوجُّه؛ ﴿الْحَقُّ مِنْ رَّبِّهِمْ﴾ وقد صحَّ لهم في التوراة والإنجيل أنَّه ﷺ يصلِّي إلى القبلتين بيت المقدس والكعبة. ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وعيد لليهود والنصارى والصَّابين على التكذيب وسائر المعاصي، ووعد للمؤمنين على التصديق وسائر الطَّاعات.

﴿وَلَئِنَ اَتَيْتَ الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ التوراة والإنجيل، ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ دليلٍ منقول عن الله، أو حجَّة عقلية تنبني على دين الله، أو مجرَّد حجَّة عقلية على صدقك في أنَّ الله هو الذي أمرك بالتحوُّل إلى استقبال القبلة؛ ﴿مَّا تَبِعُوا﴾ كلُّهم، ولو يتَّبع بعضهم، ﴿قِبْلَتَكَ﴾ الكعبة، لأنَّ عنادهم لك في أمر القبلة وغيره ليس لشبهة فيتركوه لآية تزيلها بل عناد وحسد.

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ إخبار منه تعالى بأنَّه لا يصدر منه متابعة قبلتهم، وهو مدح وتبشير؛ وقيل: إخبار بمعنى النهي، أي لا تتَّبع قبلتهم، أي ذُم على عدم اتّباعها صخرة بيت المقدس لليهود ومطلع الشمس للنَّصارى، لأنَّ الله هو الذي أمرك بالتحوُّل عن قبلة بيت المقدس؛ وأمَّا مطلع الشَّمس فلا وجه لاستقباله إذ ليس في

التوراة، وإنَّما الواجب على النصارى قبل التحويل إلى الكعبة استقبال بيت المقدس لوجوب اتّباع التوراة عليهم إلاَّ ما نسخ الإنجيل منها، وإنَّما أخذوه من اتّخاذ مريم مكاناً شرقياً، أو من «بوليس»[١] اليهودي إذ غرَّهم وقال: إنَّ الشمس كلَّ يوم تبلّغ سلام عيسى إلى الله، وقد أمر عيسى بأنْ تستقبلوه في الصَّلاة.

وقد صحَّ أنَّ عيسى يستقبل بيت المقدس ولذلك أفرد قبلتهم، لأنَّ القبلة بيت المقدس لا المشرق، وبه خوطبوا كاليهود وهذا أنسب بما في نفس الأمر.

وزعم أشياخ النَّصارى أنَّ المسيح فوَّض إليهم الدين فما أوجبوه أو حرَّموه أو أباحوه فهو كذلك، فجعلوا الصلاة للمشرق لأنَّ فيه أسراراً ليست في غيره عندهم، ولذا كان مولده شرقاً، أو أفردها مع أنّها اثنتان: بيت المقدس ومطلع الشمس، لاتّحادهما في البطلان بعد التحويل للكعبة، فكأنّهما إذ بطلتا قبلة واحدة، فقبلة حقٌ وهي الكعبة، وقبلة باطل وهي ماعداها، وهو أنسب لقوله: **﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ**

---

١ - بولس: قديس اشتهر بلقب رسول الأمم، وكان من أعنف مضطهدي المسيحية، اندفع متفانيا في التبشير بين مدن آسيا الصغرى واليونان، وكان اسمه شاول قبل اهتدائه.

مات في روما سنة ٦٧م، وله أربع عشرة رسالة موجَّهة إلى الكنائس المختلفة أو إلى بعض تلاميذه.

﴿قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ وهذا إنْ قلنا: أفردها لمشاكلة الإفراد في قوله: ﴿ما تبعوا قبلتك﴾، أو معنى ما أنت بتابعٍ قبلتهم أنَّ قبلتك لا تنسخ إلى قبلتهم، كما لا تنسخ إلى غيرها، وفيه قطع طمعهم عن أنْ يستقبل قبلتهم، كما أنَّه قطع طمعه في أنْ يؤمنوا ويستقبلوا الكعبة بقوله: ﴿ماتبعوا قبلتك﴾، وهذا أولى من أنْ يقال: المراد النَّهي أي لا تتَّبِعْ قبلتهم، لأنَّ استعمال الجملة الاسميَّة في الطلب ضعيف، وما تقدَّم أولى من أنْ يقال: المعنى ما ينبغي لك اتّباع قبلتهم وما يحقُّ.

وقيل: إنَّ الله لم يأمر اليهود باستقبال بيت المقدس في التوراة بل كانوا ينصبون التابوت ويصلُّون إليه من حيث خرجوا، فإذا قدموا نصبوه على الصَّخرة وصلوا إليه من خلفه، ولما رفع صلُّوا إلى موضعه وأبقاهم الله على ذلك؛ وصحَّح بعضهم أنَّها في التوراة التي غيَّروها، ونسخت على كلِّ حال.

والصَّابون يصلُّون إلى الكعبة، ولعلّهم اختاروها بعد نزول القرآن بها؛ وقبلة السامرية طورهم في الشام، يعظّمونه ويحجُّون إليه، وهي في بلدة «نابلس» قبلة باطلة مبتدعة. والبعض الأوَّل لليهود أو للنَّصارى، والثَّاني للآخرين، وفي ذلك بعض تسلية إذ لم يختص عنادهم به بل هو شأنهم حتّى [فيما] كان بينهم.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ ما يحبُّونه ممَّا خالف الحقَّ

كالرُّجوع إلى قبلتهم، وهذا زيادة في قطع طمعهم في أنْ يتّبعهم، وإلاّ فقد تحقّق أنّه ﷺ وتحقّق من الله أنَّ الرّسل لا تفعل ذلك، أو الخطاب للمؤمنين على البدليَّة لا له ﷺ، ولا سيما مع قوله تعالى: ﴿ومآ أنتَ بِتَابِعٍ قبلَتَهم﴾ إلاّ على معنى لا ينبغي لك اتّباعُها أو لا تّتبعها؛ أو الخطاب له ﷺ على سبيل الفرض تعريضاً بغيره إذ كان يعاقب لو اتّبع فكيف غيره، وتهييجاً على الثبات. **﴿مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾** الوحي أنَّ القبلة الكعبة أبداً، أو العلم المعلوم. **﴿إِنَّكَ إِذَن لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾** لأنفسهم ولدين الله ولغيرهم بالبدعة.

(بلاغة) أكّد الله عزَّ وجلَّ باللاَّم والقسمِ المقدَّر قبلها، وأنَّ الفرضيَّة وأنَّ واللاَّم في خبرها، والجملة الاسمية، وتعريف «الظالمين»، و«إذا» الجزائية فإنّها لكونها جواباً وجزاءً تفيد المبالغة وإيثار [قوله] «من الظالمين» على أنّك ظالمٌ أو الظّالم، لإفادة أنّك معدود فيهم. و«زيدٌ من العلماء» أبلغُ من «زيدٍ عالم»، وتسمية الإتباع هواء بمعنى أنّه لا يعضده دليل، والإجمال والتفصيل في قوله: ﴿ما جآءك من العلم﴾، إذ لو قال: ما جاءك العلم، لكفى، وجعل الجائي نفس العلم، ووضع الظّاهر موضع المضمر إذ لم يقل: «لَمِنهم»، أي اليهود والنّصارى إن أريد العهد.

﴿الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ اليهود والنّصارى آتيناهم التوراة

والإنجيل، مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي محمَّدًا ﷺ لدلالة الكلام عليه وعدم اللَّبس، وأمَّا ذكر الرَّسول قبل مرَّتين فبعيد مع الفصل بأجنبيٍّ، أو التفات عن الخطاب في «اتَّبعتَ»، والكافَيْن إلى الغيبةِ والأصل: يعرفونك، أي يعرفون القرآن أو التحويل، لاستحضار القلب لهما في المقام للنباهة لهما؛ أو يعرفون العلم المذكور، أي المعلوم الحقَّ، ومنه كون الكعبة قبلة. ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ هذا أنسب بكون الهاء في «يعرفونه» لمحمَّد ﷺ، والمراد يعرفونه بصفاته في التوراة وغيرها، ومن صفاته فيها أنَّهُ يصلّي للقبلتين، واستمراره على الكعبة بعد نسخ الصلاة إلى صخرة بيت المقدس معرفة كما لا يلتبس عليهم أبناؤهم.

قال عمر لعبد الله بن سلام قال الله تعالى: ﴿الذين ءاتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنآءهم﴾ ما هذه المعرفة؟ فقال: يا عمر، لقد عرفته حين رأيته كما عرفت ابني، ومعرفتي به أشدُّ من معرفتي بابني، فقال عمر: كيف ذلك؟ قال أشهد أنَّه رسول الله حقًّا وقد نعته الله في كتابنا، ولا أدري ما تصنع النساء، وفي رواية: ولعلَّ والدة ابني خانت؛ وفي رواية: لعلَّ اليهودية خانت، وقبَّل عمر رأسه، وقال: وفَّقك الله ياعبد الله بن سلام فقد صدقت.

ولا يلزم من قول الله تعالى: ﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ أنَّهم لا يعرفونه أشدَّ من معرفتهم بأبنائهم، لأنَّ المراد في الآية مجرَّد التنظير، ولم

يقل: «كما يعرفون أنفسهم» مع أنَّ معرفة الإنسان نفسه أشدُّ من معرِفته لولده، لأنَّ الإنسان لا يعرف نفسه إلاَّ بعد انقضاء برهة من دهره، ويعرف ولده من حين وجودِه، وخصَّ البنين بالذِّكر لأنَّه ﷺ ابن، والابن ألصق بالقلب من البنت، وأشهر والزم لصحبة الأب. **﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾** من أهل الكتاب. **﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾** نعته ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن، **﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** أنَّك المنعوت وأنَّك على الهدى فيما تقول وما تفعل، وأنَّ كتمان الحق معصية، وأنَّ عليه العقاب؛ وفريق آخر معترفون بالحقِّ كعبد الله بن سلام ومن معه، وذكر فريق الكتمان تنصيصاً على فجِّ الكتمان مع الكفران. **﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾** الحقُّ المعهود الذي أنت عليه، أو الذي كتموه، أو الحقُّ كلُّه، أو حقيقة الحقِّ، بحيث لا يشذُّ عنه شيء من ربِّك؛ وأمَّا ما جاء من غير الله فليس بحقٍّ كالذي يفتريه اليهود والنَّصارى في أمر القبلة وغيرها كما زعمت النصارى أنَّ عيسى فوَّضهم في القبلة والتحليل والتحريم.

و«من ربِّك» خبر أو يقدر: هو الحقُّ، أي ما أنت عليه، أو ما كتموه الحقُّ، و«من ربِّك» حال أو خبر ثان، أو نعت عند مجيزه بالظروف في المعارف، أي هو الحقُّ الثابت من ربِّك، وعلى كلٍّ وجه الجملة مستأنفة.

﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْـمُمْتَرِينَ﴾ الشَّاكِّين في أنَّ ما أنت عليه من النبوءة والقبلة وسائر الدين حقٌّ من ربِّك، أو في أنَّ أهل الكتاب عرفوه من الكتاب وكتموه، والنَّهي إلهاب على الإيقان، وتلويح بأنَّه بحيث لا يشكُّ فيه ناظر، أو له وللأُمَّة جميعاً على البدليَّة لا العموم الشُّموليِّ، وإلاَّ ضمَّت النون الأولى، وأمَّا أنْ يكون للأمَّة وحدها ففيه تلوين الخطاب، اللهمَّ إلاَّ أنْ يجعل كاف «ربِّك» لها أيضاً؛ وذُكِّرت لأنَّها بمعنى العموم أو الجمع وفيه بعدٌ، ثمَّ إنَّ الشكَّ ليس كسبيًّا فكيف ينهى عنه؟ وإنَّما ساغ النَّهيُ عنه لأنَّ المراد به تحقيق أنَّ ما كان من الله لا يُشكُّ فيه، أو اكتساب النبيء ـ أو هو والأمَّة ـ المعارفَ.

وليس المراد ظاهر النَّهي، وقد يكون الشكُّ كسبيًّا باعتبار مبادئه، أي لا تباشر شيئاً يؤدِّي إلى الشَّكِّ، فيجوز حمل الآية على هذا كما أنَّ الإيمان مأمورٌ به باعتبار مبادئه، وأيضاً الشكُّ مقدورٌ للإزالة، فمن كان فيه أو فُرض فيه نُهِيَ عن البقاء عليه.

والمراد بـ«الممترين» الجنس، فيشمل من شكَّ من جهلاء أهل الكتاب والعرب، لا من عرف، فإنَّه لا يشكُّ لقوله تعالى: ﴿وهم يعلَمونَ﴾، وقوله: ﴿لَيَعلمون أنَّه الحقُّ﴾، وقوله: ﴿يعرفونه كما يعرفون أبنآءهم﴾؛ وقد مرَّ أنَّ النهي عن الكون من أهل كذا أبلغُ عن أنْ يكون كذا، أو لا تفعل، فذلك أبلغ مِن «لا تكون ممترياً»، ومِن «لا تمتر»، **وهكذا في سائر القرآن ولو لم أكرِّرهُ.**

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

الاختلاف في القبلة وأسباب تحويلها

﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الأمم، ﴿وِجْهَةٌ﴾ جهة، أو لكلٍّ أهل ملَّة، أوْ لكلٍّ جماعة من المسلمين واليهود والنّصارى، أو لكلِّ قومٍ من المسلمين جهة من الكعبة، جنوبيَّة أو شماليَّة أو شرقيَّة أو غربيَّة يتوجَّه إليها بالاستقبال في الصَّلاة ونحوها؛ أو لكلٍّ من الأمم توجُّهٌ. مصدر شاذٌّ إذ هو «فِعْلَة» بكسر الفاء، ثبتت فاءه واوًا، أو وجهةٌ: ملَّة تقصد. ﴿هُوَ﴾ أي الكلّ أو الله. ﴿مُوَلِّيهَا﴾ وجهَهُ، فالمفعول الثَّاني محذوف، أي يجعل وجهه تاليا لها، أو يولِّيها ملَّتها.

والمعنى أنَّهم لا يتركون قبلتهم ولا ملَّتهم فذلك كالفذلكة لقوله: ﴿ما تبعواْ قبلتك، ومآ أنت بتابع قبلتهم، وما بعضُهم بتابعٍ قبلةَ بعضٍ﴾ وليس المراد أنَّ الله أباحَ لَهم ذلك، بل الله يعاقب كلَّ أمَّةٍ خالفت نبيئها، فيعاقب الله اليهود والنَّصارى وغيرهم الذين أدركتهم بعثة رسول اللهِ ﷺ وخالفوه في القبلة وغيرها، إلاَّ من لم يبلغه الخبر فيعذر إن كان على دين غير منسوخ، أو لم يبلغه نسخه.

﴿فَاسْتَبِقُواْ﴾ أيُّها المؤمنون، أو أيُّها المكلَّفون، وهو من الافتعال بمعنى التفاعل، أي ليعالج كلٌّ منكم أنْ يسبق الآخر لرِضى الله وثوابه، كالصَّلاة أوَّل الوقت، واستقبال عين القبلة لا عنادًا للآخر، أو حسداً أو كبراً. وهو متعدٌّ أو لازِمٌ فتقدَّر «إلى». ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ الأمور الحسنة اعتقاداً وقولاً وفعلاً، من أمر القبلة وغيرِها؛ أو الخيرات: الكعبة، جمعها لجمعها كل خير؛ أو للتَّعظيم؛ أو الجهات الفاضلة لكونها على سمت الكعبة، فيكون الخطاب للمؤمنين أو للمكلَّفين من أهل الآفاق لتعذُّر مقابلة الكعبة جزماً.

والخيرات جمع خيِّر أو خيِّرة بشدِّ الياء أو بالتخفيف، تقول: أمر خيِّر وخصلة خيِّرة، أو جمع خير، اسم تفضيل خارجاً عن بابهِ، أو باقياً، لأنَّ الأفقي يجيز في استقبال القبلة وجهين، أو أكثر فيختار أقواها

عنده، ولأنَّ المخطئ يدَّعي أنَّ ما هو عليه حسن، وعلى دعواه هذا: «الذي عليه محمَّد أحسن».

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ﴾ في موضعٍ خفيٍّ أو ظاهرٍ، في برٍّ أو بحرٍ. ﴿يَاتِ بِكُمُ اللهُ﴾ يصيركم الله ءاتين؛ ﴿جَمِيعًا﴾ يوم القيامة للجزاء بأعمالكم، وذلك حثٌّ على الإستباق كقوله تعالى: ﴿يابنيِّ إنَّهآ إن تكُ مثقالُ حبَّةٍ من خردلٍ فتكن في صخرةٍ اَو في السمَواتِ أو في الاَرضِ ياتِ بها الله﴾ (سورة لقمان: ١٦) أو يمتكم، كقوله تعالى: ﴿أينما تكونواْ يُدركْكُّمُ الموتُ﴾ (سورة النساء: ٧٨)، أو يأت بكم إماتة وحشراً؛ أو يجمع صلواتكم في الآفاق من جهات الكعبة كصلاة واحدة إلى جهة واحدة في القبول، كأنَّها إلى عين القبلة، أو في المسجد الحرام فيأت بكم مجاز عن جعل الصلاة متَّحدة الجهة.

﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإماتة والإحياء والحشر وغير ذلك ﴿قَدِيرٌ. وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ متعلِّق بـ«ولِّ» بعده، و«مِن» للابتداء، أو بمعنى «في»، كأنَّه قيل: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ من حيث خرجت للسَّفر إلى أنْ ترجِع، وفي موضع خروجك للسَّفر، فيفهم منه أنَّ حكم ما بعد الموضع من مواضع السفر كذلك، أو خرجت بمعنى سافرت، أي ولِّ وجهك في مواضع سفرك، ولا يعترض على ذلك بأنَّه يلزم اتِّصال الواو بالفاء إذا علَّقناه بـ«ولِّ»،

لأنَّ الفاء صلة للتأكيد، أساغها شبه «حيث» بالشرطيَّة المتَّصلة بما في العموم، كما أجاز "الفرَّاء" كونها شَرطيَّة ولو بدون «ما»، ولأنَّه لا يكون الثِّقل في التقدير مثل الثقل اللفظي كما في أنواع كثيرة، بل يسوغ في التَّقدير؛ وكرَّره لبيان أنَّك تستقبل القبلة في السفر كالحضر.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي التولي المطاوع للتَّولية المذكورة، أو شطر المسجد الحرام أي استقباله، أو إنَّ التَّولية؛ فذُكِّر لتذكير الخبر أو إنَّ الصَّرف أو الاستقبال، **﴿لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ، وَمِن حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾**.

(لغة) الشطر في الأصل ما انفصل عن الشيء، إمَّا حسًّا كدارٍ شَطُور، أي منفصلة عن الدُّور، ومعنًى كقولنا، الإقرار شطر التوحيد، واستعماله في الجزء شائع، واستعمل لجانب الشيء ولو لم ينفصل بمعنى الجهة كما في الآية.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ والعطفان على «لكلٍّ وجهةٌ»، أو على ﴿قَدْ نَرَى تقلُّبَ وجْهِكَ فِي السَّمَآءِ﴾.

ذكر ذلك ثلاث مرات، كلٌّ لعلَّة غير علَّة الأخرى، ذكره المرَّة الأولى ليريه أنَّه قد أجاب له فيما يشتاق إليه، ورحم تضرُّعه، وأنَّه أهل لأن يجاب لعظم شأنه عند الله عزَّ وجلَّ، كما قال الله عزَّ وجلَّ ﴿قَدْ نَرَى تقلُّبَ وجْهِكَ﴾. وذكره المرَّة الثانية ليبيِّن أنَّه جعل لكلِّ

أمَّة قبلة يمتاز بها، إذ قال ﴿ولكلٍّ وجهةٌ﴾ أي لكلٍّ أمَّة. وذكره المرَّة الثَّالثة ليدفع حجَّة اليهود إذ يحتجُّون بأنَّه لو كان النبيءَ الموعود به لتحوَّل إلى الكعبة كما في التوراة، وأنَّه لو كانه لم يتَّبِع قبلتنا مع أنَّه يُنكِر ديننا، ولدفع حجَّة مشركي العرب إذ يحتجُّون بأنَّه لو كان نبيئاً لم يخالف قبلة ابراهيم مع أنَّه يدعيها، كما قال بعد قوله:

﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ اليهود ومشركي العرب. ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ ﴿ولأتمَّ نعمَتِي﴾ إنْ عُطِف على «لئلاَّ...» إلخ، وأمَّا قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وما جَعَلنا القبلَةَ التِي كُنْتَ علَيهَا﴾ أي الكعبة التي كنت عليها، فبان أنَّ الجعل معلَّل بالعلم لا بقيد كونه تعظيماً للرَّسول ﷺ ولا بغيره، وناسب التكرار أنَّ الكعبة لها شأنٌ. والنسخ من مظانِّ الطعن، والمخالفة في النسخ بدعوى إلزام البَداء، وهو غير جائز، وهي مخالفة باطلة، لأنَّ النسخ إزالة حكم قضي في الأزل أنَّه يزال، لا ظهورٌ لِمَا خفي، تعالى الله.

وقيل: الأُولى على أنَّ الإنسان في المسجد الحرام، والثانية على أنْ يخرُج من المسجد الحرام، ويكون في البلد، والثالثة على أنْ يخرُج عن البلد إلى أقطار الأرض. وفيه أنَّ الخطاب أوَّلاً لرسول الله ﷺ وهو في المدينة، فكيف تكون الأولى لمن في المسجد الحرام!.

﴿إلاَّ الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالعناد؛ ﴿مِنهُمْ﴾ من الناس المعهودين، أي إلاَّ المعاندين من اليهود، إذ قالوا تحوَّل للكعبة ميلاً لدين قومه وحبًّا لبلده، ومشركي العرب، إذ قالوا رجع لقبلة ءابائه ويوشك أنْ يرجع إلى دينِهم، وأنَّه في حيرة من أمر القبلة. ومن لم يعاند قال: يدَّعي ملَّة إبراهيم ويوافق قبلته.

والحجَّة ما يستدلُّ به صحيحاً في نفسه أو في زعم المستدلِّ، ولا حجَّة صحيحة لمن خالف كلام الله لكن تسمَّى حجَّة كأنَّها صحيحة لشبهها بها في إحضارها لإثبات المقصود، أو المراد التَّحاجُّ أي الخصامُ، أو الإِستثناء منقطع أي: لكن الذين ظلموا، من تأكيد الشيء بضدِّه، أي إنْ كانت لهم حجَّة فهي الظُّلمُ، والظُّلمُ لا يكون حجَّةً فحجَّتهم غير ممكنة كقوله:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم بهنَّ فلول من قراع الكتائب

فأخذ منه بعض قوله:

ولا عيب فيهم غير أنَّ نزيلهم يُلام بِنِسْيَانِ الأَحِبَّةِ والوَطَنْ

فالمعنى المبالغة بأنَّه إنْ كانت الحجَّة في نفي الحقِّ فهي كلام المعاندين، وكلامهم غير حجَّةٍ فلا حجَّة في نفي الحقِّ، وهو هنا استقبال الكعبة. ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ﴾ أي الظالمين، وقيل: الناس عموماً، والأوَّل أولى، لا تخافوهم في الجدال في التَّولِّي إلى الكعبة فإنَّه

يضمحلُّ، وضرره عائد عليهم، وسمِّي خوفهم خشية مع أنَّه إن خوفهم المؤمنون لا إجلالَ، فيها مشاكلة لقوله تعالى: ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ أي خافوني مع إجلال.

﴿وَلأُتِمَّ﴾ لئلاَّ يكون، ولأتمَّ ﴿نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ وفي ذلك عدم المناسبة إلاَّ بتكلُّفٍ، وأيضاً إرادة الاهتداء علّة تصلح للأمر بالتّولية لا الفعل المأمور به، والأولى أنْ يقدَّر «وأمرتكم بالتولية للكعبة لأتمَّ نعمتي»، لأنَّها نعمة عظيمة تورث فوزاً عظيماً، ونعيماً مقيماً، أو اخشون لأحفظكم من شرِّهم في الدُّنيا، ولأتِمَّ نعمتي عليكم في الدُّنيا والآخرة بكونكم على الحقِّ، وبإدخال الجنَّةِ.

وروى البخاري والترمذي «**أنَّ تمام النِّعمة دخول الجنَّة**»[1] وعن عليٍّ: «الموت على الإسلام»؛ قلت: أو الهدى إلى معالم الدين والإقامة عليها إلى الموت، والنِّعمة في كلِّ وقت وتمامها بما يليق به، فلا يعارض بما جاء بعد من قوله تعالى: ﴿اليوم أكملتُ لكم دينَكم وأتممتُ عليكم نِعمَتي﴾. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ قد مرَّ، ومن معانيه ولتهتدوا.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ﴾ معشر العرب شرفاً لكم إذ لم يكن من غيركم، ولا تقدرون أنْ تأخذوا الأحكام والوحي عن

---

١ - رواه **البخاري** في كتابه: الأدب المفرد (٧٠١)، باب من سأل الله العافية، رقم ٧٢٥، ص٢١٧

الملك؛ يعني محمَّدًا ﷺ، ولأتمَّ نعمتي عليكم إتماماً شبيهاً بإرساله في الإتمام به للنِّعمة، ويجوز أنْ يعود إلى قوله: ﴿فاذكروني﴾ أي أذكروني ذكراً مثل ذكري لكم بالإرسال، أو اذكروني بدل إرسالنا فيكم رسولاً، فالكاف للمقابلة، وذكرُ الإرسال وإرادة الإتمام من إقامة السبب مقام المسبَّب.

﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا﴾ أي القرآن الذي هو معجزة دائماً لا يملُّ. ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يطهِّركم من الشِّرك والمعاصي، أو يعلِّمكم ما تكونون به أزكياء. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن ذكره أوَّلاً بلفظ الآيات باعتبار معانيه التي هي مدلولها، وثانياً بالكتاب باعتبار ألفاظه. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ما فيه من الأحكام تخصيص، بعد تعميم، أو السُّنَّة.

﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ من أخبار الأمم وأنبائهم والحوادث، ولم يقل: «ويعلِّمكم الكتاب والحكمة وما لم تكونوا تعلمون» بل أعاد ذكر يعلِّمكم ليدلَّ على أنَّ هذا التعليم نوع آخر، ولو قلنا: ما لم تكونوا تعلمون هو الكتاب والحكمة وعطف، لأنَّ تغاير الصفة كتغاير الذات، فإنَّ مفهوم ما لم تكونوا تعلمون غير مفهوم الكتاب والحكمة، ولو أتَّحدت مأصدقاً.

وقدَّم التَّزكية لأنَّها تخلية عن التعليم لأنَّه تحلية **ولأنَّها غاية التعليم، متقدِّمة في القصد، كما قالوا في الغاية المقصودة من الفعل:**

«هي أوَّل الفكر وآخر العمل»، كالماء غاية يقصد بالحفر ويحصل بعده، وقد قصد قبل الحفر.

وقدَّم التعليم في دعاء إبراهيم ﴿ربَّنا وابعثْ فيهِم...﴾ إلخ باعتبار أنَّ التزكية تحصل بعد العلم وهو بعد التعليم، وقيل: التزكية عبارة عن تكميل النفس بالقوَّة العمليَّة وتهذيبها، المتفرِّع عن تكميلها بالقوَّة النَّظريَّة، الحاصل بالتعليم المترتِّب على التِّلاوة، ووسِّطت بين التِّلاوة والتعليم إيذاناً بأنَّ كلاًّ من الأمور المرتَّبة نعمة على حدة، توجب الشكر، ولو روعي ترتيب الوجود كما في دعوة إبراهيم لـتُوهِّم أنَّ كلاًّ نعمة واحدة.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بالطَّاعة باللِّسان، وبالتَّفكر في الدَّلائل والوحدانية، وبالجوارح في أنواع العبادات؛ ولكون الصَّلاة جامعة لذلك سمَّاها ذكراً في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فاسعواْ إِلى ذكرِ الله وذروا البيعَ﴾ (سورة الجمعة: ٩). **وحقيقة ذكر الله أنْ يُنسِيَ كلَّ شيء سواه.** ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالثواب أو بالثَّناء عند ملأٍ خير من ملأ ذكرتموني عنده، وهم الملائكة كما في الحديث[١]، عطف إنشاء على إخبار؛ أو مهما يك من شيء فاذكروني

---

١ - لعلَّ الشيخ رحمه الله يشير إلى الحديث الذي أورده البخاري عن قتادة عن أنس، والإمام أحمد كذلك، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا ابن آدم، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منه، وإن**
=

أذكركم؛ أو إنْ لم تذكروني بالطَّاعةِ لنعمتي عموماً فاذكروني لنعمة الإرسال، أحوجَ ما أنتم إليه في وقت الفترة، وهذا أنسب لفظاً والذي قبله أبلغ، وأساغهما حضور النِّعمِ في الحسِّ خارجاً وفي لفظ الآي، ويجوز أنْ يُراد: فاذكروني أُثِبْكُم؛ وسمَّى الإثابة ذكراً للجوار. ﴿وَاشْكُرُواْ لِي﴾ نعمتِي بعبادة قلوبكم ومع ألسنتكم وجوارحكم، وذكرُ النعم جلباً للعبادة ونفع خلق الله بها؛ وقدَّم الذكر لأنَّه اشتغال بالذَّات، والشُّكر اشتغال بالنِّعمة. ﴿وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ ولا تستروا شأني بترك الشُّكر كأنِّي لم أنعم عليكم، وبالمعصية، والإشتغال بحظوظ النَّفس وما لا يعني.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

الصبر على البلاء

=

دنوت منّي شبراً دنوتُ منكَ ذراعا، وإن دنوتَ منّي ذراعا دنوت منك باعا، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة» قال قتادة: «الله أقرب بالرحمة»

﴿**يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا**﴾ على الشُّكر والذِّكر وسائر العبادات، وترك المبالاة بعناد المعاندين، أو على نيل درجات الآخرة، والنقص من هول الموت وما بعده من القبر والحشر، وهول الدُّنيا. ﴿**بِالصَّبْرِ**﴾ على البلاء ومشقَّة العبادة، وعن المعاصي وحظوظ النَّفس. ﴿**وَالصَّلاَةِ**﴾ خصَّها من سائر الطَّاعات لعظم شأنها، لأنَّها أفضل العبادات بعد التوحيد وأُمُّها، ومعراج المؤمنين، ومناجاة الرَّبِّ، ولتكرُّرها، وهي الأصل الموجب لكمال التقرُّب. ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ بالعون والنَّصر، وذلك تعليل جمليٌّ متعلِّقٌ بالاِستعانة بالصَّبرِ لأنَّه المحتاج للتَّعليل.

وأمَّا الصَّلاة فحيث كانت أجلَّ المطالب، لم يفتقر الأمر بالاِستعانة بها إلى التعليل، كذا قيل، مستأنساً له بقوله ﷺ: «**جعلت قرَّة عيني في الصَّلاة**»(١). ويجوز أنْ يكون تعليلاً للاستعانة بهما على الحذف، أي إنَّ الله مع الصَّابرين والمصلِّين، قيل: أو للاِستعانة بالصَّلاة فهماً، وبالصَّبرِ تصريحاً، فإنَّه إذا كان مع الصَّابرين فأولى أنْ يكون مع المصلِّين لاشتمالها على الصَّبر، وفيه أنَّ الصبر أشدُّ وشاملٌ للصَّبر على الصَّلاة وغيرها.

﴿**وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ**﴾ أي في شأن من يقتل، ﴿**فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾ في الجهاد؛ ﴿**أَمْوَاتٌ**﴾ أي هم أموات البتَّة كالجماد؛ ﴿**بَلَ**

(١) - تقدَّم تخريجه، انظر تفسير الآية رقم ٤٤ من هذه السورة.

أَحْيَآءٌ﴾ وهذا قطع عن القول وردٌّ له، ولكن لا مانع من الوصل به، إلاَّ أنَّ المراد بالذات الردُّ له وتقديره: بل قولوا: «هم أحياء وأرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنَّة حيث شاءت»، وأما السعداء غير الشهداء فيجاء لأرواحهم بنعيم الجنَّة إلى باب الجنَّة، وقيل ينعم غير الشَّهيد في قبره بروائح وغيرها، ممَّا ليس طعاماً، ولا شراباً، كما أنَّ الشقي يصلّ روحهُ في قبره أو في النَّار عذابٌ، وتارة يرجع الروح للجسد فيجيء الجسد مسلماً أو كافراً، وذلك كما تعرض النار على أرواح آل فرعون قال ﷺ: «**أرواح الشهداء في أجواف طير خضر، تَرِدُ أنهار الجنَّة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل ـ أي صُوَر قناديل ـ معلَّقة تحت العرش**»[١]، وعن ابن مسعود: «أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تعرض على النار بكرة وعشيًّا إلى يوم القيامة».

فنقول: الأرواح أجسام لطيفة، وأجساد تلك الطير على صور الموتى، لو رآهم أحد لقال رأيت فلاناً؛ وقيل: أجسادٌ أُخَر على صور الطَّير، ويدلُّ له رواية عنه ﷺ: «**في صور طير خضر**» ولا ينافي ذلك رواية: «**في أجواف طير**»، ورواية: «**في حواصل طير**».

﴿**وَلَكِنْ لاَّ تَشْعُرُونَ**﴾ ما هم فيه من أنَّه تنعم أرواحهم في أجواف طير خضر على حدِّ ما مرَّ، تكون الطَّير لها كالهوادج، وأرواح أهل النار تعذَّب في

---

١ - أورده الألوسي في تفسيره، ج٢، ص٢٠. وقال: أخرجه عبد الرزَّاق في مسنده من حديث عبد الله بن كعب بن مالك.

أجواف طير سود، تكون لها كالتَّابوت في النَّار، وقد تحيي أجسام هؤلاء وهؤلاء.

(سبب النزول) ونزلت الآية لـمَّا قيل في شهداء بدر، وهم ستَّة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، أو سبعة عشر أو ستَّة عشر ــ بيَّنتُ أسماءهم في شرح نونيَّة المديح[١] ــ: أنَّهم ماتوا وذهبت عنهم النِّعم واللَّذَّات، ولقول المشركين والمنافقين: قتلوا في مرضاة محمَّد بلا فائدة.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ عطف على «استعينوا» أو على ما عطف على «استعينوا»، والمعنى لنصيبنَّكم إصابة كإصابة من تختبر حاله لتعلم أيصبر ويثبت على الطَّاعة أوْ لاَ؟ وا لله لا يخفي عليه شيء، فذلك استعارة تمثيليَّة، والخطاب للمؤمنين عموماً؛ وقيل: للصَّحابة؛ وقيل: لأهل مكَّة. ﴿بِشَيْءٍ﴾ قليل كما يفيده التَّنكير، مع «مِن» التَّبعيضية، مع العرف في لفظ شيء، فإنَّ كلَّ ما أصابهم قليل بالنِّسبة إلى المصائب العظام، وهم عالمون بأنَّ ما لم يصبهم أعظم فيعلمون أنَّ رحمة ا لله لم تفارقهم، إذ هم معافون من المصائب التي فوق ذلك، وأيضاً يفرج ا لله عنهم ويعوِّضهم، وبالنِّسبة إلى ما يصيب الكُفَّار في الآخرة، وذلك داع للشُّكر.

ومن نعمته أنَّه أخبرهم بما يصيبهم قبل وقوعه ليوطِّنوا أنفسهم، مع معرفتهم أنَّ لهم عليه أجر، فيخفُّ بما بعد ذلك، ولو أصيبوا بمثله قبل الإخبار. ﴿مِّنَ الْخَوْفِ﴾ خوف العدوِّ، وقيل: خوف ا للهِ، وفيه أنَّ

---

[١] - يعني رحمه ا لله كتابه الهام في شرح نونية ابن الونان المغربي الفاسي المعروف بأبي الشمقمق في مديح رسول ا لله عليه السلام، وذكر سيرته.

خوف الله لا يسمِّيه الله بـلاء واختبـاراً، وهـو أمـر محمـودٌ لا يسـمَّى باسم ينفِّر ويثقل، وأمَّا أنْ يعترض أنَّـه للحال فلا، لأنَّ المضارع مع لام القسـم للاستقبال، وإنْ صحَّ الحال فـالمراد مـا يستقبلُ مـن ذلـك. ﴿وَالـجُوعِ﴾ للقحط والغلاء والفقر، وفسَّره بعض بنفس القحط إقامة للمسبَّب مقام السَّبب؛ وقيل: للصَّومِ، وفيه ما مـرَّ مـن خـوف الله بـل دونه، لأنَّه يقال: يبتليكم الله بما يشقُّ عليكم فتفعلونه، **لكنَّ التفسير بغير الظَّاهر بلا داع بدعة ولا تجوز.** ﴿وَنَـقْصٍ مِّنَ الاَمْـوَالِ﴾ بـالهلاك للحيـوان والنبـات والشـجر، أو بالسَّـرقة والكسـاد، وقيـل: بالإنفاق نفلاً أو زكاةً، وفيه ما مرَّ في خوف اللهِ، وأيضـاً في تسـميتها نقصاً من الأموال تنفيرٌ، ولو صحَّ أنَّ مـا يُعطـى مـن المـال نقـص مـن عدده، وقد قال ﷺ: «**ما نقص مال من صدقةٍ**»[1] أي لها، أي يخلفه الله عدداً أو كمالاً بالبركة، فيقوم الباقي مقام نفسـه ومقـام مـا خـرج وأكثر، مع ثواب الآخرة. ﴿وَالاَنـفُسِ﴾ أنفس الأحبَّة، ومن يعزُّ على الرَّجـل هلاكـه، وذلـك بـالقتل والمـوت والأمـراض، وذهـاب منـافع البـدن بذهاب قواه كالصَّمم، والعمى والعرج، فذلك نقص من صحَّة الأنفـس. ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ من الشَّجر والنبات والحرث بالجوائح، من ريـح وحـرٍّ وبردٍ ونقص ماءٍ ونحو ذلك، وخصَّت مع أنَّها من الأمـوال لأنَّـها قـد

---

١ - رواه مسلم في كتاب البرّ والصلة والآداب (١٩)، باب العفو والتواضع، رقم ٦٩. وأحمد في مسنده، ج٣، ص٣٣٤، رقم ٩٠١٨، مع زيادة في آخره، من حديث أبي هريرة.

لا تملك، كثمار الأرض التي لا يملكها أحد.

وقيل: الأولاد، لأنَّها ثمرة آبائهم وأُمَّهاتِهم، بأنْ يموتوا أو يصابوا في أبدانهم، ومن الثَّمرات بمعنى الأولاد الحديث: «**إذا ماتَ ولدُ العَبدِ قال الله للملائكة: أَقَبَضْتُم وَلَدَ عَبْدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: أَقَبَضْتُم ثَمَرَةَ فؤادِهِ؟ فيقولون: نعم، فيقولُ الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدَكَ واسترجعَ، فيقول الله تعالى: ابنو لعبدي بيتاً في الجنَّة وسمُّوهُ بيتَ الحمدِ**»[١] أي لأنَّ سببهُ الحمد، لكن ليس كلُّ ما جاء في الحديث يفسِّر القرآن بهِ.

﴿**وَبَشِّرِ**﴾ بالصَّلوات من الله والرَّحمة، والخلف والثَّواب العظيم، ولا حاجة إلى تقدير بعضهم: «أنذرِ الجازعين»، لأنَّه معلوم بلا تقدير، ولا داعي إلى تقديرِهِ. ﴿**الصَّابِرِينَ**﴾ من المؤمنين لأنَّ صبر الكافرين لا ينفعُهُم في الآخرةِ، والخطاب للنبيء ﷺ أو لكلٍّ من يصلح للتَّبشير، وهكذا في مثل الآية بحسب الإمكان، ولو لم أذكُرهُ. ﴿ **الَّذِينَ إِذَآ أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ**﴾ مَّا، في بدنٍ أو عرضٍ أو مال أو أهلٍ أو من يعزُّ عليه، ولو شوكة أو بعوضة أو ذبابة. طفئَ مصباح رسول الله

---

١ - رواه الترمذي في الجنائز (٣٦)، باب فضل المصيبة...، رقم ١٠٢١، من حديث أبي موسى الأشعري.

ﷺ، فقال: «إنّا للهِ وإنّا إليه راجعونَ»، فقيل أمصيبةٌ هي؟ قال: «نعم، كلُّ شيءٍ يُؤْذِي المؤمنَ فَهُوَ لَهُ مُصِيبةٌ»(١).

﴿قَالُواْ﴾ إذعانًا واستسلاماً ورضًى وتفويضاً بالقلب واللّسان، أو بالقلب لا باللّسان وحده. ﴿إنَّا للهِ﴾ خلقاً وعبوديَّةً ومُلكاً، يفعل بنا ما يشاء إذ لا نملك شيئاً من أنفسنا مع الله، كيف نملك ذلك وقد أوجدنا من العدم؟! ولا نملك في العدم شيئاً. ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ في الآخرة فيثيبنا، ولا نملك وجودا ولا عدماً، وما أخذ فعارية مردودة لمالكها، وما أبقى أكثر قال ﷺ: «مَن اسْتَرْجَعَ عِندَ المُصِيبةِ آجَرَهُ اللهُ فِيهَا وَأَخْلَفَ عليهِ خيراً»(٢).

وقد يسترجع الإنسان بلسانِه فقط، إلاَّ أنَّه غير ساخط، فوالله إن شاء الله لا يخلو من خير، ألا تراه رجع إلى ذكر اللهِ؟ لا إلى قول سوء، بل لا يكون ذلك إلاَّ وفي قلبه حضور مَّا، ولو لم يعلم به، وفي الحديث: «ما أعطي الإسترجاع لأحدٍ قبل أمَّتي»، ألا ترى إلى قول يعقوب: ﴿يآ أسفَى على يوسفَ﴾ ويُسنُّ أنْ يقال بعد الإسترجاع: «اللهمَّ أجرني في مصيبتي، واخلفني خيراً منها»(٣)، قال ﷺ: «لا

---

١ - ذكره الألوسي في تفسيره، ج٢، ص٢٣، بدون ذكر السند.

٢ - هو جزء من الحديث الذي سيأتي تخريجه، عند قوله تعالى: ﴿وأولئك هم المهتدون﴾.

٣ - أورده ابن كثير في تفسيره عن أحمد، وفي صحيح مسلم ج١، ص١٩٨...

يقولُ أحدٌ ذلك إلاَّ آجرهُ فيها وأخلَفه خيراً منها»[1]، قالته أمُّ سلمة: لمَّا مات أبو سلمة زوجها، فاخلفها الله رسول الله ﷺ.

﴿**أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ**﴾ مغفرة أو تزكية أو ثناء أوتعظيم، والجمع مناف لأن يراد بالصَّلوات الثَّناء أو التعظيم، إلاَّ أنْ يقال: بمعنى ثناء بعد ثناء، وتعظيم بعد تعظيم، ولم يقل: صلاة لكثرة المغفرة والتَّزكية والثَّناء وأنواعهنَّ.

(نحو) أو أراد صلاة بعد صلاة لكن المعروف بالتكرير المفردات نحو زيد يأكل مرَّة مرَّة والتَّثنية كقوله كرَّتين، وقولنا لبَّيك.

﴿**مِّنْ رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ**﴾ نعمة عظيمة أفراداً وأنواعاً، روي «**نِعْمَ العِدلانِ للصَّابرين: الصَّلواتُ والرَّحمةُ**»[2]. ﴿**وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ إلى الصَّواب والحقِّ إذ استرجعوا رضًى بقضاء الله عزَّ وجلَّ، قال ﷺ: «**مَن اِسترجَعَ عند المصيبةِ جَبَرَ الله مُصِيبَتَهُ، وأَحسنَ عُقباهُ وجعلَ لهُ خلفاً صَالحاً يَرضاهُ**»[3] وذلك أولى من تقدير: المهتدون إلى الفوز بالمطالب.

---

١ – رواه مسلم في الجنائز (٢)، باب ما يقال عند المصيبة، رقم ٤.

ورواه الطبراني في **الكبير**، ج٢٣، ص٢٦٢، رقم ٥٥٠، من حديث أم سلمة.

٢ – أورده الشيخ إسماعيل الجيطالي في **القناطر** أثرا عن عمر رضي الله عنه، ج٣، ص٢٧٦.

وأورده الألوسي كذلك في تفسيره، ج٢، ص٢٣.

٣ – رواه الطبراني في **الكبير**، ج١٢، ص١٩٨، رقم ١٣٠٢٧، من حديث ابن عبَّاس.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

حكم السعي بين الصفا والمروة وجزاء كتمان آيات الله

﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ**﴾ علمان بالغلبة على جبلين بمكّة.

(لغة) فإنَّ الصفا جمع صفاة في الأصل وهي الصَّخرة الصَّلبة الملساء، أو الحجر الذي لا يخالطه طين، أو تراب متحجِّراً، وضعِّف، مأخوذ من الصَّفوة وهي الخلوص، والمروة في الأصل الحجر الليِّن أو الأبيض البرَّاق، أو الأسود البرَّاق، أو المحدَّدة الأطراف، أو الصَّلبة.

(قصص) قيل سمِّي الصَّفا لوقوف صفيِّ الله ءادم عليه السلام عليه، وذُكِّر لذلك، وسمِّيت المروة لوقوف المرأة عليه وهي حواء، وأنِّث لذلك، ولا يقال فيه: إنَّ مادَّة المروة غير مادَّة المرأة، لأنَّ

المراد بتأنيثه أنَّه قرن بالتَّاء، كما أنَّ المراد بتذكير الصَّفا أنَّه لم يقرن بها.

﴿مِنْ شَعَآئِرِ اللهِ﴾ أي علاماته أي علامات دينه، أو المواضع التي يقام فيها دينه، وهي مواضع الحجِّ، كالمطاف وعرفة والمزدلفة ومنًى أو من علاماته التي تعبَّد خلقه بها، فهما يسعى بينهما. ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ قصده ليقف بعرفة، ويبيت بالمزدلفة، ويرمي ويحلق ويطوف ويسعى. ﴿أَوِ اعْتَمَرَ﴾ زار البيت ليطوف ويسعى.

وأصل الحجِّ القصد مطلقاً أو إلى معظَّمٍ، والعمرة الزِّيارة أخذاً من العمارة والزَّائر يعمِّر المكان بزيارته. ﴿فَلاَ جُنَاحَ﴾ لا إثْم وأصلُه الميل مطلقاً، سمِّي به الذنب لأنَّه ميل عن الحقِّ. ﴿عَلَيْهِ أَنْ يَّطَّوَّفَ﴾ في أنْ يتطوَّف. ﴿بِهِمَا﴾ بينهُما، كما زعم المسلمون قبل نزول الآية أنَّه لا يجوز السَّعي بينهما لأنَّه كان فوق كلٍّ منهما صنم، يمسُّهما المشركون بأيديهم ويمسحون بهما وجوههم ويعظِّمونهما، فكرهوا أن يشبه سعيُهم — ولو كانوا لا يمسحونهما ولا يعظِّمونهما — سعيَ المشركين المعظِّمين لهما الماسحين.

أحدهما «إِساف» بكسر الهمزة والآخر «نائلة»، صنمين من أوَّل، ورجِّح هذا، وقيل: كانا رجلاً وامرأة زنيا في الكعبة فمسخهما الله، وجعلهما الناس على الجبلين ليعتبر بهما، فطالت المدَّة فعُبدا من دون الله، ونسب هذا القول لأهل الكتاب؛ وقيل: واضعهما على الجبلين

عمرو بن لُحَي، وهو أوَّل من سنَّ عبادة الأصنامِ من عربِ مكَّة، والباء للإلصاق المجازي.

(فقه) والطواف بهما واجب لقوله ﷺ: «**إنَّ الله كتبَ عليكمُ السَّعيَ فاسْعُوا**»[1]، وأمَّا قول عائشة رضي الله عنها: «لعمري ما أتمَّ الله تعالى حجَّ من لم يسع» فمعناه حجٌّ ناقصٌ لا باطل، فالطَّواف بهما واجب لا يبطل الحجُّ أو العمرة بتركه، كما روي أنَّ عروة بن مضرس أتى رسول الله ﷺ بالمزدلفة فقال: يا رسول الله، جئت من جبل طيِّئ ما تركت جبلا إلاَّ وقفت عليه، فهل لي من حجٍّ؟ فقال: «**مَن صلَّى معنا هذه الصَّلاة ووقفَ معنا هذا الموقفَ، وقد أدركَ عرفةَ قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تمَّ حجُّه وقَضى تَفَثَه**»[2] فأخبره ﷺ بإدراك الحجِّ بلا ذكر للسَّعي بينهما، ولو كان واجباً يبطل الحجُّ بتركه لبيَّنه له، لأنَّه سائل جاهل، ولا حجَّة فيه لمن قال بأنَّه غير واجب لأحاديث الوجوب، وهذا مذهبنا ومذهب أبي حنيفة.

(فقه) وإن لم يسع لزمته شاة، وقيل: بدنة،

---

١ - رواه الطبراني في الكبير، ج١١، ص١٤٧، رقم ١١٤٣٧، من حديث ابن عبَّاس.

٢ - رواه البيهقي في الحج (٢٤٩)، باب إدراك الحج بإدراك عرفة...، رقم ٩٨١٤، من حديث الشعبي.

وقال مالك والشافعي: يبطل الحجُّ بتركه للحديث، وقال أحمد: سنّة غير واجبة، ويردُّهُ الحديث؛ وأُجيب بأنَّه يجوز كون «كَتَب» بمعنى استحبَّ، كقوله تعالى: ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدَكم الموتُ إنْ ترك خيرًا الوصيَّةُ للوالدين والأقربين﴾ (سورة البقرة: ١٨٠)، قلت: الوصيّة للوالدين كانت واجبة ثمَّ نسخت بالميراث، وكذا القرابة الوارثون، فلا يصحُّ تأويل «كتب» بـ«استحب»، ولا حجَّة أيضاً له في قراءة ابن مسعود: «أنْ لا يطوَّف» لأنَّها شاذَّة مخالفةٌ للجمهور لفظاً وعملاً، بل لم نر مَن عمِل بها فيقرب تأويلها بزيادة «لا»، ولنا الحديث دليل للوجوب، ولا دليل للشافعي ومالك على أنَّه ركن يبطل الحجُّ بتركه، ولا يقال: تمَّ الكلامُ في جناح، واستأنف أن عليه التطوُّف، لأنَّه لا يتوهَّم أحد أنَّ في الحجِّ والعمرةِ جُناحًا، إلاَّ أن يقال: إنَّهم توهَّموا الجناح في الحجِّ والعمرة، لأنَّ فيهما الطَّواف بين محلَّيْ الصَّنمين.

﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ عالج الطَّاعة بفعل فرض أو سنَّة أو نفل من حجٍّ أو عمرة أو طواف أو صلاة أو صوم أو غير ذلك، وذلك أصل التطوُّعِ في اللُّغة، وأمَّا تخصيصه بالنَّفل فهو في عرف الإصطلاح، قيل: والشرع، وكأنَّه قيل: ومن فعل خيراً أو زاد خيراً أو تطوَّع بخير، وليس المراد: من تطوع بالطواف بينهما كما قيل، لأحاديث وجوبه.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾ أي يثيبه ثواباً عظيماً، أو مُثْنٍ عليه عند الملائكة، لأنَّ الله شاكر، أو هذه علّة وبرهان عظيمٌ، أو من تطوَّع خيراً فإنَّ الله شاكره أي مثيبه، أو مُثنٍ عليه في ملإٍ خير من ملئِه، وفي التعبير بشكره تعالى له من الإثابة أو الإثناء مبالغة. ﴿عَلِيمٌ﴾ بتطوُّعه وبكلِّ شيء، أو بكلِّ شيءٍ، فيكون برهاناً للعلم بتطوُّعِهِ.

﴿إِنَّ الذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ من اليهود والنَّصارى بالمحو، أو بتبديل غيره به، أو بتفسيره بغير معناه، أو إخفاء لفظه أو محلّه عن النَّاس؛ والكتم ترك إظهار الشيء قصداً مع مسيس الحاجة إليه، وذلك بمجرَّد إخفائه أو بإزالته ووضع شيء آخر موضعه، واليهود لعنهم الله مرتكبون للأمرين. ﴿مَآ أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ الآيات الدَّالات على الرجم، ونعوت رسول الله ﷺ، سمَّاهنَّ آيات لأنَّهنَّ دلائل وسمَّاهنَّ هدًى لأنَّه يوصل بهنَّ إلى المقصود.

وقيل الهدى الدَّلائل العقليَّة كقوله تعالى: ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ ولاياباه الإنزال والكتم، لأنَّ العطف حينئذٍ على «ما»، لا على «البيِّنات»، ولا مانع من أنْ تظهَر الحجَّةُ العقليَّة لإنسان ويكتمها، إلاَّ أنَّه خلاف المتبادر. ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾ الكاتمين وغيرهم، ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ التوراة والإنجيل، وقيل: التوراة وغيرها ملحق بها وهو أولى، لأنَّ سبب النُّزول اليهود، وقيل: القرءان، وعليه فالناس أمَّة محمَّد

ﷺ، و﴿بيّناه﴾: أوضحناه فيه، بحيث يكون متبيِّناً لكلٍّ من رآه أو سمعه، والمشهورون بالكتمان اليهود وهم سبب النُّزول.

(سبب النزول) سأل معاذ بن جبل وسعد بن معاذ وخارجة بن زيد نفرا من أحبار اليهود عن بعض ما في التوراة فكتموا، فنزلت، وقيل: نزلت في الكاتمين من اليهود والنّصارى، إلاّ أنَّ خصوص السَّبب لا يدفع عموم الحكم.

(فقه) فالآية تعمُّ من كتم من أهل التوحيد ما لا يجوز له كتمه من أمر الدِّين، قال أبو هريرة: «لولا هذه الآية ما حدَّثتُ أحداً بشيء» وعنه ﷺ: «**من سُئل عن علمٍ فكتمهُ جاءَ يومَ القيامةِ مُلجماً بلجام من نارٍ**»[1]، وذلك شامل للنساء، لا يحلُّ لهنَّ الكتم ولا يعذر المسئول بل يكفر، إلاّ إن علم أنّه إنْ لم يجب سُئِل غيرُه، وأجاب.

﴿**أُولَـٰئِكَ يَلْعَـنُهُمُ اللهُ**﴾ يبعدهم عن رحمته ويذيقهم العذاب. مقتضى الظاهر أولئك نلعنهم ويلعنهم اللاعِنون ـ بالنون ـ إلاّ أنّه بالياء ـ ولفظ الجلالة تفخيماً للحكم، يبعدهم الله عن رحمته أو يذمُّهم للملائكة وفي اللوح المحفوظ.

---

١ - رواه أحمد في مسنده، ج٣، ص١٥٣، رقم ٧٩٤٨، من حديث أبي هريرة.

﴿**وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ**﴾ أي يتلفَّظون بلعنهم، كلٌّ وكلامه حتَّى الجمادات، وقد علم الله تسبيحها، أو يدعون بإبعادهم عن الرَّحمة، وتلعنهم أجسامهم وأجسام غيرهم من الكفرة والمسلمين؛ وقيل: الملائكة والثقلان؛ وقال ابن عبَّاس: غير الثَّقلين؛ وقال عطاء: الثَّقلان؛ وقال مجاهد: البهائم حتَّى العقارب والخنافس، إذا أقحطت بذنوب بني ءادم، فجمع السلامة للمذكر تنزيل لها منزلة العاقل إذا دعت، أو تعدُّ من العقلاء إذ ذاكَ.

﴿**إِلاَّ الذِينَ تَابُواْ**﴾ عن الكتمان، ﴿**وَأَصْلَحُواْ**﴾ أنفسهم بالإيمان والعمل الصَّالح، وكتب ما محوا وإزالة ما زادوا أو بدَّلوا، وإرشاد من أضلُّوا، وضمان ما أفسدوا من الأموال بذلك أو أكلوه بلا حلٍّ؛ ﴿**وَبَيَّنُواْ**﴾ ما لعنوا بكتمانه، **وهكذا التوبة إصلاح ما فسد بالمعصية ومضادَّتُها**، وبيَّنوا توبتهم لمن علم بكتمانهم ليقتدي بهم في الإعلام والتَّوبة ويُعلَمُوا بتوبتهم، **وهكذا كلُّ من عصا الله أعلم بتوبته من علم بمعصيته إقامةً لشعار الإسلام وحوطة عن جانبه.** ﴿**فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ مرَّ ذلك[١].

---

١ - في تفسير الآية رقم ١٢٨.

﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالكتم أو غيره، ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ المؤمنين، أو النَّاس مطلقاً، فإنَّ أجساد الكفرة تلعنهم وتلعن أصحابها. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في اللَّعنة فهم خالدون في مقتضاها وهو النَّار، أو خالدون في النَّار المدلول عليها باللَّعنة، ذكرَ اللعنة أوَّلاً للكاتمين وثانياً لمطلق الكافرين، أو ذكرها أوَّلاً بمعنى حصولها بالفعل لهم، وثانياً بمعنى أنَّهم مستحقُّون لها، أو بمعنى أنَّهم يلعن بعضهم بعضاً في الآخرة، أو بمعنى دوامه من حيث أنَّه بالجملة الاسميَّة، وثبوت اللعن في الآخرة فرع على ثبوته في الدُّنيا، أو لعنهم أوَّلاً على الكتم واستثنى من تاب، ولعن ثانيًا من لم يتُبْ تصريحاً بما يُفهمه الاستثناء، وما ذكرته أوَّلاً أولى وفيه إشارة إلى أنَّ الكتم كفرٌ. ﴿لاَ يُخَفَّفُ عَنهُمُ الْعَذَابُ﴾ طرفة عين بالانقطاع ولا بالنَّقص منه مع الاِستمرار. والجملة خبر ثان أو حال من ضمير «خالدين»، أو هاء «عليهم»، أو مستأنفة. ﴿وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يمهلون عن العذاب كما أمهلوا في الدُّنيا، من الإنظار، أو لا يؤخَّرون ليعتذروا من النَّظر بمعنى الانتظار، أو لا يرحمون كقوله تعالى: ﴿ولا يَنظُر إليهم يوم القيامة﴾(سورة آل عمران: ٧٧) بمعنى الرُّؤية الرحميَّة، ففي الأساس أنَّه بمعنى الرَّحمة يتعدَّى بإلى وبنفسه

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

وحدانيّة الإله ورحمته ومظاهر قدرته

﴿وَإِلَـهُكُم﴾ معشر الخلق، الأجسام والأعراض، العقلاء وغيرهم، الحيوان والجماد، بتغليب العقلاء، ويختصُّ بهم ما يناسِبُهم بعد، ويتجدَّدُ لهم معرفته[1] أنَّه لغيرهم أيضاً، وقيل الخطاب للعقلاء، وقيل لقريش القائلين: صِفْ لنا ربَّك يا محمَّد، ويلتحق بهم غيرهم، وزعم بعض أنَّه للكاتمين. ﴿ إِلَـهٌ وَاحِدٌ﴾ أي إنَّ الذي يستحقُّ العبادة منكم إله واحدٌ في ذاته لا يتجزَّأ، وفي صفاته وأقواله وأفعاله، وفي ألوهيَّته، وقيل: الوحدة هنا عدم التَّجزيء. والأولى أنَّ المعنى: لا نظير له، فيدخل ما ذُكر وعدم التجزّئ.

(سبب النزول) قيل: سألت اليهود وقريش رسول الله ﷺ أن يصف لهم ربَّهم فنزلت سورة الإخلاص وقوله تعالى: ﴿وإلهكم إلهٌ واحدٌ﴾.

---

١ - الضمير يرجع للخطاب.

﴿لَاۤ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ﴾ الجملة خبر ثان أو نعت ثان لإله، والمنفي الآلهة الحقَّة، أي لم يوجد إله بحقٍّ إلاّ الله، أو الآلهة الباطلة، أي ليست موجودة من حيث الألوهية، ولو ادَّعاها عابدوها، و«الرَّحمن الرحيم» خبر إنَّ لإلهكم، وقيل: الرحمن بدل هو، والرحيم نعت الرحمن، وقيل: بدلان من هو، وقيل: خبر لمحذوف.

(سبب النُّزول) وروي أنَّ حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، ولمَّا نزل ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّاۤ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ﴾ قالوا متعجِّبين: إيتِ بآية على ذلك، فنزل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ...﴾ إلخ، وهم غير القائلين: «لا شريك لك، إلاّ إلهًا تملكه وما ملك». هو الخالق وما سواه منعم عليه، ونعمة مشكورة أو مكفورة بالعصيان أو الشرك، وطلبوا آية على ذلك، فنزل قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ﴾ إيجاد ﴿السَّمَـٰوَاتِ﴾ السَّبع من حيث ارتفاعها بلا عمد ولا علاقةٍ، ونيِّراتها؛ ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي جنسها، فصدق بسبع في قوله تعالى: ﴿ومن الأَرضِ مثلَهنَّ﴾ وفي قوله: ﷺ «**من اقتطع قيد**

شبر من أرض جاره طوّقه من سبع أرضين»[١] وقوله ﷺ: **«اللّهمّ ربَّ السَّموات السَّبع وما أظللن، وربَّ الأرضين السَّبع وما أقللنَ»**[٢] من حيث مدّها وكونها على الماء، ومن حيث شجرها وجبالها وبحارها ومعادنها وجواهرها، وعيونها وثمارها وحيواناتها وأفرادها، لأنَّها متّفقة بالحقيقة وهي التُّراب، بخلاف السَّماوات فالأولى من زبد الماء متجمِّداً، والثَّانية من رُخامٍ أبيض، والثَّالثة من حديد، والرَّابعة من نُحاسٍ، والخامسة من فضَّةٍ، والسَّادسة من ذهبٍ، والسَّابعة من ياقوت أحمر؛ وقيل الأولى زبد جامد، والثَّانية من نُحاسٍ، والثَّالثة من فضَّةٍ، والرَّابعة من ذهبٍ، والخامسة من ياقوتٍ، والسَّادسة من زمرد، والسَّابعة من نور العرش، بين كلِّ سماءٍ وأخرى، وأرضٍ وأخرى، والأرض والسَّماء، [مسيرة] خمسمائة عامٍ كغلظ كلٍّ ـ كذا قيل ـ.

---

١ - رواه **البيهقي** في كتاب الغصب (٦)، باب التشديد في غصب الأراضي وتضمينها بالغصب، رقم ١١٥٣٢، من حديث سعيد بن زيد.
ورواه **أحمد** في مسنده، ج٣، ص٤٢٦، رقم ٩٥٨٨، من حديث أبي هريرة دون ذكر لفظة "جاره".

٢ - رواه **الطبراني في الكبير**، ج٨، ص٣٤، رقم ٧٢٩٩، من حديث عطاء بن أبي مروان عن أبيه.
ورواه **البيهقي** في الحجّ (٣٥٣)، باب ما يقول إذا رأى قرية يريد دخولها، رقم ١٠٣٢٠، مع زيادة

﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ من الاِفتعال بمعنى التفاعل يتخالفان طولاً وقصراً إلاَّ وقت الاِعتدال، وزيادة ونقصاً، وذهاباً ومجيئاً، وظلمة ونوراً، وسكوناً للجوارح والأبصار، وراحة وانتشاراً لها، واختلافاً للأوقات، فكلٌّ ساعة مغرب في موضع، وعِشاء في آخر، وثلث ليلٍ في آخر، ونصفه في آخر، وسدس في آخر، وسحر في آخر، وتوسُّط في آخر، وزوال في آخر، ووسط الوقتين في آخر، وعصرٌ في آخر، واصفرارٌ في آخر، وغروبٌ في آخر، وما بين ذلك كلّه أيضاً متخالف، ولا تزول ولو لحظة تغرب عن موضع وتطلع في آخر من خلفها وقدامها.

وأينما كانت الشمس عند غروبها في موضع وطلوعها في آخر يكون وراءها مثل الفجر الكاذب شفقاً أبيض، وقدَّامها مثله، وكلُّ بلدٍ يكون عرضه للشّمال أكثر من طوله يكون أيّام صيفه أقصر من أيّام شتائه.

والظلمة سابقة على الضَّوء، فقدم اللّيل لذلك، فالنّهار لليلة قبله وهو الصَّحيح، وقيل بالعكس، واستثنى بعضهم يوم عرفة على الأوَّل وجعله لليلة بعده ولا يصحُّ ذلك، وإنّما نتّبع الحكم الشّرعي وليس رجوعاً لتقدُّم اليوم على اللّيلة[1]. ﴿وَالفُلْكِ﴾ جماعة بدليل قوله:

---

١ - في النسخة (ج): لتقدّم اليوم والليلة. فتأمَّل.

﴿**التِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ**﴾ فدلَّ على الجماعة، بضمِّ الفاء وإسكان اللاَّمِ مع الحروف بخلاف الفلك المفرد فإنَّه لا دلالة لضمِّه وسكونه على معنى، أو سُكِّنت اللاَّم عن ضمِّ الجمعِ تخفيفاً.

والمعنى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالاَرْضِ...﴾ إلخ، وفي الفلكِ فالعطف على «خَلْقِ»، أو ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ...﴾ إلخ، وفي خلق الفلك فالعطف على «السَّموات»، وقد يجوز عطفه على اللَّيل أي: واختلاف الفلكِ ذهاباً ورُجوعاً.

وعلى كلِّ حال إنَّ في ذاتها وإيجادها من حيث أنَّها لا تنزل إلى أسفل الماء مجرَّدة، أو محمولاً فيها ما خفَّ، أو ما ثقل، وجريانها على وجه الماء بالرِّيح مقبلة ومدبرةٌ مع قوَّة الماء وهيجانهِ؛ ﴿**بِمَا**﴾ أي بالذي، ﴿**يَنفَعُ النَّاسَ**﴾ من التِّجارة وسائر ما يُحمل فيها، قيل برد الضمير لـ«ما» على أنَّها موصولة اسميَّة، أو بنفعه النَّاس على أنَّ «ما» مصدريَّة برد الضَّمير للجري، أو للبحر، **والردُّ للجري أولى، لأنَّ** النَّفع بالجري بالذَّات بخلاف البحر فبواسطة الجري ولو كان الجري بواسطة البحر. وقيل يجوز تذكير الفلك وتأنيثه مفردًا أو جماعة، فيجوز ردُّ الضَّمير للفلك، وقد قيل: إنَّه مفرد أُنِّثَ بتأويل السَّفينة أوَّلاً، وذكر ثانياً على أصله.

وفي البحر أيضاً عجائب حيتان ولؤلؤ ومرجان وياقوت، والسَّفينة آلة الخوض فيها والاِطِّلاع على ذلك، ولكن لا تحمل الآية على

الإشارة لذلك لما فيه من التكلُّف، ولو كانت الفلك سبباً. ﴿وَمَآ أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ أي وفي خلق ما أنزله من السَّحاب، أو في ما أنزله من السَّحاب سمَّاه سماءً أو من السَّماء إحدى السَّبع يصل بسُرعة، أو أريد بالسَّماء جهة العلوِّ فيشمل الوجهين والماء تارة من السَّماء، أو من الجنَّة ينزل في أقرب مدَّة كسرعة الملك في النُّزول، **وتارة من البحر والعيون بخاراً**، أو هو الأكثر، وتارة بتقلُّب أجزاء الهواء الصِّغار الهبائية ماء بسبب، وأخَّره مع أنَّه أفضل قيل لفضله الزَّائد، أو لجمعه العلوَّ والسفل إذ منه ما من السماء وما من البحر، كما أنَّ اختلاف الليل والنهار فيه ذلك، لأنَّ الضوء والظُّلمة في الأرض والجوِّ والفلكَ بالماء والرِّيح.

﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ﴾ بالنبات أظهر بهجتها وزيادة منها، إظهارًا شبيهاً بإحياء ما مات، وبإدخال الرُّوح فيما ليس حيًّا قطُّ، بجامع الحسن والزِّيادة، وهي قبل النبات جماد وكَميِّتٍ بعد حياة كما قال: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي عدم النبات فيها أو زواله عنها، وذلك أنَّ الماء سبب للحياة في الحيوانات وسبب للنبات والثِّمار، وينزل عند الحاجة وبالدُّعاء والاستسقاء، وفي مكان دون مكان، وهو لكلِّ سنة مقدار مخصوص، ويكون في بعض بلاد دون بعض.

﴿وَبَثَّ﴾ به أي فرَّق، أي بما أنزل من السماء من ماء.

وفيه حذف رابط الصِّلة المجرور بدون (نحو

جرّ الموصول بمثله، ودون تعلّقه بما تعلّق به جار الموصول لو جرّ، فأقول: يجوز حذف الرّابط بلا شرط إذا علم، وذلك أنّ «بثّ» معطوف على الصّلة أو على ما عطف عليها ولا يضرُّ فصله لأنّه سببيٌّ وكأنّه صلة، وهذا أولى من أنْ يقال: بثّه أي بثّ به.

﴿فِيهَا﴾ دوابَّ، ﴿مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي من كلِّ نوعٍ من الدَّوابِّ توجد بالماء خلقاً، وينمو الموجود منها بالتّوالد، مع اختلافها خرصاً ونطقاً وصوتاً ولوناً ووحشاً وأنساً ونفعاً وضرًّا وطبعاً، وغير ذلك كطول حياة وقصرها، وطول ذات وقصرها، ورقّةٍ وغلظة؛ وفي السماء دوابّ أيضاً. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ تقليبها جنوباً وشمالاً، وقبولاً ودبوراً، حارة وباردة، وليّنة وعاصفة، وعقيماً ولاقحاً للمطر والشّجر.

وكان ﷺ إذا هبّت الرِّيح قال: «**اللهمَّ اجعلها رياحاً لا ريحاً**»(١) لأنَّ مفردها في القرآن سوء كقوله تعالى: ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الرِّيح العقيم﴾ (سورة الذاريات: ٤١) وجمعها في خيرٍ كقوله تعالى: ﴿ومن ءاياته أنْ يرسل الرِّياح مُبشِّراتٍ، ولِيُذيقكم من رَّحمته﴾(سورة الروم: ٤٦) ويقال: سمِّيت ريحاً لأنَّها تريح النُّفوس وياؤه عن واو، ويقال: ما هبَّت إلاّ لشفاء سقيم أو سقم صحيح، ويقال: البشارة في الصَّبا والشَّمال والجنوب، وأمَّا الدُّبور فعقيمة لا بشارة فيها.

---

١ - ذكره الألوسي في تفسيره، ج٢، ص٣٢، بدون إسناد.

(لغة) وسمِّيت الصَّبا قبولاً لاستقبالها وجه الكعبة، وهي حارَّة يابسة، ويسمِّيها أهل مصر «الشَّرقية» لأنَّها تهبُّ من الشَّرق؛ ويقال: المبشِّرات والنَّاشرات والذَّاريات والمرسلات والرُّخاء للرَّحمة، والعقيم والصَّرصر والعاصف والقاصف في البحر للعذاب؛ والصبا من مطلع الشمس في الإعتدال، والدَّبور تقابلها، والشَّمال من جانب القطب، والجنوب تقابلها، وطبع الدُّبور البرد والرُّطوبة، يسمِّيها أهل مصر الغربيَّة، لأنَّ مهبَّها الغرب وتأتي من دُبُرِ الكعبة، وطبع الشَّمال البرد واليبس، وتسمَّى البحريَّة لأنَّه يسار بها في البحر على كلِّ حال، وقلَّما تهبُّ ليلاً، وطبع الجنوب الحرارة وتُسمَّى القبليَّة لأنَّ مهبَّها من مقابلة القطب، وهي عن يمين مستقبل المشرق، ويقال: إذا هبَّت على أهل مصر سبع ليال استَعَدُّوا للأكفان، ولو أمسكت الرِّيح طرفة عينٍ لمات كلُّ ذي روحٍ وانتن ما على الأرض.

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ﴾ المذلَّلُ، ﴿بَيْنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ﴾ بلا عمد ولا علاقة مع ما فيه من المياه الثَّقيلة العظيمة التي تملأ منها الأودية والأراضي، سمِّي لانسحابه وانجراره ويسير بواسطة الرِّياح، وبين متعلّق بـ«مسخَّر» أو حال من المستتر فيه. ﴿لآيَاتٍ﴾ دلائل على وجود الله وقدرته، وكونه لا كالأشياء. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم فيدركون بها الحقَّ ولا يهملونها.

(أصول الدين) روى ابن أبي الدُّنيا وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ «**ويل لمن قرأها ولم يتفكَّر فيها**»[١]، وتلك الأمور من الجائز، قابلة لعكس ما هي عليه كلِّه من حركة أو سكون وبسط وكوريَّة وغير ذلك، ومثلها لا يفعلها ولا تفعل نفسها، فالفاعل هو غيرها وغير مثلها، والفعل لا يكون من فاعلَين، والمصطَلِحَانِ عاجزان، وإن كان لأحدهما فغير الفاعل ليس إلهاً.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

حال المشركين مع آلهتهم

﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَنداداً**﴾ أمثالاً لله مقاوِمة له في زعمهم، وهي الأصنام، أو أصناماً أمثالاً بعضها يماثل بعضاً، أو رؤساء من النَّاس يتَّبعونهم، وهو ضعيف، لأنَّ المقام

[١] - وأورده الألوسي كذلك في تفسيره، ج٢، ص٣٣، بنفس الإسناد.

للاِستدلال على انتفاء ألوهية الأصنام الدَّائرة بالكعبة وغير الدَّائرة بها، ولأنَّه لم يعهد تعظيم رؤسائهم حبًّا وطاعةً؛ وأمَّا ضمير العقلاء في قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ وهو هم، فلتنزيلهم الأصنام منزلة العقلاء في السَّمع والفهم والنَّفع والضَّرِّ، ولأنَّ رؤساءهم يتَّخذون الأنداد، فهم ممَّن خوطب باتِّخاذ الأنداد، أو ما يعمُّ الأصنام والرُّؤساء وغيرهم من كلِّ ما يشغل عن الله عزَّ وجلَّ. ﴿كَحُبِّ اللهِ﴾ كحبِّهم الله، أو كحبِّ النَّاس مطلقاً الله خضوعاً وتعظيماً، ولو تفاوت الحبَّان، لأنَّهم عقلاء يعلمون أنَّ الخالق للسَّماوات والأرض وغيرهن الله، وقد قال: ﴿وظنُّواْ أنَّهمُ, أحيط بهم دعوُاْ الله مخلصين له الدِّين﴾ (سورة يونس: ٢٢)، وأنَّ الأصنام وسائل ولا تُعبدُ، تسويتهم لفرط حمقهم. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والارضَ ليقولُنَّ الله﴾(سورة العنكبوت: ٦١)، ﴿فإذَا ركِبواْ في الفُلْكِ دعوُاْ الله مخلصين له الدِّين﴾(سورة العنكبوي: ٦٥).

﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا للهِ﴾ من المشركين لأندادهم، فإنَّهم لا يعدلون بالله شيئاً في الرَّخاء والشِّدَّةِ، والمشركون يَعْدِلون عن الأنداد إلى الله في الشدَّة كما مرَّ آنِفاً، ويرفضون صنماً إلى غيره ويأكلونه، كما أكلت باهلة وهي قبيلة من قيس غيلان إلهها من حيس ــ تمر يخلط بِسَمنٍ وإقط ــ وكما عَبَد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قبل إسلامه عجينة فأكلها.

وللمشركين حبٌّ شديدٌ للأنداد، لأنَّ الله جلَّ وعلا أخبرنا أنَّ شدَّة حبِّ المؤمنين الله سبحانه فوق شدَّة حبِّ المشركين الأنداد، لأنَّ محبَّة المؤمنين الله تزداد بازدياد إدراكهم الكمال، وهي ميلهم إليهِ توقيرًا بامتثال وازدجار، لنعمه وخوف عقابه، فالحبُّ متعلّقٌ بطاعته وتعظيمه، وزعم بعض أنَّه يجوز تعلُّقه بذاته تعالى من حيث أنَّه الكامل المطلق؛ وحبُّهم الله أرسخ لا يميلون عنه، والمشرك المبالغ في عبادة صنم يميل عنه لشدَّة تناله ولو اشتدَّ في نفس العبادة أكثر من المؤمن. والحُبُّ بالضَّمِّ من الحبَّة بالفتح كالثَّمرة والعنبة استعير لحبَّة القلب وهي دمه الأسود، يتعلّق به الرُّوح الحيواني بعد تعلُّقه بالبخار اللَّطيف الذي يحدث ويتصاعد من ثمَّ بواسطتها يسري إلى سائر البدن، فسويداء القلب في كونها منشأ للحياة والآثار كالحبِّ في كونه مبدأ للنَّماء والإثمار، والله عزَّ وجلَّ **يحبُّ عبده المؤمن بمعنى أنَّه أراد له الخير وأنَّه يوفّقه.**

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ رأيت بعينيك يامحمَّد، أو من يصلُح للرُّؤية. **﴿الذِينَ ظَلَمُوا﴾** باتّخاذ الأنداد، أو مطلق الظَّالمين بالكفر. **﴿إِذْ﴾** أيْ إذا بدليل المضارع بعدها لأنَّه للاستقبال أو للحال المستقبلة، وهو متعلّق بـ«ترَى». **﴿يَرَوْنَ﴾** يشاهدون، **﴿الْعَذَابَ﴾** على ظلمهم لرأيت أمراً فظيعاً خارجاً عن الوصف لك.

ويجوز إبقاء ترى على الاستقبال تحقيقاً، و«إذ» للماضي تأويلاً بتحقيق الوقوع، أي ولو ترى يوم القيامة عذابهم لترى أمراً فظيعاً، لكن لا تراهم لأنَّهم في النَّار وأنت في الجنَّة، أو: لو ترى الآن لترى... إلخ، لكن لا ترى العذاب في قبورهم في برزخ موتهم، وعلَّل قوله: لرأيت أو لترى بقوله: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعًا﴾ بفتح الهمزة، أي لأنَّ القوَّة، أو يقدَّر: «لعلمت أنَّ القوَّة...» إلخ، أي لازْدَادَ عملك، أو المصدر من خبر أنَّ بدل اشتمال من العذاب، لأنَّ ثبوت القوَّة كلِّها للهِ عزَّ وجلَّ تشمل قوَّته في العذاب، فيقدَّر على هذا «لرأيت»، أو «لترى» بعد قوله: ﴿وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أي: لرأيت أو لترى، أي علمت أو تعلم ثبوت القوَّة كلِّها وشدَّة العذاب للهِ، والمراد ازدياد العلم أو علم المشاهدة.

﴿إِذْ﴾ بدل من «إذ» باعتبار مدخوليها، أو متعلِّق بـ«شديد» أو مفعول لـ«اُذْكُر». ﴿تَبَرَّأَ الذِينَ اتُّبِعُواْ﴾ إدَّعى الرؤساء المتَّبوعون براءة ذمَّتهم. ﴿مِنَ الذِينَ اتَّبَعُواْ﴾ من ذنوب التَّابعين لهم، بأنْ قالوا: ما أضللناكم، أو ما قهرناكم على الضَّلال، بل اخترتُموه، ﴿تبرَّأنا إليك ما كانواْ إيَّانا يعبدون﴾(سورة القصص:٦٣) ، ﴿وَرَأَوْاْ﴾ عطف على تبرَّأ أو حال، أي والحال أنَّهم قد رأوا، ﴿الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ﴾ زالت زوالاً شديداً. ﴿بِهِمُ﴾ عنهم، أو بسبب كُفرِهم، أو الباء للتَّعدية أي قطَّعتهم كما يقال: تمزَّقت بهم الطُّرق، أي فرَّقتهم. ﴿الاَسْبَابُ﴾

الأمور التي يتوصَّلون بها إلى مرادهم، من دين الباطل وسائر الأغراض، كما يتوصَّل بالحبال، من القرابة والمودَّة والجوار والأموال فليسوا ينجون بها يوم القيامة ولو نفعتهم في الدنيا.

(لغة) والسَّبب الحبل مطلقاً، أو الذي يُتوصَّل به إلى الماء، أو الذي تعلَّق بالسَّقف، أو الذي ترتقي به النَّخلة فهو استعارة أصليَّة تحقيقيَّة تصريحيَّة والقرينة حاليَّة.

﴿**وَقَالَ الذِينَ اتَّبَعُواْ**﴾ قال التَّابعون، هؤلاء الرُّؤساء. ﴿**لَوْ**﴾ ثبت ﴿**اَنَّ لَنَا**﴾ معشر التَّابعين والمتبوعين ﴿**كَرَّةً**﴾ أي رجعة إلى الدنيا، ﴿**فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ**﴾ من هؤلاء الرؤساء في الدنيا إذا رجعنا إليها نحن وهم، فلا نتابعهم على الكفر إذا دعونا إليه، فعدم المتابعة بعد الرجوع هو تبرُّؤهم منهم؛ أو نتبرَّأ من دينهم إذا رجعنا إلى الآخرة مسلمين بعد الرجوع إلى الدنيا، ورجعوا إليها كافرين؛ أو لو أنَّ لنا رجعة إلى الدنيا فنسلم ونرجع إلى الآخرة، وهم باقون فيها لم يرجعوا فنتبرَّأ من دينهم. و«لو» للتمنِّي، ونُصِب «نتبرَّأ» في جوابه. ولا يلزم من التشبيه أن يكون تبرُّؤُ التابعين من جنس تبرِّئ المتبوعين فقد تخالفا، إذ تبرُّؤ المتبوعين بقولهم: لم نقهركم على الضلال، وتبرُّؤ التابعين بقولهم: لسنا على دينكم، لو رجعوا إلى الدنيا وأصلحوا. ويجوز أن يكون المتبوعون الأصنام، إذ عظَّموهم وجعلوهم كالعقلاء، فتقول في الآخرة: ﴿ما كُنتمُ, إيَّانا تعبُدون﴾، ﴿تبَرَّأْنآ إليكَ ما كانوا إيَّانا

يعبُدون﴾ (سورة القصص: ٦٣). ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ كما تبرَّأ هؤلاء الرؤساء المتبوعون منَّا معشر التابعين، بأن قالوا: إنَّا بريئون من ذنوبكم، ما أضللناكم، أو ما قهرناكم على الضلال بل اخترتموه، وذلك مجازاة لهم إذ غاظهم تبرُّؤ الرؤساء المتبوعين، فأرادوا أن يغيظوهم بالتبرُّؤ بأن يرجعوا إلى الدنيا ويسلموا فيقولوا: لسنا على دينكم، ويبقى الرؤساء المتبوعون على الكفر، وذلك إغاظة في الدنيا أو يوم القيامة، إذا رجعوا إلى الآخرة من الدنيا التي رجعوا إليها.

﴿كَذَالِكَ﴾ أي مثل ما ذكر من رؤية العذاب، ومن تبرُّئ المتبوعين من التابعين، وذلك أنَّه يجوز أن يقال: قمت كما قعدت، أي فعلت القيام كما فعلت القعود، فلا يضرُّ أنَّ التبرُّؤ لم تسلَّط عليه الرؤية، بل لا مانع من أن يقال: المراد مثل إراءة العذاب وشدَّته وتبرُّئهم لأنَّ ذلك كلَّه يرونه ولو لم يذكر رؤية كلٍّ ذلك في الآية، فيكون التذكير بتأويل ما ذكر، أو يشار إلى الإرءاء ــ بهمزتين بينهما ألف بوزن "إكرام" بلا تاء ــ أو إلى إراء ما ذكر بالإضافة تنزيلا للهمزة قبل الألف ــ وهي عين الكلمة ــ منزلة حرف العلَّة، فيكون من باب إقامة لكن بلا تاء لأنَّا قدَّرناه مضافاً، فهو مذكَّر كقوله: تعالى، وإقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة والمعنى على كل حال كما أراهم ذلك. ﴿يُرِيهِمُ اللهُ﴾ يعلِمهم، أو يجعلهم رائين بأبصارهم باعتبار الأثر. ﴿أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ﴾ موجبات ندمات في حزنٍ وتلهُّفٍ،

فالحسرة أخصُّ من النَّدمِ، وقيل مترادفان. ﴿عَلَيْهِمْ﴾، متعلّق بحسرات أو نعته، لأنَّ المعنى: مضـرَّات عليهم أو المراد حسرات على خبثهم إفراطاً وتفريطاً. ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ولو وجدوا لخرجوا بأنفسهم ولو بلا إخراج، بخلاف أهل الجنَّة فإنَّهم لا يخرجون منها إلاَّ بإخراج مخرج لو كان، لكن لا خروج ولا إخراج.

والجملة الاسميَّة والباء للمبالغة في الخلود وليس في ذلك حصر، وإذا قيل به في مثل ذلك فمن دليل خارجٍ، فليس المعنى هم فقط لا يخرجون وأمَّا الفسَّاق فيخرجون فلا دليل فيه على عدم خلوده، وليس في ذلك صيغة حصر، وأيضاً ليس المقام مقام حصر الخلود في المشرك حصر قلبٍ أو تعيين أو إفراط؛ والمراد: نفي أصل الخروج، مثل قوله تعالى: ﴿يريدون أنْ يخرجواْ من النار وماهم بخارجين منها﴾ (سورة المائدة: ٣٧).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

تحليل الطيّبات، ومنشأ تحريم المحرّمات

﴿يَـآ أَيُّهَا النَّـاسُ كُلُـواْ مِمَّـا فِـي الأَرْضِ حَـلاَلاً﴾ غير محرَّم، كمغصوب ومسروق، وربًا وخمر وميتة وما أخـذ في قمـار أو زنـىً أو كهانة أو في معصية ونحو ذلك من المحرَّمات. ﴿طَيِّـبًا﴾ نعت مؤكّدٌ لأنَّ الحلال هو الطيِّب، وأفاد أنَّ الشَّرع استطاب الحلال فأمروا بـأكل الطيِّب، وهو الحلال مستلذًّا أو غير مستلذ، فالآية نزلت ردًّا علـى من حرم البحيرة والسَّائبة والوصيلة والحامي من المشركين، وعلى قوم من ثقيف ومن بني عامر بن صعصعة، وخزاعة وبني مـدلج إذ حرَّموا على أنفسهم التَّمر والإقط.

ويضعف لقوله تعالى: ﴿وأنْ تقولـواْ...﴾إلخ، أنْ يكون ذلك ردًّا على من عزم من المسلمين على أنْ لا يأكل لذيذاً، ولا يلبس لباساً رفيعاً، وعلى عبد الله بن سلام وأضرابـه حين أراد تحريم لحم البعير كما في دين اليهود قبل أن يسلم، وإنْ كان بعد الإسلام، ـ فنزلت ـــ تاب منها كما استأذن رسول الله ﷺ أنْ يصلّي ليلاً النّفل بالتوراة فزجره فازدجر، ونزل أيضاً في تحريم اللّذائذ في قوله تعالى ﴿ياأيها الذين ءامَنوا لا تُحرِّموا طيِّبات مآ أحلَّ الله لكم﴾ (سورة المائدة: ٨٧) ، وقوله تعالى: ﴿والطيِّباتِ من الرِّزق﴾(سورة الأعراف: ٣٢).

وسمِّي الحلال حلالاً لانحلال عقدة الحظر عنه، والأمر للإباحة أي أبَحتُ لكم السَّائبة ونحوها واللَّذائذ و لم أحرِّمها عليكم قطُّ، ولن أحرِّمها أبداً، وللوجوب على معنى اعتقدوا حلَّ أكل ما لم يُحرِّمه الله.

(فقه) ويجب الأكل لقوام الجسد ويستحبُّ ولو فوق الشِّبع إذا كان مؤانسة للضَّيف أو لعقاً للقصعة أو للأصابع أو أكلاً لما يسقط من الطَّعام، وكذا الشُّرب من زمزم فوق الرَّي مستحبٌّ، وقد استدلَّ بعض بالآية على تحريم الأكل فوق الشِّبع لأنَّه ليس طيِّباً في الشَّهوة المستقيمة.

﴿**وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾ طرقه من تحريم السَّائبة واللَّذيذ ونحوهما، لـمَّا كان يأمر بها جعلت كأنَّها طرق يمشي فيها، ولَّما كانت الطُّرق محلاً للخطو سمِّيت باسم الخطوات، أو لَّما كان الأمر بتلك المحرَّمات أمراً بالكون عليها الشبيه بالخطو أطلق على الذي يأمر به وهو الشيطان أنَّه يمشي فيها. ﴿**إِنَّهُ, لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ ظاهر العداوة لأهل البصائر، وأما الغواة فهو وليُّهم يتبعونه ولو ظهرت لهم منه مضرَّة، كقوله تعالى: ﴿أوليآؤهم الطَّاغوت﴾؛ وقيل أولياؤهم أعداء كما يقال: «تحيَّتهم ضربٌ وجيع»، وتحيَّتهم السَّيف، والجملة تعليل، فلا يليق جعله من أبان بمعنى أظهر، ﴿**إِنَّمَا يَامُرُكُمْ بِالسُّوءِ**﴾

الذَّنب الكبير والصَّغير، ﴿وَالْفَحْشَآءِ﴾ الذَّنب الكبير المتجاوز الحدِّ في القبح.

(لغـة) الفحشاء أخصُّ من السُّوء، ويجوز أنْ يكونا بمعنى واحد إلاَّ أنَّه من حيث إنَّه يسوء فاعله وغيره سوء، ومن حيث إنَّه قبيح فحشاء، أو السُّوء ما لا حدَّ فيه، والفحشاء ما فيه الحدُّ، وقيل هما بمعنى واحد؛ وهو ما أنكره العقل وحكم بأنَّه ليس فيه مصلحة وعاقبة حميدة واستقبحه الشَّرع. وقوله تعالى: ﴿قل إنّما حرَّم ربِّيَ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطنَ﴾ (سورة الأعراف: ٣٣) دليل على أنَّ كلَّ معصية ولو صغيرة تسمَّى فاحشة، والأمر المذكور عن الشَّيطان حقيقة لأنَّه يقول: افعلوا كذا، على طريق الإلتماس على أنَّهم يسوِّيهم بنفسه، أو لأنَّه يدَّعي العلوَّ عليهم ولو لم يكن عنده أو اعتقد أنَّه أعلى، ولا حاجة إلى أن نقول شبَّه الوسوسة في المعاصي بالأمر بها، ولا إلى أنْ نقول شبَّه تزيين المعاصي بالأمر بها على أنَّ ذلك استعارة، ولا يلزم من الأمر ولو كان من عال تسلّط وقهر، فلا منافاة بين الآية وقوله تعالى: ﴿إنَّ عبادي ليس لَكَ عليهم سلطانٌ﴾(سورة الحجر: ٤٢).

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أي وبأن تقولوا كاذبين على اللهِ، أو ضمِّن تقولوا معنى الكذب، أو عن الله ما لا علم لكم به من تحريم السَّائبة ونحوها، وتحليل الميتة ونحوها، واتّخاذ الأنداد.

(فقه) وليس قول المجتهد قولا بما لا يعلم لأنه يقول استدلالاً بما يستنبطُ من القرآن والسنّة والإجماع قصداً للحقِّ لا اتباعاً للهوى، وقد أباح الله له ذلك وإنْ اختلف المجتهدون فالحقُّ عند الله مع واحدٍ فقط، وغيره مأجورٌ يجوز العمل بما قال، وقد يكون الحقُّ عند الله غير ما قالوا مع أنَّ ما قالوا لا يعدُّ ضلالاً عليهم، وقالت المعتزلة: الحقُّ متعدِّدٌ بحسب أقوال المجتهدين وهو ضعيف، وأمَّا أن يقال كلّ واحد مأجور يجوز العمل بما قال، وأنَّ كلَّ واحد العمل به حقٌّ في حقِّ المقلِّد فلا بأس.

﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ**﴾ للناس وهم كفّار، ﴿ **اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللّهُ**﴾ في القرآن وفي العقول من الحجج العقليَّة من التوحيد، وتحليل السَّائبة ونحوها، ﴿**قَالُواْ**﴾ لا نتّبع ما تزعمون أنَّه من الله، ﴿ **بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا**﴾ وجدنا ﴿**عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ**﴾ من عبادة الأصنام وتحريم السَّوائب.

ويبعد أن يكون الضَّمير لليهود الذين دعاهم ﷺ إلى الإسلام، وأنَّ ما أنزل الله هو التوراة والإنجيل والقرآن، لأنَّ الثلاثة تدعو إلى الإسلام، ولو روي أنَّها نزلت في طائفة منهم دعاهم فقالوا: نتّبع ما عليه آباءنا لأنَّهم أعلم منَّا، وإنَّما قلت: يبعد ذلك لأنَّ الآيات والضمائر قبل ذلك في غيرهم، وعلى هذه الرواية لو صحَّت يكون المراد بـ﴿مَآ ألفيْنا عليه ءابآءَنا﴾ (سورة البقرة: ١٧٠) ما وجدو عليه أسلافهم من اليهود، ممَّا يخالف الحقَّ البتّة، أو كان حقًّا ونسخه القرآن.

وقيل الضَّمير عائدٌ إلى ﴿مَن يتَّخذُ﴾، أو إلى ما يفهم من أنَّ الذين يكتمون، أو إلى المشركين؛ ولا يلزم من النُّزول في قوم ردُّ الضَّمير إليهم. والغيبة بعد الخطاب تلويح بأنَّهم ليسوا من أهل الخطاب، فصرف عنهم إلى أهله بإخبار أهله عنهم.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ زيادة في كلامهم على طريق الاستفهام التوبيخي، والهمزة ممَّا بعد الواو، أو مستأنف توبيخ، أي أيتَّبعون آباءهم ولو كان آباؤهم، ﴿لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ من أمور الدِّين التي خالفوها، وأمروا باتِّباعها، ﴿وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ إلى الحقِّ.

﴿وَمَثَلُ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ من اليهود والنَّصارى وغيرهم ومشركي العرب و[١] الذين يدعونهم إلى الإيمان من النبيء والمؤمنين، أي مثل الكافرين مع المؤمنين كمثل الغنم مع راعيها كما قال: ﴿كَمَثَلِ الذِي يَنعِقُ﴾ يصوِّت من رعاة الغنم عليها، ﴿بِمَا لاَ يَسْمَعُ﴾ أي على ما لا يسمع وهو الغنم، ﴿إِلاَّ دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ صوتاً بلا فهم لمعناه لماذا صاح بها لِتمشيَ أو تقف، ولو فهمت منه على الاعتياد أنَّها تقف أو تمشي، وأيضاً هذا الفهم ليس فهماً لوضع الصَّوت لمعناه، بل فهماً

---

١ - كذا في النسخ المعتمدة بالواو، وقد ذكر الشيخ فيما بعد أنَّه قدر "مع" لا الواو ليناسب قوله: ﴿كمثل الذي ينعق﴾. تأمَّل.

لاعتياد ضربها أولاً بالحجر لتقف أو تمشي.

وإنَّما قدَّرتُ مع الذين يدعونهم إلى الإيمان بلفظ «مع» لا بالواو ليناسب قوله ﴿كمثل الذي...﴾ إلخ، فإنَّ المتقدِّم فيه الراعي كذلك، فإنَّ مع أصلها أن تدخل على الراجح المصحوب فالراجح المصحوب هو النبيء والمؤمنون، أو يقدَّر: «ومَثَل داعي الذين كفروا للإيمان كَمَثَل الذي ينعق»، أو يقدَّر: «مَثَل الذين كفروا كَمَثَل بهائم الذي ينعق».

وعلى كل حال فالنبيء ﷺ والمؤمنون يدعون الكفَّار إلى الإيمان ولا يعرفون المقصود لانهماكِهم في التقليد، وكونهم أمِّيين وإعراضهم تجاهلاً كما يصيح الرَّاعي على غنمه، ولا تفهم حكمة موضوع الصَّوت ولو وقَفَتْ به أو مَشَت، فهم أضلُّ منها إذ تمتثل ولا يمتثلون.

أو المعنى: مَثَل الذين كفروا في دعاء الأصنام كَمَثَل النَّاعق في غنمه بل الناعق فوقهم، لأنَّ الغنم تسمع وتحسُّ بخلاف الأصنام.

(بلاغة) والدعاء والنداء مترادفان فيما قيل، فلعلَّه كُرِّر تأكيداً، كأنَّه قيل: أصواتاً كثيرةً، أو الدُّعاء ما يدلُّ على معنى امش أو قف أو اشربي أو كلي أو نحو ذلك، من فعل أو اسم فعل أو اسم صوت، والنِّداء ما يزاد على ذلك كهاء وياء ممَّا يتلفَّظ به في البهائم، ويبعد ما قيل: إنَّ الدعاء للقريب والنداء للبعيد، كقول

الأعرابي أقريب ربُّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ لأنَّ النداء يكون أيضاً للقريب كما ينادى بالهمزة و«أيْ» للقريب، وقيل: الدعاء ما يسمع، والنّداء قد يسمع وقد لا يسمع.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ هم صم بكم عمي، أي لا يسمعون الحقَّ ولا ينطقون به ولا يرونه، ﴿فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ الموعظة والأحكام الشرعيَّة، أي لا يدركونها، وليس المراد نفي عقل التكليف على سبيل تنزيل وجوده منزلة العدم، لفقد ثمرته لأنَّه لا يصحُّ ترتُّبه بالفاء كذا قيل، وفيه أنَّه لا مانع من أنْ يقال: هم صمٌّ بكمٌ عميٌ لا يدركون، فهم لذلك كمن لا عقل له كالمجنون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

الحلال والحرام من المآكل

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾ لذائذ، ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ لا تحرِّموها على أنفسكم ولو اعتقدتم حلها، نزلت فيمن عزم من الصَّحابة على أنْ يمنع نفسه منها، أو الطيِّبات الحلال مطلقاً، فيدخل

فيها اللَّذائذ، ﴿وَاشْكُرُواْ لِلهِ﴾ على حلِّ أكلها، والأمر بالأكل للإباحة العامَّة في الطيِّبات أو في اللَّذائذ إباحة تأكيدٍ لتقدُّمها في آيٍ أُخَر، ولعهدها في الأذهان وخارجاً وعملاً، كرَّر ذلك تشخيصاً للمؤمنين، وتخصيصاً بأنَّهم الأهل لها وتشريفاً لهم، وليرتِّب عليه ذكر الشكر وتحريم الميتة وما بعدها، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إذ عبادته لا تتمُّ إلاَّ بالشكر، أي إنْ كنتم تريدون عبادته عبادة تامَّة، والمراد الشكر باللسان، أو أنْ يستشعر في العبادة أنَّه يعبده لأجل نعمه، وأما الشكر بمعنى استعمال القلب واللسان والجارحة فلا تفسَّر به الآية، لأنَّ المعنى يكون بذلك واشكروا الله إنْ كنتم إيَّاه تشكرون وهو لا يصحُّ.

وتقديم إيَّاه للإهتمام والفاصلة، وإنْ جعلناه للحصر كان المعنى واشكروا الله إنْ كنتم خصَّصتموه بالعبادة، فالقيد حصرَ العبادة له لا نفس العبادة، فمن لم يشكر له بل شكر غيره لم يخصَّه بالعبادة، قال ﷺ «**الحمد رأس الشكر ما شكر الله من لم يحمده**»[1]، والمراد بالحمد في الحديث الحمد اللفظي، قال الطَّبراني والديلمي والبيهقي: قال رسول الله ﷺ «**يقول الله تبارك وتعالى: إنِّي والإنس والجن في نبإ عظيم، أخلق ويعبد**

---

١ - لم نقف على تخريجه.

غيري! وأرزق ويشكر غيري!» (١).

﴿إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ الحصر إضافي منظور فيه إلى السائبة وما معها لا حقيقي، لأنه قد حرم أيضاً المغصوب والمسروق، وأجرة الزنى وأجرة الكهانة، والرِّبا وغير ذلك.

(فقه) وأما الموقوذة والمتردِّية والنطيحة وما أكل السبع فداخلة في الميتة إنْ لم تدرك ذكاتها قبل الموت، وإنْ أدركت فمن الحلال، والحصر حصر قلب بالنسبة إلى من أحلَّ الميتة وما معها، وحرَّم السائبة وما معها، وحصر أفراد بالنسبة إلى ما حرَّمه بعض المؤمنين من اللَّذات بأنَّ شدَّد عليهم، فعدَّ منعهم أنفسهم منها تحريما فنهاهم بهذا الحصر، ففي كلٍّ من التحريم والمنع تحجير فيكون من عموم المجاز.

(فقه) **ثمَّ الحكم إنَّما يتعلَّق بالمعاني لا بالذَّوات،** فالمراد حرم عليكم أكل الميتة وما معها وبيعهنَّ وشراءهنَّ، ورهنهنَّ والإجارة بهنَّ، وإصداقهنَّ والغسل بهنَّ والاستصباح بهنَّ، ولكن أسند الحكم إلى الذَّوات مبالغة.

---

١ - أورده **الألوسي في تفسيره**، ج٢، ص٤١، من حديث أبي الدرداء مرفوعاً.

(فقــه) وألحقَ الحديثُ ما قطع من حيٍّ وهو حيٌّ

قال أبو داود والترمذي وحسَّنه عن أبي واقد الليثي قال رسول الله ﷺ حين قدم المدينة وهم يَجُبُّون الأسنمة، ويقطعون إليات الغنم، «**ما قُطع** ــ أي وهو حيٌّ ــ **من البهيمة** ــ وهي حيَّةٌ ــ **فهو ميِّتة**»[1] واستثنى الحديث السمك والجراد إذ قال: «**أحِلَّت لكم ميتتان...**»[2]. وزعم بعض أنَّ ما مات من الحوت والجراد حرام، وعموم الحديث يردُّه، واستثنى الحديث أيضاً الجلد فإنَّه إنْ أزيل ودكه بدباغ أو غيره حلَّ ظاهراً وباطناً، واستثنى من الدم الكبد والطحال وخصَّ ذكر لحم الخنزير بالذكر لأنَّه معظم ما يؤكل، ولأنَّهم يستعظمون تحريمه، وغيرُه تبعٌ له وكلُّه حرام حتَّى عظامه وجلده وشعره، وقيل بحلِّ شعره، وحلَّ خنزير البحر على الصحيح.

ومعنى ﴿أُهِلَّ بِهِ﴾ رفع الصوت به، وذلك أنْ يذكر الصَّنم أو غيره عند ذكاته وحده أو مع الله.

---

١ - رواه **الترمذي** في الأطعمة (٧)، باب ما قطع من الحي فهو ميِّت، رقم ١٤٨٠.

وأبو **داود** في الصيد، باب في صيد قطع منه قطعة، رقم ٢٨٥٨، من حديث أبي واقد الليثي.

وابن **ماجه** في الصيد، **وأحمد** في مسنده، عن أبي واقد كذلك.

٢ - رواه **ابن ماجه** في الصيد (٩)، باب صيد الحيتان والجراد، رقم ٣٢١٨، من حديث ابن عمر.

ورواه **البيهقي** في الطهارات، رقم ١١٩٧.

(فقــه) فيحرم ما ذكر عليه المسيح وقيل حلّ لأنّ الله عزَّ وجلَّ أباح ذبائح أهل الكتاب، وقد علم أنّهم يخلطون، ويحرم ما ذكر للجنِّ إتّقاء بهم لمريض، أو عند حفر بئرٍ، أو بناء دارٍ بأن يذبح في الموضع الذي يحفر نفسه، أو في الدار نفسها، أو في موضع مجاور لهما لذلك.

ورفع الصوت ذكرٌ للواقع في الجاهليَّة، فما ذبح لغير الله حرام ولو أسرَّ ذكر غير الله، أو ذَكَره في قلبه. والإهلال مأخوذ من الهلال إذ يرفع الصوت به إذا رئي ثم أطلق على رفع كلِّ صوت.

(فقــه) كلُّ ما نهي عن قتله في الحديث من نحو الصرد والهدهد فذبحه للأكل أو لمنفعة حلال، والآية تشمله.

﴿فَمَنُ اضْطُرَّ﴾ افتُعل، من الضرِّ، وهو متعدٌّ لواحدٍ كأصله، ألا تراه مبنياً للمفعول مع أنَّ نائب الفاعل غير ظرف ولا مصدر، وطاؤه عن تاء لتوافق الضَّاد في الجهر، والافتعال هنا للمبالغة، كأنَّه قيل: من ضرَّ ضرًّا عظيماً بالجوع حتّى خاف به الموت أو العمى أو الصَّمم أو البكم أو الشَّلل أو نحو ذلك ممَّا لا يُحمل، ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ بالسَّفر في معصية، أو منع حقٍّ، أو نشوز عن زوج أو سيِّد، أو خروج عن المسلمين أو منع مضطرٍّ آخَر عن أن يشاركه، ﴿وَلاَ عَادٍ﴾ معلٌّ، كغازٍ وقاضٍ، من العداوة أو العدوان، وهو

تجاوز الحدِّ، ومرجعهما واحد وذلك بقطع الطريق عن المسلمين أو أهل الذمَّة، أو بأكل فوق ما يمسك الرمق، ﴿فَلآَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في الأكل من ذلك بقدر ما يوصله أو يحيي به، ولا يأخذ معه من ذلك.

(فقه) والمذهب تحريم الزيادة على ما يمسك الرَّمق، وكذا روي عن أبي حنيفة والشافعي، وقال عبد الله بن الحسن البصري: يأكل قدر ما يدفع الجوع، وقال مالك يأكل حتَّى يشبع ويتزوَّد فإذا وجد الحلال طرحه، وإنْ تاب الباغي أو العادي حلَّ له تناول من ذلك، وكذا لا يحلُّ لهما التيمُّم إنْ فقدا الماء ويصلّيان به، ويقضيان إذا وجدا ماء، وإنْ تابا لم يقضيا ما صلّيا بالتيمم بعد التوبة.

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لأوليائه لأنَّهم يتوبون، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بأهل طاعته حيث وسع للمضطرِّ، وليس ذلك مختصًّا بالموحِّدين بل يحلُّ لمشرك غير باغ ولا عاد أيضاً أنْ يتناول منها للاضطرار، لأنَّهم مخاطبون بفروع الشَّريعة كأصلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ

بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

كتمان أهل الكتاب ما أنزل الله

﴿إِنَّ الذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ا للهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ هم علماء النَّصارى واليهود ورؤساؤهم، كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والمآكل، ويرجون أنَّ النبيء المبعوث آخرًا منهم، فلمَّا كان من العرب خافوا من ذهاب ما يُعطون فكتموا صفاته التي في التوراة والإنجيل، واهتمَّ أهل الكتاب بأنْ لا يعلِّموها من يتعلَّمها، وبأنْ يخطُّوا عليها ويكتبوا كتابا ولا يكتبوها فيه، وبأنْ يبدلوها بعكسها، وبأن يبدلوها في التعليم وبكلٍّ ما أمكنهم **وهكذا كل ما ذُكر كتمهم في القرآن.**

﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ﴾ بسبب الكتاب أو ما أنزل إذ كتموه، أو بكتمانه، ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَاكُلُونَ فِي بُطُونِهِم﴾ كلّها بملئها، لا في بعض البطن لشهرة أنَّه أكل في بعض بطنه إذا أكل قليلاً، وأكل في بطنه إذا ملأه، ﴿ إِلاَّ النَّارَ﴾ ما يأكلون في الدنيا بكتمانهم إلاَّ سبب النار، أو موجب النار، فحذف المضاف.

(بلاغة) ولا يصحُّ أنْ يكون مجازا بعلاقة التسبُّب أو المآل، أي إلاَّ ما سيصير ناراً، وأنَّ النار مستعمل في ذلك المأكول، لأنَّه لو قيل: ما يأكلون في بطونهم إلاَّ ذلك المأكول بالكتمان أو

الصَّيرورة لم يصحَّ، فإنَّ شرط المجاز أنْ تصلح موضعه الحقيقة، أو المعنى: ما يأكلون يوم القيامة إلاَّ النار جزاء على ذلك الأكل على الكتمان فأكل النار حقيقة، فالمضارع للاستقبال على هذا الوجه، وللحال على الوجه الأوَّل، ولا ينافي الحصر أنَّهم يأكلون الزَّقوم أيضاً لأنَّه إضافي أي ما يأكلون لهذا الكتمان والأكل عليه إلاَّ النار، فأكل الزقوم على غيره أو على الإطلاق أو أكل النار مجاز عن إحراق باطنهم، أو عدَّ الزَّقوم أيضاً ناراً، أو الكلام تمثيل شبه هيئة الراشي والمرتشي والرشوة بهيئة الأكل والنار وآكلها.

﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: كناية عن غضبه عليهم، أو تعريض بحرمانهم لكتمهم من الكرامة التي يؤتيها المؤمنين لعدم كتمانهم، ومن جملتها الكلام الموحى إليهم من الله بالبشرى والرضى، أو المراد لا يكلِّمهم بخير كما يكلِّم المؤمنين، وذلك بالوحي، وإلاَّ فمطلق الكلام واقع لقوله تعالى: ﴿فوَرَبِّك لَنسألنَّهمُ, أجمعِين﴾ (سورة الحجر: ٩٢) وقوله: ﴿فلَنَسألَنَّ الذين أُرسِل إليهم﴾ (سورة الأعراف: ٦) ويسأل كلُّ مكلَّف، ﴿وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾ يطهِّرهم من الذنوب، أو لا يمدحهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ في الدنيا كالآخرة.

﴿أُولَـئِكَ الذِينَ اَشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى﴾ في الدنيا، ﴿وَالعَذَابَ﴾ في الآخرة أو الدنيا أو فيهما، و[خصَّ] ذكر الآخرة في

قوله: ﴿فما أصبَرَهم على النارِ﴾، ﴿بالْـمَغْفِرَةِ﴾ المعدَّة لهم لو آمنوا ولم يكتموا، وعملوا الصَّالحات واتَّقوا، ﴿فَمَا﴾ تعجيبيَّة، أو استفهاميَّة توبيخيَّة، ﴿أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ الأصل أنْ تكون المعصية شاقَّة على العاصي لعظمة حقِّ الله وشدَّة العقاب، حتَّى أنَّ الصَّبر عليها كالصَّبر على النار، فجاءت الآية على ذلك، تقول لمن تعرض لغضب السلطان: ما أصبرك على القيد والسِّجن، تُقَبِّحُ رأيه بأنَّه لا يتعرَّض لغضبه إلاَّ من له طاقة على القيد والسجن، وأنت لا طاقة لك.

وكانت رابعة العدوية ترى المعصية ناراً. شبَّه مداومتهم على المعصية باعتبار مشقَّتها بحسب الأصل ولو لم تشقَّ عليهم وباعتبار الصِّديقين بالصَّبر على النار، أو يقال كذلك ما أصبرهم على موجبات النار، أو الصَّبر مطلقُ حبسِ النفس على الشيء ولو لم يشقَّ عليها، أي ما أدومهم على موجبات النار، وهي الكتم والكفر والاشتراء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي أكل النار في بطونهم وعدم تكليم الله إيَّاهم، وعدم تزكيته لهم وثبوت العذاب الأليم والنار، أو ذلك العذاب المسبَّب على الكتم والاشتراء، ﴿بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة والإنجيل والقرآن، ﴿بِالْحَقِّ﴾ فخالفوه وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، والذي آمنوا به كفروا ببعضه. أنكر اليهود والنصارى القرآن، واليهود الإنجيل وبعض التوراة، والنصارى التوراة وبعض الإنجيل، ﴿وَإِنَّ الذِينَ

اخْتَلَفُواْ﴾ مشركوا العرب، **﴿فِي الكِتَابِ﴾** القرآن، قال بعض: هو شعر، وبعض: كهانة، وبعض: سحر، وبعض: كذب، وبعض: علَّمه بشر، وبعض: أساطير الأوَّلين، وبعض: كلام جنون؛ أو هو الكتاب الأوَّل العام والمختلفون المشركون واليهود والنصارى، فإنَّ المشركين أيضاً كذَّبوا القرآن وآمنوا ببعضه، وكذَّبوا التوراة والإنجيل، وقد يؤمن بعضهم بهما أو ببعضهما؛ فاختلفوا بمعنى تخالفوا أو تخلَّفوا عن الحق، **﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾** خلاف، **﴿بَعِيدٍ﴾** عن الحق، وكل في جانب بعيد عن جانب الآخر.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

مظاهر البرِّ الحقيقيّ

﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾ الطاعة والإحسان، **﴿أَنْ تُوَلُّواْ﴾** فقط للصَّلاة وتصلُّوا، بل مع ذلك الإيمان با لله واليوم الآخر، والملائكة والكتاب والنبيئين

وإيتاء المال على حبِّه، والإتيان بالصَّلاة تامة، وإيتاء الزَّكاة، والوفاء بالعهد، والصبر في البأساء والضرَّاء وحين البأس.

﴿وُجُوهَكُمْ﴾ أيـُّها المؤمنون والتعريف للحصر، و«الـ» للجنس أو للعهد، بمعنى ليس البرّ العظيم الذي أكثرتم الخوض فيه، وقيل: الخطاب لهم ولأهل الكتاب، ﴿قِبَلَ الْمَشْرِقِ﴾ كما إذا كنتم غرب مكَّة، ﴿وَالْمَغْرِبِ﴾ كما إذا كنتم شرقها وكما كنتم تصلُّون إلى المغرب قبل تحويل القبلة إلى الكعبة، فإنَّ بيت المقدس غرب المدينة، فإنَّ الشمس تغرب إليه في أطول الصَّيف، وما يلي أطوله فذلك المغرب، وليس كما قيل: إنَّه شمال المدينة، ولم يذكر الجهات الأخر اكتفاء بذكر المشرق والمغرب، على طريق التمثيل لا التقييد، لأنَّ من أهل الجهات من يستقبل ما بينهما، وقدَّم المشرق مع أنَّه قبلة المتأخرين وهم النصارى لتقدُّم شروق الشمس على غروبها.

﴿وَلَكِنِ الْبِرُّ﴾ الإحسان الكامل من آمن با لله.

(صرف) البرّ مبالغة كقولك زيد عَدْل، فهو خبر ومن مبتدأ أو بالعكس، وهو أشدُّ مبالغة كمن قال: الصوم هو زيد، و«ال» للجنس أو العهد، أو لكن البارّ والأصل البارر، نقلت كسرة الراء للباء وحذفت الألف قصداً لسكون الراء بسلب حركتها، وأدغمت في الراء ولا

حذف مضاف في ذلك، ولا تأويلاً بالوصف لكن فيه تكلُّف، أو هو مصدر بمعنى اسم الفاعل أو يبقى على مصدريَّته، ويقدَّر مضاف فيه أي: «ولكن ذو البرِّ»، أو في قوله:

﴿مَنَ ـ امَنَ﴾ أي برُّ من آمن، ﴿بِا للهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ وَالْمَلآَئِكَةِ وَالكِتَابِ﴾ أي الكتب كلِّها، كما قال ﷺ: «**أنْ تؤمن با لله وملائكته وكتبه ورسله**»؛ أو القرآن لأنَّه الذي أنكره أهل الكتاب، وأنَّه المقصود بالدَّعوة وأنَّه أكمل الكتب، والإيمان به يستلزم الإيمان بجميع الكتب لأنَّه مصدِّق لما بين يديه؛ وقيل: التوراة، ولا قرينة له؛ وهي لا توجب الإيمان إلاَّ بتوسُّط اشتمالها على القرآن المستلزم لذلك، ﴿وَالنَّبِيئِينَ﴾ وهذا كلُّه موجود في المؤمنين قبل نزول الآية.

فمحطُّ الكلام قوله: ﴿وَءَاتَى الْمَالَ...﴾إلخ، وما كان فيهم من بعض صفة فقد أمروا بتجويدها، أو الخطاب في ﴿تولُّوا وجوهَكم﴾ لليهود والنصارى ردٌّ على اليهود، إذ قالوا: البرُّ استقبال المقدس، وعلى النصارى إذ قالوا: البرُّ استقبال مطلع الشمس، و«ال» في البر للجنس، ولا حصر في الآية. ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ مع حبِّ صاحب المال، فالهاء لـ«مَن»، والمفعول محذوف، أي مع حبِّه المال، أو مع حبِّ المال، فالهاء للمال والفاعل محذوف ومحبُّه مؤتيه، أو الناس، وحبُّه لجودته أو لقلَّته؛ أو على حبِّه على حبِّ ا لله فالهاء للمال أو لصاحبه المؤتي، أو لله سبحانه، أو للإيتاء المفهوم من آتى.

والتقييد بقوله: ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ للتكميل، قال ﷺ: «**أفضلُ الصَّدقة أنْ تتصدَّق وأنت صحيحٌ، تأملُ البقاءَ وتخشى الفقرَ، ولا تمهلْ حتى إذا بلغت الحلقومَ قلت: لفلانٍ كذا، ولفلانٍ كذا، ألا وقد كان لفلانٍ كذا**»[1]، فصدقة الفقير والبخيل أفضل من صدقة الغنيِّ والكريم، إلاَّ أنْ يكونا أحبَّ للمال منهما أو يتصدَّقا بما هو أعزُّ عندهما قال ﷺ: «**أفضل الأعمال أحمزها**»[2].

﴿**ذَوِي الْقُرْبَى**﴾ القرابة بالنسب مع الحاجة أو دونها، وهو مفعول ثان والمال مفعول أوَّل، لأنَّه الفاعل في المعنى، أي صيَّره آتياً ذوي القربى، فافهم ولا تهِم؛ فالمال يأتي ذوي القربى لا مفعول أوَّل إلاَّ بتكلُّف التفسير بـ«تناول» ونحوه، ممَّا يكون ذوي القربى به فاعلا في المعنى، ﴿**وَالْيَتَامَى**﴾ مع الحاجة أو دونها.

---

١ - رواه **مسلم** في الزكاة (٣١)، باب بيان أنَّ أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح، رقم ٩٢-١٠٣٢

والنسائي في الزكاة (٦٠)، باب أيُّ الصدقة أفضل، رقم ٢٥٤١، من حديث أبي هريرة دون ذكر الفقرة الأخيرة.

٢ - قال في **اللسان** بعد ذكر الحديث رواية عن ابن عبَّاس: «أحمزها يعني: أمتنها، وأقواها، وأشدُّها؛ وقيل: أمضها وأشقّها». اهـ

والحديث أورده **الألوسي في تفسيره**، ج٢، ص٤٦.

(فقه) وذلك بوساطة القائم بهم من وليٍّ وغيره، لأنَّه لا قبض لغير البالغ، ولا يُتمَ بعد بلوغ، ولكن يجوز إطعام يتيم ولو بلا قائم ولو حقًّا واجباً، كزكاة لمن هو في يده ويتفقَّده، وما أوتي قائم يتيم قد أوتي يتيماً، لأنَّ قائمه كرسول إليه فهو معطوف على ذوي ، ولا حاجة إلى عطفه على القربى قصداً إلى معنى إعطاء ذوي اليتامى.

﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ أسكنتهم الحاجة فقلَّت حركتهم، أو أسكنتهم إلى الناس بالميل إليهم، وعن أبي حنيفة: هو من لا يملك شيئاً، والفقير من يملك أقلّ من نصاب، والشافعي: من يملك شيئاً، والفقير من لا يملك شيئاً؛ ﴿أَمَّا السفينةُ فكانت لمساكينَ﴾ (سورة الكهف: ٧٩) فللمسكين شيء، لكن ليس في الآية أنَّ الفقير لا شيء له، ﴿وابْنَ السَّبِيلِ﴾ المسافر مع حاجة في حاله ولو غنيًّا في أهله، سمِّي لأنَّه يلقيه الطريق كما تلد الأمُّ ولدها، ولأنَّه يصاحب الطريق كالولد مع أبيه، ولأنَّه مبني السبيل كالولد مبني أبيه كأنَّه ولدَهُ السبيلُ، أو لانفراده عمَّن معه قبل، وقيل: ابن السَّبيل الضَّيف، لأنَّه يقدَّم به إلى بيت المضيف.

﴿وَالسَّآئِلِينَ﴾ ألجأتهم الحاجة إلى السؤال، عطف عامٍّ على خاصٍّ، لأنَّ ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل يكونون سائلين وغير سائلين، ويكون السائل أيضاً غيرهم دعاه داع إلى السؤال ولو كان غنيًّا كتحمله دَينا لإصلاح بين الناس، وكاشتهائه شيئاً ليس عنده كحامل

ومتوحِّمٍ، وحالف على موجوده لا ينتفع به في محلّه، وككلٍّ سائل ولو غنيًّا إذ لا يدرى هل هو غني، بل ولو غنيًّا قال ﷺ: «**للسائل حقٌّ ولو جاء على فرس**»[1]. رواه أحمد. وذلك سدٌّ لذريعة الرَّد، واحتياطاً للناس.

﴿**وَفِي الرِّقَابِ**﴾ وصَرَفَه في الرِّقاب، بصيغة الماضي المحذوف، دلَّ على صَرَفَ قولُه: ﴿وءَاتى المالَ﴾، والمقامُ، ويجوز إبقاؤه على معنى: وإيتاؤه في الرِّقاب، أي على طريق صرفه فيها بوزن المصدر، أي لفكٍّ الأسرى وإعتاق العبيد، وإعانة المكاتب، وشراء العبيد، ليكونوا في الإسلام عوناً له في الجهاد وغيره، وتنجية المضطرٍّ، وشراء العبيد المسلمين الذين تملَّكهم المشركون بالتقويم.

(فقه) ﴿**وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ**﴾ أهلَها فما قبل هذا في غير الزكاة ترغيباً في النفل لا إيجاباً، إذ لا واجب في المال بعد الزكاة، إلاَّ إنْ خِيفَ موت أحدٍ أو نفقة العيال والضَّيف، وإلاَّ أنواع الكفّارات، وعن الشَّعبي: «إنَّ في المال حقًّا سوى الزكاة» وتلا هذه الآية؛

---

١ - ورواه القطب في **جامع الشمل** بلفظ: «اعطوا السائل ولو جاء على فرس»، ج١، ص٣٢٧.

قال صاحب "**الكشف الخفاء**": رواه **مالك** في **الموطأ** مرسلا.

وسئل الشعبي: هل في المال حقٌّ بعد الزكاة؟ قال: «نعم يصل قرابة، ويعطي السَّائل»، وتلا هذه الآية، وعنه ﷺ: «**لا يؤمن با لله واليوم الآخرمن بات شبعاناً وجاره طاوٍ إلى جنبهِ**»[١]. وفي الحديث: «**في المال حقوقٌ سوى الزكاة**». واجتمعت الأمَّة إلاَّ من شذَّ أنَّه يجب دفع حاجة المضطرٍّ ودفع الكفَّارات وذلك ثابت ولو مع قوله ﷺ من حديث عليٍّ: «**نسخَ الأضحى كلُّ ذبحٍ، ورمضانَ كلُّ صومٍ، وغسلَ الجنابة كلُّ غسلٍ، والزَّكاةَ كلُّ صدقةٍ**»[٢]. وهو غريب، أخرجه ابن شاهين، وليس في سنده قوَّة وأخرجه الدَّارقطني والبيهقي، ويجوز أنْ يكون آتى الزكاة ذكرًا للخاصِّ لمزيَّته بعد العام، وهو ﴿ءاتى المالَ﴾.

﴿**وَالْـمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ**﴾ ربَّهم في طاعة أو مخلوقاً فيها[٣] أو في مباح فيه نفع لغيرهم، أو انتظار من غيرهم لهم لا في معصية أو مكروه، أو مباح لأنفسهم فلا ذمَّ في خُلف الثلاثة. والعطف على «مَن»،

---

١ - رواه **الترمذي** في كتابه، باب الترهيب من أذى الجار، رقم ٢٤ و ٢٥، من حديث ابن عبَّاس. وقال: رواه الطبراني والبزَّار والحاكم وإسناده حسن.

٢ - ذكره **الألوسي في تفسيره**، ج٢، ص٤٧، من حديث عليٍّ كرَّم الله وجهه، مرفوعا. وأورده الزحيلي في **التفسير المنير**، بدون إسناد، ج٢، ص١٠٢.

٣ - يعني رحمه الله: أو عاهدوا مخلوقا من الخلائق في طاعة.

ومقتضى الظّاهر: «ولكن إنّه من آمن با لله... إلخ، وأوفى بعهده إذا عاهد»، ولكن غيَّر الأسلوب لأنَّ ما تقدَّم بإيجاب ا لله، وهذا بإيجاب المكلَّف على نفسه، كما قال: ﴿إذا عاهدوا﴾ أي لا يتأخّر إيفاؤهم عن وقت عُهِد إليه؛ وذلك حكمة التقييد بإذا، فليس ذلك فيما أوجبه ا لله عليه بلا إيجاب منه كما قيل به، وبأنَّ ﴿إذا عاهدوا﴾ تأكيد، وممَّا يكون من إيجابهم برُّ اليمين والنّذر وردُّ الأمانة، لأنَّ عقدهنَّ عهدٌ منهم بالوفاء، أو غيَّر الأسلوبَ إشارة إلى وجوب استقرار الوفاء؛ أو إلى أنَّه أمر مقصود بالذّات، أو لأنَّ هذا من حقوق ا لله خاصَّة. ويطلق العهد على ما يجري في الناس ممَّا لا يُحلُّ حراماً ولا يحرِّم حلالاً،والظاهر أنَّ المراد حقوق ا لله وحقوق العباد، لأنَّ الوفاء بها من حقوق ا لله أيضاً.

﴿**وَالصَّابِرِينَ**﴾ لا تنسَ الصابرين، في مقام الخير والثّناء، أو: «اذكرْ الصابرين» أو «خصَّ الصابرين»، ومعنى كون ذلك ـ نصباً على المدح ـ أنَّهم في مقام رفيع يعرف به المحذوف ولو لم يذكر.

(نحو) قال أبو علي الفارسي: إذا غيِّر إعراب صفة المدح أو الذم فذلك تفنُّنٌ ويسمَّى قطعاً، وذلك أنَّ تغيير المألوف يدلُّ على مزيد الاهتمام بشأن المغيَّر، **فإنَّه لا فضيلة إلاَّ وللصَّبر فيها أثر بليغ، وإلاَّ فسدت وأدَّت إلى مضرَّة.**

﴿فِي الْبَأْسَاءِ﴾ شدَّة الفقر وفساد المال ولو بلا فقرٍ، كفساد نوع دون آخر أو فساد فيه كلّه مع بقاء نفع فيه بلا فقر، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ المضرَّة في البدن بمرض أو غيره كعرج وصمم وعنة، وذكر «في» لأنَّ المدح في الصَّبر على البأساء والضَّرَّاء إنَّما يكون إذا عَظُما، وكان المصاب كالمظروف لهما، وأمَّا الصبر على ما قلَّ منه ففي أكثر الناس. ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ القتال، والمراد القتال في سبيل الله. ذَكَر «حين» لأنَّ القتال لا يستمرُّ.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ الموصوفون بالإيمان وإيتاء المال وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والموصوفون بالإيفاء بالعهد، والموصوفون بالصبر، ﴿الذِينَ صَدَقُواْ﴾ في دين الله مع الله، وفي دعواهم أنَّهم مؤمنون، وفي طلب البرِّ، وذَكَر الثلاث على الترقِّي، فالصبر على المرض أشدُّ منه على الفقر، و[على] القتال أشدُّ من المرض، ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل.

قال بعضهم: هذه الصفات خاصَّة بالأنبياء استجماعاً وغيرهم لا يستجمعها، والصحيح أنَّها عامَّة في جميع المؤمنين، كما قال ﷺ دعاءً إلى العمل بها: «مَن عمِلَ بهذهِ الآيةِ فقد استكمَلَ الإيمانَ»[1].

---

١ - لم نقف على تخريجه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

مشروعيّة القصاص وحكمته

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ﴾ أي فرض وأصله: خُطَّ، ولما كان الخطُّ لإنفاذ ما خُطَّ كان بمعنى فُرِضَ مجازاً، ثمَّ صار حقيقةً عرفية في معنى الإلزام، وتقوَّى ذلك بـ«على» في قوله: ﴿عَلَيْكُمُ﴾ ايُّها المؤمنون والقاتلون وولاَّة الأمر، فالخطاب بالكاف للذين آمنوا والقاتلين وولاَّة الأمر كقوله تعالى: ﴿ياأيُّها النبيء إذا طلَّقتم النِّساء﴾(سورة الطلاق: ١) فالخطاب للنبيء وسائر المطلّقين يقال لرئيس القوم: «يافلان إذا جئتم أكرمتكم». ﴿القِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ المُمَاثلة فيهم، أي في قتل القتلى أي في شأنه أو بسببه، ومنه المقصُّ لتساوي أطرافه، والقصَّة لأنَّها تساوي المحكي، والقاصُّ لأنَّه يذكرها بلا تغيير وإلاَّ عُدَّ محرِّفاً.

وذلك بأنْ يقتل القاتل فقط كما قَتَل القاتل إنساناً فقط، ويُقتل العبد إذا قتل عبدا كما قَتل العبد ولا يُقتل به الحرُّ وهكذا... ومعنى

﴿كُتب عليكم القصاصُ﴾ أنَّه حقٌّ واجبٌ على القاتل لمن له الدَّم، ووجوبُه لا ينافي أنَّه يجوز العفو مطلقاً، والعفو عن القتل مع أخذ الدِّيَّة، كما تقول: يجب على المدين أن يقضي الغريم، فإنَّه لو ترك الغريم الدِّين جاز فلا عطاء على المدين.

(سبب النزول) نزلت الآية في الأوس والخزرج، كان لأحدهما ولعلَّهم الأوس على الآخرين قوَّة وشرف، وكانوا ينكحون نساءهم بلا مهر، وأقسموا: لنقتلنَّ الحرَّ منهم بالعبد منَّا، وبالمرأة منَّا الرجل منهم بلا ردٍّ لِنصفِ ديَّة الرجل، وبالرجل الرجلين، وجعلوا جراحاتهم ضِعف جراحات أولئك، فرفعوا أمرهم إلى النبيء ﷺ فأمرهم الله بالمساواة فَرَضَوْا وسَلَّموا؛ ويقال: ذلك بين قريظة والنضير من اليهود، يقولون لبني قريظة إذا قتلتم منَّا عبداً قتلنا منكم حرًّا، وإذا قتلتم منَّا حرًّا قتلنا منكم حرَّين، ونقتل رجلكم بأنثانا؛ قيل: ويردُّه قوله تعالى: ﴿ياأيُّها الذين آمنوا﴾ وهؤلاء كفرة، ويجاب أنَّه وقع ذلك بين الأوس والخزرج، ووقع أيضاً بين فريظة والنضير، كما مرَّ أنَّهم تحالفوا إحداهما مع الأوس والأخرى مع الخزرج، فغلَّب المؤمنون وهم الأوس والخزرج، وبأنَّ المؤمنين هم الحكَّام على القاتل من اليهود أو من المسلمين.

﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ يقتل الحرُّ الواحد بالحرِّ لا بالعبد، ولا حُرَّان بحرٍّ

واحدٍ، أو الحرُّ يقتل بالحرِّ، وكذا ما بعد، ﴿وَالْعَبْدُ﴾ الواحد لا اثنان ولا الحرُّ ﴿بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى﴾ لا الأنثيان، ولا الذَّكر به بلا ردٍّ لنصف ديَّة الذَّكر ﴿بِالأُنثَى﴾ والخنثى بالخنثى، لا الذَّكر به بلا ردِّ زائدٍ، ولا الخنثى بالمرأة بلا ردٍّ.

(فقه) وقيل بيَّنت السنَّة أنَّ الذكر يقتل بالأنثى بلا ردٍّ، **وأنَّه تعتبر المماثلة في الدِّين وأنَّ الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه**، فلا يقتل مسلم ولو عبداً بكافر ولو حرًّا، ويقتل كافر بمسلم، وعن علي: «مضت السنَّة أنْ لا يُقتل مسلم بذي عهد ولا حرٌّ بعبد». والمشرك غير ذي العهد أولى بأنْ لا يقتل به مؤمن. وكان أبو بكر وعمر كلَّما قتل حرٌّ عبدًا لا يقتلانه به، سواءً أكان له أم لغيره، وهما عمدة بين الصحابة ولا يخالفهما أحد، وقَتَل رجلٌ عبدَه فجلده رسول الله ﷺ ونفاه سنةً، ولم يصحَّ عن مالك والشافعي أنَّه لا يقتل الذكر بالأنثى؛ وقيل عن أبي حنيفة: أنَّه يقتل الحرُّ في العبد المؤمن لقوله ﷺ : «**المسلمون تتكافأ دماؤهم**»[1]، وردَّ بأنَّه استثنى منه

---

[1] - رواه **ابن ماجه** في الديات (٣١)، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، رقم ٢٦٨٣، من حديث ابن عبَّاس.

ورواه **أبو داود** في الديات، باب أيقاد المسلم بالكافر؟ رقم ٤٥٣٠، من حديث =

العبد إذ قال: «**لا يُقتل حرٌّ بعبد**»(١)، وعن مالك والحنفيَّة أنـَّه ليس للوليِّ إلاَّ القتل، إلاَّ إن رضي القاتل بالدِّيـَة، ويردُّه تخييره ﷺ الوليَّ بين القتل والديَّة وتركهما.

﴿**فَمَنْ عُفِيَ**﴾ سومح، ﴿**لَهُ**﴾ فالقاتل الذي ترك له، ﴿**مِنَ أَخِيهِ**﴾ المقتول أي من دم أخيه، والتارك ورثة المقتول؛ وقيل: الأخ وليُّ الدم، **والمراد الأخوَّة في التوحيد**. وفيه ردٌّ على الصفرية القائلين بأنَّ فاعل الكبيرة أو المعصية مشرك، ويبعد التأويل بالأخوَّة في الآدميَّة، وذَكَره بلفظ أخيه ليرقَّ له، والقتل لا يقطع الأخوَّة. ﴿**شَيْءٌ**﴾ من القتل ولو جزاء من ألف جزاء، أو شيئاً من الدِّيَّة، تركه الورثة كلُّهم أو بعضهم. ﴿**فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**﴾ أي فالواجب، أو فعلى المعفو له، أو فالأمر أنْ يتَّبعه العافي وسائر الورثة بالدِّيَّة، أو ببعضها إنْ ترك البعض منها بلا عنف، وبلا ملازمة إنْ أعسر، وأنْ يؤدِّي القاتل الديَّة أو ما بقي منها بلا مطل ولا بخس، وإنْ ترك القتل والدِّيَّة فلا اتِّباع.

قيس بن عبَّاد، من حديث طويل.

١ - رواه **القطب في الشامل**، ج٢، ص١٦٣، رقم ٢٦٥٤، من حديث ابن عبَّاس.

ورواه **البيهقي** في كتاب الجراح (١٠)، لا يقتل حر بعبد، رقم ١٥٦٣٩، من

(فقه) والواجب القتل والدِّيَّة بدله، كذا ما دون القتل الأرشُ بدله، فلو قال: عفوت عنه، لم يكن له قتل لأنَّه الأصل وقد عفا، ولا ديَّة لأنَّها بدله وقد سقط فلا ديَّة، وقيل الواجب أحدهما على الإبهام فلو عفا لم يحمل عليه بل يستبقى له بأنْ يحمل العفو على العفو عن القتل فيعطى الدِّيَّة، وإنْ صرَّح بما عفا فيه عمل به.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التخيير لوليِّ الدَّم بين القتل وأخذ الدِّيَّة والعفو، ﴿تَخْفِيفٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ إذ لم يحتِّم عليكم القتل كاليهود ولا الدِّيَّة كالنصارى، وفي تحتيم أحدهما تضييق على الوارث والقاتل.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ﴾ بالقتل، ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد تركه أو بعد أخذ الدِّيَّة أو بعد العفو الكلِّي، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدُّنيا بالقتل فإنَّه لا يعفى عنه ولو عفا عنه وليُّ القاتل كما جاء به الحديث، وفي الآخرة بالنار إلاَّ إنْ تاب فلا عذاب في الآخرة عليه في ذلك، وعليه القتل ولو تاب وروي عنه ﷺ: «**لا أعفي أحداً قتل بعد أخذ الدِّيَّة**»[1].

=

حديث ابن عبَّاس كذلك.

١ - رواه **البيهقي** في الجراح (٣٠)، باب من قتل بعد أخذه الدية، رقم ١٦٠٤٥، من

=

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ نوع من الحياة عظيم في شأنه، كثير بأفراده، لأنَّه إذا علم مريد القتل ظلما أنَّه يقتل إذا قتل كفَّ عن القتل، فلا يقتله الوليُّ، وإنْ قتله قتل وحده فذلك القصاص، وقبل ذلك كانوا يقتلون جماعة فيهم القاتل ويقتلون غير القاتل واحداً أو جماعة، وذلك غير قصاص فينتشر القتل في ذلك، وفي الآية جَعَل القتل سبباً للحياة. وكالقتل الجروح وأنواع الجنايات في البدن، فقد يجنى على غير الجاني من واحد أو متعدِّدٍ أو عليه وعلى غيره، وتنتشر الفتنة فقد يفضي ذلك إلى الموت بقتل أو جرح، فقد تحتمله الآية أيضاً مع القتل، وإذا اقتصَّ من الجاني أو أخذ الأرش توقَّفت الفتنة، والآية زجر عن القتل الأوَّل وعن القتل الثَّاني بزيادة قتل غير القاتل أو بقتل غيره؛ وإنْ جعلنا الحياة أخرويَّة فالآية إغراء إلى الإذعان للقصاص، لأنَّه إذا أذعن إليه القاتل كانت له الحياة الطيِّبة الأبديَّة.

﴿يَآأُوْلِي الاَلْبَابِ﴾ العقول الخالصة عن الكدورات، وكلُّ المكلَّفين يجب عليهم تعاطي خلوص العقل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أنْ

=

حديث الحسن، بلفظ "رجلا" مكان "أحدا".

ورواه **أحمد** في مسنده، ج٤، ص١٤٨، رقم ١٤٩١٧، من حديث جابر بن عبد الله.

تقتُلوا غيركم، أو تزيدوا على القاتل أو تقتلوا غيره، وتتّقون الله بالمحافظة على القصاص والحكم به والإذعان له، أو تتّقُون القتْلَ خوفَ أنْ تُقتَلُوا. **وختَم آيةَ القِصَاصِ هذه وآية الصَّوْمِ بعدها بالتّقوَى لأنَّ القِصَاصَ والصَّوْمَ من أشقِّ التكاليف.**

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾

الوصيَّة الواجبة

﴿كُتِبَ﴾ نائبُ فاعلِه الوصيَّةُ، وذُكِّر للفصل، ولمعنى الإيصاء كما قال السَّعدُ، الأصل التأنيث ولو كان غير حقيقيٍّ، ويختار إلاَّ لداعٍ، كما لِفصل في غير الحقيقي هنا، قال الرَّضي زاعما: أنَّ ذلك لإظهار فضل الحقيقيِّ على غيره، وهو تعليل لا يرضى، كيف يقال: اختار الله عزَّ وجلَّ التذكير ليعلمنا بفضل الحقيقيِّ على المجازيِّ!.

﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي أسبابه بحسب الظَّنِّ،

وإلاَّ فلا يدري أحد أنَّه يموت في ذلك الوقت ولو اشتدَّ ضرُّه، ﴿**إِن تَرَكَ خَيْرًا**﴾ مالاً قليلاً أو كثيراً، بأنْ يكون له ربعُ دينارٍ زيادةً على ديون الخالق والمخلوق.

(فقه) والأنسب أنَّه إنْ قلَّ ماله عن ذلك، أوصى ولو بأقلَّ من ربع دينار، وذكره بلفظ خيرٍ تلويحاً بأنَّ الوصيَّة من طيب المال حلالاً وجودةً، ويجزي ما دون الجيِّد إلاَّ أنَّه لا يحسن؛ وقد استعمل الخير في المال مطلقاً كقوله تعالى: ﴿وإنَّه لحبِّ الخير لشدِيدٌ﴾ (سورة العاديات: ٨)، وفي المال الحلال كقوله تعالى: ﴿وما تُنفقواْ من خيرٍ فلأنفسكم﴾ (سورة البقرة: ٢٧٢).

وقالت عائشة وعليٌّ: الخير المال الكثير؛ والكثرة والقلَّة بالنِّسبة إلى الموصي وحاله رجلاً أو امرأة ككَثْرة حاجاتِه وكثرة الوارثين.

أراد رجل أنْ يوصي فسألته كم مالك؟ فقال: ثلاثة آلاف درهم، فقالت: كم عيالك؟ فقال: أربعة، فقالت: إنَّما قال الله: ﴿إنْ ترك خيراً﴾، وإنَّ هذا يسير فاتركه لعيالك، ولا شكَّ أنَّه كثير في نفسه لكن قلَّته بالنِّسبة لعياله، وكذا سأل عليًّا مولى له الوصيَّة عند احتضاره وله سبعمائة درهم، ـ قيل: أو ستمائة ـ فمنعه لكونه ذا عيال، وقال: «إنَّ الله تعالى قال: ﴿إن ترك خيراً﴾، والخير هو المال الكثير»؛ ولا شكَّ أنَّ سبعمائة درهم كثير في ذاتها إلاَّ أنَّها قليل

بالنّسبة. وعن ابن عبَّاس من لم يترك ستّمائة دينار لم يترك خيراً؛ والخير في العرف العام: المال الكثير كما لا يقال: ذو مال، إلاّ إنْ كان كثيراً، وإنْ أوصى من قبل وعند حضور الموت نقص عمَّا تجب الوصيَّة معه فله إسقاط ما أوصى به للأقرب، والتّقييد بالقلّة والكثرة إنّما هو بالنّظر إلى وصيَّة الأقرب الباقية بلا نسخ. ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ كالإخوة والأخوات والأعمام، والأجداد والجدَّات والأخوال، ثمَّ نُسخ بآية الإرث، وحديث: «لا وصيَّة لوارث»، إلاّ أن يشاء الورثة.

قال في حجَّة الوداع إذ خطب فيها «**إنَّ ا لله تعالى قد أعطى كلّ ذي حقٍّ حقّه فلا وصيَّة لوارث**»[1]، وروي أنّه خطب على راحلته وقال: «**إنَّ ا لله تعالى قد قَسَمَ لكلِّ إنسانٍ نصيبَهُ مِن الميراثِ فلا تَجوزُ لِوارثٍ وَصيَّةٌ**»[2].

---

١ - رواه ابن ماجه في الوصايا (٦)، باب لا وصية لوارث، رقم ٢٧١٣ و ٢٧١٤، من حديث أنس وكذا أبي أمامة.

ورواه البيهقي في الوصايا (١)، باب نسخ الوصية للوالدين والأقربين الوارثين، رقم ١٢٥٤١، من حديث أنس.

٢ - رواه ابن ماجه في الوصايا (٦)، باب لا وصية لوارث، رقم ٢٧١٢، من حديث عمرو بن خارجة.

ورواه أحمد في مسنده، ج٦، ص٣١٤، رقم ١٨١٠٨ و ١٨١٠٩، من حديث ابن خارجة كذلك.

(فقه) وذلك ولا عبرة بإجازة الورثة إذا كان ما أُوصي به لوارث لا يرجع إليهم إنْ ردُّوه، كالوصيَّة لوارثٍ بالكفَّارة أو بشاة الأعضاء أو نحو ذلك، وإنْ كان فيه عمل كالحجِّ والقراءة في موضع فقد يجوز، ومن وقف مع الحديث عموماً منَعه. وإنْ أوصى الوارث بحقٍّ له عليه جاز إجماعاً مع انتفاء الرِّيبة، مثل أنْ يوصي بأرش ضربة ضربه إيَّاها، أو بمال له أكله منه بلا رضى، وخرج من الكلِّ على أنَّه متواتر، وإلاَّ فالناسخ آيات الإرث والحديث مبيِّن للنَّسخ بهنَّ.

وبقيت الوصيَّة للأقارب الذين لا يرثون من جهة الأب ومن جهة الأم على ترتيب نذكره في الفقه. قيل: المراد بالأقارب ما يشمل المشركين تأليفاً للناس، ورعاية لحقِّ القرابة [في] أوَّل الإسلام ولمَّا كثر الإسلام شرع الإرث ونسخ الوصيَّة للوارث. وثبت أنَّ الكافر لا يرث الموحِّد، أو هذه الآية هي الميراث بحسب ما يريد الموصي، ثمَّ نسخ ردُّ التفصيل إليه بالتَّفصيل في آيات الإرث. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بأنْ ينوي انفاذ حكم الله والتقرُّب إلى الله، لا الحميَّة أو الفخر أو الرئاء أو غرضاً من أغراض الدنيا، وأنْ يكون من الثلث، ولا يفضِّل الغني لغنائه، وله تفضيل الفقير، وأنْ لا يكون فوق الثلث، وأنْ لا يكون جزاءً على معصية. ﴿حَقًّا﴾ حقّ ذلك حقًّا، ولا شكَّ أنَّ ما كتبه الله على العباد حقٌّ، فهو مصدر مؤكِّد للجملة. ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ بدل الإيصاء المدلول عليه بالوصيَّة، بل المعبَّر عنه بالوصيَّة،

فإنَّ الوصيَّة اسم مصدر ومعناه الإيصاء، أو بدل الوصيَّة، فذكر الضمير لأنَّها بمعنى الإيصاء، أو بدل الحقِّ المذكور أو بدل المكتوب المعروف من قوله: ﴿كُتِبَ﴾، أو بدل ﴿المعروف﴾، فالمبدَّل إما حكم الله، وتبديله تغييره بعد الحكم به، أو كتمه فينفذ غيره، أو تأويله بباطل، أو ترك الإيصاء المأمور به.

وإمَّا شأن الوصيَّة بأن لا ينفِّذ الورثة أو الوصي الوصيَّة، أو ينقصوا منها أو يغيِّروا صفتها، مثل أنْ يوصي بثوب جديد فينفقوا خَلِقاً، أو بعتق عبدين فيعتقوا واحداً، ويكتم الشَّاهد، أو يغيِّر ما شهد به، أو يدخل الحاكم فيه بجور، أو ينكر الورثة الوصيَّة.

﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ من كتاب الله أو من الموصي أو الشهود، ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُ﴾ إثم التبديل، ﴿عَلَى الذِينَ يُبَدِّلُونَهُ,﴾ لا على الموصي، أو على من بدَّل حكم الله، لا على غيره، فإنَّه لا تزر وازرة وزر أخرى؛ والذين يبدِّلونه هم من بدَّله بعد ما سمعه، فمقتضى الظَّاهر الإضمار هكذا: «فإنَّما إثمه عليه»، والهاء عائدة إلى ما عادت إليه هاء «بدَّله»، ويجوز كونها مفعولاً مطلقاً عائدة إلى ما عادت إليه هاء إثمه، وعليه فالمفعول محذوف وهو ضمير عائد إلى ما عاد إليه هاء «بدَّله»، كقولك: «الإكرام الشديد أكرمه الله زيداً». ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ بالأقوال والأصوات، أي عليم بها كلِّها. ﴿عَلِيمٌ﴾ بالأفعال

والأوصاف والاعتقادات وكلِّ شيء، ومن ذلك عِلْمُه بقول الموصي وغيره وفعل الموصي وغيره فيجازي على ذلك.

(فقه) وأنت خبير بأنَّ وصيَّة الأقرب واجبة فمن لم يوص بها وقد ترك خيراً هلك، كما قال علي: «ختم عَمَله بالمعصية». وقيل: نُسخَ الوجوب فهي مستحبَّة، وقيل: نُسِخ في حقِّ من يرث، وتجب لمن لا يرث ولو كافراً.

﴿فَمَنْ خَافَ﴾ كإمام وقاضٍ ووصي وغيرهم، ﴿مِنْ مُّوصٍ﴾ علم منه بعد موته كقوله تعالى: ﴿إلاَّ أنْ يخافا ألاَّ يقيما حدود الله﴾ إلاَّ أنْ يعلما، وذلك أنَّ الخوف من الشيء سبب وملزوم للبحث عنه هل كان؟ وللبحث عن أحواله كقرب وبُعد وشدَّة وضعفٍ فيحصل العلم، وأيضاً لا يخاف منه حتّى يعلم أنَّه ممَّا يخاف منه؛ أو الخوف بمعنى التوقُّع الجاري بمعنى الظّن فيفهم حكم العلم اليقيني بطريق الأولى، وأصل الخوف توقُّع مكروه بسبب أمارة مظنونة أو معلومة، ولـمَّا لم يكن للخوف من الميل والإثم بعد الإيصاء معنى حملناه على العلم أو الظّنِّ للتسبُّب واللُّزوم البياني، ويجوز إبقاء الخوف على أصله بأنْ أتُّهم الموصي في إيصائه. ﴿جَنَفًا﴾ ميلاً عن الحقِّ خطأً بنسيان أو غلط، ﴿اَوِ اِثْمًا﴾ بأنْ تعمَّد خلاف الحقِّ كالزِّيادة على الثلث، والوصيَّة للوارث لأجل حقٍّ له على الموصي بأكثر من حقّه، مثل أنْ يقول:

أوصيت لزوجي بكذا لأجل أنّي ضربتها، أو لم أوف حقّها في الفراش، أو لأنّي أكلت مالها بلا رضى منها، أو أكلته على أنْ أرُدَّه لها، مع أنَّ حقّها أو أرشها أو ما أُكِل من مالها أقلُّ، ولم يوجد السبيل إلى تعيين كمِّية ذلك، وكذا في الوصيَّة للولد وغيره، ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصى له والورثة المعلومين من المقام، أو بين الوالدين والأقربين الموصى لهم الذين تقدَّم ذكرهم آنفاً، وهذا أولى، وإنْ جعلنا الخوف من موصٍ حال الإيصاء أو بعده في حياته فالإصلاح بينه وبين الورثة لأنَّ المآل إليهم، وبين الموصى له بأنْ يقال له زد كذا أو أنقص كذا، بمقتضى العدل، ومن ذلك أنْ يوصي لفسق أو مكروه، قيل: أو يفضِّل غنيًّا، ﴿فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في الإصلاح، بل له الثّواب، وذكر نفي الإثم إشارة إلى عظم ذنب التبديل حتّى أنّه ليخاف على المصلح الإثم لما عساه أنْ يكون في إصلاحه من الخطإ، وكذا ذَكّر لذلك قولُه: ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعد للمصلح بالمغفِرة والرَّحمة لإقامته بأمر الحقِّ، وإرشاد الضَّال، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، ولا يقال: المراد إنَّ الله غفور رحيمٌ للموصي بواسطة إصلاح الإمام أو القاضي أو المفتي أو الوصي أو غيرهم، لأنَّه مات على غير صواب غير تائب، هذا ما نقول، وعند الله ما ليس عندنا، ولا يكون كمن لم يوقع إصلاحاً في شأن وصيَّته لأنَّ ظلمه لم يصل غيره إذا أزيل بالصُّلح

الجنف كلِّه، ودون ذلك أمر الخطإ في الخطر إذ لم يتعمَّد(١)، **إلاَّ أنَّك خبير بأنَّ الجهل عمد.**

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾

فرضيَّة الصيام

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا﴾ حال من الكتب المحذوف المنصوب على المفعولية المطلقة، أي «كتب عليكم الصِّيام، الكتبَ ثابتاً كما»، أو نعت لمصدر محذوف أي: «كتِبَ كتباً كَمَا» أو «صوماً مماثلاً للصَّوم الذي كتب»، أو حال من الصيام، أو

---

١ - كذا في النسخ المعتمدة، و لم يتضح لنا معنى العبارة. تأمَّل.

نعت له لأنَّ «ال» فيه للجنس فهو كالنَّكرة، أو يقدَّر المتعلّق معرفة أي: «الثابت كما»، و«ما» اسم في ذلك، إلاَّ في الأوَّلين فمصدريَّة.

﴿**كُتِبَ عَلَى الذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**﴾ من الأنبياء وأممهم ولو تفاوت قدراً وزماناً، وقيل: لم يتفاوت من آدم إلى عهدكم، قال علي: «ما أخلى الله أمَّة مِن فَرضِ الصَّوم، فارغبُوا فيه وطيبُوا نفساً به واستسهلوه». والمشقَّة إذا عمَّت طابت. ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ المعاصي وما لا يَعْنِي فيه، لأنَّه يكسر النفس فَتَغْتَنِمُوا فيه، ويصفوا قلوبكم به لما بعدُ، قال ﷺ: «**يا معشرَ الشبابِ مَن اِستطاعَ مِنكم البَاءَةَ فليتزوَّجْ، فَإنَّهُ أغضُّ للبصرِ وأحصنُ للفرجِ، ومن لم يستَطِعْ فَعليهِ بالصومِ، فَإنَّ الصومَ لهُ وِجاءٌ**»[1]. أو تتَّقون التقصير فيه وإفساده، أو تركه يشير إلى أنَّ قِدمه وعمومَه من موجبات المحافظة عليه، فلا تكونوا بتركها أنقص من غيركم وأنتم أفضل الأمم ونبيئكم أفضل الأنبياء.

---

[1] - رواه **مسلم** في النكاح (١)، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤونة...، رقم (١) ١٤٠٠.

ورواه **أحمد** في مسنده، ج٢، ص١٤، رقم ٣٥٩٢.

ورواه **البيهقي** في الصيام (١١٤)، باب ما جاء في فضل الصوم...، رقم ٨٤٥٣، من حديث ابن مسعود.

(قصص) ويقال: كان على النصارى صوم رمضان فربَّما وقع في حرٍّ، وربَّما وقع في بردٍ فحوَّلوه للربيع، وزادُوا عشرين يوماً كفَّارة لتحويله، والمراد أنَّ غالبه في الربيع أمَّا أقلُّه ففي فبراير، فإنَّ أوَّل صومهم في ثامن فبراير فسبعة أيَّامٍ قبل الربيع، ويقال: ترك اليهود رمضان وصاموا يوما في السنة قالوا: أنَّه يوم غَرَقِ فرعَوْن، وزاد فيه النصارى يوماً قبله ويوماً بعده احتياطاً حتى بلغوا خمسين، فشق عليهم للحَرِّ والبردِ فنقلوه إلى زمان حلول الشمس في برج الحمل، فالمماثلة في قوله تعالى: ﴿كما كُتب﴾ مماثلة في الوجود والمقدار والزمان، وهو عين رمضان؛ وقيل: في أصل الوجوب؛ وقيل: زادوا عشرة كفارة للتحويل ثمَّ مرض ملكهم بأكل لحم فشفاه الله، فزاد خمسة، وقال آخر: أتمُّوه خمسين؛ وقيل: زادوا عشرين لموت أصاب مواشيهم؛ وقيل: لموتٍ أصاب أنفسهم.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ متعلّق بالصيام، أي كتب عليكم الصيام في أيَّام معدودات، أي كتب عليكم أنْ تصوموا في أيامٍ معدودات، ولا بأس بالفصل لقلَّته وظهور المعنى، وهو أولى من الحذف، ومن كل ما هو خلاف الأصل؛ أو يقدَّر: صوموا أياماً معدودات تقليلاً لها، أي هي دون أربعين على ما قيل من أنَّ المعتاد إذا ذكر لفظ العدد فالمراد ما دونها، وأيضاً من شأن القليل أنْ يعدَّ ومن شأن الكثير أنْ يُهَال، فيكون المعنى أياما مضبوطة بالعدِّ لا مجازفاً بها.

وكلٌّ من «أيَّام» و«معدودات» جمع قلَّة فلو شاء لقال: أيَّاماً معدودة، بإفراد معدودة، ولو شاء لقال: شهراً معدوداً، أو جملة معدودة، وفي ذلك تسهيل، أو لعلَّكم تتَّقون المكاره والمعاصي والكسل في أيام معدودات؛ أو يتعلَّق بضمير كتب الثاني لعوده للصيام عند الكوفيين، أي كما كتب على الذين من قبلكم أنْ يصوموا أياماً معدودات، أو بـ«كُتب» الأول أو الثاني لتضمُّنه معنى صوموا، أو المعنى: كُتب عليكم الصيام كتابة شبيهة بكتابته على من قبلكم في كونه في أيامٍ معدودات؛ وقيل: الأيَّام المعدودات يوم عاشوراء وثلاثة من كلِّ شهر ثم وجب رمضان دونهن؛ وقيل: لم يفرض قبله صوم؛ وقيل فرض قبله عاشوراء؛ وقيل: أيَّام البيض.

ولا يقال: لو أريد بهنَّ رمضان لكان ذكر المريض والمسافر تكرارا لأنَّا نقول: وجب الصوم على التخيير بينه وبين الفدية، ثمَّ وجب بلا تخيير فنبَّه على أنَّ رخصة السفر والمرض باقية وأيضاً المسافر والمريض ممَّن شهد الشهر.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُمْ﴾ معشر البالغين العقلاء الداخل عليهم رمضان، ﴿مَّرِيضًا﴾ مرضا يشقُّ معه الصوم بعض مشقَّةٍ، أو يضرُّه أو يتأخَّر معه برؤه أو يزيد به المرض، وذلك بالتجربة أو بإخبار الطبيب المسلم الحاذق لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ا للهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

(فقـه) فإذا كان الصوم يعسـر مـع مـرض حـلَّ الإفطار، لا كما قيل عن ابن سيرين أنَّه أفطر لوجع إصبعـه، ولا كمـا قال الشافعي: لا يفطر حتى يجهده الجهد الذي لا يحتمـل، وروي عـن مالك أنَّه يفطر صاحب الرمد الشـديد أو الصـداع المضـرِّ، وليـس بـه مرض يضجعه إنْ شاء، واحتجَّ من أباح الإفطار بالمرض ولـو لم يعسـر و لم تكن فيه مشقَّة بإطلاق الآية، وهو رواية عن الشـافعي، وهـو قـول ابن سيرين والحسن البصري، وبأنَّ السـفر قـد يخلـو عـن مشـقَّة وحـلَّ الإفطار فيه ولو بلا مشقَّة لأنَّه سبب لها، ويجاب بأنَّ الرخصة لم تتعلَّق بنفس المرض لتنوُّعه إلى ما يزاد بالصوم وإلى ما يخفُّ به، وما يخـفُّ بـه لا يكون مرخِّصًا البتَّة، فجعل ما يزاد به مرخصاً بخلاف السـفر لأنَّـه لا يعرى عن المشقَّة فجعل نفس السفر عذراً.

(فقـه) ﴿اَوْ عَلَى سَـفَرٍ﴾ ثابتـاً أو راكبـاً علـى سفر، ولو قصيراً بعد مجاوزة الفرسـخين ممَّـا استوطنه، ولـو لم يجـاوز الحوزة على التحقيق إنْ جاوزهما ليـلا فبـيَّت الإفطـار مـن الليـل، أو جاوزهما نهاراً فإذا جاء الليل بيَّت الإفطار؛ أو صام يومًـا في السـفر، فإذا جاء الليل بيَّت الإفطار، وإن أفطـر نهـارًا قبـل المجـاوزة أو بعدهـا نهارًا، أو بلا تبييـت فـلا كفَّـارة عليـه لشـبهة السـفر، ولشـبهة أقـوال العلماء فيه، حتَّى أنَّ منهم من أجاز أن يفطر من بيته.

وأمَّا المريض فيبيِّت الإفطار من الليل، وإنْ أفطر بلا تبييت لشبهة المرض فلا كفارة عليه، وإنْ اشتدَّ المرض بحيث لا يطيق الصوم وخاف على نفسه أو عضوه أفطر بقدر ما يصل به الليل، وقيل: أو بما شاء، فيبيِّت نيَّة الإفطار في الليل المستقبل، وزعم بعض قومنا أنَّه يفطر المريض بلا تبييت إفطار بخلاف المسافر، لقوله تعالى: ﴿أو على سفرٍ﴾ وليس بشيءٍ لقوله تعالى: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ (سورة محمَّد: ٣٣)، فليتمَّ المريض يومه إن قدر على إتمامه كالمسافر، والمسافر متمكِّن على السفر في أثناء اليوم كما تمكَّن عليه وقت طلوع الفجر.

وإنْ كان السَّفر لمعصية لم يجز له الإفطار على الصحيح، وعليه الأكثر، ويجب الإفطار إنْ كان الصوم يضرُّ المريض والمسافر وإلاَّ ولا مشقَّة فالصوم أفضل عند بعضٍ، والإفطار أفضل عند بعض، وأوجبته الإماميَّة وأخطأوا.

﴿فَعِدَّةٌ﴾ قدر ما أفطر بمعنى معدودة، كالطحن بمعنى المطحون، ﴿مِّنَ اَيَّامٍ اُخَرَ﴾ فعليه صوم عدَّة إنْ أفطر، أو يقدَّر: فأفطَرَ عقب قوله: ﴿أو على سفرٍ﴾، وكذلك عليه عدَّة الشهر إنْ أفطره كلَّه إنْ كان تسعة وعشرين قضى تسعة وعشرين فقط، ولو بدأ القضاء من أوَّل شهر وكان فيه ثلاثون فلا تهمُّ، فإنَّما عليه قضاء شهر رمضان الذي خوطب به، فإذا كان من تسعة وعشرين لم يزدد، والآية حجَّة

لي، وذَكَر بعض أصحابنا وشهَّروه وبعض قومنا أنَّه إنْ بدأ من أوَّل الشهر أتمَّه زاد على رمضان أم نقص، وبعض إنْ نقص أتمه، و «مِن» للبيان أو للتبعيض، أي عدَّة من جملة أيَّام، مثل أنْ يخصَّ أياما من شهرٍ كأوله ووسطه وآخره.

﴿وَعَلَى الذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ إنْ أفطروا في غير سفر، أو يقدَّر هذا بعد قوله: ﴿فِدْيَةُ طَعَامِ مَسَاكِينَ﴾ أي فدية هي طعام مساكين.

والجمع باعتبار الجمع في إفطاره بأنْ أفطر ثلاثة أيَّام فصاعداً، ولو أفطر يوماً لكان فدية طعام مسكين بالإفراد، أو يومين لكان طعام مسكينين.

(فقه) يكال لكلِّ مسكين مدَّان من بُرٍّ أو أربعة من غيره عند العراقيين، ومدًّا من برٍّ عند الحجازيِّين، ويجوز ذلك من غالب قوت البلد وأجيز مدَّان من شعير، ويجوز أنْ يأكل في بطنه حتَّى يشبع غداء وعشاء، وأجيز أكلة واحدة حتَّى يشبع، وإنْ لم يفطروا فلا فدية عليهم ثمَّ نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ أو بقوله: ﴿شهر رمضان الذي أنزل...﴾ إلخ، وبقوله: ﴿وأنْ تصوموا خير لكم﴾ وذلك تدريج لهم لمشقَّته إذ لم يتعوَّدوه ليتدرَّبوا، والنسخ بعد العمل هنا، ولو كان الصحيح أنَّه يجوز قبل العمل أيضاً، وحكمته قبل العمل قبول المنسوخ والإذعان له قبل

نسخه، فيثاب على ذلك وغيره ممَّا قرَّرته في أصول الفقه، وعن ابن عبَّاس كانوا يفطرون ويطعمون ولو أصبحوا على الصوم.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ عالج الطاعة بصوم أكثر من العدَّة التي أفطر فيها، أو بإطعام أكثر ممَّا لزمه، ﴿فَهُوَ﴾ أي الخير وهو صوم الزائد على العدَّة، أو على الإطعام الواجب، أو الضمير للتطوع. ﴿خَيْرٌ لَّهُ﴾ أفضل ثوابًا، فهو نفع له أخرويٌّ.

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإطعام والإفطار ولو مع زيادة على القدر الواجب في الإطعام، أو خير لكم من الإفطار والإطعام والزيادة فيه.

وإن قدَّرنا: لايطيقونه لنحو كبر من العلل اللازمة، أو الذين كانوا يطيقونه ثمَّ عجزوا لِكبر ونحوه من العلل اللازمة، مع ما فيهما من التكلُّف فلا نسخ؛ وقدَّر بعضهم: لا يطيقونه، أو كانوا يطيقونه شاملا لكبر ونحوه، وحمل ورضاع.

(فقه) إلاَّ أنَّ الحامل والمرضع تقضيان ولو أطعمتا، ولا إطعام على مريض يرجى برؤه، وأمَّا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ على إبقائه بلا تأويل بكانوا، ولا بـ«لا» فغير شامل للحامل والمرضع، لأنَّهما ولو تطيقان لكن خافتا على الحمل والرضيع، وتفطران وجوبًا وتطعمان وتقضيان، بخلاف الصحيح

المطيق فإنَّ إفطاره على التخيير بينه وبين الصوم ولا قضاء عليه، وذلك قبل النسخ، ومن عجز بعده على الصوم لكبر أو علَّة لازمة أفطر وأطعمَ، وقيل: لا إطعام عليه.

(فقه) وقال بعض: على الحامل والمرضع القضاء والإطعام إن خافتا على الولد، وإن خافتا عليهما فقط أو عليهما وعلى الولد فالقضاء فقط. وقال أبو حنيفة: لا إطعام على الحامل والمرضع لأنَّهما تقضيان بخلاف الكبير. وعن الحسن: أيُّ مرض أشدُّ من الحمل، تفطر الحامل وتقضي ولا تطعم، خافت على نفسها أو ولدها أو عليهما. ويقال: الصوم خير لمن تطوَّع به وهو مريض أو مسافر مع عدم شدَّة المشقَّة، وأمَّا معها فالإفطار خير. والمطيق بحسب الأصل: اسم القادر على الشيء مع شدَّة، فتشمل الآية الكبير بلا تقدير "لا" وبلا تقدير "كانوا".

﴿إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يظهر لكم أنَّه خير إن كنتم من أهل العلم، وإن كنتم تعلمون ثوابه وحُسن براءة الذمَّة اخترتموه، أو فافعلوه.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ إضافة عامٍّ لخاصٍّ، كشجر أراك، وهي للبيان، أي شهر هو رمضان، فيجوز ذكر رمضان بلا شهر، وليس اسمًا لله كما ادَّعى من زعم أنَّه مرويٌّ. والمعنى كتب عليكم الصيام، صيام

شهر رمضان ﴿الذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْءَانُ﴾ أو تلكم الأيـّام المعدودات ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الذِي أُنْزِل...﴾ إلخ. أو شهر رمضان، الشهر الذي أنزل فيه القرآن بمرَّة كلُّه إلى السماء الدنيا.

(لغة) والشهر من شَهرتُ الشيء: أظهرتُه، لأنَّ الشهور تُعيَّن للعبادة أو للمعاملة. ورمضان من الرمض بإسكان الميم، وهو مطر يأتي قبل الخريف يزيل الغبار عن وجه الأرض، فكذلك صومه يزيل الذنوب؛ وقيل: سمِّي لارتماضهم فيه عامًّا بالجوع والعطش؛ أو لوقوعه أيـّام رمَض، أي شدَّة حرٍّ، فسمِّي بعدُ، ولو لم يكن جوع أو عطش أو حرٌّ؛ أو لاحتراق الذنوب، إلاَّ أنَّ هذا يناسب النزول لا ما قبله، ولا بأس، بل هو المرويُّ عنه ﷺ، أو لمرض الفصال.

قيل: نقلت أسماء الشهور على أسمائها الأولى دفعة، وقيل: تدريجًا، واختير الأوَّل، ووجه الثاني: أنَّهم حفظوا لكلِّ شهر ما وقع فيه، ولـمَّا تمَّت اتُّفق أنَّهم سمَّوها لتحريم القتال في المحرَّم، وخلوِّ مكَّة عن أهلها في صفر للحرب، وارتباع الناس في الربيعين، وجمود الماء في الجمادين، وشوال أذناب اللقاح في شوَّال، ورجب الناس شجرهم بالعمد لعظم حملها، وتعظيمهم ــ ولو في الجاهليَّة ــ رجبًا، حتَّى أنَّهم يحجُّون فيها كما في ذي الحجَّة، والرجب التعظيم؛ وقعودهم

عن الحرب في ذي القعدة، وحجُّهم من قبْل الإسلام في ذي الحجَّة أصالة، وتشعُّب القبائل في شعبان.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ حال كونه هاديًا، وإسناد الهداية إليه مجاز عقليٌّ، ولولا قوله: ﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾ لكان مفعولا من أجله، أي وآيات واضحات، والهدى أعمُّ لأنَّه يكون بواضح وخفيٍّ. ﴿مِّنَ الْهُدَى﴾ مِمَّا يهدي إلى الحقِّ ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ ومن الفرقان، مِمَّا يفرق بين الحقِّ والباطل. الهدى الأوَّل هداية حاصلة بإعجازه، والهدى الثاني هو الهدى الحاصل باشتماله على الحقِّ، والتفريق بينه وبين الباطل لما فيه من أنواع الحكمة وأمور الدين، من واجب وحرام ومستحبٍّ؛ أو الأولى: الآداب والديانات الاعتقاديَّة، والثانية أمور الدين؛ أو الأولى الاعتقادات، والثانية باقي ما ذكر، فلا تكرير.

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ﴾ المذكورَ، أي حضره بالغًا عاقلا صحيحًا قادرًا غير مسافر، رأى الهلال هو أو غيره، أو استكمل العدَّة لشعبان. وليس الشهر مرادًا به الهلال، فسمِّي أوَّل الشهر باسم كلِّه، أو يقدَّر مضاف. قال ابن عبَّاس وعليٌّ وابن عمر: من شهد أوَّل الشهر فليصمه جميعَه ولا يفطر، ولو سافر، ولذلك قال الله جلَّ وعلا: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ ولم يقل: فليصم فيه.

(فقه) والصحيح أنَّ لمن شهد أوَّله أن يسافر

ويفطر، والآية لا تمنع ذلك بل توجب الصوم على حاضره ما لم يكن مريضًا أو مسافرًا؛ ولو جُنَّ في باقيه حتَّى انسلخ فإنَّه يقضي، أو جنَّ قبله وأفاق فيه فإنَّه يقضي ما مضى، وقيل: لا يقضيان بناء على أنَّ كلَّ يوم فرض، وإن جنَّ قبله وأفاق بعده فلا قضاء عليه لأنَّه لم يشهده.

﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا اَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنَ اَيَّامٍ اُخَرَ﴾ كرَّره لئلاَّ يتوهَّم أنَّهما داخلان فيمن شهد المعبَّر به هنا دون ما مضى، ولئلاَّ يتوهَّم نسخ قوله أوَّلاً ﴿فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَّرِيضًا...﴾ إلخ بقوله هنا: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ بأن يجب الصوم على المريض والمسافر مع أنَّه ليس كذلك، كما نسخ: ﴿وَعَلَى الذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾.

﴿يُرِيدُ ا للهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ في دينه، أي يشرِّعه، وهو مراد أبي حيَّان إذ فسَّر الإرادة بالطلب، قال: ذلك خروجًا عن تبدُّل الإرادة، فإنَّ إرادة ا لله لا تتبدَّل، وذلك منه خروج عن مذهب الاعتزال، إذ زعمت المعتزلة أنَّ إرادته تعالى قد يخالفها العبد وتبطل. ﴿وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ ومن ذلك أنَّه أباح الإفطار في المرض والسفر دائمًا، وخيَّر بين الصوم والإطعام أوَّلاً، تسهيلاً أو تأنيسًا ثمَّ نسخ لَمَّا تدرَّبتم فتوفَّر لكم الأجر.

﴿وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ﴾ اللام ليست للأمر بإكمال ما أفطرتم فيه، أو بإكمال عدَّة رمضان ثلاثين أو تسعة وعشرين، بل للتعليل عطفًا على المعنى، كعطف التوهُّم في غير القرآن، لأنَّ قوله: ﴿يُرِيدُ﴾ في معنى العلَّة للأمر

بالصوم، وكذا قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ﴾ ولا تكون لام الأمر، لأنَّ أمْرَ المخاطب باللام يختصُّ بالضرورة أوشاذٌّ أو لغية[1]. ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي ولتُثنوا عليه لأجل هدايته إيَّاكم لدينه، أو تثنوا عليه حامدين عليها، والتكبير للتعظيم والثناء؛ وقيل: تكبير العيد من المغرب إلى صلاة العيد؛ وقيل: تكبير رؤية الهلال. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على التيسير والترخيص. ويجوز أن يكون المعنى: فصوموا عدَّة أيَّام أخر لتكملوا العدَّة التي لم يصم المريض والمسافر في مثل تلك العدَّة، وهداكم...

(فقه) كيفية القضاء متتابعًا كما دلَّ له لفظ عدَّة، كأنَّه قيل: مجموعة بِنِيَّة من الليل نية واحدة له، لتكبِّروا الله على إرشادكم إلى الحقِّ، ولاسيما القضاء المطلق، ورخَّص في الإفطار للمسافر والمريض وحامل ومرضع، لكي تشكروا؛ أو العطف على محذوف، أي ليسهِّل، ولتكملوا، أو لتعلموا ما تعملون، ولتكملوا.

(أصول الدين) ولا يخفى أنَّ أمر الله ونهيه يتخلَّفان، يأمر المكَلَّفَ ولا يمتثل، وينهاه ولا ينتهي، وإرادته لا تتخلَّف كما قال أبو حيَّان ردًّا منه على المعتزلة، فلا يجوز العطف على اليسر بزيادة اللام، هكذا ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ وتكميل العدَّة، فقد لا يكملها ولا يكبِّر الله،

---

١ - كذا في النسخ المعتمدة.

وقد قضى الله بالتكبير والتكميل، هذا باطل لا يصحُّ، إلاَّ أن يتكلَّف بتأويل الإرادة هنا بالأمر، وصائم رمضان يثاب على ثلاثين يومًا ولو نقص الشهر، لأنَّه نوى إن تمَّ صامه تامًّا.

(سبب النزول) قالت جماعة من العرب، أو أعرابيٌّ لرسول الله ﷺ: أقريب ربُّنا فنناجيه ـ أي ندعوه سرًّا ـ أم بعيد فنناديه؟ ـ أي نجهر ـ، فنزل قوله تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

أحكام الصيام

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ بعلمي بهم، ونفعي

لهم، وإجابة دعائهم، وبأحوالهم، والله قريب سأل العباد عنه أم لم يسألوا، ولكن المعنى: وإذا سألك عبادي عنّي فقل لهم عنّي إنّي قريب؛ سألوه عن القرب والبعد الحسّيْن، لأنَّهم حديثوا عهد بالإسلام، ولاسيما إذا قلنا: إنَّ السائل أعرابيٌّ، فإنَّ البدويَّ كثير الجهل، **وأجابهم بأنَّه قريب قربًا معنويًّا**، ويحتمل أنَّهم مشركون سألوه عن القرب والبعد حسًّا فأجابهم بالقرب المعنويِّ، ولا يبعده قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ لأنَّه يحبِّب الإسلام إلى المشركين بهذا وبما هو أعظم، فليس كما قيل: إنَّ قوله: ﴿عِبَادِي﴾ وقولهم فنناجيه يبعد كون السائلين مشركين.

وقيل: سألوه عن القرب والبعد المعنويين وهم مسلمون، ورجَّحه بعض، وهما قرب الإجابة وبعدها، وإذا قلنا: السائل واحد فالجمع لكون الحكم يعمُّ السائل وغيره، والسؤال لا يختصُّ به، وربَّما سأل غيره، ولذا قال: «إِذَا» مع انَّه قد وقع السؤال من واحد أو جماعة، ويجوز أن تكون «إذا» لتنزيل حال النزول منزلة ما تقدَّم عن السؤال. **﴿أُجِيبُ﴾** بإعطاء المطلوب **﴿دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي﴾** تفسير للقرب المذكور في الآية خصوصًا، وإن أريد به عموم أنَّه عالم فهذا تقرير له، وعلى الوجهين هو وعد بالإجابة، ولا يشكل تخلُّفها لحكمة، فقد تتخلَّف مطلقًا، وقد تتخلَّف إلى بدل. قال ﷺ: «**ما من مسلمٍ يدعو بدعوةٍ ليسَ فيها إثم ولا قطيعةُ رحمٍ إلاَّ أعطاهُ الله تبارك**

وتعالى إحدَى ثلاثٍ: إمَّا أن يُعجِّل دعوتَه، وإمَّا أن يدَّخر له، وإمَّا أن يكفَّ عنه مِن السوءِ مثلَها»[١].

﴿**فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي**﴾ بالطاعة كما أجيب دعاءهم، أو ليطلبوا إجابتي، ﴿**وَلْيُؤْمِنُواْ بِي**﴾ إن كانوا مشركين، وليدوموا على الإيمان إن كانوا موحِّدين؛ وقيل: الاستجابة بعمل الجوارح كما فسَّرته، والإيمان بالقلب. ﴿**لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ يهتدون إلى مصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة.

﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ**﴾ حقيقة ليالي الصوم، وأضيفت للصوم مع أنَّه لا صوم في الليل بل في النهار لاتِّصالها بنهارها بعدها، ولأنَّ نية الصوم في الليل، أو باعتبار ما قبل نزول هذه الآية من وجوب صوم ما بقي من الليل بعد صلاة العشاء، أو النوم، وهو متعلِّق بقوله: ﴿**الرَّفَثُ**﴾ ولو كان منحلاًّ إلى حرف المصدر والفعل للتوسُّع في الظروف لا بـ«أُحِلَّ» لأنَّ نزول الإحلال ليس في ليلة رفث مخصوصة، ولا كلِّ ليلة رفث، إلاَّ بتأويل: أثبت لكم كلَّ ليلة الرفث، أي يوقع ثبوته في كلِّ ليلة، وهو بمعنى الجماع، وعدِّي بإلى كما قال: ﴿**إِلَى**

---

١ - رواه **أحمد** في مسنده، ج٤، ص٣٧، رقم ١١١٣٣، من حديث أبي سعيد.

ورواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء (٢٥)، باب بيان أنَّه يستجاب للداعي ما لم يعجِّل، رقم ٩٢، بالاقتصار على السطر الأوَّل منه، من حديث أبي هريرة.

﴿نِسَآئِكُمْ﴾ لتضمُّنه معنى الإفضاء المستعمل مع النساء غالبًا بمعنى الجماع، وهو جمع نسوة، أو لا مفرد له، يقال: أفضى إلى امرأته أي جامعها، قال: ﴿وَقَدَ اَفْضَى بعضُكُمْ, إلى بعضٍ﴾.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ يمنع كلٌّ من الزوجين الآخر من الزنى بالفرج والعين والقلب واللسان واليد والرجل والإمناء باليد، بكونه فيه كفاية للآخر، كما يمنع الثوب انكشاف العورة، ويقيه من حرِّ جهنَّم وبردها كما يمنع الثوب الحرَّ والبرد عن البدن، ويحتاج كلٌّ للآخر كما يحتاج للثوب، ويخالط كلٌّ الآخر بالالتصاق كالثوب مع البدن. قال ﷺ: «**من تزوَّج فقد أحرز ثلثي دينه**»[1]. وقدَّم كونهنَّ لباسًا لأنَّهم أشدُّ احتياجًا إليهنَّ، لأنَّهم أقلُّ صبرًا عن الجماع منهنَّ، وهنَّ أشدُّ حبًّا للجماع إلاَّ أنَّهنَّ أكثر صبرًا وأشدُّ حياء. قال ﷺ: «**لا خيرَ في النساءِ، ولا صبرَ عنهنَّ، يغلِبن كريمًا، ويغلِبُهنَّ لئيم، وأُحبُّ أن أكون كريمًا مغلوبًا، ولا أحبُّ أن أكون لئيمًا غالبًا**»[2].

﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ﴾ أَوْكَدُ من تخونون، لأنَّ من

---

١ - أورده **الهيثمي في مجمع الزوائد**، ج٤، ص٢٥٥، من حديث أنس بما يقرب معناه.
ورواه **الطبراني** كذلك في **الأوسط**، ج١، ص١٦٢، رقم ١، من حديث أنس.
وذكر **الألوسي** في **تفسيره** أنَّه خبر وليس بحديث.

٢ - لم نقف على تخريجه.

معاني "افتعل" العلاج والمبالغة، ولكثرة الحروف، والمعنى: تعرضون للعقاب وحرمان الثواب. ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بالجماع بعد النوم أو بعد صلاة العشاء، وقد حرِّم ذلك ليلة الصوم، والمعنى: تختانون أنفسكم في الجملة طبعًا لا في خصوص الجماع وقت تحريمه، بل هذا داخل في الجملة، ولهذا قال: ﴿كُنتُمْ﴾، ويحتمل أن يريد خصوص ذلك الجماع، أخبر الله بعد وقوعه أنَّه عالم به حين كان.

(سبب النزول) وذلك أنَّ عمر وكعب بن مالك وغيرهما جامعوا وقت لا يجوز، وهو ما بعد أن ينام، فإذا نام حرم عليه الجماع والأكل والشرب إلى الليلة التي بعد، وقد سَمر عمر عنده ﷺ، ووجد رائحة طيِّبة عند زوجه، وقالت: قد نمتُ، وقال: ما نمتِ، واعتذروا للنبيء ﷺ، فنزل ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ...﴾ الآية.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ إذْ تبتم من هذه الكبيرة، أو تبتم فتاب عليكم، أي قبل توبتكم، قال عمر: يا رسول الله، أعتذر إلى الله وإليك من هذه الخطيئة، إنِّي رجعت إلى أهلي بعدما صلَّيت العشاء، فوجدت رائحة طيِّبة، فسوَّلت لي نفسي فجامعتها، وهذه توبة، وكلُّهم تابوا. ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أزال العقاب كما تعفو الريح الأثر، أي تزيله؛ أو تاب عليكم: أزال التحريم، وعفا: غفر لكم ما فعلتم. ﴿فَالآنَ﴾ اسم الإشارة، ظرف زمان مبنيٌّ موضوع على «ألْ»؛ وقيل:

"أَلْ" للحضور، وهي المفيدة له، ويقال: أصله: آن، فعلاً ماضيًا بمعنى حضر، ثمَّ جعل اسمًا وهو ظرف بمعنى الزمان الحاضر إلى قيام الساعة، أي باشروهنَّ في الزمان كلِّه متى شئتم بعدما أبحت لكم، فصحَّ أن يعلَّق بقوله:

﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ فليس اسمًا لوقت النزول فقط، لأنَّ وقت النزول انقطع والأمر لِـمَا بعد، أو يقال معنى باشروهنَّ، أبحنا لكم مباشرتهنَّ بعد الحضر، فيكون الآن لوقت النزول على هذا الوجه. وعبَّر هنا بالمباشرة عن الجماع، وهنالك بالرفث لأنَّه هنا حلال بخلافه هنالك فإنَّه فعل محرَّم قبيح، وسمِّي مباشرة لأنَّ فيه إلصاق البشرة أي الجلدة بالجلدة غالبًا، بل لو لم يكن إلاَّ فرج في فرج، ففيه مسٌّ جلد الفرج بجلد الفرج. ﴿وَابْتَغُواْ﴾ اطلبوا ﴿مَا كَتَبَ﴾ في اللوح المحفوظ أو قدَّره ﴿ا للهُ لَكُمْ﴾ معشر المسلمين من الولد إجمالاً، إذ ليس لكلٍّ فرد ولد، بل الولد لبعض دون بعض، فتعبَّدهم بأن يطلب كلٌّ واحد ولدًا، ويرجو أن يكون مِمَّن قدِّر له ولد فيثاب على الدعاء، وعلى أنَّه كان له ولد مطيع لله نافع له بعد موته مثلا لنيته، أوالمعنى دونكم وما أباح لكم من الجماع، وخذوا منه ما شئتم، أو ذلك كلَّه.

(فقه) وهكذا يكون الجماع بقصد تحصين النفس عن الزنى، وبقصد طلب ولد مسلم لا اللذَّة وحدها كالبهيمة، فتضمَّنت الآية

النهي عن الجماع في الدبر إذ لا ولد منه، والنهي عن العزل وهو صبٌّ الماء خارجًا هربًا عن الولد، ولا يعزل عن الحرَّة إلاَّ بإذنها خلافًا لمن أجازه، ولاسيما من أجازه عند فساد الزمان، وجاز عن الأمة المتزوِّجة بإذن مالكها، وقيل: بإذنها، وعن السريَّة بلا إذن، ولفظ «ما» لعموم الجماع والولد، وإن كان للولد فلأنَّ النطفة وما قبل نفخ الروح غير عاقل.

﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ﴾ الليل كلَّه متى شئتم، لا ما قبل صلاة العشاء أو النوم فقط.

(فقه) والأكل واجب كما إذا خيف الموت بالجوع، أو مضرَّة في بدنه أو للحمل، وجائز إذا جاع دون ذلك، وحرام كأكل الحرام والميتة، والأكل على الشبع، إلاَّ لعق الأصابع والصحفة فإنَّه جائز على الشبع، وإلاَّ ماءَ زمزم، ومكروه كَريبةٍ في طعام من جهة المعاملة، وفي نفسه كالحيوان المكروه، ومستحبٌّ كأكل الحلو عند الإفطار في المغرب، والإفطار به صبح عيد الفطر، والإفطار ضحًى بزيادة الكبد.

﴿حَتَّى﴾ غاية للأكل والشرب لا لهما وللجماع، لقوله ﷺ: «**مَن أصبحَ جُنبًا أصبحَ مُفْطِرًا**»[1] فيجب الكفُّ عنه إذا لم يبق ما يتطهَّر فيه.

---

١ - رواه **الربيع بن حبيب في الجامع**، كتاب الصوم (٥١)، باب ما يفطر الصائم، رقم ٣١٥، من حديث أبي هريرة.

ورواه **مالك في الموطأ**، كتاب الصيام، باب ما جاء في صيام الذي يصبح جنبا في =

﴿يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الاَبْيَضُ﴾ الضياء الشبيه بالخيط الأبيض ﴿مِنَ الْخَيْطِ الاَسْوَدِ﴾ من بقيَّة الليل السواد الشبيه بالخيط الأسود، متعلّق بـ«يَتَبَيَّنَ». ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ حال من الخيط الأبيض، و«مِنْ» للبيان، كأنَّه قيل: والخيط الأبيض هو الفجر، أو للتبعيض اعتبارًا لكون الفجر اسمًا للكلِّ والبعض فإن أريد به الكلُّ فتبعيضيَّة، وإن أريد به الجزء فبيانيَّة، كما أنَّه إذا قلنا: اسم لكلّه، فإنَّها بيانيَّة لتقدير مضاف، أي وهو بعض الفجر، ولم يبيِّن الخيط الأسود بقوله: من بقيَّة الليل، أو قوله من الغبش اكتفاءً ببيان الخيط الأبيض لأنَّ بيانه بيان له، ولم يعكس لأنَّ غالب أحكام الصوم من حرمة المباشرة والأكل والشرب مرتبطة بالفجر لا بالليل، وبيان الشيء بيان لضدِّه.

والمراد بالخيط الأسود طرف الظلمة المتَّصل بالفجر، فلا يشكل اتِّساع الظلمة حتَّى يكون كخيط، أو سمَّاها كلَّها خيطًا لمشاكلة ما هو كخيط، وهو الفجر.

(فقه) ومعلوم أنَّ الله لا يأمر الناس بأكل التراب وغير المغذّي إلاَّ ما كان دواء، وأكل التراب حرام، فيلتحق به ما أشبهه، فليس الله يقول لنا: كلوا التراب وغيره حتَّى يتبيَّن لكم... إلخ، فليس ما لا يغذّي مفطرًا للصائم، لأنَّه لم يدخل في الآية، هذا قلته من جانب من يقول:

=

رمضان، رقم ٦٤٤، عن أبي هريرة.

لا يفطر إلاَّ المغذِّي، ولم أر من ذكر مثله، **ومشهور المذهب خلافه.**

﴿**ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ**﴾ من الفجر ﴿**إِلَى اللَّيْلِ**﴾ والأمر للوجوب ولو في صوم النفل لوجوب الوفاء وتحريم إبطال العمل، إلاَّ ما أجازه الشرع، كما إذا استثنى من الليل، أو اعترض له أخوه في الله بالإفطار فيما يقال، وفي الآية نفي الوصال.

(سبب النزول) نزلت الآية في صرمة بن قيس، صنعت له زوجه طعامًا فأخذه النوم من شدَّة تعبه في أرضه نهارًا فأيقظته، فامتنع من الأكل بعد النوم، ففي نصف النهار من الليلة غُشِيَ عليه، ولـمَّا أفاق أتى النبيء ﷺ فأخبره، فنزلت، وكان رجال يربطون في أرجلهم الخيط الأبيض والخيط الأسود ويأكلون حتَّى يمتازا، وذلك قبل أن ينزل: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾، وكذا جعل عديٌّ رضي الله عنه عقالاً أبيض وعقالاً أسود في وسادته، وجعل ينظر ولا يتبيَّن له الأمر فغدا إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: **«إنَّ وسادَكَ لَعَرِيضٌ ـ أو إنَّك لعَرِيضُ القفا ـ ذلك سوادُ الليلِ وبياضُ النهارِ»**[١]. ثمَّ نزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ كما فهمه ﷺ، أونزلت قبل إخباره.

ولا تلتبس الآية بالفجر الكاذب لأنَّه يعقبه سواد، ولأنَّ معه

---

١ - رواه **مسلم** في كتاب الصيام (٨)، باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر، رقم ٣٣ (١٠٩١)، من حديث عدي بن حاتم.

خيطان أسودان لا واحد، وليس في الآية تأخير البيان عن وقت الحاجة لأنَّ الآية موكولة إلى الفهم، فيفهم من الفجر قبل نزوله ولو لم يفهمه بعض. وقيل: نزل ذلك قبل رمضان، ففيه تأخير البيان عن وقت الخطاب لا عن وقت الحاجة وهو جائز، ولكنَّ نزولها قبل رمضان لم يصحَّ. ولا يقال: الآية خطاب بظاهرها من نحو العقالين ثمَّ نسخ ذلك الحكم بقوله: ﴿من الفجرِ﴾ لأنَّ قوله من الفجر نزل مع ما قبله بمرَّة، ولأنَّ الخطاب على المجاز وهو واجب، ولو لم يتفطَّن له نحو عديٍّ.

﴿**وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ**﴾ أي مقيمون فيما إذا اعتكفتم فيها فلا جماع ليلاً أيضًا كما لا جماع نهارًا، لا في بيوتكم ولا في المساجد.

(فقه) سواء اعتكفتم بالصوم، وهو واجب في الاعتكاف ــ ولو في غير رمضان، وهو مذهبنا ــ أم بغير صوم في غير رمضان. ويجوز الاعتكاف في كلِّ مسجد لهذه الآية، وأفضلها ما فيه الجماعة والجمعة والأذان، وخصَّه بعض بما فيه ذلك، وبعض بالمساجد الثلاثة، وبعض بالمسجد الحرام ومسجد المدينة، وبعض بالمسجد الحرام، ولا يصحُّ اعتكاف دون ثلاثة أيَّام، ولا اعتكاف بلا صوم؛ وأجيز يوم ولو بلا صوم، لما روي

عنه ﷺ: «**ليس على المعتكف صيام، إلاَّ أن يجعله على نفسه**»(١)، ويفسد بالجماع.

﴿**تِلْكَ**﴾ الأحكام من المباشرة في الاعتكاف والوطء بلا ابتغاء بل لقصد اللذَّة، والأكل والشرب بعد الفجر. ﴿**حُدُودُ اللهِ**﴾ حدَّها لعباده ليقفوا عندها. ﴿**فَلاَ تَقْرَبُوهَا**﴾ لا تفعلوها ﴿**كَذَالِكَ**﴾ أي كما بيَّن لكم تلك الأحكام ﴿**يُبَيِّنُ اللهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ**﴾ المراد الآيات مطلقًا، أو الآيات الدالَّة على الأحكام كما يدلُّ له قوله تعالى: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ المحرَّماتِ من ترك المفروضات، وفعل الممنوعات.

﴿**وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨**﴾

أكل الأموال بالباطل

﴿**وَلاَ تَاكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ**﴾ أي لا يأكلْ بعضكم مال بعض لقوله: أموالكم، إذ لا يُنهى الإنسان عن أكل ماله، ولقوله: ﴿**بَيْنَكُمْ**﴾ ثابتة

١ - رواه البيهقي في الصيام ١٤٢، باب من رأى الاعتكاف بغير صوم، رقم ٨٥٨٧، من حديث ابن عبَّاس.

بينكم، معتبرة بأخذك منه وبأخذه منك، ﴿بِالبَاطِلِ﴾ الوجه الباطل، وهو الطريق الذي يبطل، أي لا يجيز العقل الصحيح استعماله ولا الشرع، أو يجيزه ولا يجيزه الشرع كالرشوة والربا، وما يؤخذ على الزنى أو الكهانة، وكالسرقة والقمار والغصب، والتطفيف وأجرة الغناء وثمن الخمر والملاهي، وشهادة الزور والخيانة في الأمانة، والمراد بالأكل الأخذ ولو بلا إتلاف، لأنَّ حبس المال عن مالكه بلا حقٍّ حرام، فيدخل الإتلاف بالأكل في البطن، وإعطاؤها وإفسادها بالأولى، وإذا أكل بعضهم مال الآخر و لم يأكل الآخر ماله فقد دخل في الآية، لأنَّ كلَّ واحد نهي أن يأكل مال الآخر، وهذا معنى الآية، وإن قلنا معناها: جمع الأكْليْنِ أن تأكل ماله ويأكل مالك، فأكل أحدهما مال الأخر دون أن يأكل الآخر ماله مستفاد من النصِّ.

﴿وَتُدْلُواْ بِهَا﴾ تلقوها، والباء صلة للتأكيد وللسببيَّة، أي لا تتوصَّلوا بها إلى الحكَّام، أو للآلة، والعطف على «تأكلوا» أي: ولا تدلوا، أوالفعل منصوب والواو للمعيَّة، والأوَّل أولى لأنَّه صريح في النهي عن كلٍّ من الأكل والإدلاء. ﴿إِلَى الْحُكَّامِ﴾[1] أي: ولا تدلوا بحكومتها بظاهر الأمر أو بحكم الجور، فحُذف المضاف، ويدلُّ لذلك قوله: ﴿إِلَى الْحُكَّامِ﴾، إذ لا معنى لإلقائها إليهم، وإنَّما المراد الترافع

---

١ - في نسخة ج زيادة: عطف على لا تاكلوا.

بها إليهم بخصام الفجور ليأخذها أو بعضَها، أو يثقل الخصامُ على صاحبها فيتركها، أو لا تلقوها رشوة إليهم، وأصل الإدلاء: إرسال الدلو في البئر، ثمَّ استعمل لمطلق التوصُّل إلى الشيء ﴿لِتَاكُلُواْ﴾ لتأخذوا ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة، هي كلُّ ما خاصم فيه أو بعضه، وعلى كلِّ حال هي من أموال الناس كما قال﴿مِنَ اَمْوَالِ النَّاسِ بِالاِثْمِ﴾ بسبب الإثم، فيتعلَّق بـ«تاكلوا»، أو معه فيتعلَّق بمحذوف حال من الواو، والإثم هو نفس شهادة الزور، واليمين الكاذبة، فإنَّ شهادة الزور إثم لشاهدها، ولا يحلُّ للمشهود له الأكل بها ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّه لا حقَّ لكم في ذلك ودعواكم باطلة، وارتكاب الشيء مع عدم العلم بأنَّه معصية قبيح، ومع العلم أقبح.

(فقه) وفي الآية أنَّ حكم الحاكم لا يُحلُّ باطلا، وقد قال ﷺ: «إنَّما أنا بشر مثلُكم، وإنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكم يكون ألحَنَ بحجَّته من بعضٍ، فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حقِّ أخيه، فلا يأخذنَّه فإنَّما أقطع له قطعة من نار»[1]. وعنه ﷺ: «من حكمت له بحقِّ صاحبه فإنَّما أجذوا

---

١ - رواه **الربيع في الجامع**، كتاب الأحكام، رقم ٥٨٨.

ورواه **البيهقي** في آداب القاضي (٦١)، باب من قال ليس للقاضي أن يقضي بعلمه، رقم ٢٠٥٠٢، من حديث أم سلمة. ورواه **الطبراني**، ج٢٣، ص٣٨٢، رقم ٨٠٣.

له جَذوة من نار».

(سبب النزول) نزلت الآية في شأن أرض في يد امرئ القيس الكندي، ـــ من كندة بن ثور، قبيلة من اليمن، يدَّعيها عَبْد الحضرميُّ، ـ وفي رواية ربيعة بن عبدان الحضرميُّ ـــ ولا بيِّنة له، فحكم ﷺ على امرئ القيس باليمين، فأراد أن يحلف، فقرأ ﷺ: ﴿إنَّ الذين يشتَرُونَ بِعهْدِ اللهِ وأيْمانِهم ثمناً قليلاً...﴾ الآية (سورة آل عمران: ٧٧)، فترك اليمين، فسلَّم الأرض إلى عبدان، وأرضًا أخرى مكان ما أكل من غلَّتها، وذلك هو الحقُّ.

وعن أبي حنيفة حكم الحاكم نافذ ظاهرًا وباطنًا، فهو كعقد عقده، ولعلَّه لا يصحُّ عنه ذلك إلاَّ حيث لا يصل المحكوم له إلى إدراك ذلك، وإلاَّ كان ذلك منه تحنُّفًا عن الحقِّ إلى الضلال. وأمَّا ما روي عن عليٍّ أنَّ رجلاً خطب امرأة هو دونها فأبت، فأقام شاهدين، فقال: قد زوَّجك الشاهدان، فمعناه أنَّك زوجه في الحكم الظاهر لشهادة الشاهدين، والغيب لله سبحانه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

التوقيت بالشهر القمريّ وحقيقة البرّ

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يامحمَّد ﴿عَنِ الاَهِلَّةِ﴾ السائل: معاذ بن جبل، وثعلبة بن غنم؛ فالجمع لأنَّ أقلّ الجمع اثنان، أو مجازًا، أو لأنَّهما من قوم رضوا هذا السؤال، أو حكم على المجموع، قالا: يارسول الله، يطلع دقيقًا ثمَّ ينمو حتَّى يكمل، ثمَّ ينقص حتَّى يكون على حال طلوعه أوَّلا ويذهب، لِمَ لَمْ يكن كالشمس بحال واحدة؟.

(لغة) وسمِّي هلالاً لأنَّه يرفع الصوت عند طلوعه أوَّلاً، ورفع الصوت إهلال، وهو هلال في الأولى أو في الثانية أيضًا أو في الثالثة معهما، أو هو هلال حتَّى يحجز بخطٍّ دقيق كما قال الأصمعيُّ، أو حتَّى يبهر ضوؤه سوادَ الليل، وغيَّا بعضهم ذلك بسبع ليال، قيل: وكذا في آخره هو هلال، ولا يصحُّ، وبين ذلك قمر، والمراد هنا مطلق هذا الكوكب كما رأيت في السؤال، يسمَّى قمرًا مطلقًا مجازًا أو اشتراكًا.

وأمَّا جمع الهلال مع أنَّه واحد فباعتبار ليالي طلوعه، والسؤال لم يختصَّ بهلال دون آخر، والمضارع لإمكان تكرير السؤال، أو لتنزيل الماضي منزلة الحاضر، أو الماضي منزلة المستقبل، أو تنزيل حالة النزول منزلة ما قبل السؤال، وقيل: إنَّ السؤال من اليهود للصحابة يعتبر أنَّ سؤال الصحابة سؤال للنبيء ﷺ، لأنَّهم مستفيدون منه وسائلون له في كلِّ ما أرادوا.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ لأمورهم الدنيويَّة والدينيَّة، كأجل الدين، والإجارة والعدَّة والحيض والصوم والحجِّ، وقد ذكره الله، وليس من ذلك المزارع لأنَّها بسير الشمس وشهورها. وهذا جواب على مقتضى الظاهر؛ سألوا عن الحكمة في اختلاف تشكُّل القمر، فقال: حكمته أنَّه مواقيت للناس، إذ لو بقي على شكل واحد لم تتعدَّد الأشهر، وإن كان سؤالهم عن السبب في ذاته.

كان الجواب على خلاف مقتضى الظاهر إرشادًا لهم بأنَّ الأليق أن يسألوا عن الحكمة، **والنبيء ﷺ لم يبعثه الله لدقائق علم الهيئة بل للشرعيات**، ولو أجابهم بالسبب لقال: ذلك لِقُرْبِهِ من الشمس وبعده، ولا بأس به لظهوره، ولا تأباه الشريعة، إلاَّ أن تقول الشريعة: لا تجزموا بذلك، بل قولوه على الظنِّ، أو بأنَّ الله جعله سببًا لتولُّد ما يتولَّد، والله هو الخالق كما يخلق النبات بالماء، لكن لا دليل على هذا، وإنَّما ظهر بعضه في الشمس، والميقات آلة الحدِّ قياسًا، فذلك آلة ما يعرف بها الوقت، أو مكانه شذوذًا.

﴿وَالْحَجِّ﴾ عطف على الناس باعتبار مضاف، أي: لأغراض الناس وللحجِّ.

(فقه) فذكْر الحجِّ بعد تعميم لمزيَّته في التوقيت، إذ الوقت أشدُّ لزوماً له، إذ لا يقضى إلاَّ في وقت أدائه من قابل أو بعده، وسائر العبادات تقضى في كلِّ وقت حتَّى سائر الأوقات، تقضَى إذا فات وقتها

بحسب الإمكان واللياقة، ولا يلزم إبقاؤها إلى وقتها من قابل. واستدلَّ بعضٌ بالآية على جواز الإحرام بالحجِّ في كلِّ السنة، وفيه بُعدٌ ومخالفة للسنَّة، بل هي دليل على أنَّه مخصوص بأشهر يحتاج إلى تمييزها، وإلاَّ لم يحتج الكلام إلى ذكر الهلال مع الحجِّ، ولـمَّا ذكر عِلمنا أنَّه احتاج إلى جنس الشهر فبيَّنته السنَّة.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَاتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ بعد إحرامكم بحجٍّ أو بعمرة بأن تُنقّبوا البناء ونحوه، أو ترفعوا خلفا مخالفة لحالكم قبلُ، أو تدخلوا بسلّم لئلاَّ يستركم شيء عن السماء، وإذا دخلتم بذلك لحاجة وقفتم حيث لا يظلّكم شيء عن السماء، وترجعوا من ذلك، **ذلكم بدعة مخالفة للشرع**. والنقب إسراف.

﴿وَلَكِنِ الْبِرُّ مَنِ اتَّقَى﴾ مرَّ مثله وهو قوله: ﴿ولكنِ البرُّ منَ ـ امَنَ﴾ أي من اتَّقى عقاب الله بترك مخالفته وبترك هذه البدعة وسائر المعاصي، وذكر ذلك لأنَّهم سألوه أيضًا عن إتيان البيوت، ولم يذكره في السؤال استغناء بالجواب، مع أنَّه مِمَّا لا ينبغي السؤال عنه لظهور بطلانه، وإن لم يسألوا عنه فإنَّه ذكر لذكر الحجِّ، أو شبّه سؤالهم عمَّا لا يهمُّ وهو الأهلّة وترك السؤال عمَّا يهمُّ من الأحكام بحالِ مَن ترك الدخول من الباب وعالَجَه من غيره.

﴿وَاتُواْ الْبُيُوتَ مِنَ اَبْوَابِهَا﴾ بعد الإحرام كما قبله، أو باشِروا الأمور بوجوهها ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون بالهداية

إلى كلِّ برٍّ وبُغية، وإلى أنَّ في كلِّ أفعاله حكمة بالغة.

وعن جابر بن عبد الله، كانت قريش تُدعى الحُمْس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت العرب والأنصار لا يدخلون من باب في الإحرام، فبيْنا رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه، وخرج معه قطبة بن عامر الأنصاريُّ، ـ وفي رواية: رفاعة بن تالوث ـ فقالوا: يارسول الله، إنَّ قطبة بن عامر ـ أو رفاعة بن تالوث ـ رجل فاجر، وإنَّه خرج معك من الباب، فقال له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: رأيتك فعلته ففعلت كما فعلتَ. قال: إنِّي رجل أحمسيٌّ، قال: فإنَّ ديني دينك(١)، فنزلت: ﴿وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأتُوا....﴾ الآية. وعن البراء: كانت الأنصار إذا قدموا من سفر لم يدخل الرجل من الباب فنزلت الآية، **والمراد اتَّقوا الله في شرع ما لم يشرِّعه، وفي تغيير أحكامه.**

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ

١ - أورده ابن كثير في تفسيره، ج١، ص٢٢٥، رواية عن الطيالسي.

وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

قواعد القتال في سبيل الله

(سبب النزول) ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ ردَّ المشركون رسول الله ﷺ عن البيت عام الحديبيَّة من الحديبيَّة، وهي موضع فيه ماء وشجر، قاموا فيه ثلاثين يومًا وصالحوه على أن يرجع من قابل، وكانوا معتمرين في ذي القعدة ومعهم الهدي، فلمَّا كان العام القابل تجهَّزوا بعمرة القضاء في ذي القعدة، وخافوا أن لا يفي المشركون بذلك، وأن يصدُّوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم، وكرهوا القتال في الشهر الحرام فنزلت الآية، ودخلوا مكَّة معتمرين، فأقاموا بها ثلاث ليال، وقد فخروا حين ردُّوه، فأنصفه الله منهم فأدخله مكَّة في الشهر الذي ردُّوه فيه.

سمِّيت عمرة القضاء لأنَّهم وعدوه بها فوافوا له بها، وذلك في العام السابع، وعَدُوه بها في العام السادس يوم الحديبيَّة، وفيها وقع قتالٌ خفيف بحجارة وسهام، والمسلمون ألف وأربعمائة.

وقدَّم ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ ترغيبًا في الإخلاص لإعلاء الدين، والآية

تدلُّ على أنَّه لا يجوز لهم قتالُ من لم يقاتلهم، وهذا المفهوم منسوخ بما نزل بعده، وهو قوله تعالى: ﴿واقتُلوا المشركين﴾، وقوله: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾، فتكون الآيتان على ما زعموا ناسخة سبعين آية نهى فيها عن القتال، وأمَّا قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ فأوَّل آية نزلت في الإذن بالقتال، نزلت قبل هذه، وهي مثلها في أنَّه يقاتلون من يقاتلهم، ونسْخ المفهوم بناء على أنَّه حكم شرعيٌّ. ومعنى يقاتلونكم: تتوقَّعون منهم القتال بأن أخذوا في أهبته.

﴿وَلاَ تَعْتَدُواْ﴾ تجاوزوا ما حدَّ لكم، بابتداء القتال، أو بقتل من لا يقاتِل كالنساء والصبيان والرهبان والشيوخ والـمُعاهد، وكلٍّ من كفَّ يده، وبالقتال بلا دعوة والمثلة. ﴿إِنَّ ا للهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ عمومًا، وهو لعموم السلب، ولو تأخَّرت أداة العموم، وهي «ال» الاستغراقيَّة عن السلب، والمعنى لا أحد منهم يحبُّ ا للهُ له الخير.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أخذتموهم أو ظفرتم بهم، أو أدركتموهم قادرين عليهم، ولو لم يَبْتَدِأُوكُم بالقتال، إلاَّ عند المسجد الحرام فحتَّى يبدأوكم، كره المسلمون القتال في الشهر الحرام والبلد الحرام فأباحه ا لله لهم به. ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّن حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ موضع الإخراج وهو مكَّة، وسمِّي التسبُّب في الإخراج إخراجًا، لأنَّ أهل مكَّة ضيَّقوا على المسلمين بالضرب والحبس وإرادة ذلك، وإرادة القتل والمنع عن دين ا لله، فخرجوا لذلك، وكذا في قوله: ﴿وكأيِّن من

قريةٍ هي أشدُّ قوَّة مِنْ قَريَتِكَ التي أخرجَتكَ﴾ (سورة محمَّد: ١٣)، أي أخرجك أهلها على حذف مضاف، أو أسند الإخراج إليها لحلولهم فيها، ثمَّ إنَّ الإخراج منهم أيضًا مجاز.

وقد أخرجهم المسلمون يوم الفتح، وقتلوا من قتلوا، أحلّت ساعة من نهار، وكان فيها قتل لبعضهم، وبعد الساعة أمروا بالإخراج، أمرهم الله بقتل من أمكن قتله، وإخراج من لم يقتل بحسب الإمكان. ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ الامتحان بالبليَّة، أو نفس البليَّة إذ من شأنها أن يمتحن بها، او أن يعامل معاملة الامتحان بها، وذلك كالإخراج من الوطن.

لَقتلٌ بحدِّ السيفِ أهونُ مَوقعا على النفسِ من قَتلٍ بحدِّ فراق

والحمل على الشرك، ولا سيما في الحرم، فإنَّ الإشراك فتنة للباقي عليه ولغيره، وكالصدِّ عن دين الله وعن المسجد الحرام، وكنفس الإشراك فإنَّه يؤدِّي إلى الظلم والفساد؛ وإشراك الإنسان أشدُّ عليه مضرَّة في الدنيا والآخرة من القتل؛ أو لا تتركوا قتلهم للبلد الحرام والشهر الحرام، فإنَّ شركهم فيهما أقبح إن ظهر لكم أنَّ القتل فيهما قبيح، كما قال:

﴿أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ لاستمرار ضرر الإخراج ونحوه من المضارِّ، كمداومة الضرب والشتم، ولا يخفى أنَّ شركهم أعظم من القتل لهم في الحرم والإحرام، أو القتل لهم فيه الذي استعظموه من المسلمين

أعظم من قتلهم المسلمين مطلقًا.

﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ﴾ لا تقاتلوا المشركين ابتداء، وصيغة التفاعل لكون البدء يستتبع قتالاً، والمعنى لا تقتلوهم ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي في الحرم ﴿حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ﴾ يَبتدِأوكم ﴿فِيهِ﴾ أي في المسجد الحرام، أي في الحرم، وذلك أنَّ «عند» لموضع الحضور، وسائر الحرم حاضر الكعبة منه، ولكم قتالهم في غير الحرم ولو لم يبدأوكم. ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ﴾ فيه، بدأوكم بهيئة القتل، وقع القتل أم لم يقع، ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾ فيه وفي غيره، اقصدوا قتلهم وعاجلوه، ولو أتى عليهم كلِّهم، ولم يقل: «فقاتلوهم» كما هو مقتضى الظاهر مبالغة ووعدًا لهم بالنصر.

ونسخ تحريم القتال إلاّ إن بدأوا به بقوله تعالى: ﴿وقاتِلوهم حتّى لا تكون فتنةٌ﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ على قول بتأخير نزوله عن قوله تعالى: ، ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حتّى يقاتِلُوكم فيهِ﴾، ونحو قوله تعالى: ﴿واقتُلوا المشركين كافّةً﴾ (سورة التوبة: ٣٦)، أي لا بقيد القتال في الحرم بدءًا، أي الآي نزلت أوّلاً فهي الناسخة، وما بعدها تقرير لها، والكلُّ منافٍ لحكم المنسوخ.

﴿كَذَالِكَ﴾ الذي تفعلون بهم من الإخراج لهم من حيث

أخرجوكم، وقتلهم حيث ثقفتموهم ﴿جَزَآءُ الْكَافِرِينَ﴾ المذكورين، فالظاهر في موضع المضمر للتصريح بموجب الجزاء وهو الكفر أو الجنس، فيدخلون أوَّلاً وبالذات. ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن الشرك والقتال والصدِّ يغفر لهم ما قد سلف، أو فاقبلُوا عنهم، أو فانتهوا عن قتالهم، ونحو ذلك مِمَّا يصلح جوابًا، وناب عن الجواب علتُه كما قال ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ أي لأنَّ الله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لكلِّ تائب، وإن قدَّرنا فإنَّ الله غفور رحيم لهم فهو الجواب لا علَّة له، وهذا الانتهاء المذكور عنهم مسبَّب عن قتال المسلمين لهم بدليل الفاء، ويجوز أن تكون ترتيبًا بلا تسبُّب إلاَّ أنَّه قليل، وقاتل العمد تقبل توبته ولو موحِّدًا، ولا دليل لهذا في الآية لأنَّها في المشركين.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ عند المسجد الحرام وغيره، بدأوكم أو لم يبدأوكم، ﴿حَتَّى﴾ إلى، أو كي ﴿لاَ تَكُونَ﴾ تثبتَ ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي شرك وصدٌّ وقتال منهم، ولا تقبل جزية لأنَّ الكلام في شرك العرب في الحرمين وما يليهما، وليسوا أهل الكتاب ولا مجوسًا. ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾ كلُّه كما في الأنفال، ولم يذكره هنا لأنَّ الكلام هنا في أهل مكَّة خاصَّة، والدين: العبادة والتوحيد والاعتقادات، والأمور التي هي صواب وحقٌّ، يحكم بها ويؤمر بها وتُتَّخذ دينًا. ﴿لِلهِ﴾ لا يعبد سواه، ولا يعتبر شرع غيره من الأديان الباطلة، ولا تعتقد الألوهيَّة

لغيره. ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن الشرك والقتال والصدِّ فانتهوا عن قتالهم، أو فلا عدوان عليهم، كما قال: ﴿فَلاَ عُدْوَانَ﴾ أي لأنَّه لا عدوان ﴿إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ بالشرك والحرب والصدِّ غير المنتهين عن ذلك، والمنتهي ليس ظالـمًا.

والعدوان البغض والقصد بسوء كالقتل والسبي والغنم، ولا يقال العدوان الظلم والاعتداء معبَّرًا به عن الجزاء عليهما للمشاكلة، لأنَّا نقول: غير الظالم لا تسمَّى الإساءة إليه جزاء أيضًا، وفي قولنا: المعنى: لا تفعلوا ما هو في صورة الظلم مجازاة بمثله إلاَّ على الظالمين تكلُّف، وعلَّل قوله: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ تعليلاً جُمْلِياً بقوله:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ ذو القعدة من السنة السابعة عند عمرة القضاء، قال الله: لا تكرهوا قتالهم في الشهر الحرام فإنَّه مقابل قتالهم وصدِّهم لكم عام الحديبيَّة، فإن منعوكم في عمرة القضاء فقاتلوهم هتكًا لحرمتهم كما هتكوها لكم في الحديبيَّة. ﴿بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ ذي القعدة من السنة السادسة في الحديبيَّة، قاتلهم المشركون فيها ببعض سهام وحجارة كما روي عن ابن عبَّاس، وما في البخاري من أنَّه لم يقع قتال في الحديبيَّة معناه لم يقع قتال كبير، وعن ابن عبَّاس: رمى المسلمون المشركين في عمرة القضاء حتَّى أدخلوهم ديارهم؛ وقيل: لم يقع القتال في ذي القعدة وإنَّه هو ما يراد عند النافي. ﴿وَالْحُرُمَاتُ﴾ جمع حرمة، ما يجب احترامه وحفظه، وهذا احتجاج بجواز هتك حرمة

الشهر بهتكهم إيَّاه في الحديبيَّة، و لله أن يهتك ما شاء. ﴿قِصَاصٌ﴾ أي شأن الحرمات قصاص، أو الحرمات ذوات قصاص، كأنَّه قيل: الشهر الحرام من الحرمة، والحرمة يجري فيها القصاص في الجملة، نفسًا أو عِرضًا أو مالاً، والشهر الحرام مِمَّا أراد الله فيه القصاص بالقتال، وأمَّا أن يقال: الشهر الحرام من الحرمة، وكلُّ حرمة يجري فيها القصاص، فالشهر الحرام فيه القصاص فلا، لأنَّه لم يثبت أنَّ كلَّ حرمة فيها قصاص.

﴿فَمَنِ اِعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ في عمرة القضاء بالمنع عنها، أو بالقتال في الحرم، أو الإحرام أو الشهر الحرام، ﴿فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ﴾ جازوه على اعتدائه، سمَّى فعلهم باسم الفعل الأوَّل للشبه، ولعلاقة الجوار، وباسم الملزوم، وباسم السبب، وكذا في سائر اعتبار المشاكلة. ﴿بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ بالدخول في مكَّة ولو كرهوا، كما منعوكم منها في العام الأوَّل، وقاتلوهم على المنع ولو لم يقاتلوا فيه، بل اقتصَروا على المنع كما تقاتلونهم إن قاتلوا، ولا تزيدوا بأن تقاتلوهم، و لم يقاتلوكم و لم يمنعوكم، أو بأن تقاتلوا من لم يقاتل.

(فقه) عمَّم الشافعيُّ القتل بمثل ما قَتل به محتجًّا بالآية، كقتل بمحدَّد وخنق وحرق وتجويع وتغريق، حتَّى لو أغرقه في عذب لم يغرقه في ملح.

﴿وَاتَّقُواْ ا للهَ﴾ احذروا عقابه على المبالغة في الانتقام، وعلى الاعتداء الحقيقيِّ الذي هو فعل ما لا يجوز، واتَّقوا ا لله في الانتصار لأنفسكم بما لا يجوز، وترك الاعتذار بما لا يجوز. ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ ا للهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالعون في أمر الدين والدنيا، وبالنصر وإصلاح الشأن والحفظ، والاتِّقاء اتِّقاء المعاصي إجلالاً لله، واتِّقاؤها خوفًا من عقابها، واتِّقاءُ ا لله أيضًا إجلالا له.

﴿وَأَنفِقُواْ﴾ أموالكم على أنفسكم أكلاً ولباسًا لتقووا على الجهاد، وفي شراء الخيل ونفقتها وآلتها للجهاد، وشراء السلاح، وللزاد وتجهيز الغزاة بقدر ما تطيقون، وفي صلة الرحم والمحتاج، والحجِّ والعمرة، وأهل الحاجة والعيال، وجميع المصالح الدينيَّة، **وكلُّ ذلك في سبيل ا لله**، كما قال: ﴿فِي سَبِيلِ ا للهِ﴾ ولو كان يتبادر هذا اللفظ في الجهاد، فيراد الكلُّ، ولو كان المراد بالذات في المقام الجهاد، والآية **أمر بالجهاد بالمال بعد الأمر به بالجسد**. ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ لا تطرحوا أيديكم، ولا تفضوا بأيديكم، وسمِّي الطرح إلقاءً لأنَّه تصيير الشيء، يَلقَى أي يصادف، والأيدي الأجساد لأنَّها بعضها الذي تدفع به وتجلب غالبًا، وأقوى، أو لا تلقوا أيديكم منتهية أو منتهين ﴿إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أي الهلاك، أي المضرَّة الدنيويَّة وهي القتل، والأخرويَّة وهي عذاب النار.

(صرف) ولا مصدر على هذا الوزن إلاّ «تَضُرّة» و«تسُرّة» بمعنى الضرر والسرور، فهنّ ثلاثة؛ وقيل: الضمُّ بدل الكسر، ولا داعي إلى إبدال الثقيل بالأثقل، وأمّا الجوار بالضمّ فلغة في الجوار بالكسر، لا نَقْل، مع أنّ الضمّ أنسب بالواو، وأيضًا التفعلة بالكسر مقيس في معلّ اللام سماعٌ في الصحيح كتجربة وتكملة.

وقيل: الهلاك ما يمكن التخلُّص منه، والتهلكة ما لا يمكن التخلُّص منه، وزيادة الباء في المفعول به قليلة، أو لا تلقوا بأيديكم أنفسكم إلى التهلكة، أي باختياركم فتأخذ التهلكة بها وتقبضها، فذكرُ الأيدي إشعار بالاختيار وحذف المفعول، أو لا تجعلوا التهلكة آخذة بأيديكم، كما يقال في العاجز: «ألقى بيده إلى عدوِّه» فإنّكم إذا تركتم الجهاد أو الإنفاق فيه أهلككم العدوُّ بالقتل والتغلُّب، إذا تركوا الإنفاق في الجهاد ضعف الجهاد فيؤول إلى تركه وإلى غلبة العدوِّ عليهم وقتلهم.

(سبب النزول) قال أبو أيُّوب خالد بن زيد الأنصاريُّ: لمّا أعزَّ الله الإسلام وكثر أهله رجعنا إلى أموالنا وأهلنا نقيم فيها ونصلحها، فنزلت الآية، فيحتمل أنَّ سببها ما ذكره، فتشمل بعموم اللفظ الإمساكَ عن الإنفاق لحبِّ المال، وذلك هلاك أخرويٌّ، وقد سمِّي البخل هلاكًا لأنّه سبب الهلاك، ويشمل الإسراف حتّى يبقى يتكفّف.

ففي الإنفاق طرفان مذمومان: إفراط وهو الإسراف، وتفريط وهو الإمساك، نهى عنهما بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ولاَ تُلقُوا بأيديكمُ, إلى التهلُكة﴾، وأشار إلى الوسط بقوله: ﴿وأنفِقُوا﴾. وللقتال طرفان: إفراط وهو التهوُّر، وتفريط وهو الجبن نهى عنهما بقوله: ﴿وَلاَ تُلْقُوا﴾ وأشار إلى الوسط وهو الشجاعة بقوله: ﴿وقَاتِلُوهُمْ﴾.

وفي رواية: قالت الأنصار فيما بينهم: إنَّ الله قد أعزَّ دينه وكثَّر ناصره، فلو قلنا له ﷺ: «نقيم لإصلاح مالنا وتدارك ما ضاع منها» فنزلت الآية.

(فقه) واستُدِلَّ بالآية على تحريم الإقدام إلى ما فيه الهلاك، وعلى جواز مصالحة الكفَّار والبغاة إذا خاف الإمام على نفسه، أو على المسلمين.

وفسَّر بعضٌ التهلكة بالدخول في وسط العدوِّ، وفسِّر بالبخل ونحو ذلك مِمَّا مرَّ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهو اشتغال الأنصار بأموالهم كما مرَّ، فمن مثَّل لها بمسلم دخل في صفّ الروم وحده بعده ﷺ لم يخطأ، إلاَّ إن قصرها على مثله.

﴿وَأَحْسِنُواْ﴾ بالإنفاق، لا تتركوه ولا تسرفوا، ولا تجعلوه في المعصية، بل على أهلكم وقرابتكم وأهل الحاجة، وفي الجهاد في سبيل الله، وبأعمالكم وأخلاقكم. ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

أي يثيبهم على إحسانهم أو يعطيهم الخير، لأنَّ من لازم الحبِّ في الشاهد فعل الخير.

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

أحكام الحجِّ والعمرة

﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالعُمْرَةَ للهِ﴾ إيتوا بهما تامَّين بشروطهما وأركانهما، لا تقطعوهما ولا تكدِّروهما بشيء، والأمر للوجوب، فهما واجبان ذاتًا وتماماً. وإن قرئ برفع العمرة فالمعنى: والعمرة ثابتة لله على وجه الوجوب، أو العمرة واجبة لله؛ ويدلُّ للوجوب أيضًا: ﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالعُمْرَةَ للهِ﴾؛ والقائل بعدم وجوبها يقول: الآية أمر بإتمامها بعد الدخول فيها، وكلُّ نفل يجب إتمامه بعد الدخول فيه صحيحًا.

(فقه) فالحجُّ واجب لقوله تعالى: ﴿و للهِ على

الناسِ حجُّ البيتِ﴾ (سورة آل عمران: ٩٧) كالصيام وجب بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، ﴿وَأَتِمُّوا الصِّيَامَ إلى اللَّيْلِ﴾ أمر بإتمامه، والعمرة نفل، لِما روي أنَّه ﷺ قيل له: «العمرة واجبة يا رسول الله؟» قال: «**لا، ولكن أن تعتمر خير لك**»[1] كما روي عنه ﷺ: «**الحجُّ جهاد، والعمرة تطوُّع**»[2]، فالحديث بيان للآية لا نسخ، فضلاً عن أن يقال: الآحاد لا ينسخ القرآن، فأقول: نسخ هذا الحديث بقوله ﷺ: «**العمرة داخلة في الحجِّ إلى يوم القيامة**»[3] ولا يضرُّنا احتمال أنَّ وجوبَها تبع لوجوب الحجِّ، أو يصحُّ بها الحجُّ ولو نفلاً. وقد قيل لعمر: «وجدت الحجَّ والعمرة مكتوبين عليَّ فأهلَلْت بهما جميعًا» ـ بالفاء ـ فقال: هديت لسنَّة نبيئك، فلم يقل له عمر: لم تفرض العمرة، ولا يحتمل مع الفاء أن يقال: وجبت عليه بالشروع، ورواية إسقاط الفاء تبيِّنها رواية الفاء. وعنه ﷺ: «**الحجُّ والعمرة واجبان، لا يضرُّك بأيِّهما بدأت**»[4]. فيجمع بين الروايات بأنَّها غير واجبة استقلالاً

---

١ - رواه **الترمذي** في الحج (٨٨)، باب ما جاء في العمرة...، رقم ٩٣١، من حديث جابر.

٢ - رواه **الطبراني**، ج١١، ص٣٥٠، رقم ١٢٢٥٢، من حديث ابن عبَّاس، بتعريف لفظ الجهاد.

٣ - رواه **مسلم** في الحجِّ (٣١)، باب جواز العمرة في أشهر الحجِّ، رقم ٢٠٣.

ورواه **الترمذي** في الحجِّ (٨٩)، باب منه، رقم ٩٣٢، من حديث ابن عبَّاس.

و**البيهقي** في الحجِّ (٢٧)، باب من قال بوجوب العمرة...، رقم ٨٧٧٢، من حديث مالك بن جعشم.

٤ - رواه **البيهقي** في الحجِّ (٢٧)، باب من قال بوجوب العمرة استدلالا...، رقم ٨٧٦٥، =

كما وجب الحجُّ، وواجبة على مريد الحجِّ أن يعتمر معه قبله أو بعده، ولو كان الحجُّ نفلاً. ومن أحرم لحجٍّ نفل أو عمرة وأفسده أو أفسدها أتمَّه أو أتمَّها وأعاده وأعادها. **والحقُّ أنَّ الصحابي حجَّة خلافًا للشافعيِّ**، لقوله ﷺ: «**اقتدوا بأصحابي**»[1]. ولا يخصُّ هذا بما رووه صريحًا عنه ﷺ. ويقال إتمام الحجِّ أن تحرم به من دارك إن دخل شوال، أو إتمام العمرة أن تحرم بها من دارك مطلقًا، وإن دخل شوال جاز قرنهما؛ ويقال: إتمامها أن تفرد لكلٍّ منهما سفرًا؛ ويقال: أن لا تشوبهما بغرض دنيويٍّ كتجر ونكاح؛ ويقال: أن لا تكون النفقة حرامًا ولا شبهة.

﴿**فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ**﴾ أي حصرتم، فهو موافق للثلاثيِّ، أي منعتم عن الإتمام بعدوٍّ أو مرض، أو غيرهما كضياع نفقة، فيقدَّر في قوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أو شفيتم، أو زال المانع، أو يؤوَّل: أمنتم بزوال المانع مطلقًا، بل الأمن يكون من المرض كقوله ﷺ: «**الزكامُ أمان من الجذام**». ونزولها في الحديبيَّة لا ينافي عموم الحكم، فإنَّ خصوص السبب لا ينافي عموم الحكم لعموم اللفظ، وإلاَّ فالآية في العدوِّ فقط لقوله:

=

من حديث ابن عبَّاس.

١ - لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ، ورواه أصحاب السنن بلفظ: «**اقتدوا بالذين من بعدي**» ورواية **القطب في الشامل** بزيادة: «**من أصحابي**»... في كتاب النبيء ﷺ... رقم ١٠٨، من حديث ابن مسعود.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ فيقاس عليه غيره، هذا مذهبنا ومذهب أبي حنيفة، ويدلُّ له قوله ﷺ: «**من كُسِر أو عَرِج** ـ أي حدث له العرج ـ **فعليه الحجُّ من قابل**»[1]، وقوله ﷺ: «**لا إحصار إلاَّ من مرض، أو عدوٍّ، أو أمر حابس**»[2] وهو عموم. قال عروة: كلُّ شيء حبس المحرم فهو إحصار.

(فقه) وروي عن بعض الصحابة: «من أحرم بحجٍّ أو عمرة ثمَّ حبس عن البيت بمرض يجهده، أو عدوٍّ يحبسه، فعليه ذبح ما استيسر من الهدي». وأهلَّ عمر بن سعد بعمرة فلُسِع، فقال ابن مسعود: ابعثوا بالهدي واجعلوا بينكم وبينه يوم أمارة، فإذا كان ذلك فليحلَّ، وخصَّ مالك والشافعيُّ الحكم بحصر العدوِّ لقوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾. وقول ابن عبَّاس: «لا حصر إلاَّ حصر العدوِّ» ويعترض بالحديث المرفوع قبل هذا، وليس ضعيفًا كما قيل، لأنَّه روي من طرق مختلفة. وإن شرط الحاجُّ: «محلِّي حيثُ

---

[1] - رواه **أحمد** في **مسنده**، ج٥، ص٣٣٤، رقم ١٥٧٣١.
ورواه **الطبراني** في **الكبير**، ج٣، ص٢٢٤، رقم ٣٢١١.
ورواه **البيهقي** في الحج (٣٠٢)، باب من رأى الإحلال بالإحصار بالمرض، رقم ١٠٠٩٩، من حديث الحجاج بن عمرو الأنصاري.

[2] - أورده **الألوسي** في **تفسيره** أثرا عن ابن مسعود، وأيَّده بكلام ابن عبَّاس: «لا حصر إلاَّ حصر العدو»، وأورده كذلك صاحب موسوعة فقه ابن مسعود، ص٣٤، نقلا عن **ابن كثير**، ج١، ص٤١٠

حُبستُ» فلا هدي عليه إن حبس بعدوٍّ أو غيره، لقوله ﷺ لضباعة بنت الزبير بن عبد المطَّلب: «**حجِّي واشترطي وقولي: محلّي حيث حبستني يا الله**»[١]، والأصل أنَّه لا يختصُّ هذا بها، بل هو لها ولغيرها عند أحمد، وأحد قولَيْ الشافعي، والحديث حجَّة لنا ولأبي حنيفة أنَّ غير العدوِّ كالعدوِّ في الآية. والعمرة كالحجِّ.

﴿**فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**﴾ فالواجب ما استيسر، أو فعليكم ما استيسر، أي تيسَّر: من شاة ثنيَّة أو بقرة، أو بعير. قال ابن عبَّاس: «وما عظم فهو أفضل». وعن ابن عمر: «الهدي بقرة أو جزور، ولا تكفي الشاة». والهديُ بمعنى: المُهْدَى، وهو ما يسوق الحاجُّ أو المعتمر هديَّة لأهل الحرم بموجب كما هنا، أو بلا موجب. ﴿**وَلاَ تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ**﴾ للتحلُّل كما لا تحلقون لغيره إلاَّ الضرر. ﴿**حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ**﴾ المستيسر المذكور ﴿**مَحِلَّهُ**﴾ وهو موضع حلوله المعهود.

(**فقه**) ومحلُّه هو منًى: أيَّام منًى، أو الحرم مطلقًا، ولو قبل أيَّام منًى عندنا وعند أبي حنيفة، ويوقّت لذبحه، فإذا كان الوقت

---

١ - رواه **مسلم** في كتاب الحج (١٥)، باب جواز اشتراط المحرم التحلّل بعذر المرض...، رقم ١٠٤ (١٢٠٧).

ورواه **الطبراني** في الكبير، ج٢٤، ص٣٣٤، رقم ٨٣٣، من حديث عائشة.

الذي حدَّ لرسوله احتاط وحلق. وعن ابن مسعود: لُـدغ رجـل محـرم بعمـرة فأحصر، فقال: «ابعثوا بالهدي، واجعلوا بينكـم وبينـه يـوم أمـار» أي أمـارة. وعن أبي حنيفة: إن كان حاجًّا فبالحرم متى شاء ويجعل يوم أمار، وعند أبي يوسف ومحمَّد في أيَّام النحر؛ وإن كان معتمرًا فبـالحرم في كـلِّ وقـت عنـده وعندهما، وقال الشافعي: يُنْحَـرُ حيـث أحصـر، ولـو في الحلِّ فمحلُّه عنـده موضع حلول المحصر؛ ويتقوَّى مذهبنا بقوله: ﴿حَتَّـى يَـبْلُغَ﴾. وعلـى المحصـر الحجُّ أو العمرة أو كلاهما من قابل كما تُقضى الصلاة والصوم، وكما اعتمر ﷺ من قابل، وهكذا شأن النفل إذا دخـل فيـه صحيحًا، وقطـع أعيـد كمـا يوفي بالنذر والوعد، بل زاد بالدخول.

واحتجَّ الشافعي في عدم وجوب القضاء بأنَّ الله لم يذكـر القضـاء، قلت: يلزم عليه أن لا يلزم قضاء مـا وجـب مـن حـجٍّ أو عمـرة إذا أحـرم بـه وأحصر عنه، ولا قائلا بذلك، وإنَّما لم يذكر لأنَّ المقـام لشـأن الإحصـار لا لبيان كـلِّ مـا يجـب عليـه، ووجـه الـلزوم أنَّ الآيـة في الإحصـار مطلقًـا لا في الإحصار عن النفل خاصَّة. واحتجَّ الشافعيُّ في أنَّ النحر حيث حـلَّ بـالحبس أنَّ النبيء ﷺ نحر حين حبس في الحديبيَّة، وهي من الحلِّ كما قـال مـالك، فـأجيب بأنَّـها من الحـرم كمـا قـال الزهـريُّ عـن رسـول الله ﷺ: «**إنَّ الحديبـيَّة مـن الحـرم**»[١]. فقـال لذلـك: «إنَّ رسـول الله ﷺ نحـر هديـه

---

١ - أورده بعض الفقهاء أثرا عن الزهري وابن إسحاق وغيرهما لا حديثا، لاختلافهـم في =

بالحرم» وبه قال أبو حنيفة، وصحَّح أرباب الحديث أنَّها مـن الحـلِّ، ويجمـع بأنَّها في طرف الحرم، كما قال الواقديُّ، على تسعة أميال من مكَّة.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ مَّرِيَضًا﴾ مرضًا يحوجه إلى الحلق، وأمَّا المرض الذي لا يحوجه إلى الحلق فكَلاَ مـرضَ بالنسـبة إلى الحلـق، ولـو اشـتدَّ، ومعنى الفاء: التفريع على ما قبلها، فإنَّه يلزم من منع الحلق حتَّى يبلـغ الهدي أنَّه لا بدَّ من كفَّارة على الحالق ولو لعذر.

﴿اَوْ بِهِ أَذىً﴾:

(نحو) جملة معطوفة على «مريضًا»، وسـاغ لأنَّ «مريضًا» خبر كـان، أو يقـدَّر: أو ثـابت بـه أذًى، عطفًا لـــ"ثابتـاً" علــى «مريضًا»، فأذى فـاعل ثابتًا، أو فـاعل بـه. وأمـَّا أن تعطـف الاسميـَّة على «كـان...»إلخ فـلا، إلاَّ إن جعلنا «مَن» موصولـة، جعلـت في خبرهـا الفـاء لعمومها كالشَّرطيـَّة، لا شرطيـَّة، لأنَّ الأداة الشرطيَّة لا تليها الاسميَّة، خلافًـا للأخفش والكوفيِّين؛ ودعـوى أنـَّه يـُغتفر في الثواني كـالعطف هنـا مـا لا يغتـفر في الأوائل لا تـتمُّ لأنَّه لا يطَّرد ذلك الإغتِفار.

﴿مِّنْ رَّأْسِهِ﴾ أي في رأسه أو برأسه، أو من رأسه بمعنـى أنـَّه أتـاه الوجع منه، وذلـك كجراحـة وقمـل. ﴿فَفِدْيَـةٌ﴾ فعليـه فديـة، وهـذا

=

الحديبيَّة هل هي من الحلِّ أو الحرم.

التقدير مطَّرد، وإنَّما جاز أن يقدَّر: فالواجب فدية لأنَّ النهي عن الحلق يشير إلى واجب على الحالق، فبيَّنه بقوله: الواجب فدية ﴿مِّنْ صِيَامٍ﴾ أي هي صيام ثلاثة أيَّام، ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ اثني عشر مدًّا من غالب قوت مكَّة، على ستَّة مساكين من أهلها. ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ يفرِّقه لأهل مكَّة الفقراء شاة ثنيَّة، وإن شاء فبقرة أو بعير كذلك إن حلق؛ أو يقدَّر: فمن كان منكم مريضًا وحلق.

(فقه) وكلُّ فعل مناف للإحرام ففيه ذلك، إذا فُعل لأذًى كلبس المخيط والتطيُّب، وإن فعل لغير أذًى فشاةٌ. وقال الشافعيُّ: كحكم الآية. والحلق كناية عن التحلُّل، فإنَّ معنى: ﴿وَلاَ تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ﴾: لا تحلّلوا، فالآية على التخيير، قال عبد الله بن مغفَّل: قعدتُ إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد ـ يعني مسجد الكوفة ـ فسألته عن قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ...﴾ الآية، فقال: حُملتُ إلى النبيء ﷺ والقمل يتناثر على وجهي، فقال: «**ما كنت أرى أنَّ الجهد بلغ بك هذا! أما تجد شاةً؟**» قلت: لا، قال عليه السلام: «**فصم ثلاثة أيَّام، أو أطعم ستَّة مساكين واحلق رأسك**»[1]، فنزلت فيَّ خاصَّة ولكم عامَّة؛ وتقديم الشاة بوَجدانها استحباب منه

---

١ - رواه **الربيع** في كتاب الحجّ (٨)، باب في الهدي والجزاء والفدية، رقم ٤٣٢، من حديث ابن عبَّاس.

ورواه **مسلم** في كتاب الحجّ (١٠)، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى...، رقم ٨٥، من حديث عبد الله بن معقل.

=

ﷺ لا ترتيب، وأجاز بعضهم الإطعام في غير مكّة، وأمّا الذبح ففي مكّة خاصّة.

وفي رواية: «**احلق وصم ثلاثة أيّام، أو تصدَّق بفرق، أو انسك بشاةٍ**»[1]، والفرق اثنا عشر مدًّا، ثلاثة أصوع، والصاع ثمانية أرطال بالعراقي، وقال أبو يوسف: «خمسة أرطال وثلث» وهو قول الشافعي، لقولهﷺ: «**صاعنا أصغر الصيعان**»، وعنه ﷺ: كان يتوضّأ بالمدِّ ـ رطلين ـ ويغتسل بالصاع ـ ثمانية أرطال ـ، وكذا كان صاع عمر رضي الله عنه، وهو أصغر من الهاشميِّ، وكانوا يستعملون الهاشميَّ.

﴿**فَإِذَآ أَمِنتُمْ**﴾ عطف على قوله: ﴿**أُحْصِرْتُمْ...**﴾ إلخ، أي إذا أمنتم من العدوِّ، أو بأن ذهب العدوُّ، او ظننتم أنَّه كان وتبيَّن أنَّه لم يكن، وفي الوجهين الإحصار، أو لم يكن ولم تظنُّوا أنَّه كان وأمنتم من المرض ونحوه، ولا إحصار في ذلك، ولا حكم إحصار، أي أمنتم الإحصار وسائر الموانع، أو كنتم في الأمن من ذلك. ﴿**فَمَن تَمَتَّعَ**﴾ انتفع ﴿**بِالْعُمْرَةِ**﴾ بسبب الاقتصار على العمرة والتحلُّل منها بالطيب ولبس المخيط وتغطية الرأس والجماع وصيد الحلِّ وقطع التفث

والنسائي في المناسك (٩٦)، باب في المحر يؤذيه القمل، رقم ٢٨٥١، من حديث كعب بن عجرة، مع اختلاف اللفظ.

[1] - رواه **مسلم** في كتاب الحجّ (١٠)، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى، مع زيادة في آخره وهي: «**تصدَّق بفرق بين ستّة مساكين أو انسك ما تيسَّر**»

والزينة والطواف بالبيت كلَّما شاء، سواء أحرم بها وحدها أو مع الحجِّ ثمَّ فسخه، أو بالحجِّ ثمَّ فسخه إلى العمرة، وذلك كلُّه في أشهر الحجِّ، وقيل: أو بإتمامها في أشهره مع أنَّه لم يعد إلى الميقات للإحرام بالحجِّ، ولا إلى أهله أو مثل أهله في البعد ولم يكن من أهل الحرم، وأنَّه حجَّ من عامه وبالتقرُّب إلى الله بعقد الحجِّ في ذلك العام. ﴿إِلَى الْحَجِّ﴾ مستمرًّا بتمتُّعه إلى الحجِّ، ومنتهيًا تمتُّعه أو تحلُّله إلى أن أحرم بالحجِّ ولو بلحظة، وذلك أنَّ الدم يلزم بالحلِّ منها. ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ فالواجب، أو فعليه ما تيسَّر ﴿مِنَ الْهَدْيِ﴾ شاة ثنيَّة أو بقرة أو بعير، كذلك يتصدَّق به في الحرم، على فقراء الحرم مطلقًا، بعد الإحرام بالعمرة والإحلال منها لا قبل الإحلال، وقيل بعده، وبعد الإحرام بالحجِّ، **والأولى أن يكون يوم النحر أو أيَّام التشريق.**

﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ﴾ هديًا أو ثمنه أو كليهما ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ في حال الإحرام بالحجِّ.

(فقه) فيجب أن يحرم قبل السابع من ذي الحجَّة لكراهة صوم يوم عرفة لئلاَّ يَضعُف عن القيام والدعاء، وإن كان لا يضعف لم يكره، ولا تؤخَّر هي أو بعضها لما بعد يوم النحر، ولا يجوز صوم يوم النحر، وأجيز صومها في عشرة ذي الحجَّة، ولو قبل الإحرام بالحجِّ فتؤخَّر رجاء وجود الهدي، إلى أن تبقى ثلاثة قبل يوم النحر، والواضح أنَّه لا يصومها إلاَّ وهو محرم بالحجِّ في العشرة أو قبلها، والراجح في العشرة، وعند الشافعيَّة كلُّ حقٍّ ماليٍّ تعلَّق بسببين يجوز تقدُّمه على ثانيهما، فجاز ولو

ـ عندهم ـ تقديم الذبح للمتمتّع على الإحرام بالحجّ، ورجّحوا إيقاعه بعد الإحرام، والسببان: العمرة في أشهر الحجّ، والإحرام بالحجّ بعد التحلّل منها، بخلاف صوم التمتّع فلا يجوز عندهم تقديمه على الإحرام بالحجّ لأنّه عبادة بدنيَّة لا ماليَّة، فلا يجوز تقديمها على ثاني سببَيْها، وزعموا عن الشافعيّ أنّه يجوِّز صومها أيضًا في أيَّام التشريق في قولٍ له ضعيف عنه، إذ ربَّما تمَّ حجُّه قبل كمال ثلاثة أيّام التشريق، والله يقول: ﴿في الحجّ﴾.

(فقه) وعن ابن عمر أنَّه رخّص ﷺ للمتمتّع إذا لم يجد هديًا، ولم يصم حتّى فاته أيَّام العشر أن يصوم أيَّام التشريق مكانها، وعن الزهريِّ أنَّه ﷺ بعث عبد الله بن حذافة فنادى في أيّام التشريق: «**إنّ هذه أيّام أكل وشرب وذكرِ الله عزَّ وجلَّ، إلاَّ من كان عليه صوم من هدي**»[١]. وعن عائشة أنَّه لم يرخّص ﷺ في أيّام التشريق أن يُصَمْنَ إلاّ لمتمتّع لم يجد هديًا. وقال الحنفيَّة: إذا جاء يوم النحر لم يجز إلاّ الذبح. ومذهبنا **ترجيح تأخير ذبح هدي المتعة إلى يوم النحر**. والمشهور عند أبي

١ - رواه **مسلم** في كتاب الصيام (٢٣)، باب تحريم صوم أيّام التشريق، رقم ١٤٤ (١١٤١)، من حديث نشيبة الهذلي.

وروى الشطر الأوّل منه **أحمد** في مسنده، ج١، ص١٦٦، رقم ٥٦٧ و ٨٢٤، من حديث عمرو بن سليم عن أمه.

ورواه **الطبراني في الكبير**، ج٢، ص٣٧، رقم ١٢١٢، من حديث نشيبة الهذلي.

حنيفة أنَّه بين الإحلال من العمرة والإحرام بالحجِّ، وأجازه بعد الإحـرام بـه. وقال الشافعيُّ: يذبح بعد الإحرام بالحجِّ. وعن أبي حنيفة أنَّه يذبح يوم النحر فقط، ويذبح في الحرم فقط.

(فقه) وأنَّه نسك يأكل منه هـو والغنيُّ والفقير، لأنَّه وجب لشكر الجمع بين النسكين فكان كالأضحيـة في التقرُّب بهـا إلى الله، وكذا قال كثير من أصحابنا: يأكل منه. وقال الشافعيُّ: دمُ جَـبْرِ خلـلِ إحرامه بالعمرة في أشهر الحجِّ إذ لم يحرم به ولا بهما معًـا، فهو جارٍ مجرى الجنايات فلا يأكل منه، واعترض بأنَّه كيف يكون جبرًا لخللٍ مع أنَّ الله أباح التمتُّع؟ فيجاب بأنَّ الله أفهمنا من الكفّارة أنَّه خلاف الأصل، وأنَّه خلل.

﴿وَسَبْعَةٍ اِذَا رَجَعْتُمْ﴾ فرغتم من أعمال الحجِّ: رمي الجمار وطواف الزيارة والسعي، ويكره صوم أيَّام التشريق. سمِّي الفراغ رجوعًا إلى الأهل أو لغيره لأنَّه سبب، أو سمِّي القصد إلى غير الحجِّ رجوعًا، فإنَّه كان في غيره من الإحلال، أو من كونه غير محرم أصلا، فقد رجع إلى حالٍ كان فيها قبل، وهي كونه غير محرم ولا ملتبس بأفعال الحجِّ، وذلك مذهبنا ومذهب أبي حنيفة في مكَّة، إلاَّ أنَّا نجيز صومها أيضًا في الطريق راجعًا، ولو وصل أهله قبل تمامها. وقال الشافعيُّ: «إذا وصلتم أهلكم»؛ وله قول كقولنا وقول أبي حنيفة. وعن ابن عبَّاس: «إذا بلغتم أمصاركم». وحكم ناوي الإقامة بمكَّة

حكم واصلٍ أهلَه. واسظهر بعض أنَّ الرجوع ظاهر في هذا المعنى، وقال مالك: «يجوز صيامها في أيَّام التشريق» يروي في ذلك حديثًا. وقيل: معنى الآية صومها في الطريق حال الرجوع، وفيه أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يوجب صوم رمضان في السفر فكيف هذه الأيَّام؟!.

﴿تِلْكَ﴾ الثلاثة والسبعة، أي تلك الجملة ﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾: هذه فذلكة.

(لغة) والفذلكة إجمال الحساب بعد تفرُّقه، كقولك بعد تفرُّقه: فذلك كذا وكذا، سواء قلت بعد تفرُّقه: ذلك كذا، أو تلك كذا، أو هؤلاء كذا، أو هذه كذا، أم ذكرت المفرَّق، مثل أن يجتمع عندك ألف وخمس مائة وستُّ مائة تذكرها ثمَّ تقول: فالجملة ألفان ومائة، وهي مركَّبة من فاء التفريع و"ذا" الإشاريَّة مع حذف ألفها وإسكان ذالها، ولام البعد وفتحها وكاف الخطاب وتاء التأنيث.

وفي هذه الفذلكة فوائد دفعِ ما رُبَّما يتوهَّم من أنَّ الواو بمعنى "أو"، فصرَّحت الفذلكة بعدم ذلك، فإنَّها قد ترد بمعنى "أو" نحو: «جالس الحسن وابن سيرين» بالواو، وتريد جالس هذا أو هذا بأو، وأنت تريد بـ"أو" أيضًا جواز الجمع. ووجه الواو أنَّه لا يمنع عنك أحدهما إلاَّ أنَّه لا بدَّ منهما جميعًا.

قال السيرافي في شرح سيبويه: الصواب أنَّ الواو كاف في الإباحة،

لأنَّ الإباحة إنَّما استفيدت من الأمر، والواو جَمعت بين الشيئين في الإباحة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فانكِحوا ما طاب لكم من النسآء مثنَى وثُلاثَ ورُباعَ﴾ (سورة النساء: ٣)، فالواو بمعنى أو في بعض التأويل.

الفائدة الثانية: الإعلام بأنَّ المراد بالسبعة حقيقتها لا كثرة العدد، فإنَّها قد تطلق للكثرة كما تطلق السبعون، والفائدتان احتراس.

الثالثة: الإعلام بالعدد إجمالاً كما علم به تفصيلاً، كما تقول العرب: «علمان خير من علم»؛ وهذه الفائدة تتميم فإنَّ أكثر العرب لا تحسن الحساب. قال رجل لابنه في سفر: يا بني، استبحث لنا عن الطريق، فقال: إنِّي عالم، فقال: «يا بنيَّ، علمان خير من علم».

الرابعة: أنَّ المعتاد أن يكون البدل أضعف حالا من المبدل منه، فأخبرنا الله عزَّ وجلَّ أنَّ هذا ليس كذلك، فتطمئنَّ نفس الصائم عن الهديِ. فإنَّ معنى كاملة أنَّها كاملة في البدليَّة عن الهديِ، قائمة مقامه، وأنَّها كاملة في أنَّ ثوابها كثواب الهدي، وكاملة في المتمتِّع الصائم لها كالحجِّ بلا تمتُّع، وأيضًا كاملة صفة تقيد المبالغة في محافظة الصائمين على العدد، كأنَّه قيل: فصوموها غير ناقصة.

وتفيد أنَّ العشرة عدد كامل بمعنى انتهاء الأعداد إليه، وكلُّ عدد بعده مركَّب منه ومِمَّا قبله. وإذا عددنا التوكيد فائدة فهو فائدة خامسة، كقوله تعالى: ﴿ولا طَآئرٍ يَطيرُ بجَناحَيْهِ﴾ (سورة الأنعام: ٣٨). وتعدُّ ما مرَّ من

أنَّ العرب ليسوا أهل حساب، فَفَذْلَكَ لهم، فهذه فائدة **سادسة**.

السابعة: دفع توهُّم وجود مخصِّص يخصُّ عموم الثلاثة والسبعة.

الثامنة: دفع تصحيف سبعة بتسعة في الكتابة.

التاسعة: ما قيل: دفع توهُّم أنَّه تتمُّ السبعة بالثلاثة السابقة، ثلاثة في الحجِّ، وأربعة إذا رجع.

العاشرة: أنَّ الجملة الاسميَّة أنسب بالتكميل، كما قال: ﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ أي اجبروه إجبارًا تامًّا، وذلك توكيد للأمر، كأنَّه امتثل فهو يخبر عنه.

الحادية عشر: أنَّ الصوم طاعة كاملة كما قال ﷺ: «قال الله: الصوم لي...»[1].

(خواص الأعداد) والعشرة عدد كمل فيه خواصُّ الأعداد، فإنَّ الواحد مبدأ العدد، ولا عدد فيه إذ لا تكرير فيه. والإثنان: أوَّل العدد فإنَّه أوَّل تكرير. والثلاثة: أوَّل عدد فرد. والأربعة أوَّل عدد مجذور، والخمسة أوَّل عدد دائر، فلا يمكن تدوير المجلس قبله. والستَّة أوَّل عدد تامٍّ، أي تستفرغه أجزاؤه. والسبعة عدد أوّل تامٌّ فيه أنواع العدد كما يأتي إن شاء

١ - رواه القطب في جامع الشمل، وقال: رواه البيهقي في سننه، وتمامه: «وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه من أجلي»..

ا لله تعالى. والثمانية أوَّل عدد زوج الزوج. والتسعة أوَّل عدد لثلثه ثلث يستفرغه. والعشرة ينتهي إليها العدد، وكلُّ عدد بعدها مركَّب منها ومِمَّا قبلها.

ويقال أيضًا السبعة عدد تامٌّ لاشتماله على أنواع العدد، وهي أنَّ العدد إمَّا زوج وإمَّا فرد، وإمَّا مركَّب من زوج، وإمَّا مركَّب من فرد، وإمَّا مركَّب من زوج وفرد، فالاِثنان مركَّب من فردين، والواحد فرد، والثلاثة من زوج وفرد، والأربعة من زوجين، والستَّة من فردين وهما ثلاثة وثلاثة، أو من زوجين: أربعة واثنين.

﴿ذَالِكَ﴾ الحكم من لزوم الهدي أو بدله وهو الصيام، أو ذلك التمتُّع، ويضعفه أنَّه قال: ﴿لِمَنْ لَّمْ يَكُنَ اَهْلُهُ﴾ كناية عن السكنى، ولو لم يكن له أهل. ﴿حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ولم يقل: على من لم يكن، وتأويل اللام بعلى خلاف الأصل.

(فقه) وحاضروا المسجد الحرام عندنا من سكن في الحرم ولو لم يستوطنه، ومَن في داخل الميقات عند أبي حنيفة، ومن في مكَّة عند مالك، ومن بينه وبين الحرم أقلُّ من مسافة القصر عند الشافعي على مذهبه في مسافة القصر.

والقارن لزمه ما لزم المتمتِّع، قرن من أوَّل، أو أدخل الحجَّ على العمرة، أوالعمرة على الحجِّ، ووجه ذلك في العمرة أو في إدخال الحجِّ عليها

أنَّ الأُفقيَّ يجب عليه أن يحرم عن الحجِّ من الميقات لا عن العمرة، ثمَّ أحرم عن الحجِّ لا من الميقات، فحصل التحلُّل فجبر بالدم، والحرميُّ مثلاً لا يجب إحرامه من الميقات فلا خلل في تمتُّعه، فلا هدي ولا صوم عليه، لأنَّ إحرامه من محلِّه حقٌّ.

﴿وَاتَّقُواْ اللهَ﴾ بالمحافظة على أوامر الحجِّ والعمرة بالامتثال، ونواهيهما بالاجتناب، وعلى سائر الأوامر والنواهي. ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ في ترك واجب حجٍّ أو عمرة أو غيرهما، وفي فعل محرَّم فيهما أو غيرهما ، والعلم بذلك يمنعكم عن المقارفة، وأظهر لفظ الجلالة لتربية المهابة.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٧ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٩ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ٢٠٠ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ

﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٢٠٢ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٠٣﴾

تتمَّة أحكام الحجّ

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ عند الناس، وقت الحجِّ أشهر، أو الحجُّ ذو أشهر، شوال وذو القعدة وعشرة من ذي الحجَّة، ولا يشكل علينا الجمع لأنَّ المعنى أنَّ الحجَّ يوقع في ثلاثة أشهر والأمر كذلك، فإنَّه يوقع في التسعة الأولى وفي ليلة النحر للمراهق، فذو الحجَّة بذلك محلٌّ للحجِّ، بل يوقع باقي أعماله أيضًا بعد ذلك، ولا يلزم من كون شهر محلاًّ لكذا أن يكون في كلِّ يوم منه، تقول: فعلت كذا سنة كذا، وإنَّما فعلته في ساعة منها، أو عشرون أو ثلاثون، ووقت العمرة السنة كلُّها. وقيل: نزَّل بعض الشهر منزلة الشهر في قوله: ﴿أَشْهُرٌ﴾ إذ لم يقل: شهران وعشرة أيَّام، أو شهران وعشرون يومًا. وزعم بعض أنَّ الجمع المركَّب من آحاد بعضها حقيقة وبعضها مجاز، ليس جمعًا بين الحقيقة والمجاز، وليس كذلك عندي، وأجاز الشافعيَّة الجمع بينهما.

(فقه) وزعم بعض أنَّ الآية على أنَّ أقلَّ الجمع اثنان مجازًا أو حقيقة، وأمَّا من قال ثلاثون يومًا فقد أتمَّ ثلاثة أشهر،

ومذهبنا الأوَّل فلا يفوت طـواف الزيـارة والسـعي مـا دام غـير نـاقض لإحرامه، ولو عامًا أو أكثر، وفاتـه بالعشـرين علـى الثـاني، وبـالثلاثين على الثالث، فيقضي الحجَّ مستأنفًا على القولين، ونسب الثـالث لمـالك في رواية عنه، وابن عمر والزهري، وروي عـن الشـافعيِّ شـاذًّا، وأمـَّا الإحرام به فـلا يجوز بعـد عرفـة، وأجـازه الشـافعيُّ ليلـة النحـر شـاذًّا مردودًا، وعن إملاء الشافعيِّ يجوز الإحرام به في جميع ذي الحجَّة، وهو أشذُّ وأبعد؛ وأمـَّا الوقـوف فـلا يصـحُّ إلاَّ في يـوم عرفـة في عرفـة، أو المراهق فله الوقوف فيها ليلة النحر[1]. وعن أبي حنيفة شهران وعشرة لأنَّ الطواف ركن يوقـع فيـه لا قبلـه، والخـلاف لفظـيٌّ، فـإنَّ مـا قبـل طلوع فجر النحر من وقت الإحرام والركن الأعظم وهو الوقوف، وما بعد ذلك وقت للركن العظيم وهو الطواف وما ليس ركنًا. وزعم أبـو حنيفة فيما قيل عنه أنـَّه يجوز الإحرام قبل شـوال بـالحجِّ علـى كراهـة، والتحقيق أنـَّه أجازه قبله، لأنـَّه عنده شرط كالوضوء للصلاة.

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ على نفسه بالإحرام به مـع النيـة ولـو بلا لفظ، ومع التلبية به مع اللفظ والقصد للدخول فيـه، كـالدخول في الصلاة، هذا مذهبنا، وقال أبو حنيفة بالتلبية مع النية، أو سوق الهـدي معها أيضًا، لأنَّ الإحرام في الحجِّ عقد على الأداء، فلا بدَّ معه من ذكر

---

١ - المراد بالمراهق الذي أرهقه السفر و لم يصل عرفة إلاَّ ليلة العيد.

وهو التلبية أوما قام مقامه وهو السوق كالإحرام في الصلاة. وقال الشافعيُّ: تجزي النية بلا تلفُّظ ولا تلبيَّة، لأنَّ الإحرام التزام الكفٍّ عن المحظورات، فيصير شارعًا بالنية كالصوم. ومن أفسد حجًّا أو عمرة ولو نفلا لزمه قضاؤها ولو عند من لا يوجب قضاء نفل العبادة منًّا، وكذا قال الشافعيُّ وأبو حنيفة.

وقوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ دليل على أنَّه لا يصحُّ الإحرام بالحجِّ في غير أشهره فيبطل، وقيل: يصير عمرة، وأجيب بأنَّ المراد بفيهنَّ الكمال ونفي الكراهة، وليس كذلك فإنَّ قوله: ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ نصٌّ في تخصيص أشهر، وقوله ﷺ: «**لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحجِّ إلاَّ في أشهره**»[1] أراد به التحريم، بدليل الأحاديث الناصَّة على أنَّه لا يصحُّ الإحرام بالحجِّ قبل أشهره.

﴿**فَلاَ رَفَثَ**﴾ لا جماع، كما تُعورف شرعًا، أو فلا فحش: كلام في أمر الجماع ومقدِّماته، وهو المعنى الحقيقيُّ للرفث، وعليه فبالأولى أن لا جماع. ﴿**وَلاَ فُسُوقَ**﴾ في الحجِّ ولا غيره، ومنها السبُّ والتلقيب[2]، فمن فعل كبيرة بعد الإحرام لزمه دم. ﴿**وَلاَ جِدَالَ فِي**

---

١ - أورده **ابن كثير في تفسيره** عن ابن عبَّاس، وقال: رواه الشافعي والبيهقي من طريق بن جريج عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله، ج١، ص٢٣٥.

٢ - في نسخة (ب) و(جـ): "واللقب".

الْحَجِّ﴾ في أيَّامه بعد الإحرام به، ولو مع المكاري أو الخادم أو الرفقة.

(فقه) ومن جادل حتَّى أغضب أو غضب لزمه دم، ولو في الحقِّ أو المباح، وقيل: المراد: لا جدال في أيَّام الحجِّ ولو قبل الإحرام، واللفظ إخبار والمعنى إنشاء، أي لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا؛ أو إخبار لفظًا ومعنى، أي لا يثبت ذلك في دين الله، وإن كان فمن دين الجاهليَّة والشيطان، والفسوق محرَّم على الحاجِّ وغيره، وذكر هنا للتغليظ كالنهي عن لبس الحرير في حقِّ الرجل حال الصلاة مع أنَّه محرَّم في غيرها أيضًا. أو الفسوق بمعنى الخروج، أي لا تخرجوا عن حدِّ الشرع إلى المعصية ولو صغيرة، وإلى ما لا يجوز في الإحرام كلبس المخيط والتطيُّب والصيد. وزعم بعض أنَّ الجدال بالحقِّ غير منهيٍّ عنه، ويردُّه مخالفة ظاهر الآية، وأنَّه يفضي إلى شرٍّ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ولا تُمارِ فيهِمْ إلاَّ مِرَآءً ظاهرًا﴾ وقال ﷺ: **«من ترك المراء وهو محقٌّ، بني له بيت في أعلى الجنَّة؛ ومن تركه وهو مبطل بني له في ربضها»**[١] وغير ذلك... وعدم ذكره في قوله ﷺ: **«من حجَّ ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه»**[٢] لايدلُّ على عدم النهي عنه، لأنَّ عدم ذكر الشيء لا يدلُّ

---

١ - أورده صاحب **قناطر الخيرات**.

٢ - رواه **النسائي** في كتاب الحج (٤)، باب فضل الحج، رقم ٢٤٦٤.

على انتفائه.

ويروى أنَّ معنى ﴿لاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ اتركوا الخلاف في الحجِّ، إذ كان قريش تقف بالمزدلفة وسائر الناس بعرفة، وكانوا يقدِّمون الحجَّ عامًا ويؤخِّرونه عامًا، فأزال الله ذلك؛ فنقول أيضًا: لا جدال في ذلك ولا في غيره، ولو لم يضمر للحجِّ لتأكيد شأنه. ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ كالكلام الحسن مكان الرفث، والبرِّ والتحصُّن مكان الفسوق، والوفاق بالأخلاق الحميدة مكان الجدال في الحجِّ، وغيرُه كالصدقة والصوم والنفل وسائر العبادة، ﴿يَعْلَمْهُ اللهُ﴾ فيجازيكم به، وكذلك يعلم الشرَّ لكن لم يذكره، لأنَّ المقام مقام مقابلة الخير بالخير، أو أراد العلم بالجزاء.

﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ لآخرتكم بالأعمال الصالحة وترك ما ينهى عنه، وترك الطمع والسؤال مع وجود الغنى عنه، فمن لم يتزوَّد لها

هلك بالنار، كما يموت مسافر بلا زاد ﴿فَإِنَّ﴾ لأنَّ ﴿خَيْرَ الزَّادِ﴾ لأنَّ الزاد يشمل زاد الدنيا وزاد الآخرة ﴿التَّقْوَى﴾

=

ورواه ابن ماجه في الحجّ (٣)، باب فضل الحجّ والعمرة، رقم ٢٨٨٩.

ورواه البيهقي في الحج أيضًا (٣٨٣)، باب فضل الحج والعمرة، رقم ١٠٣٨٤، من حديث أبي هريرة.

الحذر عن ترك الفرض وفعل المحرَّم، ومنه الإلحاح في السؤال، بل مطلق السؤال، بلا حاجة إليه مضطرَّة، والخروج إلى الحجِّ بلا زاد فيكون عيالاً على الناس وثقلاً عليهم فالتحرُّز عن ذلك من جملة التقوى.

ويروى أنَّ حُجَّاج اليمن كانوا يفعلون ذلك، ويزعمون أنَّ ذلك توكُّل على الله، فأوحى الله أن تزوَّدوا ما يبلغكم ويرجعكم، كما رواه البخاري وأبو داود والنسائي عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، حتّى فسَّروا الزاد بطعام المسافر وشرابه طبق ما يفعل اليمانيُّون، ويقولون: «نحن حجَّاج بيت ربِّنا ووفد إليه فلا يُطعمنا!» وربَّما أفضى بهم ذلك إلى النهب والغصب، وما ذكرته أوَّلا هو الراجح لأنَّه ظاهر الآية، وعلى الأخير يكون المعنى: اصنعوا الزاد لسفر الحجِّ، لأنَّ خير الأزواد تقوى، ومن لا يصنعه يخرج عن التقوى بالطمع والسؤال.

﴿وَاتَّقُونِ يَآ أُوْلِي الاَلْبَابِ﴾ فقد وضعت فيكم من العقل ما يميل بكم عن المخالفة.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيُّها المسلمون على الإطلاق ﴿جُنَاحٌ﴾ إثمٌ ﴿اَنْ تَبْتَغُواْ﴾ في أن تطلبوا ﴿فَضْلاً﴾ رزقًا ﴿مِّنْ رَّبِّكُمْ﴾ التجارةَ في الحجِّ، هذا ترخيص ونهي لهم عن تحريم التجر بعد الإحرام، فإنَّه لا

ينقص ثوابًا ولا يحبطه، والترك أولى، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وأَتِمُّوا الحجَّ﴾، وإن كانت التجارة تنقص فرضًا حرمت، أو مستحبًّا كُرهت.

(فقه) وإذا شوركت العبادة بغيرها، قال ابن عبد السلام: فلا أجر لها، ولو كانت الأغلب والباعث. وقال الغزالي: إن كان الأغلب دنيويًّا فلا ثواب، أو أخرويًّا فبقدره، وإن تساويا سقطَا؛ وعندي أنه يثاب بقدره، ولو أقلُّ قليل، وبه قال ابن حجر، وكانوا يكرهون التجر أو يحرِّمونه في الحجِّ، فنزلت الآية مبيحة بلا جدال ولا فسوق في أسواقكم: عكاظ ومجنة وذي المجاز وغيرها، أسواق تقام في مواسم الحجِّ.

وعكاظ من التعاكظ وهو التفاخر، يتفاخرون ويتناشدون بين نخلة والطائف عشرين يومًا، من أوَّل ذي الحجَّة، ومجنة على أميال من مكَّة، وذو المجاز على فرسخ من عرفة. ومنع أبو مسلم التجر في الحجِّ، وحمل الآية على ما بعد الفراغ من الحجِّ، كقوله: ﴿فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانتشِروا في الارضِ...﴾ إلخ، ويردُّه أنَّ الحمل على إباحة ما تُوهِّم حرمته أو كراهته أولى من الحمل على ما علم إباحته، وهو التجر بعد الفراغ من الحجِّ، وأمَّا الصلاة فأعمالها متَّصلة لا يقاس عليها الحجُّ، لأنَّ أعماله متفرِّقة؛ وكان ابن عبَّاس يقرأ قراءة تفسير: «أن تبتغوا فضلاً من ربِّكم في مواسم الحجِّ»، وكذا ابن مسعود.

(سبب النزول) قال أبو أمامة لابن عمر: «نُكرِي للحُجَّاجِ

ويقول الناس: لا حجَّ لنا، ونحن نفعل أفعال الحجِّ كلِّها، فقال: سئل ﷺ عمَّا سألت فنزلت الآية، فقال: «**أنتم الحجَّاج أنتم الحجَّاج**»، وتدلُّ على ذلك الفاء في قوله:

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم﴾ أفضتم أنفسكم، أي دفعتموها دفعًا شبيهًا بإفاضة الإنسان الماء في الكثرة والسرعة، وذلك هو الأصل، ولا يَرِد أنَّ غير الكثير وغير المسرع لا يتمُّ بل يتمُّ، أوْ لا يذكر الله ﴿عند المشعر الحرام﴾ بل يذكره فيه. **﴿مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾** منوَّن تنوين مقابلة، لأنَّه بصيغة جمع المؤنَّث السالم، أو جمع مؤنَّث سالم سمِّي به؛ والمفرد عرفة.

(لغة) وعرفة جمع عارف، تسميةً للمحلِّ باسم الحال، وذلك أنَّه تعارف آدم وحوَّاء فيها، ويتعارف الناس فيها، وعرَّفها جبريل لآدم وإبراهيم ومحمَّد ﷺ، ولقول جبريل فيها: «اعترف بذنبك، واعرف المناسك»؛ أو لعلوِّها كما قيل لعرف الديك، أو عرفة اسم مفرد وضع للبقعة كعرفات بصيغة الجمع فهما اسمان، ويرجِّحه أنَّ الأصل عدم الانتقال من الجمع إلى جمع آخر، ولكون تنوينه للمقابلة ثبت مع العَلَميَّة والتأنيث كحمزات، وهو تأنيث البقعة؛ وصيغة جمع المؤنَّث لسالم صيغة تأنيث فيراعَى التأنيث في المنع ولو مِمَّا يردُّ إليه الضمير مذكَّرًا، كالهندات علَمًا لرجل، وسكون ما قبل تائه لا يبطل تأنيثه، ولو لم يكن في نية التأنيث كَرَغَبُوت، وأيضًا هي عوض عن تاء المفرد في الجملة. ولزم من الإفاضة

أنَّهم فيها، كأنَّه قيل: قفوا في عرفات وأفيضوا منها، فإذا أفضتم منها فاذكروا الله... إلخ.

(فقه) والإفاضة من عرفات واجبة لأنَّ الأمر المجرَّد للوجوب، وهو لا يتمُّ إلاَّ بالكون في عرفات، وما لا يتمُّ الواجب إلاَّ به فهو واجب، وهو ظاهر بلا تكلُّف عندي، إلاَّ أنَّ الكون فيها لا يستلزم اللبث، فيتقوَّى وجوب الوقف بالإجماع والحديث، بل يدلُّ على ذلك لفظ الإفاضة، لأنَّهما بعد لبث الماء في شأن الماء، فكذا في شأن اللبث.

﴿فَاذْكُرُواْ اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ ولزم من الذكر عنده أنَّهم أفاضوا إلى المزدلفة ولبثوا فيها، وكأنَّه قيل: أفيضوا منها إلى المزدلفة ثمَّ إلى المشعر الحرام فاذكروا الله فيه، أي بعد المبيت فيها بالتلبية والتهليل والدعاء.

والمشعر الحرام جبل في آخر المزدلفة يسمَّى «قُزَح» كعُمر، اسم لملَك موكَّل بالسحاب، أو لملِك من الملوك، أو شيطان في الأصل. روى مسلم **أنَّه ﷺ وقف به يذكر الله ويدعوه حتَّى أسفر جدًّا**[1]. وسمِّي المشعر لأنَّه علامة من علامات الحجِّ معظمة لأنَّه من الحرم ومحلُّ العبادة؛ وقيل: المشعر الحرام ما بين مأزمي عرفة ووادي

---

١ -هذا الحديث جزء من الحديث الآتي ذكره، مع زيادة: «ثم دفع قبل أن تطلع الشمس».

محسر، ويروى ما بين وادي مزدلفة المشعر الحرام، ووادي محسر ليس من الموقف.

ووادي محسر خمس مائة ذراع طولاً، وخمس وأربعون ذراعًا عرضًا. وفي مسلم عن جابر **أنَّه ﷺ لـمَّا صلَّى الفجر ـ أي في المزدلفة ـ بغلَس، ركب ناقته حتَّى أتى المشعر الحرام، فدعا وكبَّر وهلَّل**[1]، فدلَّ الحديث على القول الثاني، إلاَّ أن يؤوَّل المشعر الحرام في الحديث بالجبل، أو بتسمية الجزء باسم الكلِّ، والمعنى: واذكروا الله لذاته إعظامًا وإجلالاً واستحقاقًا عند المشعر الحرام.

﴿**وَاذْكُرُوهُ**﴾ أيضًا ﴿**كَمَا هَدَاكُمْ**﴾ أي لهدايته إيَّاكم عن الضلالة إلى المناسك وغيرها من دينه عزَّ وجلَّ، أو اذكروه ذكرًا شبيهًا بهدايته إيَّاكم إلى ذلك في الحسن، أو اذكروه على نحو ما علَّمكم لا تغيِّروه. ﴿**وَإِنْ**﴾ الشأن، أو أنَّكم، خفِّفت وأهملت، وليست نافية بدليل اللام في قوله: ﴿**كُنتُمْ مِّنْ قَبْلِهِ**﴾ أي من قبل الهدى المعلوم من قوله: ﴿كما هَداكم﴾ ﴿**لَمِنَ الضَّآلِّينَ**﴾ الجاهلين للتوحيد والعبادة، وهداكم الله عزَّ وجلَّ إليهما أحوج ما أنتم للفترة. ﴿**ثُمَّ**

---

[1] ـ رواه البيهقيُّ في الحجِّ (١٩١)، باب من بات بالمزدلفة حتَّى يصبح، رقم ٩٥١٧ من حديث جابر، وذكره ابن كثير في تفسيره، وقال: هو من حديث زمعة بن صلاح، ج١، ص ٤٢٧.

أَفِيضُواْ﴾ منها ياقريش ومن يكون معهم، والمفعول به محذوف، أي أنفسَكم، ﴿مِنْ حَيْثُ أفَاضَ النَّاسُ﴾ سائر العرب والعجم أنفُسَهم، أو أفاض في الموضعين موافق فاض فهو لازم، والمراد الإفاضة من عرفات. والخطاب لقريش والحكم عام، لأنَّ خصوص السبب لا ينافي عموم الحكم.

وقيل: الضمير للعموم لا لقريش خاصَّة فيدخلون بالأولى، قيل: هو أوضح لأنَّ الضمائر قبلُ وبعدُ للعموم، قلت: يناسب خصوص قريش عموم إفاضة الناس، وأنَّهم الذين لا يفيضون كما يفيض غيرهم، وقيل: الناس إبراهيم لأنَّه أبوهم والمعروف بالمناسك، وكرَّر الإفاضة من عرفات للتأكيد، وليبيِّن لهم أنَّهم ليسوا أولى من غيرهم، بل هم وغيرهم سواء، وإنَّما الشرف بالتقوى لا بالنسب والمكان، وكانوا: يقولون: نحن من ولد إبراهيم، ثمَّ أنَّا سكَّان الحرم وأهل الله، فلا نخرج منه فيقفون بالمزدلفة منه، وسائرُ الناس يقفون بعرفات خارجة عنه.

أو «الـ» للكمال، أي أفاض الناس الكاملون في شأن الوقوف، وهم الذين يقفون في عرفات، فذلك ذمٌّ لقريش ومن ينحو نحوهم، ترفَّعوا فجازاهم الله بأنَّهم دون غيرهم لأنَّهم خالفوا موقف إبراهيم عليه السلام وغيرُهم وافَقه. و«ثمَّ» للترتيب في الرتبة لا في الزمان، يعني أنَّ الإفاضة في من عرفات هي العالية لا الإفاضة من المزدلفة

للواقف فيها دون عرفات؛ وقيل: الإفاضة الثانية من المزدلفة إلى منًى بعد الوقوف في عرفات، وهو قول جماعة، وعليه الضحَّاك ورجَّحه الطبريُّ، فيكون الخطاب للناس كلِّهم، قريش وغيرهم، أو لَهم وفي حكمهم غيرُهم، فالترتيب في الزمان على أصله، أي من حيث أفاض الناس الأوائل قبلكم من لدن آدم ومن لدن إبراهيم عليهما السلام، لا تغيِّروه كما غيَّرته جاهليَّتكم، إذ كنتم من قبل الهدى من الضالِّين.

﴿وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ﴾ من ضلالكم وتغييركم المناسك، وفيه دليل أنَّ الكفَّار مخاطبون بالفروع، وأنَّهم مؤاخذون على الذنوب. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن آمن واستغفر.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ عباداتكم الحجِّيَّة من وقوف بعرفات والمزدلفة والذكر فيهما ورمي العقبة والحلق وطواف الزيارة والسعي، واستقررتم بمنًى.

(فقه) ويجوز تأخير الطواف والسعي عن أيَّام منًى.

﴿فَاذْكُرُواْ اللَّهَ﴾ بالتكبير والثناء، وبالغوا في الذكر بالكيفيَّة، ولو أمروا بالإكثار أيضًا. ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ كما تبالغون في كيفية ذكر آبائكم عند المفاخرة في منًى بين الجبل والمسجد، كانوا يعتادون ذلك في جميع يومهم، ويذكرون محاسن حروبهم، رواه ابن جرير وغيره. والآية تلويح إلى جعل ذكر الله مكان ذكر الآباء

والحروب، وإلى ترك ذكرها. ﴿أَوَ اَشدَّ ذِكْرًا﴾ أو كونوا أشدَّ ذكرًا لله منكم لآبائكم، أو عطف على الكاف، أو على ثابتًا، أي فاذكروا الله ذكرًا مثل ذكر آبائكم، أو ذكرًا ثابتًا كذكركم آباءكم.

(نحو) فيكون ذكرهم ذاكرًا، كقولهم: «شعرٌ شاعر» ـ بتنوين شعر ـ وصومه صائم، من المجاز العقليِّ، والفتح نصب، ويجوز عطفه على ذكر فالفتح جرٌّ، وإذا جعلنا «ذكرًا» مصدرًا من المبنيِّ للمفعول لم يكن من المجاز العقليِّ، أو «ذكرًا» بدل من «أشدَّ» أو معطوف، و«أشدَّ» حال منه بخلاف: «وأشدَّ» فإنَّه على كلّ حال من فعل مبنيٌّ للفاعل، ولا تهم، ويجوز تقدير: «أو كذكر قوم أشدَّ ذكرًا منكم». واختار أبو حيَّان أنَّ «أشدَّ» حال من «ذكرًا» بعده، ووجهه أنَّ قوله: اذكروا الله ذكرًا كذكركم آباءكم، أو ذكرًا أشدَّ منه، أبلغ من قوله: اذكروا الله ذكرًا كذكركم آباءكم أو أشدَّ، وليس في إعراب أبي حيَّان طلب حالية الذكر، بل فيه طلب الذكر بقيد أن يكون أشدَّ.

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّقُولُ﴾ تفريع على قوله فاذكروا الله، وهذا تفصيل بالجملة بعد الفاء لا بالفاء، فقد تكون الفاء تعليلا لقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ أي لأنَّ الناس بين مقلٍّ ومكثر، ومصيب في ذكره ومخطئ في منى، فكونوا من المكثرين المصيبين فيها، لأنَّ من الذاكرين من يقلّل ويخطئ، وهو من يقتصر على الدنيا في دعائه. ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ مالاً وولدًا، أو جاهًا ونحو ذلك، أو بعض ذلك، ومتاع

الدنيا كلُّه قليل، ولا يدعو لآخرته، فقد يؤتى ما يدعو به وقد لا يؤتاه. ﴿وَما لَهُ فِي الاَخِرَةِ﴾ بعد الموت من الجنَّة ﴿مِنْ خَلاَقٍ﴾ نصيب، لأنَّه لم يتعرَّض له في الدنيا، ولا يطلق خَلاق إلاَّ على نصيب الخير، وسمِّي خلاقًا لأنَّه خلق له، كما سمِّي نصيب لأنَّه نصب له، أو ماله في ذكره ودعائه نصيب يدعو به لآخرته، أي وما له في شأن آخرته نصيب من دعائه.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَّقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أشياء حسنة كالإيمان والاعتقاد الحقِّ، والعمل الصالح، والتقوى والعلم، والتوفيق والنصر، والولد الصالح والزوجة الصالحة، والرزق الحلال، وصحَّة البدن، وصحبة الصالحين. ﴿وَفِي الاَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ أشياء حسنة كالمغفرة والجنَّة، وتخفيف الحساب، والسلامة من هول الموقف، وإيتاء الكتاب بالأيمان، والشرب من الحوض، والحور والأزواج والأجنَّة والقصور.

وعن عليٍّ: «الحسنة الزوج الصالحة»، وكأنَّه أراد الآدميَّة لأنَّه ليس للرجل منهنَّ إلاَّ واحدة وهو قول مشهور، وإلاَّ فالأزواج الحور للرجل كثيرة، وهمَّني ذلك حتَّى اطَّلعت أنَّه يكون للرجل الواحدة من الآدميَّات واثنتان وأكثر.

﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ في الآخرة بأن لا ندخلها بأن توفِّقنا في الدنيا للهدى، والتوبة من الذنوب. وعن عليٍّ: «النار: المرأة السوء»،

أي دعَوا ا لله أن يمنعهم عنها في الدنيا، وهو تمثيل لجميع الأسواء. ﴿أُوْلَـٰئِكَ﴾ القائلون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ عظيم في الآخرة ثبت لهم، ﴿مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ في الدنيا من الإيمان والأعمال الصالحة والتقوى، أي تولَّد ونتج من كسبهم، أو نصيب عظيم في الآخرة هو ما عملوه في الدنيا، أي ثوابه فكأنَّه هو لأنَّه عوضه، أو نصيب ممَّا دعوا به دنيا وأخرًى، والباقي نكفِّر به سيِّئاتهم أو نعطيهم فيه ما هو خير منه، أو نكفي عنهم المصائب، أو أولئك القائلون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً...﴾ والقائلون: ﴿...ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾، ونصيب الفريق الأوَّل ما ذكر له من متاع الدنيا، وما له في الآخرة من العذاب، لأنَّ النصيب يطلق على الخير وعلى الشرِّ.

وروي أنَّه ﷺ قال لرجل كالفرخ المنتوف: «**هل كنت تدعو بشيء؟**» فقال: كنت أقول: «اللهمَّ عجِّل عقابي في الدنيا»، فقال ﷺ: «**لا تطيق ذلك، قل: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**»[1] فقال: فشُفي.

﴿**وَا للهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ جاء الحديث: «**يحاسب ا لله الخلق في قدر نصف نهار من أيَّام الدنيا**» وهو تمثيل للقلَّة، كما روي أنَّه

١ - أورده ابن كثير في تفسيره، ج١، ص٤٣٣. والألوسيُّ، ج٢، ص٩١.

يحاسبهم في قدر حلب شاة أو ناقة، فهو قادر أن يحاسبهم في أقلَّ من لمحة، يخلق في قلوبهم معرفة أعمالهم وجزاءها، أو سرعة الحساب قرب يوم الحساب أو المجازاة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿فحاسَبْناها حِسابًا شديدًا﴾، **فبادروا لطلب الآخرة، وأعرضوا عن الدنيا.**

﴿**وَاذْكُرُواْ اللهَ**﴾: بالتكبير وغيره أدبار الصلوات، وعند ذبح القرابين ورمي الجمار وغير ذلك... قال مسلم عن نبيشة الهذلي عن رسول الله ﷺ: «**أيَّام التشريق أيَّام أكل وشرب وذكر الله تعالى**»[1] وقال البخاري عن ابن عمر أنَّه كان يكبِّر بمنًى تلك الأيَّام خلف الصلوات وعلى فراشه وفي فسطاطه وفي مجلسه وفي ممشاه، في تلك الأيَّام جميعًا، يعني يوم النحر وثلاثة الأيَّام بعده المرادة هنا في قوله تعالى: ﴿**فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ**﴾ جمع يوم معدود مع أنَّه مذكَّر لأنَّ لفظ معدود أكثر من ثلاثة أحرف لغير عاقل، فجاز جمعه بألف وتاء.

(فقه) وذلك التكبير وسائر الذكر في تلك الأيَّام مستحبَّان عندنا وعند أبي حنيفة، إلاَّ عند ذبح القرابين فعنده وجب التكبير، وعندنا يستحبُّ.

ويحتاج إلى الجمع بين الحقيقة والمجاز في الأمر، أو عموم المجاز. والمراد بالأيَّام ما يشمل الليالي، وعن ابن أبي ليلى: «الأيَّام يوم النحر

---

١ - تقدَّم تخريجه، انظر قوله تعالى: ﴿فمن لم يجدْ فصيامُ ثلاثةِ أيَّام﴾.

ويومان بعده»؛ قيل: وهو وهمٌ، ونُسب لعمر وعليٍّ، والمشهور عنهما وهو قول ابن عبَّاس أنَّ الأيَّام يوم النحر وثلاثة بعده، وعن ابن عبَّاس وابن عمر والحسن وعطاء ومجاهد وقتادة: «الثلاثة بعد النحر»، قلت: لا يلزم الوهم ولعلَّه خصَّ مزيدًا للتأكيد في ذلك بالحجِّ، والواجب ما عدا اليوم الرابع بالعيد، ولا يخفى استحباب الذكر في الأيَّام الثلاثة ويوم النحر قبلها في الحجِّ وغير الحجِّ.

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ النفْرَ، أو بالنفر، أو عن منًى، ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ يوم القرِّ، واليوم بعده، والقرُّ والقرار وهو عدم النفرِ، ولا بدَّ منه في اليوم بعد العيد، فأضيف للقرِّ، وأمَّا النفر بفاء ساكنة فهو الذهاب، يضاف إليه اليوم الثاني والثالث، فنقول: يوم النفر الأوَّل ويوم النفر الثاني، لجواز أن ينفر في اليوم الثاني أو في الثالث، ولا قرَّ بعد الثالث، ويسمَّى اليوم بعد العيد يوم الرؤوس لأنَّه تؤكل فيه رؤوس الضحايا. ونسب التعجُّل لليومين مع أنَّه في الثاني فقط تنزيلاً لهما منزلة اليوم الواحد، لأنَّه لا بدَّ منهما، وهو حكم على المجموع، أو يقدَّر مضاف، أي تعجَّل في ثاني يومين، والتعجُّل فيهما صالح للتعجُّل قبل تمام اليوم الثاني وهو المراد، والظرفيَّة لا تصلح لهما في ليلة الثالث.

(فقه) فمن دخلت عليه ليلة الثالث لزمه البقاء إلى الزوال فيرمي قبله أو بعده، وذلك أنَّه مَن نفر في ليلة الثالث لا يصدق عليه أنَّه نفر في اليومين؛ وذلك مذهبنا ومذهب الشافعيَّة، وقال أبو حنيفة: له

النفر ما لم يطلع فجر الثالث، وإن طلع فيه لزمه اللبث إلى الزوال فيرمي، وعن أبي حنيفة: له الرمي قبل الزوال فيه وفي اليومين قبله، وعنه لا يجوز إلاَّ بعد الزوال، وكذا عند الشافعيِّ؛ وقيل: من لم ينفر قبل زوال اليوم الثاني لزمه اللبث إلى الثالث فيرمي.

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ كما يزعم بعض الجاهليَّة، ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ عن النفر فيهما حتَّى رمى في الثالث، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ كما يزعم بعض الجاهليَّة، ويجوز الوجهان بلا إثم، والثاني أعظم أجرًا لزيادة الرمي والذكر. ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي ذلك لمن اتَّقى الله في حجِّه، وهو الذي ينتفع بحجِّه ولو كان أيضًا لغيره، أو ذلك لأجل المتَّقي ليُصان عن ترك الواجب لو وجب الثلاثة. ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ﴾ في الحجِّ وغيره، ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره، ولو كان إلى غيره لأمكنكم الإنكار والإخفاء ونَفَعكم. ﴿تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء على مثاقيل الذرِّ.



الجزء الأوّل من تيسير التفسير، ويليه بإذن الله الجزء الثاني، وأوله قوله تعالى:

﴿لَيسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ...﴾

الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهيَّة

فهرس بعض مختارات الشيخ

فهارس عامّة للموضوعات الفرعية

(البلاغة، تاريخ، سبب النزول، سيرة، صرف، قصص، لغة، نحو، نسخ)

فهرس المواضيع والآيات

الفهارس

تـم بحـمـد الله

رقم الأيداع : ٢٠٠٤/١٦

طبع بالمطبعة الشرقية ومكتبتها - تليفون : ٧٧١٦٩٥٢